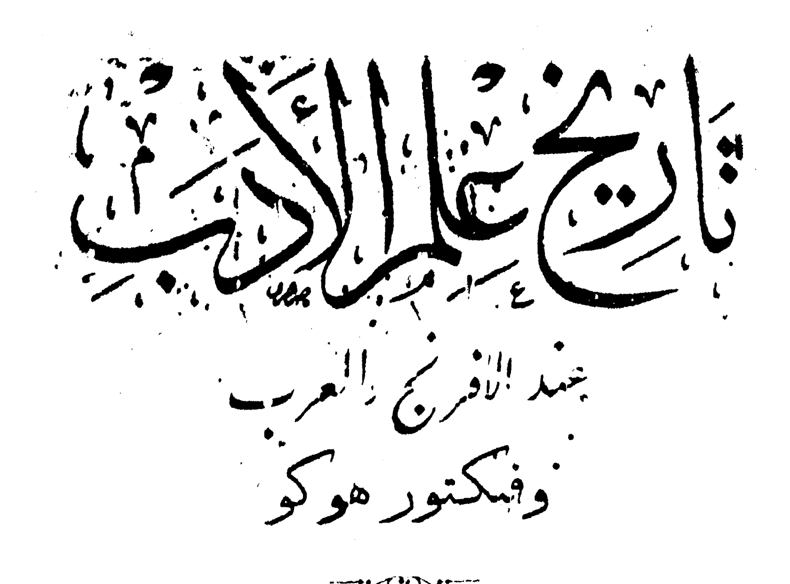


وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية

في علم الادب عند الافرنج وما يقابله من ذلك عند العرب ابان تمدنهم الى عصورهم الوسطى . وما اقتبسه الافرنج عنهم من الادب والشعر في نهضتهم الاخيرة وخصوصاً على يد فيكتور هوكو . ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ، ومؤلفاته ومنظوماته وغير ذلك

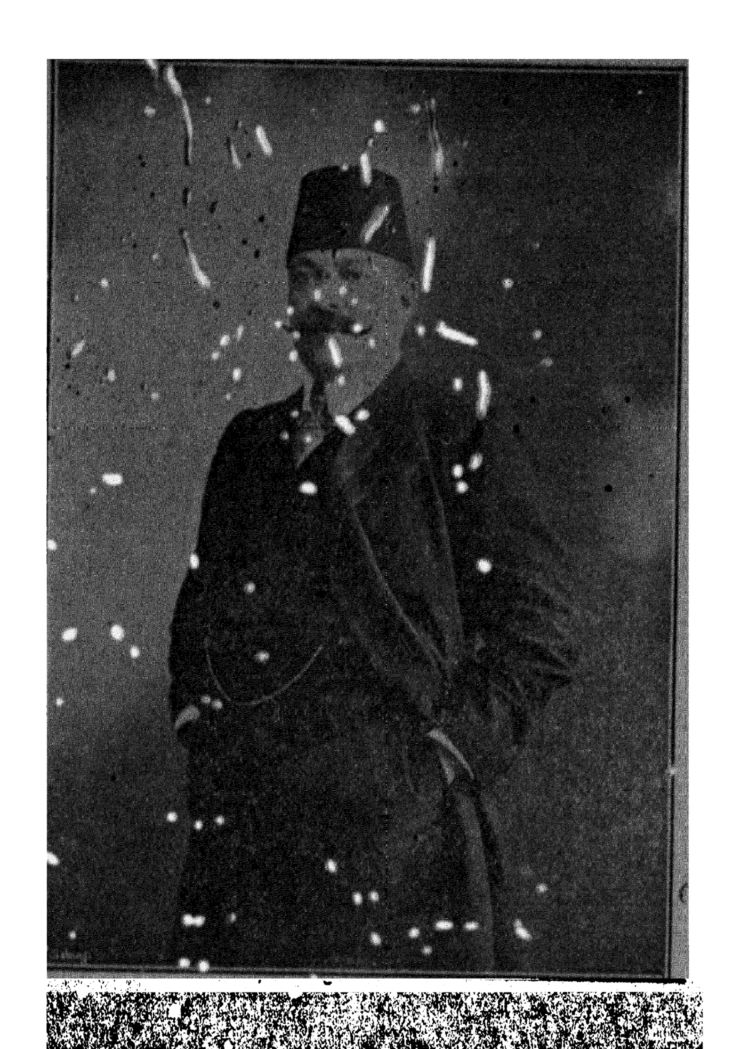
تأليف

روحي بك الخالدي
الوكيل الاول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف فيه

طبع بنفقة ادارة الهلال

الطبعة الثانية

طبع بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩١٢



روحي بك الخالدي

الوكيل الاول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف

ومؤلف هذا الكتاب

مقدمة الناشر

للطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٩٠٤ والمؤلف يومئذ قنصل جنرال الدولة العثمانية في بوردو وقد نال الاستبداد من نفوس العثمانيين وقيد اقلام احرارهم فلم نعد نسمع غير اصوات المتزلفين او المتملقين. واذا تكلم الحرُّ تكلم همساً واذا كتب اخفى اسمه ولا سيما اذا كان من موظفي الحكومة ولو كان موضوعهُ في الادب او الطب لان الجواسيس يحولون كل معنى الى المكائد والدسائس. وابت نفس صديقنا الخالدي مؤلف هذا الكتاب الا ان ينشر ثمار درسه وبحثه فعهد بذلك الى الهلال على ان تنشر بلا توقيع. فنشرنا هذا الكتاب مقالات متوالية والقراء يسألوننا عن اسم كاتبها ويتشوقون لمعرفته. فلما طبعناها في كتاب على حدة تقدمنا اليه ان يأذن بنشر اسمه في صدر الكتاب فاكتفى بالاشارة الى موطنه فوضعنا بدل اسمه لفظ « المقدسي » نسبة الى القدس الشريف مسقط رأسه

فأحرز هذا الكتاب اعجاب القراء الادباء في العالم العربي وغيره فحملنا ذلك على اعادة طبعه رغبة في نشر علم الادب بين قراء العربية ونحن في اشد الاحتياج اليه. ولا سيما على الاسلوب الذي توخاه المؤلف من المقابلة بين الآداب العربية والافرنجية وذكر ما اقتبسه الافرنج من آدابنا واساليبنا مما لم يتصد للبحث فيه احد قبله — ولم نر احداً تصدى له بعده. فضلاً عما يتخلل ذلك من الفوائد التاريخية والقواعد الاجتماعية عن الادب العربي وتاريخه وما تقلب عليه من الاطوار تبعاً للسياسة والاجتماع. وتاريخ الادب الفرنساوي من اول عهده الى زمن فيكتور هوكو وما ادخله فيه هذا النابغة من التعديل نقلاً عن الاسلوب العربي في الشعر والادب وصل اليه عن طريق اسبانيا. وناهيك بسهولة عبارة الكاتب وتناسقها مما يرتاح اليه القارئ ويجد فيه لذة وشوقاً للمطالعة. غير ما عني بتلخيصه ووصفه من مؤلفات هوكو وبسط ما حوته من الفوائد الفلسفية والادبية ومقابلة ذلك بما عند ادباء العرب

وبالجملة فان هذا الكتاب من الذخائر النفيسة التي لا يستغني عنها اديب . فلما نفدت نسخ الطبعة الاولى استأذناه في اعادة الطبع فأذن لنا خدمة للأدب العربي وقد اعلن الدستور وصار المؤلف من اعظم اركانه فلم يبق ثمة باعث على التكتم فطبعناه وصدرناه باسمه وزيناه برسمه ليتم التعارف بينه وبين القراء المعجبين بأدبه وفضله

القاهرة في ١٥ يناير سنة ١٩١٢

وهذه صورة منشور كان قد وزعه بالافرنجية بعد صدور الطبعة الاولى يخاطب به ادباء الافرنج على الخصوص قال :

AU LECTEUR

L'éditeur de ce livre a bien voulu l'illustrer de quatre gravures et lui donner le titre flatteur d'**Histoire des Littératures.**

L'auteur lui sait gré de sa bonne intention. mais il doit s'excuser auprès du lecteur. Habitant Bordeaux, loin des bibliothèques orientales où se trouvent les documents néce-ssaires pour écrire une pareille histoires, il n'a jamais pensé à se donner une tâche si lourde. Il a écrit seulement des mélanges historiques littéraires et il les a fait paraîtres sous le titre de :

فيكتور هوكو وعلم الادب عند الافرنج والعرب

« Etudes sur Victor-Hugo et sur la littérature chez les Européens et chez les Arabes ». Il les a signé EL-MAQDISI, hiérosolymite qui désigne sa ville natale.

En publiant ce recueil en 1902-1903 dans la revue arabe **al-Hilâl**, fondée au Caire par DJORDJI ZAIDAN, l'auteur a voulu prendre part à la manifestation littéraires qui s'est produite dans le monde civilisé à l'occasion du centenaire du grand poète. De là, la hâte de cette publication dont l'actualité ne donna pas le temps d'approfondir le sujet et d'y apporter les corrections nécessaires.

L'auteur a eu d'autres buts encore: c'est de propager les idées modernes parmi ses coreligionnaires et tous les lecteurs de la langue du Coran et de donner aux jeunes poètes arabes une idée précise de la littérature française en particulier, et des littératures européennes et mondiales en général. Enfin, il a voulu faire connaître aux écrivains orientaux de la nouvelle génération les différants genres et les multiples sujets que peut traiter un poète moderne.

C'est ainsi que l'auteur a été amené à résumer l'histoire de la littérature arabe et à parler de la conquête musulmane en Europe, afin de prouver l'influence de la littérature arabe sur les littératures européennes du moyen-âge. Il a développé ensuite la différence qui existe entre l'Ecole classique, et l'Ecole romantique et traduit littéralement des morceaux choisis de Victor Hugo en les comparant avec quelques poésies d'EL-MA'ARRI, d'EL-MOTÉNEBBI et d'autres poètes arabes.

Ce volume aurait pu être écrit en prose rimée à l'imitation des séances de Hariri, mais etait-il nécessaire de le faire briller par un vain luxe de mots inutiles? Il est préférable d'être clair précis et accessible à la masse des demi-lettrés sortis des écoles, d'Orient organisées à l'Européenne. C'est ce qui a été fait.

Bordeaux, 5 Juin 1906

MOHAMMED ROUHI EL-KHALIDY

el-Maqdisi



تذكار فيكتور هوكو
لمئة عام مرت من ولادته
احتفلوا بتدشينه في ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٢
في ميدان فيكتور هوكو بباريس

فيكتور هوكو

احتفال الفرنساويين له باليوبيل القرني

احتفل الفرنساويون في اوائل سنة ١٩٠٢ للشاعر فيكتور هوكو في البانتيون كما احتفلوا في اواخر العام السابق بيوبيل الكماوي برتلو في الصوربون. والبانتيون هيكل فخيم على رابية من روابي باريس بالقرب من الصوربون. وهو اليوم مدفن اعاظم الرجال الذين يعترف لهم الوطن الفرنساوي بالفضل والحسنى

ففي السادس والعشرين من شباط الماضي (فبراير) الموافق لختام القرن الاول من ميلاد فيكتور هوكو ابتدأ موسم الاحتفال بيوبيل هذا الشاعر واجتمع في البانتيون الرؤساء والسفراء والعلماء والشعراء والمشخصون والمشخصات وكل من اشتهر في باريس من الرجال والنساء واكثرهم بالالبسة الرسمية والعسكرية والكساوي العلمية والقضائية موشحون بوسامات الافتخار او متمنطقون بمناطق الحرير المثلثة الالوان او مكتفون بتزيين صدورهم بازرار الوسامات واشارات المداليات على اختلاف درجاتها واشكالها. وافتتح هذا الاحتفال المسيو جورج ليغ ناظر المعارف الفرنساوية بخطبة شائقة

وتلاه في الخطابة السياسي الشهير المسيو غابريل هانوتو بالنيابة عن الاكاديمية الفرنساوية فاختلب الاسماع بجواهر لفظه واجتذب القلوب ببلاغة معانيه فانتقل كلامه بالتلغراف والتلفون لجميع المدن الفرنساوية وربما تجاوزها الى كثير من البلاد الاجنبية. لان المسيو هانوتو بعد ان حاز قصب السبق في ميدان السياسة وحل عقدة مداغسكر والحقها ببلاده وفك العراقيل السياسية في افريقية الغربيـــة ونهر النيجر تنحى عن كرسي الوزارة وقد شغله مدة تزيد على اربع سنوات وجلس على كرسي الاكاديمية وأقبل على نشر الكتب وطبع المقالات التي اشتهرت في العالم كله وكان لهن شأن في مصر وغيرها من بلاد الشرق. وهو على رفعة قدره وعلو شأنه لم يزل كما كان في صباه مقيماً في الطابق الخامس من بيت يستطرق بابه على بولفار سن جرمن ويصعد الى مسكنه بدون مصعدة (اسانسور) مائة درجة



تذكار فيكتور هوكو

لمئة عام مرت من ولادته

احتفلوا بتدشينه في ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٢

في ميدان فيكتور هوكو بباريس

فيكتور هوكو

احتفال الفرنساويين له باليوبيل القرني

احتفل الفرنساويون في اوائل سنة ١٩٠٢ للشاعر فيكتور هوكو في البانثيون كما احتفلوا في اواخر العام السابق بيوبيل الكماوي برتلو في الصوربون: والبانثيون هيكل فخيم على رابية من روابي باريس بالقرب من الصوربون. وهو اليوم مدفن اعاظم الرجال الذين يعترف لهم الوطن الفرنساوي بالفضل والحسنى

ففي السادس والعشرين من شباط الماضي (فبراير) الموافق لختام القرن الاول من ميلاد فيكتور هوكو ابتدأ موسم الاحتفال بيوبيل هذا الشاعر واجتمع في البانثيون الرؤساء والسفراء والعلماء والشعراء والمشخصون والمشخصات وكل من اشتهر في باريس من الرجال والنساء واكثرهم بالالبسة الرسمية والعسكرية والكساوي العلمية والقضائية موشحون بوسامات الافتخار او متمنطقون بمناطق الحرير المثلثة الالوان او مكتفون بتزيين صدورهم بازرار الوسامات واشارات المداليات على اختلاف درجاتها واشكالها. وافتتح هذا الاحتفال المسيو جورج ليغ ناظر المعارف الفرنساوية بخطبة شائقة

وتلاه في الخطابة السياسي الشهير الموسيو غابريل هانوتو بالنيابة عن الاكاديمية الفرنساوية فاختلب الاسماع بجواهر لفظه واجتذب القلوب ببلاغة معانيه فانتقل كلامه بالتلغراف والتلفون لجميع المدن الفرنساوية وربما تجاوزها الى كثير من البلاد الاجنبية. لان الموسيو هانوتو بعد ان حاز قصب السبق في ميدان السياسة وحل عقدة مداغسكر والحقها ببلاده وفك العراقيل السياسية في افريقية الغربيــة ونهر النيجر تنحى عن كرسي الوزارة وقد شغله مدة تزيد على اربع سنوات وجلس على كرسي الاكاديمية واقبل على نشر الكتب وطبع المقالات التي اشتهرت في العالم كله وكان لهن شأن في مصر وغيرها من بلاد الشرق. وهو على رفعة قدره وعلو شأنه لم يزل كما كان في صباه مقيماً في الطابق الخامس من بيت يستطرق بابه على بولفار سن جرمن ويصعد الى مسكنه بدون مصعدة (اسانسور) مائة درجة

ثم أنشد بعض المشخصين والممثلات شيئاً من قصائد فيكتور هوكو وتلوا اجزاء من احاديثه وانفض الجمع ليستأنفوا الاحتفال في مواضع اخرى من باريس لان حفلة البانتيون لم تكن الا افتتاح موسم ادبي في عموم البلاد الفرنساوية ودامت الزينات والافراح فيها سبعة ايام ولياليها وهم في كل يوم وليلة يرفعون الاعلام و يضيئون الانوار ويجمعون الجموع و يلقون الخطب و يأدبون المآدب و يشربون النخب و يمثلون على المراسح الروايات وينشدون الاناشيد ويحررون المقالات المبتكرة و يصورون الرسوم البديعة و يعملون انواعاً كثيرة من المظاهرات و لزينات الاحتفال بهذا الموسم وقرر مجلس نواب الامة انفاق ثمانين الف فرنك لهذا الاحتفال عدا ما انفقته مجالس البلدية والجمعيات الخيرية والعلمية مما يفوق اضعاف هذا المبلغ !

فجاء هذا الاحتفال على اتم منوال وأحسن نظام لان الفرنساويين اقدر الامم المتمدنة على اتقان الزينات واتمام معدات الاحتفال للطافة اذواقهم وخفة ارواحهم وميلهم إلى البهرجة والزينة . وهم يتهافتون على تعظيم رجال العلم والادب و يبالغون في اجلالهم حتى كادوا يعبدونهم من دون الله و يتنسكون في ادخار آثارهم وجمع مناقبهم وحفظ اخبارهم و رفع الهياكل والتماثيل والانصاب لهم . كان الواحد منهم معبود من معبودات قدماء المصريين أو اله من آلهة اليونان او الفينيقيين . وهم والله اعلم يعتاضون بهذه الاحتفالات عما فاتهم من الاحتفال بتتويج الملوك ويوبيل القياصرة . وقد رفعوا لفيكتور هوكو تمثالاً عظيماً بل تماثيل وسموا باسمه الشوارع والميادين واتخذوا داره متحفاً سموه باسمه وسيجمعون فيه متاع الشاعر واثاث بيته وكل ما له ادنى علاقة به او ذكر في أشعاره ولم يفرطوا بشيء من ذلك ولا اضاعوا له قلماً ولا دواة ولا ورقة من الاوراق التي تعلم بها وهو في المدرسة وقد كتب على واحدة منها « أريد ان اكون شاتوبريان أولا شيء » ولا الاوراق التي كان يلاعب بها اولاده ورسم لهم فيها الرسوم الهزلية والمضحكة ولا الكيس الذي وضع فيه مبلغ المائة وخمسة وعشرين فرنك ثمن المجلدين الاولين من تأليفه المسمى ميزرابل

ولو اردنا وصف هذه الاحتفالات وايراد الخطب التي تليت فيها والاتيان على ما حررته الجرائد من الفصول الطوال لاستغرق الكلام مجلداً ضخما لان هذه

الاحتفالات كان لها رنة عظيمة في اوربا كلها . وقد نشرت جريدة التيمس الانكليزية ترجمة هذا الشاعر بالفرانكاوية اعظاماً لشأنه لأن شهرة فيكتور هوكو ليست في فرنسا وحدها بل هي طائرة في آفاق العالم المتمدن . وقد وصلت الى بلاد الشرقية منذ سنين . أتذكر اني قرأت في « المقتطف » وهو لا يزال في سورية ابياتاً لفاضل من الادباء لخص فيها فكراً من افكار فيكتور هوكو المذكورة في كتابه امشاراليه وصف بها حالة البائس المسكين الذي اشتدت حاجته واضطره الجوع حتى كسر قفل الخباز واخذ رغيفاً لسد رمقه فانتبه له الخفير وانقض عليه انقضاض البازي على العصفور وقاده الى حبس التوقيف ثم رفعه الى محكمة العدل فلم يشفق عليه حكام العدلية ولا رحمه قضاة الحقانية فارتعدت نفس الشاعر من هذا الظلم القاهر حتى صرخ قائلاً : « اين العدالة في اوهام شرعكم »

ثم لما اتيت الاستانة وجدت ادباء الاتراك وشعراءهم ترجموا كثيراً من نظم فيكتور هوكو ونثره في ما نشر من مؤلفات كمال بك وعبد الحق حامد بك واكرم بك ومدحت افندي صاحب جريدة « ترجمان حقيقة » وفي « مجموعة الضياء » و « كتبخانة ابو الضياء » وترجم شمس الدين سامي باشا صاحب قاموس الاعلام جزءاً كبيرًا من كتاب (ميزيرابل) وسماه باضافة اداة الجمع التركية على كلمة (سفيل) العربية فقال « سفيلر » اي السفلة من الناس . ثم بلغني ان بعض ادباء مصر شرع في ترجمة هذا المؤلف الجليل وسماه « البؤساء » أو نحو ذلك فجمعت شيئاً من أخبار فيكتور هوكو ليحصل لنا علم اجمالي بترجمة حياته وحقيقة فلسفته وسبب شهرته

الدور الاول من حياته

من ولادته سنة ١٨٠٢ الى نفيه سنة ١٨٥٢

كانت فرنسا في افتتاح القرن التاسع عشر في هرج ومرج من هول الانقلاب الكبير الذي حدث فيها فغير معالمها وثل منها عرش الاستبداد وحرر العقول وبدل الظلام بالنور ووضع العدل في موضع الظلم وجرى بسبب ذلك من الفظائع الدموية ما تقشعر من سماع حديثه الجلود . لبث الانقلاب من سنة ١٧٩٠ الى سنة

١٧٨٥ . ثم نبغ بونابرت واكتسح بالعساكر الفرنساوية ايطاليا ثم مصر وفلسطين وطاف بها اوربا من مشرقها الى مغربها وقهر الملوك والامبراطور والقيصر واستقدم البابا من رومية الى باريس ليلبسه تاج الامبراطورية ويسميه نابوليون الاول واجلس زوجته جوزفين على سرير المملكة ماري انطوانيت ثم لم يستحسن التاج على رأسها لانها ارملة الجنرال بوهارنه فابدلها بماري لويز بنت امبراطور النمسا وجعل اخاه الاكبر يوسف بونابارت ملكاً على نابولي ثم ملكاً على اسبانيا وحشد عساكره في هاتين المملكتين . وكان سيجسبر هوكو والد صاحب الترجمة ضابطاً في عسكر الفرنساويين ومأموراً مع جنودهم بالمحافظة على بيزانسون وهي مدينة على طريق السكة الحديدية بين مرسيليا وباريس وكان ابوه نجاراً وجده فلاحاً

وفي ٢٦ شباط سنة ١٨٠٢ وضعت امرأته ماري في تلك المدينة غلاماً نحيفاً ضعيفاً فقيده في سجل نفوس البلدة باسم « فيكتور ماري هوكو » وكان له ولدان اكبر من فيكتور احدهما يسمى أبيل والآخر أوجين . وبعد شهرين من ولادة فيكتور تلقى والده الامر بالمسير الى جزيرة كورسيكا ومنها الى جزيرة ايليا فحمل اليها امرأته واولاده واقام فيها الى سنة ١٨٠٥ . ثم دعي سيجسبر هوكو الى باريس فذهب اليها بعائلته ودخل في خدمة الملك يوسف بونابرت ورافقه الى نابولي ومعه عائلته فشاهد فيكتور بركان فيزوف وهو في السادسة من عمره وانطبعت في ذهنه صورة هذا الجبل وما يتصاعد من فوهته من اللهيب والدخان . وارتسمت في مخيلته مناظر ايطاليا الطبيعية وجوها الصافي : فلما كبر ونظم هذه الرحلة وصف هذه المناظر في اشعاره أحسن وصف . . .

ولما ذهب يوسف بونابرت الى اسبانيا ليلبس فيها تاج الملك اصطحب سيجسبر هوكو وعاد فيكتور مع امه واخويه الى باريس وسكنوا في دير فيلياتين بجوار مدرسة الطب العسكرية التي يقال لها « فال دوغراس » وهي قرية من البانتيون . فكان فيكتور يقرأ مع اخويه اشعار فرجيل على راهب متضلع في الآداب اللاتينية واستمر على ذلك الى سنة ١٨١١ وقد رقي والده وصار قائداً على الجيش وبلغ راتبه الى ثلاثين الف فرنك اسبانيولي (ريوس) ومنحه الملك يوسف لقب كونت

وعينه ناظراً على مطبخه العام . فاحضر حينئذٍ امرأته واولاده الى مادريد . فاستفاد ڤيكتور هوكو من هذه الاسفار فوائد كبيرة وتمكن مع حداثة سنه من مراقبة جمال الطبيعة وحفظ أسماء المدن والبقاع التي مرَّ بها . وشاهد في قصور مادريد آثار العمران الشرقي وصور اعاظم الرجال الذين تأمت بهم القرون الماضية فاتسعت مخيلته وانفتق ذهنه ونفح بنفحات شعرائنا الاندلسيين فرقت الفاظه وراقت معانيه وظهر النفس الاندلسي في اشعاره وسمعت النفحة الاندلسية من اكثر قوافيه وذكر في قصيدته التي سماها غرناطة اكثر مدن الاندلس ووصف ما فيها من المباني والقصور وذكر في غير هذه القصيدة جميع المدن التي مرَّ بها في طريقه مثل ايرون وعين العرب التي يقال لها اليوم « فونت أرابي » وقلعة ايرناني وجعل اسم هذه القلعة عنواناً لرواية من رواياته . ودخل وهو في مادريد مدرسة اولاد الاشراف وخالط فيها أبناء الامراء من الاسبانيوليين وعرف اخلاقهم وعاداتهم فنظمها في رواية (ايرناني) و (ريو بلاس) وغيرهما من مؤلفاته واستعار اسماء كثير من رفاقه ايشخصهم في قصصه ورواياته وكان يدقق في احوال الجند ويتأثر باصوات ابواقهم وصدى موسيقاهم فأبدع في وصف حركاتهم العسكرية وفتحهم القلاع ونزولهم مساء ورحيلهم صباحاً وسيرهم ليلاً الى غير ذلك من الاوصاف التي شخص بها حال العساكر تشخيصاً تامّاً

ولما انقلبت السياسة في اسبانيا واشتد الخطر على عساكر الاحتلال اعاد الجنرال هوكو عائلته الى باريس ولم يبق عنده الا ابنه الاكبر ابيل فأدخله في خدمة الملك ورجع ڤيكتور هوكو مع امه واخيه الى الدير الذي كان فيه وعكف على مطالعة ما عند امه من الكتب كمؤلفات فولتير وجان جاك روسو وديدرو احد مؤلفي الانسكلوبيدي ومؤلفات السائح كوك وغيرهم . وكان لامه الفة بعائلة فوشر احد مستخدمي نظارة الحربية فكانت مادام فوشر تكثر التردد عليها ومعها ابنتها الصغيرة عادلة (اديل) لتلعب مع ڤيكتور واخيه اوجين وتستنشق الهواء الصافي في بستان الدير . ولما ضبطت الحكومة هذا الدير في جملة ما ضبطته من املاك الرهبان سكنت زوجة الجنرال هوكو بالقرب من دار فوشر فكثر اختلاط ڤيكتور هوكو بعادله والفها

حتى صارت فيما بعد زوجته

ولم يمض كثير من الزمان حتى اشتدت الازمات السياسية وتوالت الحوادث المرهبة وعاد نابوليون بالخيبة من سفر موسكو وعاد اخوه يوسف بعساكره من اسبانيا ومعه الجنرال سيجسبر هوكو فالتمس الرجوع لمأموريته والدخول في سلك العساكر الفرنساوية فلم يقبل الا برتبته السابقة . وبعد ان دارت الدائرة على نابوليون الاول وحبطت اعمال الحكومة الامبراطورية وعاد آل بوربون الى كرسي المملكة الفرنساوية تقرب الجنرال هوكو الى لويس الثامن عشر وتملق اليه حتى صار من المقربين لديه فخلع عليه رتبة الجنرالية وسلمه قيادة العسكر . فاراد ادخال ولديه الاصغرين في هذا السلك كما ادخل اخاهما الأكبر من قبل فوضع فيكتور واخاه اوجين في مدرسة (لوي لوغران) ليدخلها فيما بعد مدرسة الفنون الحربية وهما من المدارس التي لم يزل يتردد اليها بعض ابناء الشرق في باريس . فاقبل فيكتور هوكو على تحصيل العلوم الرياضية ولم يترك مع ذلك نظم الاشعار فنظم عدة قصائد في الغزل والمدح والهجو والهزل والرثاء وقصيدة في الطوفان ولم ير مباينة بين العلوم الرياضية المبنية على حقائق البرهانية وبين علوم الشعر التي كان يظنها الناس خيالات باطلة واوهاماً كاذبة وان اعذب الشعر اكذبه . بل كان يعتقد بان الشاعر لا بد له من تعلم العلوم الرياضية والطبيعية وكان يعتبر تصور حوادث الكون وتخيل مناظر الطبيعة وجمع معاني ذلك في الذهن ثم افراغ المعاني في قوالب الالفاظ ونسجها في ابيات الشعر كل ذلك اشبه بتصوير المسائل الحسابية والهندسية وحل المعادلات الجبرية . ولذا قال بان صباه لم يكن الا تخيلاً طويلاً ممزوجاً بدرس مدقق وان لا مباينة بين التدقيق والشعر لان القواعد الرياضية تطبق في الشعر كما تطبق في هذا العلم وقال ايضاً « ان الكلمة كائن حي فاعلموه »

وكان شاتوبريان من افخل ادباء العصر وله مؤلفات جليلة في النظم والنثر وقد طاف بلاد الشرق وزار مصر وسوريا واليونان والف بعد ذلك كتابه المسمى (روح النصرانية) وبحث عن حكمة الديانة المسيحية فطالبه فيكتور هوكو واعجب به وتشرب منه آراء المذهب الكاثوليكي وسياسة الحزب الملوكي فكتب على دفتره

وهو في المدرسة بتاريخ ١٠ يوليو سنة ١٨١٦ « اريد ان اكون شاتو بريان او لاشي » وبعد سنة من هذا التاريخ فتحت الاكاذيمية الفرنساوية مسابقة للشعراء وجعلت موضوع السباق « فوائد المطالعة » فنظم فيكتور هوكو في هذا المعنى ٣٢٠ بيتاً عرضها على لجنة التحكيم ولم يكن له من العمر الا خمس عشرة سنة فاستحسنوا اياته واستصغروا سنه وظنوه اوقاً شعره فلم يعطوه الجائزة واكتفوا بقيد اسمه في دفتر الشعراء . وفي السنة التالية بعث الى جمعية « لعب الازهار » — وهي جمعية ادبية تأسست قديماً في طولوز — القصيدة التي سماها « عذارى فيردون » وتشبب فيها ببنات تلك المدينة التي على الحدود الالمانية وبعث ايضاً بقصيدة أخرى في مدح هنري الرابع فنال بهما جائزة الجمعية . وفي سنة ١٨١٨ اكمل فيكتور هوكو دروسه في مدرسة « لوي لوغران » واستنكف من الدخول في امتحان المسابقة لاجل قبوله في المكتب الحربي وكتب لابيه بانه عدل عن سلك العسكرية واتخذ الشعر صنعة يتعيش منها وان لاحاجة له بالراتب القليل المعين له واقبل على الجد والاشتغال ومثابرة الاعمال واشترك مع أخيه الكبير ايبل وكان له مشاركة في علوم الادب فأسسا جريدة ادبية عنوانها « المحافظ الادبي » ونشر فيكتور هوكو الاشعار البديعة والمقالات الانتقادية

وكان لويس الثامن عشر الذي جلس على سرير الملك سنة ١٨٢٤ عاقلاً ماهراً لم يصغ لاقوال الذين يريدون اطفاء نور العلم والحرية واعادة المظالم القديمة بل أعطى الشعب حقوقه وسن لبلاده القوانين وكان ولي عهده أخاه شارل العاشر وله ولد اسمه دوك دوبري قتله احد الرعاع وهو خارج من مرسح الاوبرة سنة ١٨٢٠ وخلف دوك دوبري طفلا صغيراً اسمه دوك دوبوردو فنشر فيكتور هوكو في جريدته قصيدة هنأ فيها بالمولود وأخرى رثى فيها الوالد والقصيدتان موافقتان لسياسة الحزب الملوكي فاستحسنهما لويس الثامن عشر واجازه عليهما بخمسمائة فرنك . وفي تلك السنة بعث فيكتور هوكو الى جمعية لعب الازهار في طولوز بالقصيدة التي عنوانها « موسى على النيل » فكافأته عليها بالميدالية الذهبية وكانت على شكل الزهرة ومنحته لقب الاستاذ في جمعيتها

فاشتهر هوكو وانتشر شعره ولقبه شاتوبريان بالولد النجيب وفتحت الشعراء له ابوابها فتعارف على القريد وفينيه ولاماوتين مؤلف « الرحلة الشرقية » وسومه واميل دوشاف وغيرهم من شعراء العصر وفحول ادبائه وفرح به جميع المتنصرين للحزب الملوكي لانه على مذهبهم السياسي ودينهم الكاثوليكي وترنموا بأبياته في مجامعهم وانشدوا قصائده في نوادي سمرهم وكان ينظم لهم القصائد الهزلية والمدائح الملوكية على ما يوافق مشربهم مثل « التلغراف » و « المقيد السياسي » و « القريحة » وغيرها

فانشرح صدر الشاعر بهذه الشهرة وارتاح باله من جهة تأمين معاشه في المستقبل ولعب الهوى في رأسه فرأى بجانبه صاحبته من الصغر قد انتقلت الى سن الشباب وانتصبت قامتها كالغصن ولبست اثواب الجمال والحسن فهام في حبها واراد الاقتران بها فمنعته امه لفقر البنت وعدم وجود مهر كاف (دوته) معها وقطعت علائقها مع عائلة فوشر فتألم الشاعر بالم الفراق واخذ يراسل حبيبته برسائل الحب والاشتياق ونشرت هذه الرسائل بعد موته تحت عنوان « مراسلات [illegible] »

وفي سنة ١٨٢١ توفيت والدته فحزن عليها حزناً شديداً لزيادة حنوها عليه وكثرة احسانها اليه . ولم يمض شهر على وفاتها حتى تزوج والده بواحدة من الغنيات الشريفات لقلة وارده وكثرة نفقاته وبقي فيكتور هوكو وحيداً فريداً وانتقل من الدار التي كان فيها مع امه الى مسكن صغير وتضايق في امر معاشه لقلة ما في يده ولاحتياجه لمن يدبر له البيت ويهيء له الطعام . واخذ يفكر في معشوقته وفي الوصول للاقتران بها لان اباه افتقر بعد سقوط الحكومة الامبراطورية وابو محبوبته لم يكن من اصحاب الثروة العظيمة فاجتهد فيكتور هوكو في تحصيل المال واقبل على النظم والتأليف ونشر سنة ١٨٢٢ ديوان قصائده فكان له رواج عظيم وقرأه لويس الثامن عشر وأعجب به واحسن على الشاعر من خزينته الخاصة براتب سنوي قدره الف فرنك ففرح الشاعر بهذا المعاش وتزوج بعادلة فوشر ولها من العمر ١٩ سنة . وبينما هم في حفلة العرس على مائدة الطعام نهض اخوه اوجين واجرى افعالاً منكرة وفاه بكلام غير معقول فحملوا ذلك اولاً على اكثاره



فیکتور هوکو

من شرب المدام وذهبوا به الى بيته وفي الصباح وجدوه مختل الشعور وفهموا انه يحب عادلة محبة شديدة وكان يخفي حبها فلما تزوجت باخيه هاجت عواطفه وذهب عقله [illegible] في بيمارستان شارانتون وهو في ارباض باريس واستمر فيه الى ان مات . وكانت عادلة [illegible] رقيقة [illegible] الفكر غير مفرطة [illegible] وكان زوجا [illegible] في [illegible] الكونت [illegible] له [illegible] من الملك ٢٠٠٠ فرنك في السنة خرج بها من دار ابيها وسكنا في بيت [illegible] فولدت له اولاداً كبروا وماتوا في حياته وهم ليوبولدين ماتت غريقة في نهر السين وشارل مات فجأة عند صاحبة له في بوردو وفرانسوا مات في باريس وعادلة تزوجت على كره من ابيها واصيبت بداء الجنون مثل عمها وهي لم تزل في قيد الحياة . فكانت هذه المصائب باعثة على نظم القصائد التي عنوانها « اولادهي » ورثاهم ايضاً في كتاب (التأملات) وغيره بارق المراثي . وكان موحداً بالاعتقاد ولم يتبع مذهب المسيحيين في البقاء على زوجة واحدة بل شغف بعد ذلك بحب احدى الممثلات واسكنها مع زوجته وعمل عمل القائلين بتعدد الزوجات مع رعايته واحترامه لزوجته الاولى

واخذ فيكتور هوكو يحرر في مجلة « الموز الفرنساوية » التي انشأها الاديبان سومه وديشان ويتودد على بيت شارل نورية وكان هـذا الفاضل مديراً لمكتبة ارسنال وهي احدى المكاتب الاربع الكبيرة في باريس . ونال معاشاً وافراً بسبب هذه الوظيفة وفتح بيته للعلماء والشعراء حتى صار مجمعاً للادباء واسسوا فيه سنة ١٨٢٤ جمعية ادبية على الطرز الجديد . وفي هذه السنة توفي لويس الثامن عشر ولبس اخوه شارل العاشر تاج الملك فمدحه الشاعر بقصيدة عنوانها « التتويج » فحازت القبول وانعم عليه الملك بوسام الافتخار من رتبة شيفاليه كما أنعم بذلك على الشاعر الشهير لامارتين . ولما نشر فيكتور هوكو ديوانه في المدح والغزل وحاد فيه عن مسلك الشعر القديم المسمى (كلاسيك) وسلك في النظم مسلكاً جديداً استحسنه [illegible] الطريقة [illegible] الشاعر « سنت بوف » في جريدة القلوب [illegible] وكان في سنة ١٨٢٧ مقالة [illegible] كانت [illegible]

انظار الناس الى الطريقة الجديدة ولتعارف الشاعرين حتى صاروا من اعز الاخوان

وكان شارل العاشر قد حاد عن طريقة أخيه العادلة في سياسة الملك ومال الى الاستبداد فنفر منه الادباء والاحرار . واغتنم سفير النمسا في باريس هذه الفرصة وندد [illegible] العساكر الذين خدموا مصالح نابوليون الاول وأهانهم في الكلام فانتصر لهم فيكتور هوكو لان اباه كان [illegible] ونظم [illegible] (العمود) اي العمود الذي رفع لنابوليون في [illegible] رمز [illegible] التي [illegible] في حروبه [illegible] اسماء المواقع الحربية والالوية العسكرية . وكان الشاعر في ذلك التاريخ [illegible] من العمر [illegible] وهو السن الذي يأمل فيه الرجل لحقوق الاجتماع فظن كبقية ادباء العصر المتخوفين من استبداد شارل العاشر ان الحكومة الامبراطورية [illegible] عدلاً وحرية من الحكومة الملوكية ولذا اقبل على اظهار فضل نابوليون واشهار مجده بدون ان يتعرض بالقدح لآل بوربون . ونشر عقب مدحه [illegible] كرمول . وشرح في مقدمتها طريقة الجديدة في علم الادب وشكل جمعية من [illegible] هذه الطريقة وفي مقدمتهم الفرد دوفينيه وسنتابوف وأميل دوشان [illegible] وغيرهم مثل لامارتين وسموا طريقتهم « رومانتيك » كما كان [illegible] طريقتهم « كلاسيك » وصار فيكتور هوكو امام المدونين في هذه الطريقة الجديدة . فانتقد عليه كثيرون من ارباب السياسة [illegible] [illegible] اشهاره مجد الحكومة الامبراطورية وثانيهما لعدوله عن مذهب [illegible] في النظم والنثر [illegible]

غير ان الشاعر لم يصغ [illegible] ويتشد قصائده امام الحاضرين . ويستميلهم [illegible] ولما اتجهت انظار العموم نحو الشرق بسبب ثورة اليونان وذهاب العساكر المصرية للمورة وغدر الدول في وقعة نافارين نشر فيكتور هوكو ديوانه المترجم « بالشرقيات » ولم يزر الشرق ولا رأى نساءه مثل شاتوبريان ولا مارتين ولكنه درس احواله درساً مدققاً وقرأ ما ترجم من كتب ادبائه مثل كلستان سعدي وديوان حافظ شيرازي وما ترجم من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فراج ديوان الشرقيات

لحداثة موضوعه وبحث فيه عن الممالك العثمانية والعوائد الشرقية وعن بلاد اليونان وايتاليا واسبانيا وكانت النفوس متشوقة للاطلاع على ما في زوايا الشرق من الخبايا

ثم نشر قصة عنوانها « آخر ايام المحكوم عليه » وصور فيها الاضطراب الذي يحصل للمتهم قبل قتله . وفي سنة ١٨٢٩ وجه الشاعر التفاته نحو المرسح الفرنساوي (كوميدي فرانسه) وشرع في [illegible] الروايات المحزنة التي يسمونها « دراما » [illegible] غانية من غواني باريس [illegible] وكان لما [illegible] عشر ولما اراد مدير المرسح تشخيص الرواية منعه المراقب فرفع الشاعر شكواه من ظلم مراقب المطبوعات الى الملك فلم يأذن له بتشخيصها ومع ذلك قربه اليه ولاطفه بالكلام [illegible] قريحتك الشعرية وليس عندي أشعر [illegible] وزاد في راتبه حتى بلغ ٤٠٠٠ فرنك فرفض فيكتور هذا الراتب مع شدة احتياجه اليه وشرع في تحرير رواية « ابرناني » فاكملها في بضعة اسابيع وشخصت على المرسح الفرنساوي ليلة ٢٥ شباط سنة ١٨٣٠ واشتد بسببها القيل والقال وعلا في المرسح الصفير والجدال بين اصحاب المذهب القديم والمذهب الحديث في علم الادب وتم النصر في تلك الليلة لهوكو وشيعته ولم يبق معه من القدر [illegible] فتقدم اليه ملتزم الطبع وبارك له بنجاح الرواية ونقده في مقابلة حق طبعها ستة آلاف فرنك واستلم منه النسخة الخطية وعقد معه مقاولة عن تحرير قصة « نوتر دام دو باري » [illegible] في ظرف ستة اشهر . فاكب الشاعر على المطالعة والتحرير واكمل [illegible] فظهرت [illegible] رواج عظيم واسم الرواية مأخوذ من كنيسة باريس الجامعة [illegible] من دار البلدية ودار الحقانية

ولما اصدر شارل العاشر [illegible] بتعطيل احكام القانون الاساسي [illegible] سنة ١٨٣٠ وسالت الدماء في العاصمة ثلاثة ايام بلياليها [illegible] فرانسا وتنازل عن الملك لابنه وولي عهده دوك انكوليم — وانكوليم بلدة بين بوردو وباريس — غير ان هذا الدوك استعفى أيضاً وانتقل الملك بالارث الشرعي الى دوك بوردو

وهو حفيد شارل المشار اليه . فالجمهور من الفرنساويين لم يلتفتوا الى حقوق هذا الصبي وانتخبوا ملكاً عليهم لويس فيليب ابن عم شارل العاشر لقبوله اعطاء الاهالي حقوقهم وتعهده بحماية القوانين . فهوكو هو شاعر الملك والمدافع عن حقوق الملكية وناظم القصائد الغراء في ولادة دوك بوردو صاحب الميراث الشرعي وفي رثاء ابيه دوك بري لم يهتز لهذه الحوادث بل اظهر استحسانه ما فعله الشعب ولم يعبأ بالمسائل السياسية وظل يشتغل في فنون الادب فنشر ديوانه المسمى « أوراق الخريف » وشخص على المرسح الفرنساوي سنة ١٨٣١ رواية ماريون دولورم التي منع تشخيصها سابقاً ثم رواية « الملك يتسلى » وهي رواية تاريخية موضوعها فرانسوا الاول الذي التجأ الى ساكن الجنان السلطان سليمان القانوني من [illegible] شارلكين . فمنع مراقب المطبوعات اعادة تشخيص هذه الرواية للتعريض فيها بالملوك . فرفع الشاعر شكواه الى محكمة التجارة ودافع عنها بنفسه امام الحكام فلم يسمحوا له بالتشخيص . ولم يجر تشخيصها مرة اخرى الا سنة ١٨٨٢ وكان الذي ربحه فيكتور هوكو من مؤلفاته كافياً لانقاذه من مخالب الفقر وسعادة حاله ففتح بيته للزائرين حتى صار مجمع الادباء ومركز الشعراء . ومن جملتهم الكاتب الشهير تيوفيل غوتيه الا ان الشقاق وقع بينه وبين صاحبه القديم الكساندر دوماس ودام الخصام أعواماً كثيرة . لان غيرة الشعراء والعلماء بعضهم من بعض اشد من غيرة الامراء ..

وجفاه ايضاً حبيبه سنت بوف الماهر في فن الانتقاد وقال عن مؤلفاته بانها ممزوجة بالسياسة الملكية والديانة الكاثوليكية والفلسفة السيمونية — وهي التي وضعها الكونت سن سيمون في اواخر القرن الثامن عشر وفرض فيها تعلم الصنائع على كل فرد من افراد الامة . فلم يتبعه الا القليل من الناس مثل كارنو والد رئيس الجمهورية الاسبق فعمل برأيه ومع جلالة قدره جعل أحد اولاده نجاراً والآخر مهندساً وكلاهما من اكابر رجال الدولة . ثم الف فيكتور هوكو رواية « لوكريس بورجيا » وهي اخت قيصر بورجيا المشهير بالاسراف وفساد الاخلاق وكانت بديعة الحسن ولها حديث غريب فشخصت هذه الرواية في ٢ فبراير سنة ١٧٣٣ فاقبل

الناس على استماعها ثم شخصت مراراً على المرسح الذي بباب سن مارتن وكانت الممثلة التي شخصت دور الاميرة نيكروني هي مادموزيل جوليت دروه التي سبت الشعراء بحسنها وعقلها . فشغف فيكتور هوكو بحبها وبعد ان تردد على بيتها كثيراً اسكنها في بيته عند زوجته فلامه أحد اصحابه فحرر اليه يعتذر بأن زوجته اذنت له وسامحته على ما فرط به من حب جوليت ولم تزل زوجته تحبه وتعزه . واستمرت في صحبة الشاعر ورافقته في منفاه وكانت تحرر له القصائد وهو يملي عليها ودامت معه الى بعد وفاة زوجته ورافقته ايضاً في سن الشيخوخة ونشر فيكتور هوكو أيضاً رواية « ماري تيدور » وهي ملكة الانكليز ورواية « انجلو » وهو امير ظالم من امراء الطليان ورواية « ربوبلاس » وهو اسم خادم الوزير الذي خدعت به ملكة اسبانيا وكثيراً ما تشخص اليوم على المراسح الفرنساوية هي ورواية « ايرناني » . ورواية « كلود كو » وهي مما ترجم من مؤلفات هوكو الى التركية وفيها دفاع بليغ عن المحكوم عليهم بالاعدام وتشنيع هذا القصاص .

ومما نشره في هذا التاريخ من الاشعار الموسيقية غير اوراق الخريف « اغاني الشفق » و « الاصوات الداخلية » و « الاشعة والظلال » وغير ذلك فصار فيكتور هوكو بهذه التآليف يعد من فحول ادباء العصر وانتسب للدوك اورليان وزوجته ووجه عليه لويس فيليب نشان الافتخار من درجة اوفيسيه واهداه صورته وانتخبته الاكاديمي الفرنساوية عضواً في جلستها الكبرى مرتين فقط بعد ان عارض أعضاؤها زماناً طويلاً في قبوله لشدة تمسكهم بالقواعد واساليب الانشاء القديمة . ولم يدخلوه بينهم الا بعد أن اشتهر فضله كالشمس في رابعة النهار . وسنة ١٨٣٩ ساح فيكتور هوكو في جبال الالب على حدود ايطاليا وسويسرا وشاهد مناظرها البديعة وزار بعد سنتين ضفاف الرين ودرس احوال بلاد الالمان وكتب سياحته في مجلدين نشرا بعد موته . والف أيضاً رواية « بورغراف » التاريخية وبين فيها اخلاق امراء الالمان في القرون الوسطى . فشخصت على المرسح الفرنساوي سنة ١٨٤٣ ولم يقبل عليها الجمهور ولا حصل منها ارباح للمشخصين فتكدر الشاعر من سوء طالعه وعدل عن تأليف الروايات وترك راوية « التوأم » التي شرع في تأليفها بدون ان

يكملها . وكانت الافكار العمومية تحولت عن طريقة الادب الجديدة (رومانتيك) وعادت للاقبال على طريقة (كلاسيك) القديمة لظهور بعض المؤلفات الجديدة فيها وبمناسبة ذلك هزأت بعض الجرائد الهزلية بفكتور هوكو وصورته برأس كبير وهو واقف امام المرسح بجانب اعلان هذه الرواية ينظر الى السماء وقد طلع ذو [illegible] وكانه يناجي ربه وهو يقول [illegible] اذا [illegible] كت البورغراف بلا اذناب » وتطلق كلمة بورغراف على ذوي الآراء [illegible] في ضروب السياسة . [illegible] الرواية بلا [illegible] على [illegible] المرسح [illegible] اقبال الناس على الروايات [illegible] الواحد [illegible] [illegible] المنزل . وخرج فيكتور هوكو من باريس الى جبال [illegible] [illegible] فيها افكاره ويزيل اكداره . ولم يلبث فيها كثيراً حتى [illegible] [illegible] وكانت في التاسعة عشرة من عمرها وقد فارقها وهي في اثواب العرس [illegible] على نهر السين في مدينة فيلكيه فانقلب بهما الزورق [illegible] قبل ان يمضي على زفافها اربعة اشهر . وزوجها شارل فاكري [illegible] الادب [illegible] . [illegible] هوكو [illegible] الام الحياة وهمومها ودخل الحزن قلبه . [illegible] التي نظمها وأكثرها مدرج في كتاب « التأملات » [illegible] [illegible] بشر في [illegible] الاخرة من هذا العالم الفاني [illegible] الشعر مدة واقبل على الاشتغال بالعلوم [illegible] . فنشر كتاباً عنوانه « مكاتيب على الرين » [illegible] بمسألة الموازنة الاوروباوية وتوهم تقسيم ممالك اوربا بين فرانسا وبروسيا واراد تقليد لامارتين في الدخول لميدان السياسة — لان الشاعر لامارتين بعد ان خدم طويلاً في كتابه السفارات الفرنساوية وصار سفيراً في طوسقانة واثينة ترقى الى مسند الوزارة ولما زار الشرق نال شرف المثول بين يدي السلطان عبد المجيد خان وحاز على الالتفات الشاهاني وأحسن اليه بأبعدية (جفتلك) في ولاية ازمير فاقام فيها وحرر تاريخ الممالك العثمانية في ثمانية مجلدات — ففتح لويس

فيليب باب الحكومة لفيكتور هوكو وعينه عضواً لمجلس الاعيان سنة ١٨٤٥ فجلس مع اصحاب اليمين وانضم لحزب الاكثرية وهو حزب الوزارة وقال بقولهم وتكلم في بعض المسائل فخطب خطبة في « ماركة الفابريكات » واخرى في « المسألة البولونية » ومدح البابا الحر وطلب ارجاع عائلة بونابرت فلم يكن لكلامه تأثير على اعضاء المجلس كما كان لاشعاره ورواياته تأثير في نفوس الجمهور [illegible] على المراسح [illegible] المغالين والمتحمسين [illegible] من [illegible] من القلب والفكر .

ولما قوي حزب الجمهورية وحدث انقلاب سنة ١٨٤٨ وانزل لويز فيليب عن عرش الملك واعلنت حكومة الجمهورية الثانية على فرنسا انتخب فيكتور هوكو عضواً في مجلس الامة من ابالة السين واسس في تلك السنة جريدة الوقائع (ايفمان) وكتب عليها « البغض الشديد للفوضوية والهيام في الشعب والحنو عليه » وكان يعينه في تحرير الجريدة ابناه شارل وفرنسوا واصدقاؤه من افاضل [illegible] [illegible] [illegible] ولما [illegible] الترشيح لرئاسة الجمهورية اثنين وهما نابليون الثالث والجنرال كافنياك فمالت جريدة الوقائع في خطتها السياسية لنابليون لان فيكتور هوكو كان يترنم في قصائده بالمدح في البونابرتية ويطرب لذكر عمه نابليون الاول . ولما قام [illegible] الامر ابن اخيه نابليون الثالث وظن انه يقرب اليه ويكون مستشاراً له [illegible] في الانتخاب [illegible] [illegible] نابليون الثالث اكثرية الاصوات [illegible] [illegible] الجمهورية واستلم زمام الادارة ولم يلتفت لفيكتور هوكو . فلما خاب ما امله الشاعر انتقل من اصحاب اليمين الى اصحاب الشمال [illegible] الحزب المخالف [illegible] بانه مذبذب يتردد بين اليمين والشمال وطلع عنه اصحابه [illegible] بهتم بالاحزاب وانما يرى مصلحة الامة فيسير معها . وكان [illegible] في المجلس خطبة شددوا عليه النكير وذكروه بسوابق اعماله واشعاره . ولما تمت الرئاسة لنابليون مالت نفسه للبس التاج وشرع في اعداد المعدات وتهيئة الاسباب فتظاهر فيكتور

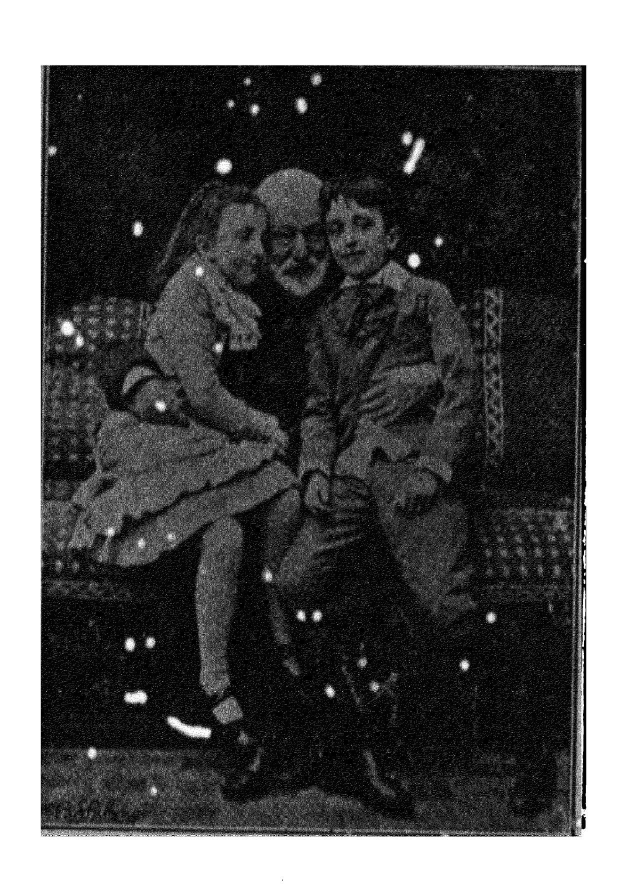
هوكو له بالعداوة ونشر في تقبيح سياسته فصولاً وعرض باسمه في جريدة الوقائع فسماه نابليون الصغير. فاتهم مراقب الجرائد ابنيه المحررين لتلك الجريدة وحاكمهما والقاهما في السجن . ثم استبد نابليون بالامر واجرى حادثة ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ والتي القبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الامبراطورية وكان اسم فيكتور هوكو في رأس قائمة المتهمين فساعدته حبيبته الممثلة جوليت دروه على الاختفاء واستحصلت على تذكرة مرور فخرج من باريس فارًا وهنا تم الدور الاول من ادوار حياته

الدور الثاني

وهو مدة وجوده منفيا من سنة ١٨٥٢ الى رجوعه لباريس سنة ١٨٧٠

بعد ان فرَّ فيكتور هوكو من باريس تجاوز الحدود الفرنساوية واتى بروكسل عاصمة البلجيك وكان في غاية الضيق من قلة النقود فحرر لزوجته يوصيها بالتدبير والتقتير ويعرفها بان مصروفه في الشهر لا يتجاوز مائة فرنك . واقبل على التحرير والتأليف وهو يستشيط غضباً فنشر كتابه « نابليون الصغير » وكان اول صاعقة من الصواعق التي رماه بها . ثم نشر « تاريخ جرم » فتهافت الناس في فرانسا وعموم اوروبا على مطالعة هذين الكتابين . فمنع نابوليون دخولهما لممالكه وامر سفيره في بروكسل بان يطلب من حكومة البلجيك ابعاد فيكتور هوكو عنها فلم تجسر الحكومة على ذلك إلا بعد اخذها قرار مجلس النواب فدعته للخروج . فذهب الى جزيرة جرسي التابعة لانكلترة وهي جزيرة في بحر المانش بين فرانسا وجزائر بريطانيا العظمى . وجلب اليها عائلته وكانت حبيبته جوليت سبقتها واقامت معه في بروكسل وشاركته في السراء والضراء وكان في ضيق من جهة المعاش ولم يكن معه الا سبعة آلاف فرنك فعرف الجوع بقوله « ان المخمصة تثقب في قلب الانسان ثقباً وتملأه بالحقد » ونشر كتاب « القصاص » سنة ١٨٥٣ وكان صاعقة على نابوليون اشد من الاولى وراج رواجاً عظيماً في فرانسا واور بالوربح ملتزم طبعه في بروكسل ربحاً وافراً لم يعد منه على المؤلف الا اليسير

ولم يزل نابوليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري وينفيهم من الارض



فیکتور هوکو وحفیداه

هوكو له بالعداوة ونشر في تقبيح سياسته فصولاً وعرض باسمه في جريدة الوقائع فسماه نابليون الصغير. فاتهم مراقب الجرائد ابنيه المحررين لتلك الجريدة وحاكمها والقاهما في السجن. ثم استبد نابليون بالامر واجرى حادثة ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ والقى القبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الامبراطورية وكان اسم فيكتور هوكو في رأس قائمة المتهمين فساعدته حبيبته الممثلة جوليت دروه على الاختفاء واستحصلت على تذكرة مرور فخرج من باريس فاراً وهنا تم الدور الاول من ادوار حياته

الدور الثاني

وهو مدة وجوده منفيا من سنة ١٨٥٢ الى رجوعه لباريس سنة ١٨٧٠

بعد ان فرّ فيكتور هوكو من باريس تجاوز الحدود الفرنساوية واتى بروكسل عاصمة البلجيك وكان في غاية الضيق من قلة النقود فحرر لزوجته يوصيها بالتدبير والتقتير ويعرفها بان مصروفه في الشهر لا يتجاوز مائة فرنك . واقبل على التحرير والتأليف وهو يستشيط غضباً فنشر كتابه « نابليون الصغير » وكان اول صاعقة من الصواعق التي رماه بها ثم نشر « تاريخ جرم » فتهافت الناس في فرانسا وعموم اوروبا على مطالعة هذين الكتابين . فمنع نابوليون دخولها لممالكه وامر سفيره في بروكسل بان يطلب من حكومة البلجيك ابعاد فيكتور هوكو عنها فلم تجسر الحكومة على ذلك إلا بعد اخذها قرار مجلس النواب فدعته للخروج . فذهب الى جزيرة جرسي التابعة لانكلترة وهي جزيرة في بحر المانش بين فرانسا وجزائر بريطانيا العظمى . وجلب اليها عائلته وكانت حبيبته جوليت سبقتها واقامت معه في بروكسل وشاركته في السراء والضراء وكان في ضيق من جهة المعاش ولم يكن معه الا سبعة آلاف فرنك فعرف الجوع بقوله « ان المخمصة تثقب في قلب الانسان ثقباً وتملأه بالحقد » ونشر كتاب « القصاص » سنة ١٨٥٣ وكان صاعقة على نابوليون اشد من الاولى وراج رواجاً عظيماً في فرانسا وامر بامور بحيث ملتزم طبعه في بروكسل ربحاً وافراً لم يعد منه على المؤلف الا اليسير

ولم يزل نابوليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري وينفيهم من الارض

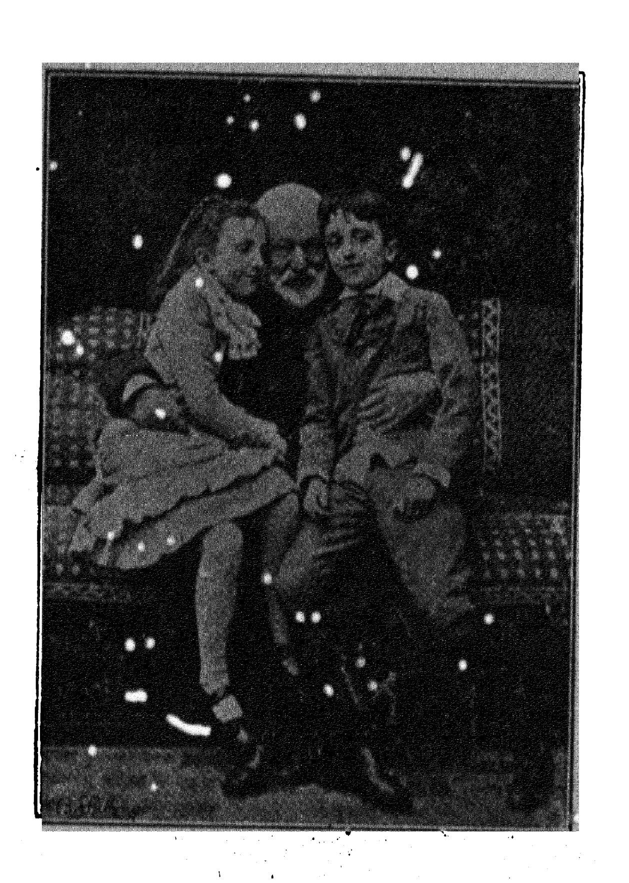
هوكو له بالعداوة ونشر في تقبيح سياسته فصولاً وعرض باسمه في جريدة الوقائع فسماه نابليون الصغير. فاتهم مراقب الجرائد ابنيه المحررين لتلك الجريدة وحاكمهما والقاهما في السجن. ثم استبد نابليون بالامر واجرى حادثة ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ والقى القبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الامبراطورية وكان اسم فيكتور هوكو في رأس قائمة المتهمين فساعدته حبيبته الممثلة جوليت دروه على الاختفاء واستحصلت على تذكرة مرور فخرج من باريس فارًّا وهنا تم الدور الاول من ادوار حياته

الدور الثاني

وهو مدة وجوده منفيا من سنة ١٨٥٢ الى رجوعه لباريس سنة ١٨٧٠

بعد ان فرَّ فيكتور هوكو من باريس تجاوز الحدود الفرنساوية واتى بروكسل عاصمة البلجيك وكان في غاية الضيق من قلة النقود فحرر لزوجته يوصيها بالتدبير والتقتير ويعرفها بان مصروفه في الشهر لا يتجاوز مائة فرنك. واقبل على التحرير والتأليف وهو يستشيط غضباً فنشر كتابه « نابليون الصغير » وكان اول صاعقة من الصواعق التي رماه بها. ثم نشر « تاريخ جرم » فتهافت الناس في فرانسا وعموم اوروبا على مطالعة هذين الكتابين. فمنع نابوليون دخولهما لممالكه وامر سفيره في بروكسل بان يطلب من حكومة البلجيك ابعاد فيكتور هوكو عنها فلم تجسر الحكومة على ذلك إلا بعد اخذها قرار مجلس النواب فدعته للخروج. فذهب الى جزيرة جرسي التابعة لانكلترة وهي جزيرة في بحر المانش بين فرانسا وجزائر بريطانيا العظمى. وجلب اليها عائلته وكانت حبيبته جوليت سبقتها واقامت معه في بروكسل وشاركته في السراء والضراء وكان في ضيق من جهة المعاش ولم يكن معه الا سبعة آلاف فرنك فعرف الجوع بقوله « ان المخمصة تثقب في قلب الانسان ثقباً وتملأه بالحقد » ونشر كتاب « القصاص » سنة ١٨٥٣ وكان صاعقة على نابوليون اشد من الاولى وراج رواجاً عظيماً في فرانسا واور باور بح ملتزم طبعه في بروكسل ربحاً وافراً لم يعد منه على المؤلف الا اليسير

ولم يزل نابوليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري وينفيهم من الارض



فيكتور هوكو وحفيداه

فعارضه فيكتور هوكو ونظم عدة قصائد في وصف حالة اولئك المضطهدين الذين اخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً فطلب سفير فرانسا في لوندرا اخراج هوكو من جزيرة جرسي وابعاده فاخرجته الحكومة الانكليزية ارضاء لنابليون ولكنها لم تضيق عليه فذهب الى جزيرة كيرنيزي وهي بجوار الجزيرة الاولى في بحر المانش وتابعة مثلها للانكليز. واشترى فيها دارا خربة مهجورة مبنية على صخرة عالية مطلة على الاوقيانوس المحيط وتسمى « هوت فيل هوس » فرممها وسكنها واتخذ الطبقة العليا منها غرفة لاعماله فكان يشتغل فيها بالنظم والتأليف ويفكر في تقلبات الدهر واحوال العالم وبصره شاخص الى لجة البحر المحيط. وكان يعينه في التحرير والمطالعة ابناه وزوجته وصاحبه الشاعر اوغست فكيري. فنشر سنة ١٨٥٦ كتاب التأملات وعرفه بسانحات البال. ثم أخذ يسلي همومه بمطالعة اخبار المتقدمين ودرس سير الانسان في مدارج الترقي والعمران فنشر القسم الاول من كتاب « سير الدهور » سنة ١٨٥٩ ثم الف قصته الشهيرة المترجمة « بالبؤساء » وكان له صديق حميم وهو موسيو لوقروا ناظر البحرية في الوزارة الفرنساوية السابقة اي وزارة الموسيو ميلين فكان هذا الاديب يعين الشاعر على طبع مؤلفاته في البلاد الاجنبية فلما بعث اليه بالمجلدين الاولين من كتاب البؤساء باعهما لملتزم الطبع في انكلترا بمبلغ قدره ١٢٥ الف فرنك ذهب انكليزي

ولما نشر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ أقبل المترجمون على ترجمته ونشروه في تسع لغات من لغات اوربا في آن واحد. وكان اصحاب المطابع تستدعي الموسيو لوقروا من جميع الجهات في انكلترا والمانيا والنمسا ليشتروا منه حق الترجمة والطبع ولما ذهب الى لوندره عند الكتبي الشهير في بترنوستر رو سأله بعنف: —

— كم تطلب بحق نشر كتاب البؤساء في اللغة الانكليزية ؟ — فأجابه

— ثلاثة الاف ليرة انكليزية. فتناول دفتر الشاك وحرر المبلغ والاسم وقال له خذ نحن على وفاق

فسعد حال فيكتور هوكو من جهة المعاش وذهب عنه الضيق فنظم داره وغرس ارضها بالاشجار والرياحين وطار ذكره في العالم المتمدن وقصده الزوار

فعارضه فيكتور هوكو ونظم عدة قصائد في وصف حالة اولئك المضطهدين الذين اخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً فطالب سفير فرانسا في لوندرا اخراج هوكو من جزيرة جرسي وابعاده فاخرجته الحكومة الانكليزية ارضاء لنابليون ولكنها لم تضيق عليه فذهب الى جزيرة كيرنيزي وهي بجوار الجزيرة الاولى في بحر المانش وتابعة مثلها للانكليز . واشترى فيها دارا خربة مهجورة مبنية على صخرة عالية مطلة على الاوقيانوس المحيط وتسمى « هوت فيل هوس » فرممها وسكنها واتخذ الطبقة العليا منها غرفة لاعماله فكان يشتغل فيها بالنظم والتأليف ويفكر في تقلبات الدهر واحوال العالم و بصره شاخص الى لجة البحر المحيط . وكان يعينه في التحرير والمطالعة ابناه وزوجتاه وصاحبه الشاعر اوغست فاكيري . فنشر سنة ١٨٥٦ كتاب التأملات وعرفه بسانحات البال . ثم أخذ يسلي همومه بمطالعة اخبار المتقدمين ودرس سير الانسان في مدارج الترقي والعمران فنشر القسم الاول من كتاب « سير الدهور » سنة ١٨٥٩ ثم الف قصته الشهيرة المترجمة « بالبؤساء » وكان له صديق حميم وهو موسيو لوقروا ناظر البحرية في الوزارة الفرنساوية السابقة اي وزارة الموسيو ميلين فكان هذا الاديب يعين الشاعر على طبع مؤلفاته في البلاد الاجنبية . فلما بعث اليه بالمجلدين الاولين من كتاب البؤساء باعهما لملتزم الطبع في انكلترا بمبلغ قدره ١٢٥ الف فرنك ذهب انكليزي .

ولما نشر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ أقبل المترجمون على ترجمته ونشروه في تسع لغات من لغات اوربا في آن واحد . وكان اصحاب المطابع تستدعي المرسيو لوقروا من جميع الجهات في انكلترا والمانيا والنمسا ليشتروا منه حق الترجمة والطبع ولما ذهب الى لوندره عند الكتبي الشهير في بترنوستر رود سأله بعنفه : —

— كم تطالب بحق نشر كتاب البؤساء في اللغة الانكليزية ؟ : — فأجابه

— ثلاثة الاف ليرة انكليزية . فتناول دفتر الشك وحرر المبلغ والاسم وقال له خذ نحن على وفاق .

فسعد حال فيكتور هوكو من جهة المعاش وذهب عنه الضيق فنظم داره وغرس ارضها بالاشجار والرياحين وطار ذكره في العالم المتمدن وقصده الزوار

وكاتبة الرجال . وكان البعض يحرر عنوانه « فيكتورهوكو في الاوقيانوس » فكانت تصله بهذا العنوان المبهم لسعة شهرته . واشتهر اسمه لاقترانه باسم نابليون وكبره البعد والاعتزال في مخيلات الناس حتى اعتقدوه من اكبر العقول البشرية . وكانت العيون ترقب طلوع مؤلفاته كما ترقب شمس الشتاء . وفي سنة ١٨٦٤ نشر كتاب « وليم شكسبير » في الفلسفة وبعدها بسنة نشر « ديوان اغاني الشوارع والاحراج » وفي سنة ١٨٦٦ نشر قصة « المشتغلين في البحر » وصف فيها ما يكابده الفلاحون من المشاق وما يتورطون فيه من الاخطار . وفي سنة ١٨٦٩ نشر قصة « الانسان الضاحك » . ولم يأل جهداً وهو في تلك الجزيرة عن الانتصار للاقوام الذين غدر بهم الزمان ورماهم سوء الطالع بالخسران . وفعل ما فعله فولتير وهو في فيرين فدافع عن عصاة ايرلانده وعن مكسيميليان امبراطور المكسيك وهو اخ امبراطور النمسا اغراه نابليون الثالث على لبس التاج وامده بالعساكر الفرنساوية ثم تخلى عنه فحاكمه المكسيكيون وقتلوه .

ثم ان المسائل العائلية اخلت براحة الشاعر واقلقت افكاره وذلك ان ابنته عادلة احبت فومندان المرتب المحافظ على الجزيرة وتزوجت به رغما عن والدها وذهبت معه الى الهند منشأ الطاعون ومهب الريح الاصفر فمات فيها وعادت لفرانسا مختلة الشعور سنة ١٨٧٢ فادخلوها البيمارستان مثل عمها وهي التي ورثت اباها . وفي سنة ١٨٦٨ توفيت زوجة فيكتور هوكو في بروكسل بعد ان كفّ بصرها وذهب ابناه في السنة التالية الى باريس مع صاحبهما اوغست فاكيري لينشئوا فيها جريدة « رابل » ويندددوا بالحكومة الامبراطورية وذهب فيكتور هوكو الى بلاد سويسرا ليحضر مؤتمر لوزان ويخطب فيه خطبته المشهورة . ولما جرت الانتخابات في اوائل سنة ١٨٧٠ نشر فيكتور هوكو رسالة اعتراضية عنوانها « لا » ثم انتشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا ودارت الدائرة على نابليون الثالث فسلم سيفه في ميدان القتال الى ملك بروسيا وطار الخبر الى باريس فاجتمع رؤساء الحزب الجمهوري في دار البلديـة واعلنوا الحكومة الجمهورية مكان الامبراطورية في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ وهي الحكومة الجمهورية الثالثة الحالية ولم

يعد مانع لفيكتور هوكو من الرجوع الى فرانسا . و بذلك انتهت ايام نفيه

الدور الثالث

وهو دور شيخوخته اي من رجوعه الى فرنسا سنة ١٨٧٠ الى وفاته سنة ١٨٨٥

بعد ان قام فيكتور هوكو في منفاه ثماني عشرة سنة عاد الى باريس مع من عاد من اركان الحزب الجمهوري واستقبله احباؤه وأشياعه وانزلوه على السعة والرحب فحرر خطاباً بليغاً للالمانيين يحضهم فيه على الصلح وترك الحرب وكان من رأيه السياسي وضع اتفاق بين الامة الفرنساوية والبروسيانية وتقسيم البلاد بينهما . فلم يصغ الالمانيون لخطابه وظلوا هاجين حتى بلغوا خنادق باريس واقاموا الحصار عليها فترك فيكتور هوكو القلم من يده وامسك السيف وانتظم في سلك الجنود المحافظين من الاهالي ودافع عن اوطانه وتألم بآلام اخوانه . ولما احتلت العساكر البروسيانية باريس هاجر منها أهلها واتخذت الحكومة الجمهورية مدينة بوردو مركزاً لها عوضاً عن باريس . وانتخبت ايالة السين فيكتور هوكو مبعوثاً لها في مجلس النواب فلما قام يخطب عارضه اصحاب اليمين واكثروا اللغط وابوا الانصات له فقال لهم « منذ ثلاثة اسابيع رفض المجلس الاصغاء لغاريبالدي واليوم يرفض الاصغاء لي فاقدم استعفائي » غاريبالدي هو من القواد الذين حاربوا لاجل استقلال ايطاليا وهاجم رومة العظمى وانتزعها من يد البابا وسلمها الى ملك ايطاليا ليتخذها عاصمة للملك فلما انتشبت الحرب بين فرانسا و روسيا دخل متطوعاً في العسكر الفرنساوي ودافع عن فرانسا اشد المدافعة فانتخب مبعوثاً في مجلس النواب مع كونه طلياني الاصل وكانت الاكثرية في المجلس من حزب الملوكيين والرهبانيين فاتهموه بالكفر والالحاد لتجاوزه على رومة ونزعه سلطة البابا منها ولذا لم يصغوا لكلامه

وفي ذلك التاريخ اعيد طبع كتاب « القصاص » نكالاً من حزب الامبراطورية وكان يباع بالمائة الف نسخة معاً . ولما كان ابن فيكتور هوكو المسمى شارل في بوردو دخل عند صاحبة له يقضي ليلته فتوفي فجأة في فراشها وحزن ابوه حزناً شديداً فجاء بجثته الى باريس ودفنها يوم حدوث ثورة الكومين وانعطف بالحنو

والرأفة على ولديه الاصغرين وهما جورج وجان وبالغ في دلالهما حتى أثر هذا الدلال في اخلاقهما واصبحت جان لا تستطيع معاشرة زوجها حتى طلقها لشدة ميلها الى اللهو والخلاعة . وبعد وفاة شارل تزوج الموسيو لوقروا بزوجته لتربية الولدين لاحياء بيت فيكتور هوكو فتبناه الشاعر وأحبه حباً شديداً

ولزم فيكتور هوكو الحيادة في المعائل السياسية لحزنه على ولده وفلذة كبده غير انه لم يطق الصبر على ما شاهده من فظائع الرعاع فلامهم على قلبهم العمود المنصوب لنابليون الاول كما لام حكومة فرسايل على اطلاقها القنابل على قنطرة النصر المنصوبة له . وبرأ نابوليون الاول مما جناه ابن اخيه على البلاد من الحرب التي جلبت عليهم الويل والدمار وذهب هوكو في اثناء تلك المعامع الى بروكسل والى لوندرة ونشر كتابه المعنون بالسنة المهولة وشدد فيه النكير على دخول الاجانب افرانسا وعلى الفظائع التي اجراها الرعاع والسفلة وهم الكومين . ثم عاد فيكتور هوكو لباريس وانشأ فيها جريدة سماها « الشعب الحاكم » وجعل ثمنها خمسة سنتيمات لكل نسخة ليتمكن الفقراء من مطالعتها . ولم يهدأ بال الشاعر برجوعه لاوطانه واجتماعه على احبابه وخلانه الا واصيب بموت ابنه الثاني فرانسوا فصبر على مصائب العمر ونكبات الزمان وسلم الامر لله لانه كان من الموحدين وعكف على النظم والنثر فنشر سنة ١٨٧٤ قصة عنوانها « ثلاث وتسعون » وتكلم فيها عن الانقلاب الفرنساوي الكبير . وفي سنة ١٨٧٥ انتخب فيكتور هوكو عضواً لمجلس الاعيان (سينا) فجلس في نهاية اصحاب الشمال ولم يتكلم في المجلس الا قليلاً مثل طلبه العفو عن مجرمي الكومين — والكومين هم القوة المحزبة او الادارة العرفية التي تتشكل في العاصمة وتحدث انقلاب الدولة ويحصل بسبب ذلك من تعدي الرعاع وتسلط السفلة ما تقشعر من سماعه الجلود . وقد تأسست هذه الادارة المرهبة في باريس مرتين احداهما سنة ١٧٩٢ والاخرى سنة ١٨٧١ واستمرت هذه السنة من ١٨ مارس الى غاية مايو وجرى في اثناء ذلك كثير من التعديات والمظالم فكان فيكتور هوكو يشير في المجلس بالعفو عما مضى ولم يظهر له اقتدار كبير في السياسة ولا في فن الخطابة مثل غامبتا وامثاله من فحول السياسيين . وانما صرف كل قواه في

الاشتغال بعلوم الادب والتاريخ ونشر « الاقوال والاعمال » و « اولادي » و « بمعرفة ما يكون به الانسان جداً ». وفي سنة ١٨٧٧ نشر القسم الثاني من « سير الدهور » و « الاملاك العمومية التي تدفع الرسوم » ونشر من سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٥ اربع منظومات فلسفية وهي « البابا » و « الرحمة العالية » و « الاديان والدين » و « الحمار »

وحاز في شيخوخته احتراماً كبيراً وثروة عظيمة زادت على ثلاثة ملايين فرنك ولما بلغ الثمانين من عمره احتفل به اهالي باريس احتفالاً عظيماً وزينت له المدينة في ٢٦ شباط سنة ١٨٨١ ووفد عليه المهنئون من جميع الولايات والنواحي واكثر الممالك الاجنبية. فاستقبلهم وهو واقف بين حفيده جورج وحفيدته جان وكان مغرماً في حبهما وفي حب جميع الاطفال وقد خصهم بالذكر في اشعاره وتغزل بهم. ولذا كان في جملة الوفود المهنئين وفد من اجمل الاطفال الصغار يحملون له باقات الازهار. ولم يبق احد في باريس الا ومرّ ببابه وصاح جمهورهم بالدعاء له. فوقف في نافذته وحياهم كما يحيي الملك شعبه ودموعه تذرف من شدة التأثر والاشفاق. وكان مشاهير الرجال وامراء الناس واعيانهم كلما جاؤوا باريس زاروه في داره وحضروا مجالسه. وكان في جملة من زاره امبراطور البرازيل فكان الاحتفال ببلوغه الثمانين من اجمل الاحتفالات التي لم يسبق مثلها الا للشاعر الفيلسوف فولتير قبل موته بقليل. ونشر فيكتور هوكو في آخر ايامه منظومة طويلة سماها « رياح العقل الاربع » ورواية « توركماده » والقسم الثالث من « سير الدهور » و « ارخبيل بحر المانش »

وغير ذلك من الآثار التي نشرت بعد وفاته وسيأتي وصفها في اواخر هذا الكتاب

ولما توفي فيكتور هوكو سنة ١٨٨٥ لبست باريس عليه اثواب الحداد والتبس فيها الامر على الغرباء حتى لم يعلموا هل القوم في ماتم عظيم ام في عيد كبير وجيء بجثته فوضعت في تابوت عال تحت قنطرة النصر بعد ان كسيت بالسواد وزينت بالازهار والرياحين واصطف الشعراء حولها صفوفاً واحتاط بهم الفرسان يحملون بايديهم المشاعل وسهروا عليه طول ليلهم والناس يمرون امام تابوته افواجاً افواجاً

ولما اصبح الصباح اجتمعت الجموع وزينت الصفوف وكانت اكثر المدن الفرنساوية والممالك الاجنبية قد بعثت بالوفود والاكاليل فحملوا الجنازة من تحت قنطرة النصر الى البانثيون . وصار له مشهد لم يسبق لشاعر قبله ولا لفولتير . وكانت وصية هوكو أن لا يحضر جنازته راهب ولا أحد من الاكليروس وان يدفن كالفقراء . ولذا كانت العربة التي حملوه عليها من عربات الفقراء لا تناسب دبدبة هذا الاحتفال ولم يجر له احتفال ديني بل كان الاحتفال بجنازته اهليًا . اه

فيكتور هوكو

وعلم الادب عند الافرنج والعرب

أدب كل لسان ما حصل فيه الاجادة من الكلام المنظوم والمنثور . و يشتمل على فنون الشعر والاغاني والروايات والقصص وضروب الامثال والحكم والنوادر والحكايات والمقامات والتاريخ والسياسة والرحلة وغير ذلك . وقد جمع نخبة من كلام العرب المتقدمين كتاب مجاني الادب المطبوع في بيروت . والاصل في الكلام للمعاني لا للالفاظ . لان اللفظ قالب او ظرف المعنى يتخذه المتكلم أو الكاتب لسبك ما يصوّره في نفسه و يشكله في قلبه من المعاني فينقل بذلك مقصوده للسامع أو القارئ حتى يعلمه كأنه يشاهده . قال الشاعر :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس يسمى « الفصاحة » و « البيان » لان المتكلم يفصح عما في ضميره و يبينه بكلمات عذبة سلسة و بعبارات جلية خفيفة على القلب واللسان . فالمتكلم على هذا النسق « فصيح » وكلامه ملفوظاً كان أو مكتوباً « كلام فصيح » . وحيث كان المعنى سابقاً للفظ وجب ان تكون الالفاظ تابعة للمعاني وخادمة لها . وليس المعنى تابعاً للفظ كما حكي عن بعض الامراء انه ولى احدهم قضاء « قم » وهي من مدن العراق العجمي بين طهران وكاشان ثم كتب اليه بلا سبب موجب « ايها القاضي بقم قد عزلناك فقم » يعني بلفظ « قم » . فقال القاضي والله ما عزلني الا محبة الامير في التزام السجع . ولا يكمل علم الادب للمتبحر فيه الا بعد ان ينظر في ادب الامم المتمدنة ولو نظرة عامة يطلع بها على مجمل تاريخ ادبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الادراك وبلاغة المعاني و يعرف أساليبهم في النظم

والنثر وتصرفهم في الكلام ويميز بين المتقدمين والمتأخرين منهم

فاذا احاط علمه بذلك فهم الغرض الذي يتطلبه أئمة البلاغة من أي لسان وملة ورأى الهدف الذي يروم كل منهم اصابته فيصوب نحوه القلم عسى ان يكون له مع الخواطىء سهم صائب. لان البلاغة لا تختص باللسان العربي وحده. وكلما ارتقت الامة في سلم الحضارة كان لسانها أبلغ وأدبها أوسع واكمل ليهافت أدباؤها على تنميق الكلام وتهذيب مناحيه وفنونه فيدركون بالتدريج حقائق المعاني التي ربما استعملها آباؤهم واجدادهم في غير مواضعها بسبب الجهل الناشئ من ضيق العمران وقلة العلوم. ويفرغون ما اوجدوه وما اصلحوه من المعاني في قوالب تناسبها من الالفاظ والتراكيب. « فالبلاغة » هي مطابقة اللفظ للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في افادة المعنى المقصود الذي يقتضيه الحال والمقام. وفي المثل لكل مقام مقال. سواء كان المقال أي اللفظ عربياً فصيحاً باعراب أو حضرياً بلا اعراب أو عجمياً وان كان عثمانياً [1] او انكليزياً او فرنساوياً او فارسياً. أو غير ذلك. فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى التركيب المفيد لمقصوده على أساليب العرب وانحاء مخاطباتهم. وينظم الكلام على ذلك الوجه قدر ما يتيسر له. فاذا لازم قراءة الطبقة العالية من كلام العرب الاقدمين حصلت له ملكة فيه وسهل عليه التركيب على اسلوبهم حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب. وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحي نبا عنه سمعه. واذا كثر اشتغاله بالترجمة والكتب المترجمة كانت اساليبه اعجمية مع بقاء الالفاظ في كلامه عربية. كما يتضح لمن امعن النظر في رسائل ابن رشد المطبوعة في اوربا ومنها ما طبع في مصر. وفي رسائل غيره من فلاسفة الاسلام وأهل المنطق. فانه يرى فيها الاساليب الاعجمية واللهجة التي لم يلهجها ادباء الجاهلية

---

(١) اللسان العثماني هو المسمى باصطلاح الناس « اللسان التركي » ويتألف من ثلاث لغات احداها لسان جغتاي وهو اصل اللسان التركي. وثانيها اللسان العربي وثالثها الفارسي. واول من وضع قواعد اللسان العثماني في عصر الاصلاح هو جودت باشا المؤرخ الشهير

وامتاز لسان العرب وخصوصاً لغة مضر بخاصتين : الاولى تشمل حركات الاعراب في اواخر الكلم وكيفية تركيب الالفاظ . فالحركات هي التي تدل في لغة مضر على تعيين الفاعل او المفعول . واما في غيرها من لغة الحضر وبقية اللغات فيدل على ذلك التقديم والتأخير أو القرائن المبنية لخصوصيات المقاصد . وكيفية التركيب هي التي تدل في لغة مضر على ما تقتضيه الاحوال من التأكيد والتعريف والتنكير مثل تقديم لفظ او تأخيره لوصف المعنى وتكييفه ومثل زيادة حرف او تنقيصه لزيادة شيء في المعنى الاصلي لان زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كقولنا زيد قائم وان زيداً قائم وان زيداً لقائم . وفي القرآن الكريم حكاية عن الرسل قولهم في المرة الاولى « إنا اليكم مرسلون » وفي المرة الثانية « ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون » فالالفاظ باعيانها تدل على المعاني باعيانها في كل لسان . وخواص التركيب في لغة مضر من تقديم وتأخير وزيادة حرف تدل على الاحوال المكتنفة بذلك المعنى . واما في لغة الحضر وفي الالسن الاعجمية فاكثر ما يدل على هذه الاحوال بالفاظ وكلمات مخصوصة . ولذا كان الكلام العربي أوجز وأقل الفاظاً وعبارة من غيره . ولهذا اشار نبينا محمد عليه السلام بقوله « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » على ان بقية الالسن لم تخل بالكلية من هذه الخاصة الاولى للسان مضر وحركات الاعراب موجود منها في اللسان العثماني . تقول « زيد كلدي » بسكون آخر زيد ومعناه جاء زيد . و « زيدي جلب ايتدم » بكسر آخر زيد ومعناه جلبت زيداً . وان لم يكسر آخر زيد لا يستقيم المعنى . وأما في لغات اوربا فالاعراب من خصائص اللغتين اليونانية واللاتينية واللغة الالمانية . غير ان الخاصة ربما كانت في لسان مضر اكثر واعرف واثبت . واذا لم يراع الانسان هذه الخاصة في اللسان الذي يتكلمه وقع له ما وقع للوليد مع الاعرابي . وذلك ان الوليد بن عبد الملك بن مروان كان لحاناً وكان ابوه عبد الملك فصيحاً فعرف بلحن ابنه وقال له انك يا بني لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الاعراب فمكث كذلك مدة ثم خرج وهو اجهل مما دخل . فلما بويع الوليد وجلس على كرسي الخلافة دخل عليه اعرابي يشكو صهراً له

فقال الوليد : — ما شانَك (بفتح النون)
فقال الاعرابي : — أعوذ بالله من الشين .
فقال له سليمان بن عبد الملك : — أمير المؤمنين يقول لك ما شانُك (بضم النون .)
فقال الاعرابي : — ختني ظلمني
فقال الوليد : — من ختنَك (بفتح النون)
فقال الاعرابي : — انما ختنني الحجام ولست اريد هذا
فقال سليمان بن عبد الملك : — امير المؤمنين يقول من ختنُك (بالضم)
فقال الاعرابي : — هذا . وأشار الى خصمه

• والخاصة الثانية هي ما في لسان مضر من الاستعارات والتشبيهات والمجازات وأنواع البديع من الكلام وورد أحسنه في القرآن الكريم مثل : أشتعل الرأس شيباً » ومنه في الشعر كقول ابن المعتز « والشمس كالمرآة في كف الاشل » فجمع ذلك أتم واكمل في لسان العرب . ويعدون من الكلام البديع لفيكتور هوكو تشبيهه موج البحر بقطيع الغنم وقوله غنم البحر . وقول كمال بك امام الادب في اللسان العثماني « برق الحقيقة يلمع من تصادم الافكار » . فهذه البلاغة والبيان ديدن العرب . وفي كلامهم كثير من البديع أنواع بغير تكلف ولا تعمل . وبعضهم تصنع له وتكلف ظناً بانه اساس البلاغة والمقصود منها بالذات فملأوا بالبديع والاستعارات النظم والنثر وصرفوا الذهن وأجهدوا العقل حتى قالوا

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

وتغافلوا عن ايضاح معنى المودة وهو من المعاني الكلية الجليلة التي اوضحها ادباء اليونان والرومان والافرنج فيما الفوه من الروايات المضحكة او الفاجعة وعرضوه في المراسح على انظار الجمهور فقدره الخواص حق قدره واستفاد منه العوام

على ان تلك المحسنات البديعة والخصائص اللسانية وان كان لها تأثير عظيم على النفس فهي لم تزل في نظر العقلاء كالحلي والمصوغ للعروس . فالعاقل يجتهد بان تكون عروسه من ربات الجمال والدلال والادب والكمال فان وجد معها شيء من

الحلي فنعم . والا فالمقصود منها هو نفسها وذاتها . فهي الضالة التي ننشدها ونأتي بها ولو من جبال القوقاس فنعلمها لساننا ونلبسها ما عندنا من اللباس ونتمتع بها فهذا اولى من الباس الجارية السوداء الحلي والحلل وصرف النقد والوقت في تزيينها . وللناس فيما يعشقون مذاهب .

فالتكلف في زماننا لتقليد الانشاء العالي ونظم قصيدة ثامنة للمعلقات السبع او سجع مقامات ثالثة لمقامات الحريري والهمذاني ليس فيه كبير فائدة ما دام الاصل في الكلام المعاني والمقصود من المعاني اظهار اسرار هذا الكون الذي نصبح فيه ونمسي ونحن غافلون عن كثير من حقائقه . ولا ندري باي عبارة نترجم عنها ولا كيف نوضح شعورنا واحساسنا بهذا الوسط الذي نحيه وهو سجن لنا . والدنيا سجن المؤمن . فهذه المعاني البليغة العالية ينبغي لادباء العصر سبكها في السهل الممتنع عن الكلام الفصيح بغير تهافت منهم على الكلمات اللغوية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وقراءة الكلام طرداً وعكساً . وامثال ذلك مما يعده العقلاء من الملاعب الصبيانية اذ ليس هذا غاية الادب والغرض منه . وخير اللفظ ما جاء بالطبع والبداهة بلا تكلف ولا تحر في القواميس والمنشآت . فخطبة ناظر المعارف الفرنساوية الذي تلاها بمناسبة يوبيل الكيماوي برتلو هي نموذج في بلاغة المعاني لمطابقتها لمقتضى الحال وايجاب المصاحة . وهي من احسن ما يقال في مثل تلك الجلسة وفي مناسبة ذلك الاجتماع . غير ان ذوقنا ربما يمجها لركاكة الترجمة . فان الالفاظ وان كانت عربية فتركيب هذه الالفاظ بعضها مع بعض لم يجر على اسلوب قس بن ساعدة او سحبان وائل ولا على طريقة الجاحظ امام الادب ولا يشبه رسائل عبد الحميد أو ابن العميد اللذين قال فيهما الثعالبي : « فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد» بل جرى تركيب الفاظ تلك الخطبة على الاسلوب الفرنساوي المترجمة عنه . فاكثر الالفاظ في موضوعاتها التي وضعها فيه العرب الاولون . والركاكة بالنظر الى التراكيب . وربما كانت بالنظر الى بعض المفردات ايضاً لان مفردات الفاظها لم تنتخب من القاموس المحيط ببلاغة اللسان كالذي الفه الزمخشري وسماه اساس البلاغة وطبع بمصر

ثم هناك اسباب اخرى أيضاً تحول بيننا و بين ادراك بلاغة تلك الخطبة وهي عدم وقوفنا على دقائق تاريخ القوم ومزايا لغتهم وتعبيراتهم وفقداننا الملكة في هذا الاسلوب من الخطابة . ولذا ينبو سمعنا عما لم يأت على أساليب بلغاء العرب وعما لم يجر على وفق مذهبهم في فنون الادب . حيث لكل قوم منهج معروف ومسلك مألوف . بل لكل امام في الادب من أي امة كان يذهب فيه مذهباً جديداً ويستخلص لنفسه طريقة مخصوصة يخالف فيها طرق المتقدمين ومذاهبهم . ولذا فاهل الذوق في الكلام اذا عرض عليهم شيء منه قالوا هو على طريقة فلان واسلوب فلان وهو من انشاء فلان دون فلان كما لو عرضت خمر من خمور بوردو على أهل الذوق المشهورين باسم « ديكوستاتور » تقبض الواحد منهم بكفه على الزجاجة حتى اذا سخنت بحرارة اليد وفاح منها الشذا المعروف عندهم باسم (بوكه) هزها ونظر فيها فاذا الخمر في الزجاجة ياقوتة سيالة ثم جرع منها جرعة ذاقها بطرف لسانه وقال لك هي من كرم « شاتولافيت » او شاتولاتور » أو « شاتومارغو » وفي هذه الثلاثة انحصرت الطبقة العليا من طبقات الخمر المعصور بارض « ميدوق » واتفق اهل الذوق والطب على انها من أطيب البقاع وابركها لانبات هذا الشراب الذي فيه منافع للناس واثمه اكبر من نفعه . لانه من جهة ترياق نافع ومن جهة أخرى سم ضار

٢٠

والشعر كالنثر لا يختص بلسان العرب فقط بل يوجد في كل لسان من السن الامم المتمدنة والهمجية فان لاهالي افريقيا اشعاراً يملحون بها على آلات طربهم ويرقصون على انغامها . وكان في الامم السالفة شعراء مجيدون مثل فياسه صاحب ديوان ماهابهاراته ومثل فالميكي صاحب ديوان رامايانه وهما من شعراء الهند وكونهما نظما الديوانين المذكورين باللسان السانسكريتي قبل الميلاد بقرون كثيرة وترجمهما العلماء في زماننا الى اكثر اللغات الاوربية فوجدوا اشعارهما حماسية دينية . وفي الديوان الاول نحو مئتي الف بيت أو قطعة . وهما عند الهنود بمثابة ما عند

اليونان من الالياذه والاوذيسة نظم هوميروس الشاعر الشهير . ولعل البستاني يتحفنا بنشر ما جناه من ادبه [١] فان هوميروس شيخ الشعراء باجمعهم . ومثل شعراء الروم الذين كانوا في القسطنطينية وما جولها من ارض الروم قبل ان يفتحها الفاتح . وشعراء الرومان اللاتينيين وشعراء الفرس وامامهم الحسن بن اسحاق الفردوسي ناظم الشهنامة في القرن الرابع للهجرة . وهو عند العجم كهوميروس عند اليونان وفرجيل عند الرومان ودانتي عند الطليان وميلتون عند الانكليز . وتشتمل الشهنامة على تاريخ اكاسرة الفرس وأخبارهم وقد طبعت مراراً في الفارسية وترجمت الانكليزية والفرنساوية . وترجمها نثراً للعربية الفتح بن على البنداري الاصبهاني وقدمها لخزانة احد الملوك الايوبية

• ذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين « ان الفارسي سئل فقيل له ما البلاغة فقال معرفة الفصل من الوصل [٢] وسئل اليوناني عنها فقال تصحيح الاقسام واختيار الكلام وسئل الرومي عنها فقال حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة. وسئل الهندي عنها فقال وصوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة وقال مرة الناس حسن الموقع والمعرفة بساحات القول »

وفي الامم الاوروبية والاميركية اليوم شعراء أعلى طبقة وابلغ كلاماً ممن تقدمهم من شعراء الامم السالفة . وموازين الشعر في جميع اللغات على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن . والشعر الفرنساوي تبنى اعاريضه على عدد الهجاء فالبحر الاسكندري (الكساندرين) على اثني عشر هجاء في الاصل . والروي أي القافية — وهو الحرف الاخير من كل بيت — موجود في لسان العرب وفي السن غيرهم . ولكن الفرنساويين قبل اختلاطهم بعرب الاندلس لم يكن لاشعارهم روي ولا قواف فاخذوا عن جيرانهم الاندلسيين علم القوافي كما سيجيء تفصيله . فقبل الشروع في بيان الطريقة التي سلكها فيكتور هوكو في علم الادب وشرح أساليبه في

(١) ان الالياذة نظم سليمان افندي البستاني صدرت مطبوعة في مطبعة الهلال سنة ١٩٠٤ .

(٢) الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه

النظم والنثر وفي تصوير القصص والروايات نذكر شيئاً من اخبار العرب ليتبين لنا التأثير الذي أثره ادبهم على أشعار الافرنج وقوافيهم بوجه العموم وعلى فيكتور هوكو بوجه الخصوص . لان هذا الشاعر الحكيم نفح بنفحة من النفس الاندلسي واغتذى بلبان من ارتضع قديماً ثدي الادب العربي . وبيان ذلك ان مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوكو دخلت في حوزة الاسلام حينما قطع أهله جبال البيرينه واغاروا على مملكة اكيتانيا وليون وفتحوا ما في شمالها من المدن مثل ماقون وديجون . ثم دخلت بيزانسون في طاعة شارلكان صاحب الوقائع الشهيرة مع فرانسوا الاول ملك الفرنساويين ومع معاهدة وحاميه السلطان سليمان القانوني وذلك في القرن السادس عشر للميلاد . فنقل الامبراطور شارلكان عائلات كثيرة من الاسبان وانزلهم بيزانسون فاستمروا زمناً طويلاً وامتزجوا باهلها ولم يزل لاهل بيزانسون شبه بالاسبان في ملامح الوجوه وفي اللهجة وفي كثير من الكلمات والتعبيرات مع ان مدينتهم لا تبعد عن باريس اكثر من أربعمئة كيلو متر . وقد أشار فيكتور هوكو الى ذلك في القصيدة الاولى من ديوان اوراق الخريف ووصف بيزانسون بالمدينة القديمة الاسبانية فذهبت مثلاً . وصار الكتاب لا يفترون عن وصفها بهذا الوصف . وعلاقة الاسبان بالعرب و باللسان العربي معلومة لا تحتاج الى ايضاح

٣

أما العرب فلو نظرنا الى تاريخ ادبهم لوجدنا في مقدمته اشعار الحماسة كما نجد ذلك عند بقية الامم كالفرنساويين مثلاً فان النظم في لسان ادبهم دوّن قبل النثر . لان النظم يحصل التأنق في تأليفه والعناية في جمعه فيضم اطراف الكلام وحواشيه ويكون في بادىء الامر أبلغ مما عاصره من النثر فيحفظ في الصدور ويتداول على الالسنة . ثم تزيد العناية به فيدونه بالنقش أو الكتابة ويعلق على الجدران . وهذا معنى قولهم النظم في تاريخ الادب سابق للنثر . والا فاول ما يبدأ من الكلام بالنثر لقرب تناوله وسهولة استعماله . ذكر الباقلاني في اعجاز القرآن المطبوع في مصر

أن العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه الى الشعر وكان عثورهم عليه في الاصل بالاتفاق غير مقصود اليه . فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الأسماع تألفه والنفوس تقبله تبعوه وتعلموا وتكلفوا له . فنبغ فيهم الشعراء واقبل الناس رجالاً ونساء على حفظ أشعارهم وروايه أخبارهم والتفاخر بانشاد القصائد الكثيرة في المواضيع المختلفة والاستشهاد بكل بيت من ابياتها عند الحاجة . فجعلوا الشعر من بين الكلام ديوان علومهم واخبارهم وحكمهم وشاهد صوابهم وخطائهم وانزلوا الشاعر البليغ منزلة الامام العالم الذي يهتدي بنبراس قريحته ويفزع لرأيه في مشاكل الاقضية ومعضلات الامور . فكانت كلمة الشاعر هي الكلمة العليا وقوله امضى من السيف واحدٌ من السنان وحكمه نافذ كحكم الشرع في القضاء . وربما رفع الشاعر بالبيت الواحد عز القبيلة أو هدمه . كما وقع لشاعر قبيلة انف الناقة بعد ان كان اسمها مجلبة للعار بين القبائل . وكان السجع من الكلام يجري على السنة الكهان والحكماء والعرافين واهل الزجر (١) والفال وأنواع الحكم والطب مثل شق وسطيح وحنظلة بن صفوان كاهن حمير وخالد بن سنان العبسي الذي قالت ابنته حينما سمعت قراءة « قل هو الله أحد » كان ابي يقرأ مثل هذا . وامية بن ابي السلت الثقفي وكان افتتاح كلامه « باسمك اللهم » وقس بن ساعدة ورباح بن عجلة عراف اليمامة والابلق الاسدي عراف نجد وغيرهم

غير ان تاريخ ادب العرب قبل الاسلام لم يزل في حيز الخفاء لعدم تمكن العلماء من درس اللغات أو اللهجات العربية السابقة على لغة مضر كلغة حمير مثلا فانه لم يشتهر عندنا من قواعدها اكثر من حديث « امن امبر امصيام في امسفر » حيث استعمل فيه (ام) عوضاً عن (ال) التعريف . ولا يكشف الغطاء عن هذا القسم من تاريخ الادب الا بعد استخراج ما في ارض اليمن من الالواح التي تدعى بالمسند الحميري وما في خرائب مدائن صالح وارض الحيرة وسائر جزيرة العرب من الآثار القديمة العادية التي كان لاصحابها نصيب من الحضارة وكان

(١) وهم صنف من المتكلمين بالغيب يزجرون انفسهم في مسموع او مرئي كسنوح طائر او حيوان ويفكرون فيه بعد مغيبه

لادبهم تأثير على ادب مضر . وقد تفرغ نخبة من مستشرقي الافرنج للبحث عن تلك المستندات والآثار القديمة العربية ولعل التشبث باتمام السكة الحديدية الحجازية يسهل لهم هذا البحث . فممن عرفت من اولئك المستشرقين ادوارد غلازر من الالمانيين وكان اطلعني ونحن في الاستانة على ما اكتشفه من المسند الحميري وجاء به من ارض اليمن . والمسند لوح من الحجر عليه كتابة باحرف مقطعة قائمة الزوايا و بعضها مدور كالدائرة . وحدثني هذا المستشرق الفاضل عن رحلته في جزيرة العرب وهو يتكلم العربية بلهجة يمانية بدوية . وفي سنة ١٨٩٥ نشر في مونيخ كتاباً بالالمانية عن مأرب وحمير والحبشة ثم نشر كتاباً آخر في برلين وقدمه لمؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ . ولما اتيت هذه المدينة حضرت الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ في الصوربون وهو يلقي دروسه في اللغة الحميرية ويفسر المسندات ويترجمها للفرنساوية وله رسالة ترجم فيها ما في متحف اللوفر من آثار حمير وسبأ . ومن المشتغلين باللسان الحميري هالبي الفرنساوي مدرس اللغة الحبشية في الصوربون . وله مقالات في المجلة السامية بحث فيها عن اتفاق الحبشة مع اهل سبأ على اهل حمير النازلين في شرقي حضرموت

وللعلماء اشتغال بهذه اللغة في انكلترا وايطاليا ايضاً لاهتمام الاولى بجمع ما يتعلق بالعالم الاسلامي والعربي ولمناسبة بين الثانية وبين الحبشة واختلاط تاريخ الحبشة بتاريخ حمير . الا ان هذا العلم لم يزل في النشأة الاولى محتاجاً للتدقيق والتمحيص حتى يتيسر للعلماء أن يوضحوا لنا كيف كان اللسان الحميري مع اللسان المضري . فان ابن خلدون يقول في مقدمته « ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اليوم اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد — وهي التي بدون اعراب فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير و بقرائن تدل على خصوصيات المقاصد — وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته . تشهد بذلك الانقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على انها لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في

اللسان الحميري انه من القول وكثير من اشباه هذا وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة اخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر . الا ان العناية بلسان مضر من اجل الشريعة اي القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء . ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بامور اخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في اواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر » اه

فاخذ ذلك المستشرقون من الافرنج واعتنى بعضهم بتدوين اللسان العامي واستقراء احكامه كما فعل موسيو هوداس الفرنساوي في لغة الجزائر العربية ونشر فيها كتاباً ولم يزل يدرسها في مدرسة الالسن الشرقية في باريس كما تدرس ايضاً في مدرسة المستعمرات وفي المدارس العسكرية بباريس وغيرها . ولهم في ذلك مآرب سياسية لا نخوض فيها . الا ان تدوين اللغات العاميه — بالنظر الى انتشار العلم وتوسع الحضارة — له محاذير كثيرة وموجب للتفرقة ونصب الحواجز بين امم هذا العالم العظيم الممتد من المحيط الغربي الى بلاد العجم والهند . والعلماء في عصرنا يجتهدون في ازالة الموانع التي استلزمها تباين اللغات بين الامم ويسعون في ايجاد لغة عامة لعموم بني البشر وفي جميع افراد الانسان على لسان واحد . فكيف يجوز حينئذٍ تفريق لسان امة كبيرة على السنة همجية عامية ووضع لسان مخصوص لكل من الجزائر وتونس ومصر وسوريا وبغداد والموصل والزنجبار والهندوان ثم لمراكش وغيرها من المتكلمين بلسان جزيرة العرب وتدوين كل واحد من هذه الالسن التي يراد وضعها كما تدون الالسن الجديدة الهمجية مثل لسان حوصه وغيره من لغات أفريقية

وأنا نجد اللغة الفرنساوية على ما فيها من التباين بين ما يتكلمه سكان المدن وما يتكلمه أهل القرى وعدم فهم الباريزي السن الباتوا التي يتكلمها القاطنون في جبال البيرينه وافيرنيه وفي الايالات الغربية والجنوبية من اراضي فرنسا لم يجوزوا فيها تدوين لغة الايالة بروفانس أو بريطانيا مثلاً ولا سمحوا بانشاء جريدة فيها .

لادبهم تأثير على ادب مضر . وقد تفرغ نخبة من مستشرقي الافرنج للبحث عن تلك المستندات والآثار القديمة العربية . ولعل التشبث باتمام السكة الحديدية الحجازية يسهل لهم هذا البحث . فمن عرفت من اولئك المستشرقين ادوارد غلازر من الالمانيين وكان اطلعني ونحن في الاستانة على ما اكتشفه من المسند الحميري وجاء به من ارض اليمن . والمسند لوح من الحجر عليه كتابة باحرف مقطعة قائمة الزوايا و بعضها مدور كالدائرة . وحدثني هذا المستشرق الفاضل عن رحلته في جزيرة العرب وهو يتكلم العربية بلهجة يمانية بدوية . وفي سنة ١٨٩٥ نشر في مونيخ كتاباً بالالمانية عن مأرب وحمير والحبشة ثم نشر كتاباً آخر في برلين وقدمه لمؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ . ولما اتيت هذه المدينة حضرت الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ في الصوربون وهو يلقي دروسه في اللغة الحميرية ويفسر المسندات ويترجمها للفرنساوية وله رسالة ترجم فيها ما في متحف اللوفر من آثار حمير وسبأ . ومن المشتغلين باللسان الحميري هالبفي الفرنساوي مدرس اللغة الحبشية في الصوربون . وله مقالات في المجلة السامية بحث فيها عن اتفاق الحبشة مع اهل سبأ على اهل حمير النازلين في شرقي حضرموت

وللعلماء اشتغال بهذه اللغة في انكلترا وايطاليا ايضاً لاهتمام الاولى بجمع ما يتعلق بالعالم الاسلامي والعربي ولمناسبة بين الثانية وبين الحبشة واختلاط تاريخ الحبشة بتاريخ حمير . الا أن هذا العلم لم يزل في النشأة الاولى محتاجاً للتدقيق والتمحيص حتى يتيسر للعلماء أن يوضحوا لنا كيف كان اللسان الحميري مع اللسان المضري . فان ابن خلدون يقول في مقدمته « ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اليوم اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد — وهي التي بدون اعراب فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير و بقرائن تدل على خصوصيات المقاصد — وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته . تشهد بذلك الانقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على انها لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في

اللسان الحميري انه من القول وكثير من اشباه هذا وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة اخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر . الا ان العناية بلسان مضر من اجل الشريعة اي القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء . ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بامور اخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في اواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر » آه

فاخذ ذلك المستشرقون من الافرنج واعتنى بعضهم بتدوين اللسان العامي واستقراء احكامه كما فعل موسيو هوداس الفرنساوي في لغة الجزائر العربية ونشر فيها كتاباً ولم يزل يدرسها في مدرسة الالسن الشرقية في باريس كما تدرس ايضاً في مدرسة المستعمرات وفي المدارس العسكرية بباريس وغيرها . ولهم في ذلك مآرب سياسية لا نخوض فيها . الا ان تدوين اللغات العاميه — بالنظر الى انتشار العلم وتوسع الحضارة — له محاذير كثيرة وموجب للتفرقة ونصب الحواجز بين امم هذا العالم العظيم الممتد من المحيط الغربي الى بلاد العجم والهند . والعلماء في عصرنا يجتهدون في ازالة الموانع التي استلزمها تباين اللغات بين الامم ويسعون في ايجاد لغة عامة لعموم بني البشر وفي جميع افراد الانسان على لسان واحد . فكيف يجوز حينئذٍ تفريق لسان امة كبيرة على السنة همجية عامية ووضع لسان مخصوص لكل من الجزائر وتونس ومصر وسوريا وبغداد والموصل والزنجبار والهندوان ثم لمراكش وغيرها من المتكلمين بلسان جزيرة العرب وتدوين كل واحد من هذه الالسن التي يراد وضعها كما تدون الالسن الجديدة الهمجية مثل لسان حوصه وغيره من لغات أفريقية

وأنا نجد اللغة الفرنساوية على ما فيها من التباين بين ما يتكلمه سكان المدن وما يتكلمه أهل القرى وعدم فهم الباريزي السن الباتوا التي يتكلمها القاطنون في جبال البيرينه وافيرنيه وفي الايالات الغربية والجنوبية من اراضي فرنسا لم يجوزوا فيها تدوين لغة الايالة بروفانس أو بريطانيا مثلاً ولا سمحوا بانشاء جريدة فيها .

واشهى بهم التعصب الى محو ماكتب بلسان الباسك وهم سكان جبال البيرينه من جهة المحيط مع ان المتكلمين بها يفتخرون بقدمهم على سائر الامم الاوروبية . فكيف يصوغ اذاً تدوين لغة الجزائر ؟ واهلها لا يتعذر عليهم فهم (قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل) لاستعمالهم مواد هذه الكلمات الاصلية من وقوف وبكاء وذكر وحب ونزل. واذا لم يفهموا ما بعد ذلك فالقصور ناشيء من الجهل بالجغرافية لا باصل اللغة التي لم يزل لهم باصولها وموادها ملكة راسخة . فان سقط اللوى والدخول وحومل وتوضح والمقراة المذكورة في قول امريء القيس :

قفانبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

هي اماكن معروفة عند اهل الحجاز كما ان مقرة ومقطع الحديد من الاماكن المعروفة عند اهل الجزائر اشهرتها باستخراج معدن الحديد . فبدلاً من تدوين لغة الجزائر العامية كما دونت لغة حوصه، ومن نشر المؤلفات والمطبوعات فيها والاجبار على تعليمها في المدارس للاطفال — لو سعى اهل العلم وارباب القلم في التقرب من لغة مضر المدونة وازالوا منها (العامية) كما ازيلت (الباتوا) من اللغة الفرنساوية وهذبوها من الجناسات والتشابيه الغامضة واختاروا فيها السهل من الالفاظ والتراكيب واصلحوا املاءها وكتابة اسماء الاعلام فيها لكان فعلهم على ما نظن اسهل وانجح من تدوين لسان عامي بل السن همجية واقامة الحواجز بين المتكلمين بها . مع ان ازدياد وسائط النقل والمخابرة يستدعي كثرة اختلاطهم بعضهم ببعض . وعما قريب سيتم مد الخطوط الحديدية ويصبح السفر من مراكش الى بغداد والهند أو الى الحجاز أسهل مما كان قديماً بين مصر القاهرة والاسكندرية . فلا يحتاج المسافر الى استصحاب كتاب « جامع اللغات » ليعلم منه السن الجزائر وتونس وطرابلس ومصر وفلسطين وسوريا و بغداد والحجاز . أما انتشار المطبوعات العربية فهو آخذ بالترقي ونجد لمطبوعات مصر رواجاً في تونس والجزائر ولا بد ان تمتد يوماً على عموم سكان القارة الافريقية

أما لغة مضر فبدون ان تقف على حقيقة الادوار التي دارت عليها ولا على

الاطوار التي تقلبت فيها نجدها في العصر السابق للاسلام على جانب من الفصاحة والبلاغة مشتملة على انواع التشبيه والاستعارة والبديع واكثرها حماسية وفيها من التصورات البديعة والتخيلات الشعرية واللطف والرقة والادب ما يدلنا على ان اللغة لم تكن اذ ذاك في عهد الطفولية فان الفرق بين أشعار المعلقات وبين اشعار « الترو بادور » الفرنساوية عظيم . لما في الاخيرة من الخشونة وعدم الرقة . واذا غازل شاعر الجاهلية فتاة الحي حسبته أديباً من ادباء باريس . . .

ونجد للعرب قبل الاسلام انواعاً كثيرة من فنون الادب والشعر منها القصيد والرجز والاغاني ومنها ما ينشد في الحرب على الدفوف . ومنها ما يحدى به للعيس أو يغنى به للرقص وتسكيت الاطفال ومنها السجع والترسل والخطب والرسائل وضروب الامثال والحكم . والحاصل كانت فنون أدبهم أتقن من معيشتهم البدرية . وكان لهم مؤتمر واكاديمية للتفاخر باللسن والفصاحة . وكانوا يقيمون لذلك المواسم والاعياد فيجتمعون اولاً في سوق عكاظ وهو واد بين مكة والطائف فيه ماء وظل وخضرة فيقيمون فيه شهراً ويذهبون منه الى سوق مجنة ثم الى سوق ذي المجاز وهما بناحية مكة . ثم يذهبون في ذي الحجة الى البيت الحرام موضع حجهم . فكان أدباؤهم وهم ذوو الرئاسة والمكانة فيهم يتنافسون بالآداب والحكم ويقفون بهذه الاسواق لانشاد الشعر وانشاء الخطب فاذا اجتمعوا بسوق عكاظ ضربت قبة لاكبر الشعراء في عصره كالنابغة الذبياني الذي سمي أشعر العرب فجلس في القبة وجاءته الشعراء كما جاءه حسان مثلاً وعرضوا عليه انفس أشعارهم . وقام الحارث ابن حلزة يتبختر بين الجموع بتبختر الجاهلية ويقول :

آذانتا ببينها اسماء ربّ ثاوٍ يمل منه الثواء
بعد عهد لها ببرقة شمّا ء فأدنى ديارها الخلصاء

حتى يأتي على آخر همزيته فيحكم في مقاله أولو الذوق الصحيح والطبع السليم ويميزون فيه بين الغث والسمين ويقابلونه بغيره من كلام المعلقات . ثم وقف قس بن ساعدة على بعير له احمر وقال « ايها الناس اجتمعوا واذا اجتمعتم فاسمعوا واذا سمعتم فعوا واذا وعيتم فقولوا . واذا قلتم فاصدقوا . من عاش مات ومن مات

فات وكل ما هو آت آت » فيكون الناس قد اجتمعوا حوله فيبدأ لهم في الخطبة بقوله « أما بعد ... الخ » كأنه خطيب فرنساوي بل انكليزي يخطب في هايدبارك .

وكان لكل شاعر مبلغ يبلغ عنه الجمهور وراوية يروي له الاشعار . فكانت الرواة في ايامهم كالجرائد في يومنا ولذا كانت الاشعار تنتشر وتشتهر في مدة قليلة بين جميع القبائل في جزيرة العرب.. وانتهوا في العصر السابق للهجرة الى المغالاة في كتابة قصائدهم بالذهب وتعليقها بأركان الكعبة كما فعل اصحاب المعلقات السبع وهم :

(١) امرؤ القيس واسمه جندح بن حجر الكندي وكان ابوه يملك في جهة الحيرة على بني اسد ويضرب المثل في شهرة معلقته فيقال « اشهر من قفانبك » وله غيرها ديوان مشروح ومطبوع ومترجم الى اللغات الاوربية . ويقال ان احسن ما في شعره وصفه الفرس [1] ولذا ضرب المثل بامرء القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب . وقيل ان امرء القيس توفي سنة ٥٤٠ م وكان مغرماً باللهو والزهو والخمر والنساء وكلامه في المعلقة منادمة ومداعبة . ومدح في شعره تغلب على بكر

(٢) طرفة بن العبد وديوانه ترجم الى الفرنساوية في الصوربون وطبعه الموسيو سليغصون (Seligsohn) ومعلقته تبحث في النساء والخمر واللهو وطيب العيش

(٣) عمرو بن كلثوم (٤) والحارث بن حلزة اليشكري من قبيلة بكر بن وائل وله ديوان وفي معلقته الهمزية وفي معلقته عمرو المذكور خبر حرب البسوس التي وقعت بين بكر وتغلب (٥) زهير بن ابي سلمى (٦) عنترة بن شداد وفي معلقتيهما ذكر حرب داحس التي وقعت بين عبس وذبيان . وقصة عنتر

---

(١) بقوله :

وقد اغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل
له ايطلا ظبي وساقا نعامة ... وارخاء سرحان وتقريب تتفل

الشهيرة المطبوعة في بيروت ومصر ترجمها سابقاً للالمانية المستشرق النمساوي همر (Hammer) صاحب تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الادب العثماني وتاريخ الادب العربي . ترجم شيئاً من قصة عنتر للفرنساوية مارسل ديفيك (Devic) معلم العربية في كلية بون بيليه وهي من اقدم مدارس الافرنج . وكان اطباء العرب واليهود المستعربون يدرسون فيها الطب

(٧) لبيد بن ربيعة العامري القائل « الا كل شيء ما خلا الله باطل » وفي كلامه كثير من الحكم ووصف في اشعاره اخلاق عرب البادية واطوارهم وعاداتهم وله غير المعلقة ديوان أشعار طبع منه الجزء الاول في فينا عاصمة النمسا الشيخ يوسف ضياء الدين باشا الخالدي المقدسي سنة ١٨٨٠ وجعل له مقدمة وشرحاً

وظهر من فطاحل الشعراء غير من ذكر النابغة الذبياني وطبع ديوانه الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ (H. Derenbourg) سنة ١٨٦٩ وفسره وحشاه . ومنهم حاتم طي الشهير بالسخاء وقد جمع اشعاره غضبان افندي وطبعها في لوندره وسماها ديوان حاتم طي . ومنهم دريد بن الصمة والشنفرى الازدي والاعشى الاكبر وتأبط شراً وكثير غيرهم . يحكى عن حماد الراوية انه انشد بحضرة الوليد من كلام الجاهلية مئة قصيدة لكل قافية من قوافي الحروف العربية لا تنقص القصيدة عن عشرين بيتاً وفيها ما يربو على المئة بيت . فمها بالغ الحاكي لا تنكر كثرة ما قرض من الشعر على عهد الجاهلية . ولهم غير الشعر والرجز خطب ورسائل وكثير من ضروب الامثال التي نقلت عنهم ودونت في المجاميع

وسمي كلام هذه الطبقة من الادباء « كلام الجاهلية » لجهلهم بما جاء به الاسلام والا فهم ائمة في الادب يقتدى بهم . ولذا اتخذ من جاء بعدهم كلامهم منوالاً نسجوا عليه مثله وقالباً فرغوا فيه شبهه من الالفاظ والتراكيب . ولم يزل الادباء على ذلك الى يومنا هذا كما فعل اصحاب « عكاظ الادب » المطبوع في الاستانة عقب الحرب اليونانية الاخيرة . واذا تأملنا كلام الجاهلية نجدهم وصفوا الطبيعة أحسن وصف وصوروها اكمل تصوير بالنسبة لحالتهم البدوية ولصحاريهم الرملية فميزوا بين انواع الرمل وسموا كل نوع باسم مخصوص مثل (الخفف) وهو

الرمل المنفرج و (العقنقل) الرمل المعقد الداخل بعضه في بعض و (البطن) من الارض و (الخبت) من الارض بكل وذلك من اشكال الارض المختلفة كما قال امرؤ القيس في معلقته :

فقمت بها امشي تجر وراءنا على اثرنا اذيال مرط مرجل
فلما اجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

والمرط نوع من اثوابهم يقال لو شبه الترجيل حسب (مودة) ذلك الزمان. وقد وصفوا في هذا النمط جميع ما شاهدوه في الطبيعة ونطقوا بما شعروا به في قلوبهم ووجدوه في انفسهم من التأثر الحسي وان ذكروا بعيرًا او فرسًا لم يتركوا شكلاً الا شرحوه شرحًا مفصلاً . بحيث كانت الفصاحة هي الاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس التي كانت غاية الاديب منهم اثبات اقتداره على ايراد صور مختلفة للشيء الواحد واظهار تعمقه في معرفة اللغة وحسن تصرفه في استعمال الكلمات المترادفة المتقاربة . وكان لهم نظر جيد في العوالم والكائنات كقول قس في بعض الروايات « ليل داج وسماء ذات ابراج ونجوم تزهر وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مدحاة وانهار مجراة الخ » ولهم اساليب بديعة في ذكر البرق والسحاب والمطر وسائر التغيرات الجوية وكذا في ذكر الرسوم والطلل والمنازل والروض والاشجار ومنابت العشب الى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ومعروف

ولغزارتهم وتمكنهم من اللغة لم يكونوا يتصنعون لتأليف المحاسن البديعة في الكلام انما كانت توابع الكلم تتفق لهم اتفاقاً وتطرد في كلامهم اطراداً بخلاف من اتى بعدهم فانهم صنفوا المحاسن البديعة تصنيفاً وتحروا عليها . ومع ذلك فالبليغ من الكلام لم يصدر من افواه الجاهلية الا بعد التروي والتصنع والتنقيح والتهذيب وقد تعبوا وكدوا أنفسهم وجاهدوا خواطرهم . وكان زهير يسمي كبير شعره الحوليات المنقحة

وقال عدي بن الرقاع

وقصيدة قد بت اجمع بينها حتى اقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

وقال سويد كراع :

أبيت بابواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نزعا

وسموا زهير والحطيئة واشباههما عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . قال الباقلاني « وكانت العرب تعلم اولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض اوزان الشعر كانه على وزن (قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل) ويسمون ذلك الوضع الميتر واشتقاقه من المتر وهو الجذب او القطع يقال مترت الحبل بمعنى قطعته او جذبته » . والفرنساويون يسمون العروض ميتر وميتريك ويقولون انه مشتق من معنى القياس باليونانية وله دروس مخصوصة وأساتذة في الصوربون . والف في العروض العربي المستشرق استانسلاي كوبار معلم العربية في كلية فرانسا عدة رسائل واستنبط فيه قواعد جديدة نال عليها الجائزة وثناء العموم . وعبر العرب عن قول الشعر ونظمه بالقرض وعن الشعر بالقريض . ومعنى القرض القطع لان الشعر مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة . وكانت عنايتهم في الجاهلية مصروفة للكلام على المنظوم من شعر وسجع لان تأثيره في النفوس اشد لما يحدثه من النغمة التي تطرب لها الاذن وتلهو بها عن تمحيص الحق من الباطل في الكلام . وذلك ان الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم اي المسبوك تنقسم الى اعاريض الشعر على اختلاف انواعه . ثم الى انواع الكلام الموزون غير المقفى . ثم الى اصناف الكلام المعدل المسجع . ثم الى معدل موزون غير مسجع . ثم الى ما يرسل ارسالاً وتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعاني على وجه بديع وترتيب لطيف . وهذا القسم الاخير شبيه بالكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له . بخلاف القصيد من الشعر فانه يلتزم فيه قافية واحدة الى آخر الكلام ويشترط ان يكون كل بيت كلاماً وحده مستقلاً عما قبله وما بعده واذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح أو غزل أو رثاء أو هجاء أو حماسة . والرجز ضرب من الشعر ولو لم يلتزم فيه

أن يكون على قافية واحدة . والسجع يلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة و يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء . والمقفى قد انتصر له في زماننا عبد الحق حامد بك مستشار السفارة العثمانية في لوندره والف فيه رواية باللسان التركي على الطرز الجديد . وأما المرسل فهو الذي يرسل فيه الكلام ارسالا بدون تقييد بقافية أو سجع أو وزن أو شيء ما بل يطلق اطلاقاً . و يتأتى في هذا القسم من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في السجع ولا في الشعر .لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع او القافية . وكذلك الشعر يضيق نطاق الكلام و يمنع القول من انتهائه و يصده عن تصرفه على قواعده . ومن يلتزم في كلامه السجع أو الوزن أو القافية فهو يلفق بها ما ينقصه من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال ويجبره بذلك القدر من التزيين بالاسجاع ورن الصوت بالوزن والنغمة كما يزينه ببقية الصنائع البديعة و يغفل عما سوى ذلك من بلاغة المعاني . فلما سلك الشعراء في الجاهلية على حفظ الالفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها عرض بهم القرآن الكريم فقال « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون » قال الباقلاني « فاخبر انهم يتبعون القول حيث توجه بهم واللفظ كيف اطاعهم والمعاني كيف تتبع الفاظهم وذلك خلاف ما وضع عليه الابانة عن المقاصد بالخطاب » . ولما شرعت دية الجنين جاء بعض العرب الى النبي عليه السلام وكلموه في هذا الشأن ولفقوا كلامهم بالسجع ليجعلوا فيه قوة الحجة الدافعة والبرهان القاطع قالوا :

— كيف ندي من لا اكل ولا شرب ولا صاح فاستهل اليس دمه قد بطل

فقال : — اسجاعة كسجاعة الجاهلية ؛ اسجعاً كسجع الكهان ؟

. نعم ان الشعر اذا تهذب ووفي له بجميع الاسباب لم يقارب به من كلام الادميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب . ولكن قلما يفلح الشاعر المجيد الا في بعض الابيات لا سيما في الشعر العربي حيث ضيق فيه النطاق على الشعراء والزموا باتباع القواعد التي تخطاها شعراء الافرنج . على ان اكثر فحول الادب في البلاد المتمدنة صارفون عنايتهم في يومنا الى النثر المرسل دون النظم كما فعل فيكتور هوكو في آخر

عمره وكما يفعل اليوم اميل زولا وغيره مثل تولستوي اديب الروس

٤

ثم ظهر الاسلام وجاء القرآن بأفصح لفظ وأبلغ معنى على اسلوب جديد يخالف اساليب العرب في النظم والنثر فلا هو مرسل ولا مسجع بل تفصيل ايات ينتهي الى مقاطيع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها . ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى من غير التزام حرف يكون سجعاً أو قافية . وسميت آخر الآيات فواصل لانها ليست اسجاعاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف . ووقع اللفظ في القرآن تابعاً للمعنى ولذا فاق كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من انواع بلاغتهم . لان الواحد منهم ان برع في فن من فنون النظم أو النثر قصر فيما دونه والقرآن أبدع في جميع ضروب الكلام وطرق الافادة واشتمل على قصص واخبار وشرائع واحكام ووعد ووعيد وترهيب وترغيب وتنزيه وتحميد وحجج على التوحيد وامثال سائرة ومواعظ زاجرة وأصول ادارية وسياسية وغير ذلك مما لم يحط بنصفه بل ولا بربعه اديب من الادباء ولا شاعر من الشعراء . وناضل عن الحرية وخفف اذى العبودية وندد بالظلمة وتوعدهم بما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . فقال في الوعيد « وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » وبين استبداد المستبدين من الملوك والسلاطين وكيفية ايقاعهم التفرقة بين رعاياهم ثم ايصال الجور والاذى اليهم فرقة بعد اخرى كما كانت سياسة فراعنة مصر ونماردة بابل وقياصرة الرومان والروم واكاسرة الفرس فقال في تصوير هذا الاستبداد :

« ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

قال الباقلاني (١) « ذكر العلو في الارض باستضعاف الخلق بذبح الولدان

(١) اعجاز القرآن

وسبي النساء واذا تحكم في هذين الامرين فما ظنك بما دونهما لان النفوس لا تطمئن على هذا الظلم والقلوب لا تقر على هذا الجور . ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد وكفت في التظلم وردت آخر الكلام على أوله وعطفت عجزه على صدره . ثم ذكر وعده تخليصهم وجعلهم مستقلين بامرهم وارثين لارضهم » ومما ورد في القرآن الكريم في السياسة والمناسبات الدولية التي كانت بين مملكة فلسطين وعاصمتها اذ ذاك اورشليم و بين مملكة سباء وعاصمتها مأرب وما كتب به سليمان بن داوود عليهما السلام الى بلقيس وما اشتغلت به من التدبير والمشورة واستطلاع عواقب الأمور وارسال الهدية لفك عراقيل السياسة بالوسائط الديبلوماتية الى غير ذلك ما نصه : (١)

قال — اذهب بكتابي هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون

قالت — يا ايها الملأ اني القي اليَّ كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم الاّ تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين

قالت — يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون

قالوا — نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين

قالت — ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون . واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان

قال — اتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون . ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون — الى آخر القصة — وترى فيها مجيء اهل سباء مسلمين الى اورشليم والاحتفال باستقبالهم . واراءتهم عز الملك وارتقاء الصنائع وما اتى به الذي عنده علم من الكتاب من عرش الملكتهم حتى قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو . واصطناعهم لها صرحاً يذكرنا قصر الزجاج الذي أنشىء في معرض باريس الاخير . وقيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير . . . . قال

(١) سورة النمل . والذي قال هو سليمان عليه السلام وقالت هي بلقيس وقالوا هم رجال دولتها واعيان بلادها

الباقلاني ـ وهو القاضي أبو محمد بن الطيب الاشعري المعروف بابن الباقلاني وكان ملك الاسلام في بغداد عضد الدولة من آل بويه ارسله سنة ٣٧١ هـ سفيراً الى قيصر الروم في القسطنطينية وهو قسطنطين التاسع من سلالة مكدونيا وكانت السفارة في جواب رسالة وردت عليه منه ـ قال : « متى تهيأ للآدمي ان يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية « الا تعلوا علي وأتوني مسلمين » . والخلوص من ذلك الى ما صارت اليه بلقيس من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها امر المستشار ومن تعظيمهم امرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة . ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها « يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون » وذكر قولهم « قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين » لا تجد في صفتهم انفسهم ابدع مما وصفهم به وقوله « الامر اليك » تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاقه في هذا الكلام وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله « فانظري ماذا تأمرين » ثم الى هذا الاقتصار واي البيان مع الايجاز فان الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز وهذا مما يزيده الاختصار بسطاً لتمكنه ووقوعه موقعه ويتضمن الايجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه . وكم جئت الى كلام مبسوط يضيق عن الافهام ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام ثم لو وقع على الافهام . . . . فما يجب فيه من شروط الاحكام كله أو بمعاني القصة وما تقتضي من الاعظام . ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصاً في وجه الحكمة . أو مدخلاً في باب السياسة . أو مصفوفاً في طريق السيادة . أو مشترك العبارات ان كان مستجود المعنى . أو جيد البلاغة مستجلب المعنى . أو مستجلب البلاغة جيد المعنى أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة . أو مستبهم الجانب مستكره الوضع . وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك الا ما اذا بسط افاد واذا اختصر كمل في بابه وجاد واذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره وبعث العليم في اطرافه عيون مباحثه لم يقع الا على محاسن تتوالى و بدائع تترى . ثم فكر بعد ذلك في آية آية أو كلمة كلمة في قوله « أن الملوك اذا دخلوا قرية

افسدوها وجعلوا اعزة أهلهـا أذلة وكذلك يفعلون » هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره وكالياقوت يتلألأ بين شذوره . ثم تأمل تمكن الفاصلة وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها. وان شرحت لك ما في كل آية طال عليك الامر ولكن بينت بما فسرت وقررت بما فصلت الوجه الذي سلكت فيه والنحو الذي قصدت والغرض الذي اليه رميت والسمت الذي اليه دعوت . ثم فكر بعد ذلك في شيء ادلك عليه وهو تعادل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة فاجل الرأي في سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم والفواتح والبوادي والمقاطع ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ثم اقض ما انت قاض . وان طال عليك تأمل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض سور . ما رأيك في قوله « أن فرعون علا في الارض . وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين » هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى . وسلاستها ورواؤها على ما تشاهد . ورونقها على ما تعاين . وفصاحتها على ما تعرف . وهي تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير ذكر العلو في الارض . . . . الخ » اه

ومن ذلك يعلم اقتدار هذا السفير الكبير في « الانتقاد الادبي » (١) الذي له المقام الاسمى بين علوم الادب . وللافرنج فيه عناية زائدة وجرائدهم تنشر فيه المقالات الضافية . ولجريدة الطان محرر ماهر في « الانتقاد الادبي » وهو « غاستون ديشان » واذا امعنا النظر في القرآن الكريم نجده مملوءاً بالمحاسن والبلاغة ولكننا نتلوه في الغالب تلاوة تعبد بدون نظر في حقائق معانيه وتاريخه . والا تأمل قوله « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » تجد في هاتين الكلمتين من البلاغة والفصاحة ما لم يأت بمثله غابرييل هانوتو على ما هو عليه من الاقتدار في الادب والعلم والسياسة والحرية الفرنساوية . وما ادراك ما الحرية الفرنساوية — هي الحرية التي انقذت امماً كثيرة من الظلم الاستبداد . وجل ما اتى به في الخطبة التي خطبها اخيراً في

(1) Critique littéraires

الجزائر عن سياسة الاستعمار في افريقية وعما يجب على الدولة المتمدنة في جانب اهاليها المسلمين قوله « يجب لهم علينا الامن ، يجب لهم علينا العدل ، يجب لهم علينا كذلك التساهل » أي بالدين . وقد نشر ملخص هذه الخطبة في جريدة طرابلس الشام . فقابل بين تينك الكلمتين وبين هذه الكلمات الثلاث وحكم ضميرك الحر ان كنت من الاحرار واحكم بعد ذلك بما شئت . لو قرأنا القرآن وفهمناه كما ينبغي لوجدنا فيه مقاومة شديدة للظلم والاستبداد وميلاً زائداً للعدل والحرية . ولقد رفع الاستبداد بسببه يوماً ولكن الامم الاسيوية والافريقية أبت الخروج من تحت نير العبودية . أو كما عبر أحد الافاضل بقوله « لما ساد عليهم الجهل ولم يستطيعوا ان يصعدوا الى القرآن بعقولهم انزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم في مستو واحد »

٥

وبظهور الاسلام ظهرت طبقة جديدة من الادباء قيل لهم اهل الطبقة الاسلامية وهم الذين كانوا في صدر الاسلام وايام الدولة الاموية التي امتدت الى سنة ١٣٢ هـ وفي اوائل الدولة العباسية وسمي المتأخرون منهم شعراء الدولتين الاموية والعباسية ولخص حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم الطريقة المثلى في الشعر بقوله :

وانما الشعر عقل المرء يعرضه　　على البرية ان كيساً وان حمقا
وان أحسن بيت أنت قائله　　بيت يقال اذا أنشدته صدقا

وفي مقدمة هذه الطبقة عمرو بن ابي ربيعة كبير قريش وكان له في الشعر مقامات عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به . ومنهم الحطيئة العبسي المشهور في الهجاء وحكم عليه بقطع اللسان في خلافة عمر (رضه) ثم عفا عنه . وكان جرير والفرزدق والاخطل من اعظم شعراء الدولة الاموية وحصل بينهم محاورات ومهاجاة وكان لكل منهم فرقة من الناس تفضل شعره وتطرب لقوله وتنتصر لرأيه وكثيراً ما كان يفضي بينهم الجدال على تفضيل الشعر الى القتال . والمشهور بين الادباء ان جرير مرجح على الفرزدق

في اكثر انواع الشعر وعلى الاخطل في جميع انواعه . وكان الفرزدق والاخطل متفقين على هجاء جرير ومعاداته . واستخرج المستشرق بوشه من مكتبة جامع ايا صوفيا بالاستانة ديوان الفرزدق وطبعه وحشاه وترجمه للفرنساوية وحرر شيئاً عن عروة بن الورد ايضاً . وممن عاصر الفرزدق غيلان ذي الرمة الثقفي صاحب مي بنت مقاتل . ومن هذه الطبقة نصيب و بشار المتوفى سنة ١٦٧ هـ وهو القائل « والاذن تعشق قبل العين أحياناً » وكثير غيرهم ويجمع كلامهم كتاب الاغاني الذي الفه ابو الفرج الاصفهاني المتوفي سنة ٣٥٦ هـ . وكان من نسل مروان الحمار آخر ملوك بني أمية وكتابه هذا مطبوع في بولاق . ومختصره اي رواياته مطبوع في بيروت . وممن اشتهر بالنثر وكتابة الرسائل عبد الحميد الكاتب وكان كاتباً لمروان الحمار فمات منكوباً حينما انقرضت الدولة الاموية . وجمعت رسائله في كتاب

فأهل هذه الطبقة وان نسجوا على منوال شعر الجاهلية فكلامهم اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهلية في منظومهم ومنثورهم وخطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك . والسبب في ذلك حصول الانقلاب في الامة وتأسس الملك والدولة وتوسع حدود المملكة بالفتوحات واختلاط الاقوام بعضها ببعض فاتسعت بذلك دائرة العقول ونهضت طباع اهل الطبقة الاسلامية . وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من انفتاق الذهن وتوسع دائرة الفكر وبما سمعوه من الكلام العالي الطبقة في القرآن والحديث

٦

ثم حصل انقلاب كبير في الامة وقامت الدولة العباسية مقام الدولة الاموية وترجمت كتب العلم والحكمة عن خمس لغات اعجمية وهي :

(١) الفارسية او البهلوية

(٢) الهندية او السنسكرية

(٣) السريانية

(٤) العبرانية وسمي المترجم عنها بالاسرائيليات

(٥) اليونانية

وعكف اهل العلم والفضل على النظر في هذه الكتب ونقلها للعربية شيئاً قليلاً من أدب اللغات الاعجمية وكان في مقدمة الناقلين ابن المقفع (١٠٩—١٤٥ﻫ) واسمه عبد الله بن داذبه وأصله من مجوس الفرس أسلم ودخل في خدمة عيسى ابن علي عم السفاح اول الخلفاء العباسيين . وأشتهر ابن المقفع بالفصاحة والبلاغة حتى قيل بانه الف كتاباً يعارض فيه القرآن كما فعل المتنبي . قال الباقلاني : فليس له كتاب يدعي مدع انه عارض فيه القرآن بل يزعمون انه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع واستحيي لنفسه من اظهاره .. الخ . ثم ذكر له الدرة اليتيمة وقال انهما كتابان احدهما يتضمن حكماً منقولة عن كتاب بزرجمهر في الحكمة والاخر في شيء من الديانات وقد تهوس فيه بما لا يخفى . اه

على ان الكتاب المشهور لابن المقفع هو كتاب كليلة ودمنة المطبوع في بيروت وهو قصة ادبية فلسفية سياسية أول من وضعها أحد ادباء الهند وفلاسفتها ويدعى بيدبا أو بيدبائي وحررها باللغة الهندية فترجمت عنها الى اللغة البهلوية على عهد انوشروان ثم جاء ابن المقفع وترجمها للعربية نثراً . ثم ظهر على عهد هارون الرشيد ابان بن عبد الحميد من شعراء العرب وانتسب للبرامكة وغمر بانعامهم ونظم لهم كتاب كليلة ودمنة فقال بعد المقدمة

هـذا كتاب ادب ومحنه وهو الذي يدعى كليله دمنه
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

وكان لابان نظر جيد في العلم والحكمة ونظم قصيدة فلسفية في مبدأ العالم نسبت لابي العتاهية . وكان ابو نواس يأنف من معاشرته لان كلامه كلام فلاسفة وحكماء لا كلام شاعر اديب متخصص بعلم الادب . واسترحم ابان بن عبد الحميد يوماً من يحيي بن خالد البرمكي بادخاله على الرشيد وعرض اشعاره عليه فاشار عليه يحيي بنظم قصيدته السياسية التي قال فيها :

نشدت بحق الله من كان مسلماً اعم بما قد قلته العجم والعرب
اعم رسول الله اقرب زلفة لديه ام ابن العم في رتبة النسب

وايهما اولى به وبعهده ومن ذا له حق التراث بما وجب
فان كان عباس احق بتلكم وكان علي بعد ذاك على سبب
فابناء عباس هم يرثونه كما العم لابن العم في الارث قد حجب

فلما سمعها الرشيد تهلل وجهه بالبشر وأنعم على الشاعر بعشرين الف درهم ثم ظهر سهل بن هارون الكاتب وصنف للمأمون كتاب ثعلة وعفره يعارض به كتاب كليلة ودمنة في أبوابه وامثاله ويزيد عليه في حسن نظمه . ثم جاء ابن الهبارية واسمه الشريف ابو يعلي محمد بن محمد ونسبه يتصل بعبيد الله بن عباس رضي الله عنه . وكان ابن الهبارية من شعراء نظام الملك وزير الب ارسلان ثم انتسب لابنه ملكشاه ومدحهما بقصائد ونظم كليلة ودمنة وسماه نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة وله كتاب آخر على هذا الاسلوب سماه الصادح والباغم ونظم فيه الفي بيت . وأشعاره سلسة سهلة ومنها :

يقول ابو سعيد اذ رآني عفيفاً منذ عام ما شربت
على يد اي شيخ تبت قل لي فقلت على يد الافلاس تبت

توفي سنة ٥٠٤ هجرية

وترجم غير كتاب كليلة ودمنة من لغات الاعاجم أمثال لقمان الحكيم ولطائف الوزراء ولطائف الملوك وكثير من النصائح والمشورات السياسية والادارية وشيء من كتاب زرادشت وكتاب ماني — قال المسعودي في مروج الذهب « وانتشر بايدي الناس في ذلك الوقت كتاب اصله من بلاد العجم واسمه الف ليلة وليلة غير ان حكاياته لا تشبه حكايات الكتاب المعروف بهذا الاسم المتداول بيننا » واشتهر في الكتابة والانشاء أيضاً الجاحظ (١٦٥ — ٢٥٥ ه) وهو ابن عثمان الكناني الليثي البصري . له طريقة في الانشاء يقال لها طريقة الجاحظ كما ان له مذهباً في الفلسفة وقيل لاتباعه الجاحظية . وله مؤلفات كثيرة في الادب منها كتاب البيان والتبيين وكتاب الامصار وكتاب الحيوان . وقد اختصر المؤلف هذا الكتاب الاخير ويوجد نسخة من المختصر في مكتبة اسكوريال باسبانيا وهي التي طبع فهرست كتبها المستشرق الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ . ويوجد نسخة أصلية من

كتاب الحيوان في مكتبة هامبورغ . وقد سلك مسلك الجاحظ وأخذ طريقته ولم يقصر عنه ابو الفضل محمد بن العميد (توفي ٣٦٠ هـ) وكان مؤدباً لعضد الدولة ومن أعظم وزراء آل بويه وله رسائل كبيرة وأشعار وكتاب (الخلق والخلق) لم ينقحه وأثنى عليه الباقلاني فقال : انه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهب الجاحظ ويكملها على شروط صنعته ولا يقتصر على ان يأتي بالاسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله في كتبه متى ذكر من كلامه سطراً اتبعه من كلام الناس اوراقاً واذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً . وكان ابن عباد وزير فخر الدولة يصحب ابا الفضل ابن العميد ولذا قيل له الصاحب ابن عباد

وممن اشتهر من الشعراء أبو تمام حبيب بن اوس الطائي (١٩٠ — ٢٣١ هـ) وهو ميال للتصنع والتكلف والتعويص في المعاني . وأحسن ما ألفه كتاب الحماسة وهو مختار من كلام الشعراء المتقدمين . ومطبوع وله أيضاً كتاب فحول الشعراء وكتاب الاختيارات . ومنهم ابو نواس (توفي ١٩٥ هـ) وله سبك جيد وحلاوة ورقة . ومنهم ابن الرومي وابن المعتز وأشعرهم البحتري (٢٠٤ — ٢٨٤ هـ) وفضله الباقلاني على جميع اهل عصره لبهجة كلامه وبديع رونقه وديباجة شعره وكثرة مائه . وقال المعري : أبو تمام والمتنبي من الحكماء واما الشاعر فهو البحتري . قالوا والبحتري يغير على ابي تمام اغارة ويأخذ منه صريحاً وأشارة ويستأنس بالاخذ منه بخلاف ما يستأنس بالاخذ من غيره وقد طبعت الموازنة بينهما في مطبعة الجوائب

وكان الخلفاء والرؤساء يشوقون شعراء الطبقة الاسلامية ويجيزونهم بأعظم الجوائز كما يفعل في يومنا الافرنج ولو كان فعلهم مقيداً بالقواعد والنظامات . فان الاكاذيميات تحكم في كل سنة بتوزيع الجوائز النقدية التي تقرر صرفها نظارة المعارف أو يتبرع بها اصحاب الخير ومحبو العلم من ذوي الثروة . فهذا الامر شائع بينهم وله دائماً ذكر في جرائدهم . وكان للخلفاء معرفة بفنون الادب وتبصر بجيد الكلام ورديئه ويحفظون اشعارا كثيرة ويعانون النظم والنثر لتقوى ملكتهم في اللغة حتى اذا رقوا منابر الخطابة او تكلموا في صدور المحافل تمكنوا من استمالة الناس اليهم والفوا بين قلوبهم كما يفعل ملوك الافرنج في زماننا ولا سيما خطيبهم

الشهير امبراطور المانيا فانه من ابلغ الخطباء في الملوك . وهكذا كان الخلفاء يستجلبون القلوب ببليغ الكلام لا بحد الحسام . وظهر في ذوي الرياسة فحول من الادباء مثل ابن الخليفة العباسي المعتز بالله بن المتوكل واشتهر بابن المعتز (٢٤٧-٢٩٦هـ) وتولى الخلافة يوماً واحداً وقتل وهو افضل شعراء بني هاشم . ومثل ابي فراس الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة من آل حمدان المنتسبين لبني تغلب من قبائل العرب وامتدت حكومة آل حمدان في حلب والموصل نحو ٦٠ سنة . ومن شعر ابي فراس الحمداني قوله :

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي ... وما انا مداح وما انا شاعر

وطبع ديوانه في بيروت وكان المتنبي يفضله على نفسه

. وممن اشتهر في الادب ابو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وكلاهما من ادباء القرن الرابع للهجرة ونشرت الجوائب رسائلها . ونسج الحريري على منوال الهمذاني في تأليف مقاماته المشهورة ولم تزل تدرس في الصوربون وقد شرحها شيخ المستشرقين في فرانسا سيلفيستر دوساسي . وينتقد عليها ادبا الافرنج من جهة قصر المقامات وعدم اعتناء المؤلف في تصوير الحكايات وتشخيصها على نسق ما الفه الافرنج او اليونان قديماً وانما صرف الحريري عنايته الى سبك الالفاظ وتصنيعها وكانت ولادته في البصرة ثم نفي الى مشان بقرب البصرة (٤٤٦-٥١٥هـ)

ومن المعلوم ان ايراد خلاصة تاريخ ادب اللسان العربي وذكر المشاهير من الادباء وتعيين طبقاتهم ليس بالامر السهل . ولذا نكتفي بالاشارة الى بعض من دون اخبار الشعراء . فمنهم ابن قتيبة المروذي (٢١٣ — ٢٧٦ هـ) صاحب « ادب الكاتب » وله « ديوان الكتاب » و « طبقات الشعراء » وغير ذلك . ومنهم المبرد الازدي (٢١٠ — ٢٨٦ هـ) وله كتاب الكامل والمقتضب والروضة . ومنهم ابن المنجم (٢٤١ — ٣٠٠ هـ) وكان ابوه من كتاب المأمون ومن نسل يزدجرد آخر ملوك فارس فالف هو في تاريخ الادب كتاب الباهر او البارع في اخبار الشعراء . ثم جاء ابو منصور الثعالبي (٣٥٠ — ٤٢٩ هـ) وهو عربي النسب نيسابوري المولد وكان يحترف بعمل فراء الثعالب فوضع للكتاب المذكور ذيلاً في

٤ مجلدات سماه « يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر » وجمع فيه اخبار شعراء زمانه ونوادرهم واشعارهم . ثم جاء ابو الحسن علي الباخرزي نسبة لباخرز ناحية بالقرب من نيسابور بخراسان وكان من ذوي المراتب العالية وأهل الديوان وتوفي مقتولا سنة ٤٦٧ هـ فحرر ذيلاً ليتيمة الثعالبي سماه دمية القصر وعصرة اهل العصر ومنه نسخة في الاستانة . وزاد عليه ابو الحسن ابن زين البيهقي — وبيهق ناحية بالقرب من نيسابور أيضاً — ذيلاً سماه وشاح الدمية ثم جاء عماد الدين الكاتب الاصفهاني (٥١٩ — ٥٩٧ هـ) وزير السلطان صلاح الدين الايوبي والف كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ومنه نسخة في الاستانة وأخرى في باريس وفيه تراجم الشعراء واشعارهم من سنة ٥٠٠ الى سنة ٥٧٢ هـ والف ايضاً كتاب السيل على الذيل وجعله ذيلا لخريدة القصر . ثم جاء الوراق وهو ابو المعالي سعد بن علي الانصاري المتوفى سنة ٥٦٨ هـ وذيل ما تقدم بكتابه زينة الدهر وعصرة أهل العصر

فهذه المدونات من اهم الاجزاء في تاريخ الادب العربي ويمكن اتمامها باختيار ما يروق من مؤلفات ابي شامة (٥٩٦ — ٦٦٥ هـ) وابوه المقدسي . نشأ هو في مصر وكتابه « كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية » يدرس في الصوربون وطبع في مصر . ومن مؤلفات الكاتب الدمشقي (٧٠٠ — ٧٥٩هـ) وكتابه مسالك الابصار في الممالك والابصار لا يقتصر على التاريخ والجغرافيا بل فيه كثير من التراجم أيضاً ومجلداته نحو ثلاثين وقيل اربعين وهو مرقم في كتبخانة أيا صوفيا في الاستانة من عدد ٣٤١٥ الى ٣٤٣٩ ومنه نسخة في مكتبة باريس الاهلية والهمم جارية في طبعه . ولما كنت في الصيف الماضي بالاستانة شاهدت في كتبخانة الكوبريلي أحد المستشرقين من الانكليز يستنسخ بآلة التصوير الشمسي كتاباً كبير الحجم حسن الخط ليس فيه من التراجم الا حرف العين فسألت فاذا هو « ارشاد الالباء في معرفة الادباء » تأليف ياقوت الحموي الرومي (٥٧٤ — ٦٢٦ هـ) صاحب معجم البلدان الذي طبعه المستشرق ووستنفلد في ليبزيك سنة ١٨٦٩ في اربعة مجلدات وطبع حاشية له في مجلد خامس . وللحموي

من المؤلفات النافعة معجم الادباء (١) ومعجم الشعراء وكتاب اخبار المتنبي وعنوان كتاب الاغاني ومجموع كلام ابي علي الفارسي . . . فاذا كان حرف العين من ذاك السفر الجليل لم يكمل في مجلد ضخم فما بالك في بقية اجزاء هذا الكتاب . ومما يمكن مراجعته من الكتب في هذا الموضوع نزهة الالباء في طبقات الادباء لمحمد بن شاكر الانباري ونسخته في الاستانة وقد طبع على الحجر . وكتاب ريحانة الالباء المطبوع في بولاق . ونفحة الريحانة في طبقات الشعراء للمحبي . ووفيات الاعيان لابن خلكان وفوات الوفيات للكتبي والوافي بالوفيات لصلاح الدين بن ايبك الصفدي واعيان العصر واعوان النصر له أيضاً . ثم تاريخ المحبي في أعيان القرن الحادي عشر والمرادي في أعيان القرن الثاني عشر . وهكذا ينتهي الباحث الى العصر الذي نحن فيه فيجد شيئاً من آثار المعاصرين في الجزء الاول من عكاظ الادب المطبوع في الاستانة عقب الحرب مع اليونان . وقد استعار صاحب عكاظ وهو أبو النصر السلاوي باشا لكل واحد من شعراء العصر لقباً من القاب المتقدمين وسمى به أصحاب معلقات هذا القرن الرابع عشر للهجرة . فامرؤ القيس الثاني لنقيب الاشراف السيد توفيق افندي البكري . وابو العلاء الثاني للاستاذ عبد الجليل افندي براده المدني . ونابغة العراق لجميل افندي الزهاوي ونابغة مصر لاحمد بك شوقي وزهير البلاغة لمحمد ولي الدين بك يكن . وصاحب المعجز لاحمد محرم افندي . وحسان الموصل لشاعر العراق عبد الباقي افندي العمري . وشيخ الادبا لاحمد عزت باشا الفاروقي الموصلي . ولبيد العصر للفيلسوف يوسف ضياء الدين باشا الخالدي . ودريد الحكم لحسن حسني باشا الطوراني . وأبو الثناء للشيخ محمود قبادو التونسي

وأما اللغويون والنحاة فاحسن جامع لاخبارهم ما الفه جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ وسماه « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ورأيت نسخة منه في مكتبة يكي جامع وهي عند الجسر في الاستانة العلية . وطبع في مصر وسوريا واوروبا كثير من مؤلفات الاصمعي وابي زيد الانصاري البصري وابي عبيدة النحوي وابن السكيت وغيرهم من اللغويين الافاضل

---

(١) هو ارشاد الالباء او ارشاد اللبيب الى معرفة الاديب وقد عني بطبعه الاستاذ مرجليوث وصدر منه بضعة اجزاء

٧

لما حدث الانقلاب الكبير في انتقال الخلافة الاسلامية من الامويين الى العباسيين وترجمت كتب العلم والحكمة الى لسان العرب قرأ ادباء المسلمين كتاب المنطق لارسطو ورأوا فيه ذكر اوميروس الشاعر والثناء عليه فلم يحفلوا بشعره ولا بشعر أحد من الاعاجم ولا التفتوا الى اساطير اليونان ولا لما وضعوه من الروايات التشخيصية ولا قدّروا حرية فكرهم ولا ذوقهم في الكلام حق قدره . لاشتغالهم عن ذلك بما لديهم من فنون الشعر وانواع الخطب والرسائل والدواوين والمعلقات ولاسيما ما أدهشهم من كلام الحديث والقرآن . فترجموا كتب المنطق والنجوم والطبيعيات والطب والهندسة ولكنهم لم يترجموا لاديب من ادباء اليونان ولا أدباء الرومان لا قصيدة ولا خطبة ولا رواية ولا حكاية من حكايات أساطيرهم . ولعلهم خافوا على الناس من الرجوع الى عبادة الاوثان ان بحثوا لهم في آلهة اليونان . ومع ذلك فترجمة كتب العلم والحكمة الى لسان العرب ظهر لها تأثير في توسيع افكار الشعراء الاسلاميين وظهر فيهم طبقة جديدة هي طبقة المتنبي والمعري في الشرق وابن هانيء في اشبيلية وهو المسمى بمتنبي الغرب . بحيث كان لاهل هذه الطبقة نظر في كتب العلم والحكمة فكلامهم ابلغ معنى واكثر فوائد لاشتماله على اراء فلسفية وسياسيه ومباحث عقلية وعلمية . غيرانهم خرجوا عن اساليب الشعر القديم ووضعوا من عندهم أساليب مخصوصة . فقام عليهم المتعصبون لاساليب العرب الاقدمين وسلقوهم بالسنة حداد وشددوا عليهم النكير كما فعل أصحاب طريقة كلاسيك في فيكتور هوكو حينما شهر طريقة (رومانتيك)

فالمتمسكون بالاساليب القديمة من ادباء العرب يقولون ان نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على أساليب العرب المخصوصة اذ ليس كل كلام منظوم عند العرب يسمى شعراً . بل الشعر هو « الكلام البليغ » المبني على الاستعارة والاوصاف » المفصل باجزاء في الوزن والروي » مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله و بعده » الجاري على اساليب العرب المخصوصة » فلا بدّ

انْ تجتمع هذه القيود في الكلام المنظوم حتى يسمى شعراً . فما خلا عن الاستعارة والاوصاف مثل منظومات المتون العلمية المدرسية والارجوزات الاخلاقية وقول العامي« أغلق الباب واتني بالطعام » أوما خلا عن تساوي الاوزان واتحاد الروي كقولهم « رب اخ كنت به مغتبطاً اشد كفي بعرى صحبته تمسكا مني بالود ولا احسبه يغير العهد ولا يحول عنه أبداً فخاب فيه املي . . . » لان الوزن لم تتساوَ اجزاؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات . او لم يجر على اساليب العرب المعروفة فهو حينئذ لا يكون شعراً وانما هو كلام منظوم (١) . اما الاسلوب في عرفهم فهو القالب الذي يفرغ فيه الشعر او المنوال الذي ينسج عليه . وذلك انهم يقولون اذا اراد الطالب قرض الشعر ينبغي له ان يكثر من مطالعة أشعار العرب الاقدمين وان يحفظها و يرتاض بها حتى تصير له ملكة في كلامهم فحينئذ يحصل في ذهنه قالب كلي من التراكيب التي رآها في كل شعر من اشعارهم . وهذا القالب الكلي ينطبق على تلك التراكيب فسؤال الطلول قالب كلي يكون بخطاب الطلول كقوله : « يا دار مية بالعلياء فالسند » ويكون باستدعاءِ الصحب للوقوف والسؤال كقوله : « قفا نسأل الدار التي خف اهلها » أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله : « ألم تسأل فتخبرك الرسوم ». وكذا تحية الطلول قالب كلي يكون بالامر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله « حي الديار بجانب الغزل» او بالدعاء لها بالسقيا كقوله :

اسقى طلولهم اجش هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

او بسؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

يا برق طالع منزلاً بالابرق واحد السحاب لها حداء الانيق

وكذا التفجع في الجزع قالب كلي يكون باستدعاء البكاء كقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر . وليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ

أو باستعظام الحادث كقوله « ارأيت من حملوا على الاعواد »

أو بالتسجيع على الاكوان بالمصيبة لفقده كقوله :

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون

منابت العشب لا حامٍ ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية :

ايا شجر الخابور مالك مورقـاً كأنك لم تجزع على ابن طريف ،

أو بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله :

القى الرماح ربيعة بن نزار اودى الردى بفريقك المغوار ،

وامثال ذلك .... فمن اراد قرض الشعر كان هو كالبناء أو النساج والصورة الذهنية المنطبقة في ذهنه كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه . فان خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسداً . ولذا رأى اهل الذوق في قول الشاعر :

لم ادر حين وقفت بالاطلال ما الفرق بين قديمها والبالي

كلام فقيه لقوله ما الفرق بين قديمها لان هذا من تعبيرات الفقهاء واصطلاحاتهم لا من تعبيرات الادباء مع ما فيه من الوقوف بالاطلال . فلم يستحسن اهل الذوق هذا البيت ولا وجدوا فيه رقة ولا بهجة ولا ماء ولذا لم يستحسنوا في الادب كلام الفقهاء ولا الفلاسفة مع ما في كلامهم من المنطق والحكمة لخلوه من هـذا النور الذي يتلالأ في كلام الادباء ويخرج من نفس الاديب ومن قلبه وروحه . وأما كلام الفقيه اوالفيلسوف فيخرج من عقله ومحاكمته ومقايسته . فهو وان كان برهانه قاطعاً الا ان تأثيره على النفوس أقل من تأثير كلام الاديب . ومن كثرة حفظهم لاشعار المتقدمين رسخت لهم ملكة في كلامهم حتى كاد ذوقهم يمج الاسماء التي لم ترد في اشعار الجاهلية . روي ان جرير انشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته :

بان الخليط برامتين فودعوا او كلما جدوا لبين تجزع

كيف العزاء ولم اجد مذ بنتم قلباً يقرُّ ولا شراباً ينقع

قال وكان الخليفة يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله

وتقول بوزع قد دببت على العصا هـلا هزيت بغيرنا يا بوزع

فقال الخليفة افسدت شعرك بهذا الاسم . لان سمع الاديب لم يألف اسم بوزع كما الف هند ومي او فاطم التي مشى بها امرؤ القيس حتى اجاز ساحة الحي

وهي تجرد اذيال المرط الموشى بالذهب ولا مشية فيكتور هوكو بمعشوقته جوليت في مراقص باريس ، مراسحها . ولم يزل الادبا يدنون كلامهم في ذاك القالب وينسجونه على ذاك المنوال حتى يومنا هذا . كما فعل اصحاب المعلقات السبع التي نشرها صاحب عكاظ وكلماتهم السبع التي خصت بكرامة التعليق هي :

كلمة نقيب الاشراف السيد توفيق افندي البكري ومطلعها :

اما ويمين الله حلفة مقسم لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم

وكلمة عبد الجليل افندي براده المدني :

كذا فليكن ما يحرز المجد والفخر كذا فليكن ما يجمع الفتح والنصر

وكلمة جميل افندي الزهاوي البغدادي :

هو الفتح التى في قلوب العدى هولا واثبت ان الحق يعلو ولا يعلى

وكلمة احمد شوقي بك المصري :

بسيفك يعلو الحق والحق اغلب وينصر دين الله ايان تضرب

وكلمة محمد ولي الدين بك يكن المصري :

ابت ضيمها في الناس كيف اضيمها حياة تساوي بؤسها ونعيمها

وكلمة احمد محرم افندي المصري :

منازل سلمى لاعدتك الغمائم ولا درست بالجزع منك المعالم

وكلمة ابي النصر السلاوي باشا المصري :

على مثلها فلتحمد الهمم الغر فما هي الا الحرب اعقبها النصر

فالمتنبي والمعري خرجا عن هذا القالب وذاك المنوال الذي وضعه شعراء الجاهلية وجعل كل منهما له مذهباً مخصوصا في الادب وأساليب معروفة في الشعر ولذا قال ابن خلدون « وكان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون ان نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على اساليب العرب »

وبعد ان كان حسان يقول :

وان احسن بيت انت قائله بيت يقال اذا انشدته صدقا

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول كان زهير لايمدح الرجل الا بما فيه — صار أهل هذه الطبقة من الشعراء المستنيرين بنور ما ترجم من كتب العلم يمدحون باشعارهم امراء العجم الذين لا يفقهون دقائق البلاغة العربية طالبين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الاغراض كما فعله حبيب والبحتري والمتنبي وابن هانئ ومن بعدهم . فان حبيباً الملقب بأبي تمام ولد في قرية بجوار دمشق ونشأ في مصر وطاف الشام والعراق وخراسان يمدح الخلفاء والملوك والامراء بقصائد كثيرة . والبحتري ولد في قرية بجوار حلب ثم ذهب لبغداد ومدح الخليفة المتوكل ثم طاف بلاد الشام ومدح الامراء واجتمع في حمص على ابي تمام . والمتنبي ولد في الكوفة وأبوه سقاء من قبيلة جعف فجاء دمشق ومدح سيف الدولة من آل حمدان ثم ذهب لمصر ومدح كافور الاخشيدي الخصي الاسود . ثم ذهب لبغداد وخراسان ومدح عضد الدولة من آل بويه وغيرهم وهو ممن حاول ان يأتي بمثل القرآن كابن المقفع ولكنهما عجزا وابطلا ما كتباه ولذا هجا بعضهم المتنبي فقال

أي فضل لشاعر يطلب الفضـ ... ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ... ء وحيناً يبيع ماء المحيـا

وكذا ابن هاني متنبي الغرب ولد في اشبيلية وطاف بلاد افريقية ومدح امراء البربر وهو القائل في المعز لدين الله

ما شئت لا ما شأت الاقدار ... فاحكم فانت الواحد القهار

فصار عرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للاولين وصار يقال احسن الشعر اكذبه . وقلد شعراء العرب العجم في مبالغتهم وتملقهم للامراء دفعاً للشر واستجلاباً للاحسان والخير . واستبد الرؤساء بالامر وقويت فيهم الشوكة والسلطة فلم يبق بهم حاجة لاستعمال فن الخطابة وطلاقة اللسان لاجتذاب قلوب الامة اليهم بل رأوا من المصلحة الذاتية قهرهم بالقوة وارهابهم بحد السيف فاستخفوا بالامة وبالرأي العام وتمثلوا بقول ابي تمام :

السيف أصدق انباء من الكتب

و بقول عمارة اليمني السيامي

وشفرة السيف تستغني عن القلم (١)

وفعلوا بالامة ما قاله لها الحجاج سابقاً « لاعصبنكم عصب السلمة وألحونكم لحو العصا ولاضربنكم ضرب غرائب الابل يا اهل العراق . يا اهل الشقاق والنفاق . ومساوىء الاخلاق . اني والله سمعت لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الله في الترغيب . ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب . يا عبيد العصا واشباه الاماء انما مثلي ومثلكم ما قاله بن براقة الهمداني :

وكنت اذا قوم غزوني غزوتهم ... فهل انا في ذا يا اهل همدان ظالم

متى تجمع القلب الذكي وصارماً ... وانفاً حمياً تجتنبك المظالم »

وقال المعتضد عند وفاته في سنة ٢٨٩ هـ وهو سادس عشر الخلفاء العباسيين ولعله ندم على هذا الاستبداد :

ولا تأمنن الدهر اني امنته ... فلم يبق لي خلا ولم يرع لي حقاً

قتلت صناديد الرجال ولم ادع ... عدوًّا ولم امهل على طغيه خلقا

واخليت دار الملك من كل نازع ... فشردتهم غرباً ومزقتهم شرقا

فلما بلغت النجم عزًّا ورفعة ... وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا

رماني الردى سهما فاخمد جمرتي ... فها انا ذا في حفرتي عاجلا القى

ولكن الرؤساء من الاعاجم فعلوا فعلاً بلا قول لعجمة لسانهم واصبح تعاطي الشعر هجنة في الرئاسة ومذمة لاهل المناصب الكبيرة وقدموا الجهلاء على الشعراء ودعوهم بالظرفاء واهملت فنون الادب وبلغ التفريط في جانب الفصاحة للسانية

---

(١) والشطرة الاولى « العلم مذ كان محتاج الى العلم » او « العلم اول محتاج الى العلم » وهو مطلع قصيدة حرض فيها شمس الدولة على تملك اليمن ومن ابياتها المتلهبة تلهب الجمر قوله :

ان المعالي عروس غير وامقة ... ان لم تخلق ردائها برشح دم

ومنها : وكان اول هذا الدين من رجل ... سعى الى ان دعوه سيد الامم

وقد طبع ديوانه الاستاذ هارتويغ ديربورغ سنة ١٨٩٧ مع كتابه النكت العصرية في اخبار الوزراء المصرية

الى درجة كاد فيها الرؤساء لا يفوهون بكلمة في المجالس ويعتبرون السكوت عين الادب واذا اجتمعوا في حفلة اكتفوا بسماع الدعاء المأثور وكثيراً ما يتلوه اجهل المجتمعين ويكون قد حفظ الدعاء من الصغر بالسماع

شاهدت أحد الولاة انخدع بمن يتلو الدعاء المأثور وظنه من العلماء لطول لحيته وكبر عمته فاراد تعيينه في منصب فقيل له امي فلم يصدق ودعاه ليلة وطلب منه ان يقرأ عليه ما كتبته جريدة الجوائب اذ ذاك فلما امسك الجريدة بالعكس فهم الوالي وتلاهى عنه ولم يعينه . ولقد دقق في هذا المبحث عبد الرحيم افندي احمد مبعوث مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ ووجد نسبة تامة بين الحرية وبين ارتقاء لسان العرب فكلما اتسع نطاق الحرية في الدولة اتسع معه نطاق الادب في العربية وزادت فصاحة هذا اللسان وبلاغته وكلما زاد الاستبداد تقيدت عقول الادباء بالسلاسل وصاروا ينطقون بما يوافق الزمان والمشرب لا بما يشعرون به ويعلمونه ويرونه

قال مبعوث مصر المشار اليه واقد لاحظت في المتكلمين بلسان العرب ان الحرية اذا فقدت منهم كثر في كلامهم تكرار (اللازمة) مثل نعم و فاهم . هكذا احلم يا سيدي . الخلاصة . النتيجة وأمثال ذلك من الكلمات التي يرددها المتكلم . هذا في المخاطبات بين اثنين وأما في الاجتماعات العمومية كالافراح والعزاء واستقبال الولاة والقضاة فاما ان ينقضي الاجتماع بالسكوت والهمس أو بتلاوة الدعاء المأثور. وان جعل للادب حرمة فيتلى في ذاك الاجتماع قصيدة مدح أو تبريك أو عزاء وينفض الجمع بغير أن يفوه الرئيس بما يقتضيه الحال والمقام ويصور بكلامه حالة تلك الهيئة المجتمعة

٨

أما اهل الاندلس فلما وجدوا في جزيرتهم سماء صافية وأرضاً طيبة وهواء نقياً واشجاراً مزهرة وأنهاراً جارية وجبالاً راسية وسهولاً واسعة اتسعت أفكارهم واستبحر عمرانهم وراقت أشعارهم ورقت معانيهم وتهذبت فنون الشعر ومناحيه في قطرهم وبلغ التنميق فيه الغاية وكثر فيهم الادباء والشعراء . فوسعوا دائرة الادب

ونظموا الشعر في جميع الاعاريض المعروفة عند العرب . وأتوا بالمطولات في جميع مذاهب الشعر واغراضه من نسيب ومدح ورثاء وهجاء . ثم لم يكتفوا بكل هذا بل وجدوا الزمان والمكان يقتضي لهما فنون جديدة من الشعر ينسج على منوال غير المنوال الذى وضعه عرب الجاهلية ويقرض في عروض غير عروضهم فغيروا اسلوب الشعر وعروضه كما فعل فيكتور هوكو واهل طبقته في تغيير عروض الشعر الفرنساوي وأستحدث المتأخرون من الاندلسيين الموشح والزجل والمربع والمخمس والمعصب على اربعة اجزاء والمزدوج والكاري والملعبة والغزل وعروض البلد والاصمعيات والحوراني والمواليا والدوبيت وهما لاهل الشرق وغير ذلك من التفنن الذي لا يدخل تحت حصر . فاول من وضع الموشح مقدم بن معافر الضريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله احمد بن عبد ربه (٢٤٦ — ٣٤٨ ه) صاحب كتاب العقد الفريد . وقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً عجيباً ولم أدخل مكتبة من مكتبات الاستانة [١] الا واجد فيها نسخة او اكثر من هذا المؤلف . ثم شاع استعمال الموشح في الاندلس واستظرفه الناس ونظم كثير من الادباء ونسج على منوالهم أدباء الشرق وطبع كثير من الموشحات واشتهر . فمنها ما نظمه الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر الاندلس والمغرب . وكان معاصراً لابن خلدون وكانه ندب حضارة الاندلس بمطلع هذا الموشح حيث قال :

جادك الغيث اذ الغيث هما يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما في الكرى او خلسة المختلس

ومن ابدع ما أتوا به من الموشحات قول بعضهم :

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح

(١) في الاستانه ما يقرب من الخمسين مكتبة تختلف في الجسامة والاهمية ومجموع ما فيها من الكتب اقل من ثمانين الفاً بقليل . وكتب فهرستها مطبوعة ولكن فيها خطأ كثيراً وربما قيد في الفهرست المجموع المشتمل على عدة رسائل باسم الرسالة الاولى . وفيها من نفائس الكتب ما لا يقدر

ومعصم النهـر في خلل خضر من البطاح

ثم نسج أهل الامصار على منوال الموشح ونظموا مثله بلغتهم الحضرية من غير التزام اعراب وسموا هذا النوع من الموشح بالزجل وأول من ابدعه أبو بكر ابن قزمان . ومع انه قرطبي الدار كان يتردد كثيراً الى اشبيلية مركز الادباء ومجمع الظرفاء وهي على نهر الوادي الكبير تشبه حمص القديمة من نهر العاصي . ولذا اطلقوا عليها اسم حمص فكان ابو بكر ابن قزمان يركب مع اصحابه في النهر للنزهة والصيد وتدور بينهم المحاضرات الشعرية والمحاورات الادبية وهم في الزورق .وقد استخرج صاحب جريدة الارز من مكتبة رومة شيئاً من زجل الاندلسيين ونشره في مجلد . وأما الاصمعيات فهي الشعر البدوي وسميت اصمعيات نسبة للاصمعي راوية العرب (١٢٢ — ٢١٦ ﻫ) وهي قصيدة طويلة بلا اعراب بل هي بلغتهم الدارجة ويبتدأ فيها غالباً باسم الشاعر وفيها كثير من البلاغة والفوائد التاريخية . والمعصب يجثون فيه على أربعة اجزاء يخالف آخرها الثلاثة في راوية ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة . والحوراني بارض الشام . ولا نطيل الكلام ببيان هذه الفنون وأقسامها وفيها من البلاغة والفوائد التاريخية ما لا ينكر . بخلاف ما احدثوه من الصنائع اللفظية

وبيان ذلك ان ادباء العرب في الجاهلية والاسلام صرفوا عنايتهم في النظم والنثر الى الالفاظ لا الى المعاني فالهدف الذي كان الاديب منهم يروم اصابته هو التفنن في طرق الافادة وبيان المعنى الواحد بأساليب مختلفة من الكلام وشبهوا المعنى بالماء والالفاظ والتراكيب بالاناء فمنه آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف . فغرض الشاعر منهم اسقاء سامعه الماء الواحد الذي لا يختلف ولا يتغير باجمل اناء يصوغه له حسب قدرته . ولم يكن غرضه اسقاء سامعه انواع المياه الخفيفة المهضمة من منابع مختلفة معدنية ولا اسقاءه انواع الخمور او المرطبات والبزورات باي اناء كان . ولذا اظهر الادباء كل مهارتهم في الالفاظ وبينوا اقتدارهم في معرفة اللغة وحفظ الاسماء الكثيرة والمترادفات وافادة المعنى الواحد بطرق مختلفة فكانت الالفاظ طوع قريحتهم يتصرفون بها كما يتصرف الصائغ في سبك

الفضة . فألفوا في الالفاظ المهمل والمنقوط والمشجر وما يقرأ طرداً وعكساً ولزموا في القوافي ما لا يلزم ونظموا الحالية وامثالها — يروى عن اديب انه اجاب من شتمه بقوله الكلب من لا يعرف للكلب مائة اسم . وحفظوا اسماء كثيرة للبعير والناقة والسيف ولكل ما اشتهر بالخسة والشرف . وقالوا كثرة الاسماء تدل على شرف المسمى او خسته . ونجد امرأ القيس اذا وصف الفرس لم يدع عضواً من اعضائه الا شرحه تشريحاً . وألفوا كتباً كبيرة من الاحرف المهملة او المعجمة مثل التفسير الذي الفه مفتي الشام السابق المرحوم محمود افندي حمزه بالحروف المهملة . ولما طبع هذا التفسير بدمشق بعثني والدي بنسخة منه الى المرحوم مفتي الخليل التميمي وكان علامة الديار المقدسية . فنظر في التفسير طويلاً ثم رده الي وقال لو لم يقيد قلمه بالاحرف المهملة لافادنا با كثر من هذا . وكتاب عنوان الشرف المشتمل على عدة علوم في متن واحد يقرأ بصور مختلفة وهو مطبوع في مصر . وعلى نسقه كتاب آخر مطبوع في الاستانة . ولما قال العماد الكاتب « سر فلاكبا بك الفرس » اجابه القاضي الفاضل « دام علاء العماد » . والجملتان مما يقرأ طرداً وعكساً . وكان القاضي الفاضل رئيساً المراسلات السياسية عند السلطان صلاح الدين الايوبي والعماد الكاتب بمعيته رئيساً لقلم المصالح الشامية وكتابه الفتح القدسي طبع في السنين الاخيرة . وقال ابو عبد الله ابن يبس من علماء الاندلس وهو شيخ لسان الدين بن الخطيب المشهور :

اساجعه بالواديين تبوأي ثماراً جنتها حاليات خواضب
دعن ذكر روض زانه سقي شربه صباح ضحى طي ظباء عصائب
غرام فؤادي قاذف كل ليلة متى ما نأى وهناً هواه يراقب

فجمع في اول الكلمات حروف الهجاء من الالف الى الياء على الترتيب

فادباء الافرنج يقولون . نعم ان الشعر العربي فيه كثير من الصنائع البديعية وله رونق وبهجة وفيه تهييج للمسامع وهو على اسلوب التوراة وعلى نسق اللغات السامية ولكن الكلام الذي فيه تصنع في الالفاظ وتعمل في الشكل الخارجي لا يكون فيه حركة ذهنية ولا تخيل فكري . وما لم يكن فيه ذلك ليس فيه احساس

ولا عظمة مطلقاً واذا ارتفع نفس الشاعر او الكاتب في الكلام الذي فيه تصنع وتمحل لم يبق على ارتفاعه بل ينقطع حالاً وينتقل الى غير ما هو فيه . بخلاف الشعر اليوناني او الافرنجي كرواية ايرناني مثلاً فان فيكتور هوكو نظمها على نفس واحد ونسق واحد وأبدع فيها بما قاله عن لسان شارلكين من الكلام العالي الملوكي فاذا نطق به المشخص على مرسح التشخيص أخذ بمجامع القلوب واستمر المشخص يهدر كما يهدر النهر حتى يصل كلامه لاعماق افئدة السامعين ويؤثر فيها تأثيراً عظيماً . ومن قاس بنظره بين مقامات الحريري وبين رواية مضحكة من روايات موليير التشخيصية فهم معنى اعتراضهم وحقيقة انتقادهم على مقامات الحريري والهمذاني وامثالها . وينتقدون على المقامات ايضاً من جهة انهتك بالاخلاق والتغزل بالبنين كالتغزل بالبنات ووضع الحب في غير موضعه الطبيعي مما لم نعهده في كلام ادباء الافرنج المشهورين . الا من ندر منهم مثل الاديب الانكليزي الذي حكم عليه منذ سنوات في لوندرا ودافع عن نفسه بمشروعية هذا الحب في اصل الخلقة والطبيعة وبوجوده عند اليونان والرومان

والحق ان هؤلاء الافاضل لم يقصدوا بتأليف المقامة تصوير رواية مضحكة على اسلوب الكوميدية ولا رواية محزنة على نسق التراجيدية . وانما قصدوا اظهار المقدرة على تصنيف الكلام وتدبيجه بديباج الاستعارات والباسه حلل التشابيه وترصيعه بلآلىء البديع كقول الحريري في وصف الخطيب « يختلب الاسماع بجواهر لفظه ويجتذب القلوب بزواجر وعظه » من الكلام المدبج المصنع المرصع الذي لو نطق به على مرسح التشخيص لا يفهمه العوام ويحتاج الخواص الى النظر في صنائعه واعمال الفكر في بدائعه . والا لو صرف الواحد من اولئك الافاضل عنايته لتصوير رواية على نسق روايات اليونان أو الرومان أو الافرنج لسقانا بكأس من الزجاج الشفاف أطيب الخمور واعلاها طبقة . ولكنه أراد أن يغترف من ماء البحر باناء صاغه لنا من الذهب الخالص وطلاه بالمينا الثمينة ورصعه فوق ذلك بعروق واوراق من الجواهر واللآلي ليخفي لنا الماء بابهى اناء ويرينا أحسن المصوغ والمجوهر . وقد يغرق فكر الكاتب العربي الملتزم للصنائع البديعية في لجج تلك

الاستعارات والجناسات ويحتاج في استخراجه الى غواص ماهر له ملكة راسخة في اصطلاحهم . لان الكاتب منهم لم يكتب للعوام واهل السوق وانما يكتب للخواص من علماء الرجال وأدبائهم ولاصحاب الذوق منهم في الكلام وفي معانيه . ولذا فهو يتجنب الكلمات السوقية المبتذلة وينتقي أعلى طبقات الكلام واعوصها في اللغة . فالمعري على ماله من جلالة القدر في الادب لم يسقنا الحكمة من كأسه الا وهو يغوص في المباحث اللغوية ويأتي بالشواهد والامثال كما يتضح لمن طالع رسالة الغفران وهي التي شبهها مندوب مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر برسالة الجحيم التي الفها الشاعر دانتي الطلياني . ومن طالع رسالة دانتي أو ترجمها رآها تسيل على نسق واحد كما يسيل الماء ليس فيها تصنع في الالفاظ والتراكيب ولا فيها احتياج الى تفسير الالفاظ اللغوية والاستشهاد بالكلام المعترض

فالاندلسيون أصلحوا كثيراً من الخلل الموجود في ادب العرب وجاؤا بالمطولات في فنون كثيرة من الشعر والنثر واوجدوا فنوناً مستحدثة واتبعوا في الكلام شعورهم واحساسهم القلبي فطافوا على قرائحهم بصحاف من ذهب واكواب فيها بعض ما تشتهي الانفس. ونرى في توصيفهم المناظر الطبيعية وتصويرهم وجوه الارض مشابهة باشعار الافرنج كوصف حمدونه وهي من بنات الاندلس الشواعر لوادي آش وهو في أيالة غرناطة قالت :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم (١)
حللنا (٢) دوحه فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
ورشفنا على ظمإٍ زلالاً الذّ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وقال أبو الفداء لا بل الابيات لاحمد بن يوسف المنازي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ وزير ابي نصر احمد بن مروان الكردي صاحب ديار بكر وترسل الى القسطنطينية ومرّ في بعض اسفاره بوادي بزاعا فاعجبه حسنه فقال فيه الابيات . ووادي بزاعا في ولاية حلب واليه ينسب أبو فراس الحمداني وغيره من الشعراء

(١) نسخة : وقاه مضاعف النبت العميم . (٢) نزلنا

ولو طال على الاندلسيين الامد في الحضارة وتعاقبت الادوار على اللغة وتوالت عليها الانقلابات لاتوا باحسن مما جاء به فيكتور هوكو وأميالهم زولا من محصول العقل ومجتنى الفكر البشري . ولكن عاجلهم الانقراض وفاجأهم الاستبداد فامحلت عقولهم وسدت قرائحهم . وقد اجتمعت في باريس بوفد السلطنة المراكشية وهو ذاهب لحضور الاحتفال بيوبيل فيكتوريا ملكة الانكليز فوجدت رئيس الوفد الذي هو السفير الكبير أميًا

ثم ان العارفين باللغات نصوا على ان لادب اللسان العبراني تأثيرًا على ادب العرب قبل الاسلام و بعده وذكروا مشابهة وتواردًا في الخواطر بين ما جاء في شعر امرىء القيس الذي ضرب فيه المثل اذا ركب و بين ما ورد في سفر ايوب من التوراة في وصف الفرس . ونقل بعد الاسلام من العبرانية الى العربية ما سمي بالاسرائيليات مثل التواريخ وقصص الانبياء ومناقب الصالحين مما هو في التوراة والتلمود . وكان نقلها عن احبار اليهود الذين اسلموا مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالهما رضي الله عنهم . وقد رأينا فيما سبق كيف ترجم عن اللغة الفارسية والهندية كتاب كليلة ودمنة وما شابهه وكيف نسج الادباء على منواله واعتنوا بنظمه مما كان له مفعول قوي في الحركة الذهنية والتصورات الادبية والاختلاقات الفكرية . ومع ذلك فجميع ما ذكر لم يكن له كبير تأثير على الشعر العربي ولم يغير شيئاً من اساليبه القديمة ودامت اساليب شعراء الجاهلية هي الهدف الذي يصوب نحوه كل شاعر بالعربية في قديم الزمان وحديثه

فيتضح مما تقدم ان العرب لم يأخذوا من الامم الذين ترجموا كتبهم الا العلم والحكمة فقط ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم ولا ترجموا شيئاً من ذلك . مع انهم رأوا في كتاب المنطق لارسطو ثناء طيباً على اوميروس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلدوه ولا اتبعوه ولا نهجوا منهجه في شيء ولم يكن للكتب المترجمة تأثير على طبقة المتنبي والمعري وابن هاني الا من جهة افادتهم الاراء الفلسفية لا من جهة افادتهم اساليب النظم وطرق الكلام

ومن فحول هذه الطبقة ابو العتاهية وكان في ايام المهدي وهارون الرشيد

والمأمون واكثر في اشعاره من ذم الدنيا لغدرها بابنائها ومن تذكير الغافلين بالموت وتشويقهم للآخرة ونعيمها ومن لطيف شعره :

الا اننا كلنا بائدٌ وايٌّ بني ادم خالد
وبدؤهم كان من ربهم وكلٌّ الى ربه عائد
فياعجب كيف يعصى الاله ام كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدلُّ على انه واحد

ومن فلاسفة الشعراء ايضاً ابن الشبل ابو علي حسين بن عبد الله البغدادي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ وكان له وقوف على كثير من علوم الحكمة والفلسفة وله ديوان وقصيدة فلسفية يقول فيها :

بربك ايها الفلك المدار اقصدٌ ذا المسير ام اضطرار
مسيرك قل لنا في اي شيء ففي افهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار
وعندك ترفع الارواح ام هل مع الاجساد يدركها البوار

الخ

ولابن سينا والرازي اشعار فلسفية وقصيدة ابن سينا في النفس مشهورة ومنها :

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كرهٍ اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع

الخ . . .

وله اشعار بالفارسية ايضاً يرد بها على من اتهمه بالكفر والالحاد

ومن كلام أبي بكر الرازي محمد بن زكريا قوله

لعمري ما ادري وقد آذن البلى بعاجل ترحال الى اين ترحالي
واين محل الروح بعد خروجها من الهيكل المنحل والجسد البالي

الى غير ذلك مما اتى على هذا النسق من كلام اهل هذه الطبقة

فان لم يكن لفنون الادب الاعجمية تأثير كبير على شعر العرب ونثرهم فهل

لفنون الادب العربي تأثير على شعر الافرنج ؟

بينا انا ابحث عن جواب هذا السؤال رأيت في جريدة طرابلس الشام عدد ٤٦٢ مقالة في الزجل والتوشيح وكتاب العذارى المائسات الذي استخرجه صاحب جريدة لارز من سفر قديم العهد مخطوط بالحرف العربي المتبج . عثر عليه في خزانة كتب بدير القديس انطونيوس للرهبانية الحلبية في رومة وقال فيه :

« فتصفحته فاذا فيه طائفة كبيرة من الشعر الفائق مقطعات ومختارات خرج بها ناظموها عن اوزان الشعر العربي المعينة واجزاء بحوره المفروضة واحكام أعاريضها وضروبها المطردة . بيد انهم اجادوا في ذلك منتهى الاجادة فانتقيت مما عثرت عليه كل نفيس . . . . خدمة لاهل الادب واثباتاً لسبق العرب اليها . . »

وبعد ان ذكر صاحب المقالة تعريف الموشح والزجل وعروض البلد والمزدوج والكاري والملعبة والعزل وغير ذلك قال :

« وقد استحسن شعراء الافرنج من الاسبان والالمان والطليان والفرنساويين هذه الضروب من فنون الشعر العربي ونسجوا وعلى منوالها كما يرى ذلك في دواوين شعرائهم . ولا مراء بان ذلك انتقل اليهم من العرب حيث لم يأنسوا بانوار هذه المستحدثات الا في اواخر القرن الثالث عشر . والمتصفح الكتب العرب والافرنج يرى شذرات من هاتيك العذارى ولكن قل ان يراها مجتمعة في صفحات عديدة أو كتاب واحد مع انها في درجة عليا من الحسن والجودة وتطريب السامع » (انتهى)

فايضاحاً لمجمل هذا القول رأينا ان نبحث في منشأ الادب الافرنجي وفي دخول العرب بلاد الافرنج

٩

كانت فرانسا في قديم الزمان تسمى ارض الغول وكان يسكنها قبائل الغولوا والسلت (القلت) من البربر المتوحشين . فلما استبحر عمران الرومانيين في رومة وقويت شوكتهم ساقوا العسكر من ايطاليا على سواحل فرنسا الجنوبية واستولوا على اسبانيا لجودة الهواء والارض فيها . وشكلوا في اطراف مرسيليا ومصب نهر

الرون ولاية سموها بروفانس ومعناها الايالة وجعلوا عاصمتها مدينة اكس وهي في شمالي مرسيليا . وبنوا على الحدود الاسبانية مدينة نربون بالقرب من مستنقع على شاطئ البحر واتخذوها محطاً لرحالهم في سفرهم الى اسبانيا والى الحمامات المعدنية التي في جبال البيرينة . وقبل الميلاد بخمسين سنة تعين يوليوس قيصر والياً على بروفانس فوسع حدود الولاية وفتح ارض الغول والحقها باملاك الدولة الرومانية فصارت الولاة ترسل اليها من رومة ومعهم العسكر والمأمورون . فنظموا ادارتها وفتحوا طرقها وعمروا فيها القلاع والحصون والمدن ونشروا فيها شيئاً من حضارتهم ومن لغة عوامهم وهي اللغة اللاتينية الدارجة . وادخل المبشرون بالمسيحية الدين فيها فصارت اللاتينية لغة الدين والدولة واستمرت بلاد الغول في ايدي الرومانيين نحو اربعمائة سنة

وحينما انقسمت دولة الرومان الى شرقية مقرهــا القسطنطينية والى غربية مقرها رومه وذلك في سنة ٣٩٥ م كانت فرنسا في قسمة الغربية ضرورة . غير ان تشتت الولاة وضعف قوتهم العسكرية اباح لقبائل الجرمان التجاوز الى أرض الغول والاستيطان فيها كما استوطن من قبلهم قبائل القوط والفاندال ارض اسبانيا وسموا الاندلس باسمهم فقالوا فاندالوسيا أو اندالوسيا . ففي اوائل القرن الخامس للميلاد نزلت قبائل الويزي قوط في جنوب نهر لوار المار في وسط فرنسا والمنصب في المحيط بالقرب من مدينة نانت . ونزلت قبائل البورغوند في وادي الرون وجبال جورا ونزلت قبائل الفرنك في شمالي أرض الغول أي في بلاد البلجيك ونزلت الالمان على ضفاف الرين العليا . واستمرت حكومة الرومانيين محصورة وسط بلاد الغول على ضفاف نهر السين . غير ان القبائل النازلة سالموا الحاكم الروماني وقاتلوا تحت قيادته قبائل الهون الاسيوية وكانت قد هجمت على غربي اوروبا وخربت البلاد واراقت الدماء فهزموا رئيسهم اتيلا سنة ٤٥٠ م امام مدينة شالون على نهر مارن . فلمت قبائل الهون شعثها وجمعت جموعها وفاضت على الممالك الرومانية في ايطاليا كالسيل الجارف واستولوا على رومة سنة ٤٧٦ م وابادوا ملكها .

فتفردت قياصرة الروم في القسطنطينية بالحكم على الرومانيين واستقلت القبائل النازلة في ارض الغول وكان أشجعهم واقدرهم قبائل الفرنك فاستبدوا بالامر وطرد رئيسهم قلوفيس الوالي الروماني وقام مقامه في حكومة الغول وتزوج بمسيحية من البورغوند فنصرته هو وقومه ونصره الرهبان على قبائل البورغوند والويزي قوط فحكم عليهم واسس سنة ٤٨١ الدولة التي سميت باسم جده «ميروفة» فقيل لها (ميرونينجيان) أي آل ميروفة وهي اول دولة من الافرنج ودام حكمها ثلاثة قرون . وحيث كان ملوك الافرنج يقسمون الملك بين أولادهم انقسمت دولة الميروفينجان الى اقسام متفرقة فضعفت قوتها وتضعضعت واصبحت ايام دخول العرب اليها منقسمة الى اربع ممالك يملكها ملوك من آل ميروفة وهي

(١) اوستراليا أي المملكة الشرقية وهي عبارة عن الالزاس واللورين وما حاورها من ضفاف نهر الرين . ولم يكن للملكها من آل ميروفة نفوذ فيها بل كانت الكلمة فيها لاعيانها وكبيرهم دوق أوستراليا ومقرهم مدينة متز

(٢) نوستريا أي المملكة الغربية وهي على ضفاف السين الى اورليان جنوباً وعاصمتها باريس وكذا أورليان والمالك عليها من سلالة ميروفنجيان اصحاب الملك الشرعي على عموم فرنسا

(٣) بورغونيا وهي على ضفاف الرون والسون وعاصمتها ديجون

(٤) اكيتانيا وهي ما بين جبال البيرينة ونهر غارون المنصب في المحيط بعد مروره بطولوز وبوردو . وكانت اذ ذاك تحت حكم الدوق أود الملقب بدوق اكيتانيا وهو من نسل ميروفة ومقره طولوز . وتسمى الايالة المحيطة بها لانغيدوق وما في جنوبها سبتيمانيا كما يسمى القسم الذي على ساحل الاوقيانوس المحيط غسكونيا وأطلق عليه في كتب العرب ارض غشكونية

في سنة ٦٨٧ م تداخل دوق اوستراليا المسمى بيبن دريستال في شؤون مملكة نوستريا لغفلة ملوكها من آل ميروفه واهمالهم مصالح الملك حتى اطلق عليهم اسم الملوك البطالين لقعودهم وتخنثهم . وجعل بيبن نفسه مشيراً للملك في باريس واميراً للامراء في المملكة على مثال ما حدث في عهد الخلفاء العباسيين ثم انضمت

اليهم بورغونيا فصار لدوق اوستراليا نفوذ في اكثر المملكة وهيأ الامر لابنه شارل مارتل صاحب الوقائع مع العرب ولحفيده من بعده . فحقد على بيين الامراء من آل ميروفه لا سيما أود دوق اكيتانيا لتفوقهم عليه في الاصالة وشرف النسب

وقبل دخول الرومانيين ارض الغول كان لسكانها من قبائل الغولوا والسلت النازلين أرض بريطانية السن مخصوصة همجية فلما انتشر بينهم عسكر الرومانيين ومأموروهم ومن تبعهم من التجار والسوقة صاروا يتكلمون لغة عوام اللاتين وسوقتهم أي اللاتينية الدارجة ويلوكون بها السنهم كما يلوك الزنجي اسانه بالعربية أو السنغالي بالفرنساوية . فلما استوات قبائل الفرنك على ارض الغول وطردوا منها والي الرومان اقتبسوا لسان اهلها وما لديهم من الحضارة الرومانية وضموا الى هذه اللاتينية المحرفة كلماتهم الفرانكية البربرية فظهر من هذا الاختلاط لغة سميت (رومان) وهي لاتينية سوقية تحرفت بلسان الغولوا والسلت ثم امتزجت بلسان الفرانك . وحيث كان اللسان والدولة تابعين لقانون واحد في الترقي والانحطاط والانقسام انقسمت لغة رومان بانقسام الدولة الى قسمين احدهما كان يتكلم به أهل الجنوب ويسمى (أوق) ومنه لسان بروفانسال المنسوب لايالة بروفانس وهو اقرب للسان الطليان والاسبانيون منه الى اللسان الفرنساوي الجديد . والثاني كان يتكلم به اهل الشمال ويسمى (اويل) . ثم انقسمت لغة اهل الشمال الى لهجات متعددة غلبت على الجميع لهجة جزيرة فرانسا وهي الايالة التي عاصمتها باريس وتعممت في الولايات الشمالية حتى صارت اللغة الفرنساوية الحالية . ثم انتشرت في الايالات الجنوبية حينما استولى عليها سنة ٩٨٧ م هوغ قابت مؤسس الدولة الثالثة من دول الافرنج في فرنسا . ولم تزل الحكومة الفرنساوية تسعى في نشرها وتعميمها واصلاحها الى يومنا هذا . ومع ما تصرفه من العناية في تعليمها لم يزل في اهل القرى من لا يعرف منها الكلمة الواحدة . ونزلتُ ذات يوم قرية من قرى الفرنساويين في جبال البيرينة فلم استطع التفاهم مع اهلها حتى جاءني رجل من القرية المجاورة وله تردد على الامصار الفرنساوية ومدنها العامرة

فالفرنساويون اخذوا لسانهم من قوم ليس لهم به قرابة جنسية وسموا انفسهم

باسم قبيلة اجنبية من قبائل الجرمان الذين خرجوا من المانيا وتغلبوا على فرنسا واسسوا فيها حكومتهم وسموها باسمهم وتناسوا اسمها القديم وهو ارض الغول واسم سكانها الغولوا

ولما دخل العرب فرنسا كان اهلها يتكلمون لغات كثيرة همجية غير مدونة اذ كانت القرآة والكتابة باللسان اللاتيني الفصيح في فرنسا وفي عموم اوربا الغربية بما فيه انكلترة . فمن تلك اللغات التي لم تدون حينئذ لغة الباسك وكان يتكلم بها قبائل الواسكون سكان البلاد في قديم الزمان ومنهم سميت اكيتانيا بارض غسكونية ولم يزل من المتكلمين بلسان الباسك نحو ١٢٠٠٠٠ في فرنسا ونصف مليون في اسبانيا . ومنها لغة بروفانسال ولم يزل لها عدة لهجات (باتوا) يتكلم بها اهل القرى في الولايات الجنوبية وفي ضواحي مرسيليا . ومنها لغة بريتون وهي بقية لغة القلت أو السلت ولم يزل من المتكلمين بها نحو مليون ونصف في شبه جزيرة بريطانيا غربي فرنسا . ومنها لغة فلاماندوهي نوع من الالمانية ولم يزل يتكلم بها نحو ١٦٥٠٠٠ من سكان الحدود الشمالية . وغير ما ذكر من اللغات التي انقرضت بدون ان يبقى لها اثر في اللغة الفرنساوية كلغة اكيتانيا أو بقي لها اثر فيما يسمونه باتوا من لغات أهل القرى . اذ لكل ناحية باتوا مخصوصة بها لا يفهمها أهل الناحية الاخرى بخلاف اللغة العربية الدارجة فان المرسيني والاسكندروني والبيروتي واليافي والاسكندري والطرابلسي والتونسي والجزائرلي والطنجي يفهم بعضهم بعضاً بادنى تأمل واقل فكر مهما تحرفت كلماتهم . وكذا أهل المدن في داخل تلك السواحل فلا يتعذر عليهم فهم لهجات بعضهم بعضاً مع انه لم يحصل عناية ولا همة في نشر اللغة العربية وتعليمها بل الهمم مصروفة في تلك البلاد العربية لنشر غير العربية من اللغات الاعجمية كالفرنساوية والانكليزية والطليانية والتركية . فبينما كانت فرنسا متفرقة الكلمة لغة وسياسة اذ دهمها العرب واستولوا على اكثرها .

١٠

لما جلس الوليد بن عبد الملك بن مروان (ولد ٤٨ — ٩٦ هـ) سادس الخلفاء الامويين والثالث من آل مروان كانت افريقية ولاية ملحقة بامارة مصر

والعامل عليهما عبد العزيز بن مروان فلما اتاه الحسن بن النعمان بالغنائم التي غنمها من البربر طمع فيه فشكاه الحسن بن النعمان الى الوليد فسلخ عن مصر افريقية وولاها موسى بن نصير . وكانت مملكة القوط في اختلال من استبداد رودريك بالامر وتغلبه على طليطلة عاصمة الملك وظلمه في قبائل القوط وتسلطه على اعراض بناتهم . فاستجار للاسبانيول بالعدالة الاسلامية واغتنم موسى الفرصة وكتب للخليفة يستأذنه في فتح بلاد «اطيب هواء من الشام واخصب ارضاً من اليمن وأعطر زهراً من الهند» . وبعد استحصاله على اذن الخليفة سير طارق بن زياد بجيش من البربر فاجتاز بحر الزقاق على المراكب من اضيق محل فيه ونزل بساحل اوربا عند صخرة هائلة كانها الجبل فسميت باسمه . وقيل لها جبل الطارق وقيل لمجمع البحرين المكتنفين بها بوغاز جبل طارق (جبرالتار) وكان ذلك سنة ٩٢ للهجرة وسنة ٧١٠ م والف عبد الحق حامد مستشار سفارة لوندره رواية تشخيصية باللسان العثماني سماها طارق وأبدع في نظمها ونثرها وبين فيها هـذا الفتح المبين . فانتصر طارق في محاربة وادي لية بالقرب من جزيرة قادس . ولحقه موسى بن نصير بجيوش من العرب وأشراف قريش وفتحوا ماقه واشبيلية وهي على شاطيء الوادي الكبير وقرطبة وطليطلة عاصمة ملوك القوط وهي على نهر باجه المسمى بنهر التاج . وظلوا سائرين حتى بلغوا أسفل جبال البيرينه الفاصلة بين اسبانيا وفرانسا وفتحوا استورغة وهي في أسفل تلك الجبال . وهذه اول مرة رأى فيها القرشيون جبال البيرينة وهم تحت قيادة موسى بن نصير وسموها (جبل البرنات) بكسر الراء — هذا من جهة الغرب

وأما من جهة الشرق فسير الحجاج والي العراق جيشاً عقد لواءه لابن عمه محمد بن القاسم الثقفي تجاوز به نهر السند وفتح الهندوسير جيشاً آخر تحت قيادة قتيبة ابن مسلم تجاوز به نهر جيحون من خراسان وفتح ما وراء النهر وتقدم حتى بلغ كاشغر وأخذ الجزية من ملك الصين . واصبح ما بين المشرق والمغرب تابعاً للوليد وهو منعم في قصره لم يخرج في غزوة . واستوثقت له الامور ولم تتغلغل عساكره المنصورة الا في بلاد الترك وهي في قيادة الحجاج وفي بلاد الروم وهي في قيادة

أخيه مسلمة بن عبد الملك . وبلاد الترك هي تركستان وما بين بحر الخزر وبحر خوارزم (بحيرة ارال) وما في شمالها من اراضي سبيريا وكانت في حكم خاقان الترك كما هي اليوم في حكم قيصر الروس . وبلاد الروم هي بر الاناطول والروم ايلي وكانت تابعة لقيصر الروم اي لدولة الرومان الشرقية كما هي اليوم من اجزاء الممالك العثمانية . ومن حسن حظ الوليد توفيقه لبناء المسجد الاقصى ومسجد المدينة وجامع دمشق وفي كل بنيان منها دليل شاهد على حضارة ذلك الزمان وترقي أهله في الصنائع والعمران

ثم جلس على كرسي الخلافة أخوه سليمان (ولد ٥٤ – ٩٩ هـ) بن عبد الملك بن مروان وجازى قتيبة بن مسلم فاتح الشرق بما جازى به أخوه الوليد فاتح الغرب وهو موسى بن نصير . وهكذا كانت الخلفاء تجازي فاتحي الممالك الاسلامية باشنع بما جوزي به سنمار . فماتوا منكوبين قهراً لا يملكون شيئاً مما جنته أيديهم من أموال الغنائم . وزادت نكبة موسى بن نصير بقتل ولده عبد العزيز مكافأة على حسن ادارته في ولاية أشبيلية . وكان موسى متأهباً للاغارة على الامم التي بين جبال البيرنية وخليج القسطنطينية وأدخالها جميعاً في الاسلام كما دخلت امم أسيا وأفريقيا ولم يكن هذا الامر على موسى بعزيز لوجود الاختلاف والتفرقة بين امراء الافرنج وعدم النجابة في ملوكهم الملقبين بالبطالين . ولكن سوء تدبير الامويين صده عن هذا العمل العظيم ومكن الافرنج في فرانسا مما لم يتمكن منه القوط في اسبانيا من الائتلاف والاتحاد وصد هجمات العرب . وبسوء تدبير الخلفاء ايضاً وعدم غرسهم المعروف في أهله وعدم مكافأتهم المخترعين والمكتشفين كما كانوا يكافئون الشعراء والمغنين التحق البعلبكي مخترع النار اليونانية بقيصر الروم وأسر كيفية عمل هذه النار فامر باصطناعها في معامل القسطنطينية برًّا وبحراً . لان مسلمة ابن عبد الملك أخا الخليفة اخترق بعسكر الاسلام بر الاناضول وعبر من مضيق الدردنيل المسمى (بوغاز چنا قلعه) وطلع لاوربا وأتبع ساحل بحر مرمره حتى وصل أسوار القسطنطينية ووضع الحصار عليها كما حاصرها من قبل سفيان بن عوف الازدي في خلافة معاوية سنة ٤٧ هـ واستشهد اذ ذاك ٣٠ الفاً من أهل الاسلام

وفيهم خالد أبو أيوب الانصاري . ولم يزل ضريحه يزار في الحي المنسوب اليه على ساحل الخليج المسمى بقرن الذهب . و بينما كانت عساكر مسلمة تحاصر من جهة البر كان أسطول الاسلام المجهز في سواحل سورية ومصر من خشب احراج لبنان راسياً في مياه القسطنطينية . فالذي منع العرب من فتح القسطنطينية هي النار اليونانية لانها أضرت بعسكر المسلمين وأحرقت مراكبهم وكانت عدتها الف وثمانماية مركب والكبار منها عشرون مركبا امام عاصمة الروم كأنها الغاب من الصواري والكماة فيها كالاسود . فاحترقت باجمعها ولم يعد منها للاسكندرية سوى خمسة مراكب — فالمخترع لهذه النار السيالة على ما ذكره المؤرخ الانكليزي جيبون هو رجل من بعلبك يسمى كالينيقوس كان يصطنعها من النفط والكبريت وفحم الصنوبر بطريقة مخصوصة ومقدار معين فكانت تشتعل في الماء والهواء وتدمر ما تنصب عليه ولذا سميت أيضاً النار البحرية . وما زال العسكر في الحرب يعولون عليها و يتقون ضررها الى ان اكتشف العرب على ما يظن بارود المدافع باضافتهم الى مسحوق الفحم والكبريت ملح البارود . ونقله عنهم في القرن الثالث عشر للميلاد روجر باكون الانكليزي (١٢١٤ — ١٢٩٤ م) وغيره من كيماويي الافرنج واشتهر استعمال البارود في المدافع سنة ١٣٤٦ في المحاربة التي وقعت بين فرانسا وانكلترا في قريسي وهي في شمال باريس على نهر صوم . فكان ملك الانكليز ادوارد الثالث يقود العساكر هو وابنه دوغال وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب ومعهم بعض المدافع التي ظهر استعمالها في ذلك الوقت . فغلب الانكليز مع قلة عددهم بسبب الانتظام والترتيب العسكري . فهذه اول محاربة في اوربا استعملت فيها المدافع ولكن المظنون ان العرب استعملوها قبل هذا التاريخ اي في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد في محاصرتهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢ هـ — وعلى كل فلا ندري كيف ترك هذا الكيماوي البعلبكي خدمة الخلفاء الامويين والتحق بقيصر الروم . وفي الدولة الاموية في ذلك العصر من يحرص على الكيمياء وعلى تفرعات مسائلها مثل خالد وجعفر وجابر ومن أخذ عنهم

توفي سليمان بن عبد الملك، مرابطاً في مرج دابق من ارض قنسرين وأخوه

مسلمة منازل القسطنطينية . ثم جلس عمر (٦١ — ١٠١ ﻫ) بن عبد العزيز بن مروان وأبقى ابن عمه مسلمة على حصار القسطنطينية وتجاوزت عساكر الاندلس الى وراء جبال البيرينه من أرض فرانسا ليحققوا آمال موسى بن نصير في الذهاب برًّا الى القسطنطينيه . وكانت مدينة نربون تفوق مرسيليا في العمران وتتصل في البحر الشامي بترعة طولها ثمانية كيلومترات فتدخلها المراكب كما تدخل اليوم حاضرة تونس الخضراء . فحاصرها علقمة بجيوش المسلمين من البر والبحر وامتد الحصار سنتين لتحصنها بالمستنقعات و بالقلاع الرومانية

ثم جلس يزيد (٧٦ — ١٠٥) بن عبد الملك بن مروان تاسع الامويين وسادس المروانيين وفي أيامه دخل علقمة بالسيف الى نربونه نرنها و زاد في تحصينها واتخذها مركزاً لحركاته العسكرية في فرانسا وصار العرب يسمونها أربونة وأفتتحوا ما حولها من القرى والقصبات التي في أرض سبتمانية وظلوا سائرين حتى دخلوا ايالة لانغيدوق والقوا الحصار على مدينة طولوز (طلوشة) وكانت اذ ذاك مقر دوق اكيتانيا المسمى اود . فخرج لهم الدوق بجيوشه من الويزي قوط والواسكون والفرانك وأقتتلا قتالاً شديداً قتل فيه كثير من الجانبين . وكان علقمة يستنشط غيرة وحمية ويكر بنفسه ويشجع الابطال بكلامه فاصابه سهم قضى به نحبه . وافترق الجمعان وكان ذلك في شهر مايس سنة ٧٢١ م وسنة ١٠٣ ﻫ . فاستلم قيادة الجيش عبد الرحمن من ذوي الحمية والاقتدار ومن اصحاب عبد الله بن عمر وانقلب راجعاً الى ضواحي نربون والى مصب نهر الرون

وفي سنة ١٠٥ ﻫ أو سنة ٧٢٤ م توفي يزيد بن عبد الملك حزناً على حبابة فجلس على كرسي الخلافة اخوه هشام (٧٠ - ١٢٥ ﻫ) بن عبد الملك بن مروان وعين والياً على الاندلس عنبسة فاراد الاخذ بثار سلفه علقمة وتجاوز بالعساكر جبال البيرينة ونزل ايالة سبتمانية وهي اليوم ولاية البيرينة الشرقية وولاية أود وما جاورها وافتتح مدينة قرقسون وسموها (قرقشونة) وهي في غرب نربون وعلى سكة الحديد الواصلة بين مرسيليا وطولوز وبوردو . وتقدم عنبسة بالعسكر فجاءه أهل مدينة نيم وهي في الشمال الغربي من مرسيليا وطلبوا منه الامان فأمنهم ودخل مدينتهم بالصلح

وسموها نيمة وأخذ ابناء اعيانها رهناً على طاعة ابائهم وحفظهم في برسلون (برشلونة) وهي على ساحل البحر الشامي في ايالة قطالونيا المشرفة عليها جبال البرينه . وتقدمت جيوش عنبسة على ضفاف الرون حتى دخلت مملكة برغونية وغزت مدينة اتون سنة ١٠٧ ﻫ وسنة ٧٢٥ م . وفي هذه السنة قتل عنبسة في احدى المعارك و بلغ ما غنمه المسلمون في زمن ولايته ضعف ما غنموه في السنين السابقة من بلاد فرنسا

واستلم قيادة الجيش بمدة جديدة ورجع بالعسكر الى الحدود الاسبانية فلاقى بها المدد الذي بعث به المرابطون في الاندلس فكرَّ بهم على بلاد الافرنج والقى الرعب في قلوب اهلها . واوغل في الارض الشمالية وفي مملكة برغونية . ويزعم مؤرخو الافرنج ان العرب اكثروا في هذه الحروب من اراقة الدماء وهدم البناء واحراق الكنائس والاديرة وتخريبها واتلاف الاموال وغصبها . ومنهم من يعترف بان العرب اخف وطأة على بلادهم من قبائل الهون الاسيوية الذين اتوهم من الشمال الشرقي تحت قيادة أتيلا ودمروا بلادهم تدميراً . ولم يزل الفرنساويون ينسبون الى العرب تخريب كل خرابة يشاهد أثرها في الاراضي الجنوبية من فرنسا

ويظهر من تواريخ الافرنج ان العرب بعد فتحهم هذه البلاد قسموها الى ايالات وجعلوا الارض التي على جانبي البرينة في فرنسا واسبانيا من جهة البحر الشامي المتوسط ولاية اسمها سبتمانية وهي اليوم عبارة عن قطالونيا في اسبانيا وعن ولاية البيرينة الشرقية في فرنسا . وكان الوالي عليها قائداً من البربر مثل طرق بن زياد يسميه الافرنج مونيزا . فاتفق الدوق أود مع هذا القائد المسلم وزوجه بنته وعاهده على عدم الغزو في بلاده فاصبح في جبال البيرينه حاجزاً امام غزاة المسلمين فاغتاظوا من هذا الاتفاق واظهروا ميلهم لعبد الرحمن الذي كان قد استلم قيادة الجيش بعد قتل علقمة . وكان عبد الرحمن من اصحاب عبدالله بن عمر متخلقاً باخلاق الخلفاء الراشدين واكابر الصحابة والتابعين حريصاً على اعلاء كلمة الله وعلى نشر الدين في جميع اقطار الارض . فكان يجتهد في تحقيق امال موسى بن نصير والاستيلاء على اوروبا والوصول منها الى القسطنطينية . فعينه الخليفة هشام والياً على الاندلس سنة ١١٢ ﻫ أو سنة ٧٣٠ م فدخل بالعسكر مدينة بوبسردا وهي عاصمة ولاية

سيردانية وقتل القائد المتفق مع أود و بعث بزوجته وهي بنت الدوق الى دمشق . وقيل بل انتحر هذا القائد المسمى مونيزا خزياً وحياء . وكانت مدينتا نيم ومون بيليه تابعتين للمسلمين فتقدم عبد الرحمن بالعسكر الى ضفاف الرون وعبر الى شاطئه الايسر والقى الحصار على مدينة آرلي فانجدها الفرنساويون بمهرزة من العسكر وحميت نار الحرب وكثر فيها القتلى حتى امتلأ النهر باجسادهم . ثم سار على ضفاف نهر الرون صاعداً في الشمال والقى الحصر على مدينة افيون وافتتحها . وهذه المدينة هي التي صارت في القرن الرابع عشر الميلاد مركزاً للبابوية بدلاً من رومة واستمرت تابعة للباباوات الى ما بعد الانقلاب الكبير أي لسنة ١٧٩١ م .

وكانت فرنسا اذ ذاك في حكم الملوك الذين هم اواخر سلالة ميروفينجيان ويلقبون لبطالتهم وعطالتهم (فينيان) أي الذين لا يعملون شيئاً بل كانوا يملكون بلا حكم ولا قدرة و يموتون بلا عز ولا نصرة كما وصفهم المؤرخون . وكانوا يقيمون في قصر بجوار مدينة قومبينية في شمال باريس وفيها حصلت ملاقاة قيصر الروس في زيارته الاخيرة لفرنسا . فكانوا كأنهم في حبس لا يأتون عاصمة الملك الا مرتين في السنة مرة في شهر مارس واخرى في مايس لحضور المجلس المؤلف من اعيان الافرنج أو لملاقاة السفراء . فاذا انعقد المجلس اركب الملك في كارة يجرها ستة رؤوس من فحول البقر لا من عدم وجود الخيل والبغال وانما للراحة وعدم الانزعاج بكثرة الحركة والجري وأتي به الى المجلس ليصدق على المقررات التي يتخذها ناظر السراي أو امير الامراء وهو في ذلك التاريخ دوق اوستراليا المسمى شارل مارتيل . وكانت بقية الامراء أشبه بالمستقلين في اماراتهم يبغضون بعضهم بعضاً وكلمتهم متفرقة . ولو دخل عليهم موسى بن نصير سنة ٩٢ هـ حينما افتتح اسبانيا لامتلك اوروبا باجمعها ولأدخل جميع القبائل الجرمانية الوثنيين في الدين الاسلامي

غير ان الافرنج لما سمعوا بظهور العرب ومحاصرتهم القسطنطينية وكانوا يترقبون ورودهم من شرق اوروبا فلما رأوهم نازلين عليهم من جبال البيرينه أخذهم الرعب فانضموا باجمعهم الى امير الامراء شارل مارتل وكان اشدهم بأساً وادهاهم سياسة وأحسنهم رأياً وعقلا . فلم يدر عبد الرحمن بان الوقت فات على فتح بلاد الافرنج

وأخذ يتأهب لقتالهم وحشد العساكر من الشام ومصر وافريقية والمغرب وسار بهم من جهة المحيط لا من جهة البحر الشامي المتوسط على سابق العادة في دخول غزاة المسلمين لفرنسا ومر بهم من رونسيفو وهو ممر ضيق في جبال البيرينه مر منه جيوش الفاتحين في قديم الزمان وحديثه . فمنه مرّ هنيبال القائد القرطجني ومنه مرت جيوش شارلمان حينما قاتل العرب . ومنه مرت جيوش نابليون حينما فتح اسبانيا ومنه مرّ فيكتور هوكو في ذهابه لاسبانيا وايابه منها . فممر رونسيفو واقع بين مدينتي بامبلونه في اسبانيا وبايون في فرنسا وهي التي سماها العرب « بيونه » ويقطع المسافر منها بالقطار ستين كيلو متراً الى منتهى الحدود الفرنساوية ثم يسير على الخيل والعجل ١٥ كيلو متراً أخرى فيصل حلق الوادي المسمى رونسيفو . فسار عبد الرحمن في هذا الطريق وخرج لارض غسكونيا التي سموها غشكونية وهي سهول واسعة كثيرة المياه والاحراج والقسم الساحلي منها أشبه بتهامة من جزيرة العرب ولذا سماها بعض الجغرافيين تهامة الافرنج . غير ان الوديان التي تسيل في تهامة العرب تبتلعها الرمال المحرقة وأما المياه التي تسيل في رمال تهامة الافرنج التي تدعى لاند فتروي ارضها وتكثر عشبها وأشجارها

فظل عبد الرحمن سائراً في هذه الاراضي المخصبة آمناً على عسكره ودوابه من العطش حتى بلغ نهر غارون المارلطولوز وبوردو وعرضه ربما يقرب في بعض الاماكن من عرض النيل . وطول الجسر الذي عليه في مدينة بوردو ٤٨٧ متراً فهو أطول من جسر القاهرة الذي على النيل نحو مائة متر . فلقي عبد الرحمن على ضفاف النهر الدوق أود بما جمعه في المعسكر من قبائل الواسكون وبقية أهالي اكيتانيا وانتشب القتال بين الفريقين وكانت معركة شديدة انجلت عن انهزام الدوق وعسكره وتحصنهم في قلعة بوردو . فلحقهم عبد الرحمن وحصر المدينة وفتحها بالسيف وأباح الغزو فيها لعسكره فكانوا يسمونها مدينة برغشت . واصبح ما بين مصب نهر غارون في المحيط وما بين مصب نهر الرون في البحر الشامي داراً للاسلام تلقن فيه الشهادة ويعلم القرآن . وهذا القسم العظيم من اوروبا قد اصبح اليوم جزيرة بسبب قناة الجنوب التي أنشأها الفرنساويون ويسمونها أيضاً قناة لانغيدوق باسم الايالة القديمة

والبضاعة الواردة من البحر المحيط تدخل نهر غارون وتمر ببوردو ثم تدخل هذه القناة عند طولوز على مراكب مخصوصة تسير موازية لنهر أود حتى تخرج في شمال نربون للبحر الشامي . وهم يتحدثون اليوم في توسيع هذه القناة وجعلها صالحة لسير السفن الكبيرة لتمر منها وهي آتية من قنال السويس وتستغني عن المرور في جبل طارق والطواف حول اسبانيا

فانتشر خبر فتح بوردو في بلاد الافرنج ودخل الرعب في قلوب الناس وفرح اكثرهم بفشل الدوق اود لمظالمه — لان المظلومين من الاهالي يفرحون دائماً بنكبة الجبابرة المستبدين الذين يحكمون فيهم ولا يراعون حقوقهم ويسومونهم انواع العذاب لمنافعهم وأغراضهم . ولذا كان الكثير منهم ينتظرون لعبد الرحمن ويشوقونه للدخول في بلادهم واجراء العدالة الاسلامية فيما بينهم . أما الدوق أود فلما رأى ذهاب ملكه هضم نفسه واستجار برقيبة شارل مارتل وطلب نصرته رغم بغضه اياه لان الدوق أود وان لم يرق الى رتبة ملك الا انه كان مستبداً في اكيتانيا كالملك يفعل ما يشاء ويختار وهو ذو اصالة وينتسب الى قلوفيس مؤسس سلالة ميروفينجيان صاحبة السيادة والحق الشرعي في الملك على قبائل الافرنج وعموم فرنسا . فاصالته كانت فائقة على أصالة شارل مارتل لان شارل لم يولد من زوجة شرعية وانما زنى بامه بيين دوق اوستراسيا فولدته وكبر حتى خلف والده في مسنده وتغلب على ملوك اوستراسيا ونوستريا وبورغونيا من آل قلوفيس حفيد ميروفه وكان في الظاهر امير الامراء وناظر السراي الملوكية وفي الباطن صاحب الامر والنهي في عموم فرانسا سيما بعد استيلاء العرب على مملكة اكيتانيا . فلما استجار الدوق أود بشارل اجابه : دعهم الان فانهم كالسيل الجارف لا يصطدمون بشيء الا أبادوه وفيهم حمية تغنيهم عن التدرع بالدروع وفيهم شجاعة تكفيهم عن التحصن في داخل القلاع ولا يزالون على ذلك الى ان تمتلئ ايديهم باموال الغنائم فاذا تنعموا بنعيم الدنيا وذاقوا لذائذ الحياة وقع الطمع في رؤسائهم فانقسموا وتفرقوا فحينئذ نهاجمهم ونخرجهم من ديارنا » . وكان الامر كما قال . فان عبد الرحمن بعد فتحه بوردو رأى الاهالي مائلة اليه ووعدوه بالتسليم والانقياد وشوقه بعض رؤسائهم

الى فتح تور و بواتيه لما فيهما من الاموال والخيرات . لان البلاد لم تكن في ذاك الوقت غنية ومعمورة كما هي اليوم . وانما الاموال والخيرات كانت مذخرة في الكنائس والاديرة وقصور الحكام الجبابرة . فتجاوز عبد الرحمن بالعسكر نهر غارون ووطىء بخيله ورجله تلك الاراضي المخصبة والكروم التي يعصر فيها أحسن خمر في الدنيا . وعبر نهر دوردونيا . وهو يجتمع في نهر غارون بقرب بوردو و يسميان حينئذ نهر جيروند كما يجتمع الفرات ودجلة و يقال لمجتمعهما شط العرب . و يصب لا جيروند في المحيط الغربي عند مدينة روايان الشهيرة بحماماتها البحرية والتي ينسب اليها سمك روايان المشابه للسردين . وتسمى ضفة لا جيروند اليسرى من بوردو الى البحر ارض ميدوق وفيها شاتو لافيت وشاتو لاتور وشاتو مارغو وجميع كروم العنب والقصور التي يعصر فيها أطيب الخمر وتتلى اسماؤها المتنوعة على الزجاجات التي تباع في اوتيلات الازبكية وتفتح على موائد اعاظم الرجال . وعلى شاطىء نهر غارون قبل دخوله بوردو ارض سوتين وفيها شاتو ايكيم و بقية القصور التي تعصر فيها الخمر البيضاء التي تشرب في اوائل الطعام عند اكل لحوم السمك

ولما وصل عبد الرحمن مدينة انكوليم وجد جيشاً من الافرنج ففرق جمعهم ودخل المدينة منصوراً ظافراً . وفي غربيها مدينة كونياك المنسوب اليها خمر الكونياك المعروف . وظل عبد الرحمن سائراً بعساكره المظفرة في تلك المروج والغابات الكثيرة المياه . وكانت كجنات تجري من تحتها الانهار بالنسبة لصحاري افريقية وجزيرة العرب . والفرسان ترتع وتلعب على خيولها ومعهم نساؤهم واولادهم حتى وصلوا مدينة بواتيه ففتحت لهم ابوابها . ويزعم مؤرخو الافرنج ان العرب سلبوا ما في كنيستها من اواني الذهب والفضة والاقمشة المزركشة . والمنصفون من هؤلاء المؤرخين يعترفون للعرب بالعدل والحق والرفق بالمغلوبين . ثم عبر عبد الرحمن نهر فينا المار بايالة فينا وهي التي مركزها بواتيه بخلاف فينا عاصمة النمسا التي حاصرها الاتراك واقاموا عساكرهم المظفرة على ابوابها . وفي جنوب ايالة فينا ايالة أخرى يقال لها فينا العليا ومركزها ليموج . وما زال عبد الرحمن يتقدم حتى وصل مدينة تور وهي على نهر لوار المنصب في المحيط . والحق اكثر من نصف فرنسا بممالك

الدولة الاموية الحاكمة اذ ذاك على الهند وما وراء النهر الى كاشغر والصين وتركستان وكان الفاتح لها سنة ١١٩ ﻫ اسد بن عبد الله القسري فانه أدخل المسلمين بلاد الترك وقتل ملكهم خاقان وغنموا شيئاً كثيراً ،

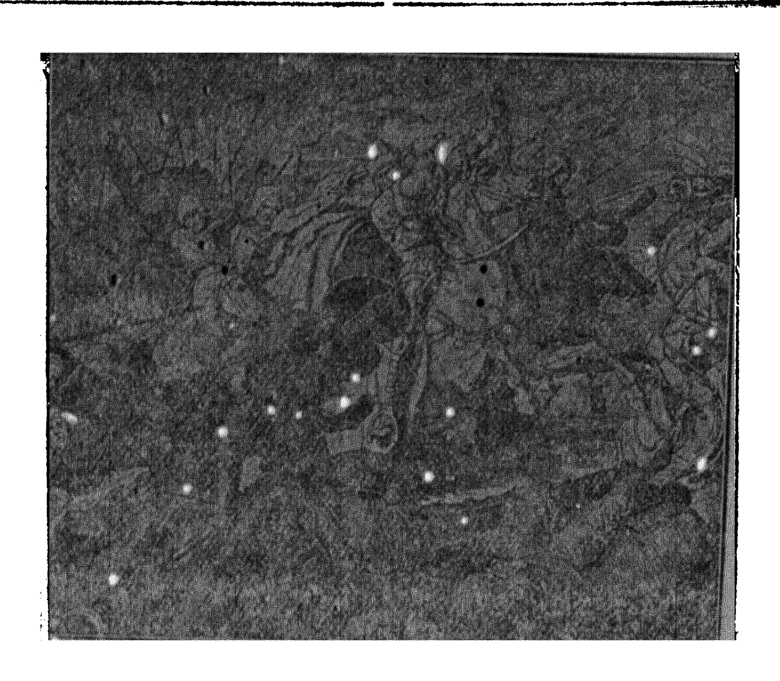
فمنتهى الحدود التي وصل اليها العرب في اوربا هي نهر لوار ومدينة توز . وفي شرقيها مدينة ديجون ثم مدينة بزانسون . والخط المار بهذه النقط يقسم فرانسا الى قسمين شمالي وجنوبي . فالجنوبي باجمعه دخل في ملك المسلمين. وأقاموا في بعضه قليلا وفي بعضه كثيراً واستملوا كثيراً من أهله وتزوجوا بناتهم وأعقبوا منهم ولم يزل لاهل الجنوب من الفرنساويين شبه بالعرب في سيماء الوجوه

قال المؤرخ الانكليزي جيبون في ذكر حوادث سنة ٧٤٢ م « تقدم العرب في اوربا اكثر من ثلاثمائة مرحله (lieues) من صخرة جبل طارق الى مصب نهر لوار كلها مظفريات ولو تقدموا ثلاثماية مرحلة اخرى لوصلوا حدود بولونيا في شرق أوروبا أو جبال أيقوس من انكلترا ولسهل عليهم عبور نهر الرين المار بالمانيا كما سهل عليهم عبور الفرات والنيل ولكان الاسطول العربي من جهة اخرى دخل نهر التيمس بلا محاربة بحرية — لعدم وجود اسطول انكليزي في ذاك الوقت يضاهي أسطول مصر وسوريا أو اسطول تونس — ولرأينا اليوم العلماء يفسرون القرآن في مدارس اوكسفورد ويفقهون افراد أمة الانكليز المختتنين ويشرحون لهم وهم مرتفعون على كراسي الوعظ معجزات النبي العربي . فالذي خلص العالم المسيحي من ذلك هو ابن الزانية شارل مارتيل ناظر سراي الملوك الفرنساويين من سلالة ميروفينجيان . » آه

وذلك ان شارل المذكور لما رأى المسلمين لم يبق بينهم وبين باريس الا ٢٣٤ كيلومتراً حشد اليه العساكر الجرارة من القبائل الشمالية الالمانية وهم يمتازون عن سكان الايالات الجنوبية في فرنسا بطول القامة وزرقة الاعين وشقرة اللون وبالصبر في الحرب والمهارة في الطعن والضرب ولم يزالوا متصفين بهذه الاوصاف الى يومنا هذا . ولذا اختار مقام السر عسكرية العثمانية منهم المعلمين للمكاتب الحربية في الاستانة مثل غولج باشا وقبله مولتكه باشا مرتب حركات الجيش في حرب السبعين الفرنسوية

وكان عبد الرحمن نازلاً بالعسكر امام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه نهر لوار ويحيط به سلسلتان من التلال تتقارب كلما قربتا من المدينة. فبغت شارل مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج وحاربهم من اعالي التلال وانتشب القتال بين الفريقين. وأظهر عبد الرحمن من المهارة في حركات الجيش وسوق الفرسان ما حير إخصامه واضطر أخيراً على الخروج من ذاك الموقع الضيق والرجوع الى سهول بواتيه وفيها التقى الجمعان وأصطف الجيشان في محل لم يزل يقال له الى (موسه — لا — باتايل) ويراه المسافر من بوردو الى باريس في القطار الحديدي على بعد عشرين كيلومتراً عن بواتيه شمالاً اي على الضفة اليمنى لنهر كلين المنصب في نهر فينا المنصب في نهر لوار. واستمر الفريقان بضعة ايام على أهبة الحرب والطعان وشارل لا يجسر على الهجوم خدعة منه وحذراً. ففتح عبد الرحمن الحرب، وأنزل للميدان مفرزة من فرسانه ودام القتال ستة ايام والنصر فيها للمسلمين وفي اليوم السابع هجمت عساكر شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم والغنائم فشغلت افكار المسلمين على أموالهم وعيالهم. وقتل عبد الرحمن على رواية مؤرخي الافرنج بعد مقاومة شديدة وكان ذلك في شهر تشرين أول سنة ٧٣٢ م وسنة ١١٤ هـ ورجعت بقية السيوف من اهل الاسلام لا عن طريق رونسيفو بل عن طريق طولوز وقرقسون ونربون لرسوخ قدمهم في تلك الجهات. ولحقهم شارل مارتل وأسترجع مدينة أفينيون ولم يقدر على استرجاع نربون فهدم ما في شمال نهر اود من الحصون والقلاع وصيره قفراً لكيلا يطمع فيه العرب. وقد نظم أحد شعراء الفرنساويين المسمى (قارل دوسنت غارد) في حدود سنة ١٦٨٤ ديواناً عنوانه اخراج العرب من فرانسا وجعل فيه البطل المغوار في هذه الحروب شيلوبراند اخ شارل مارتيل فنكت عليه الشاعر بوالو وجهله على جعله بطلاً لم يعرفه التاريخ ويعده بين أبطال تلك الحروب

واشتهر ذلك في البلاد وصار الناس يتحدثون به في فرانسا وايطاليا وعموم أوربا ويروون عن شجاعته احاديث ملفقة. ويزعمون ان بلطة او فأسه المسمى مارتو أو مارتل قتل بها ما يربو على ثلاثمائة الف من العرب. غير ان واقعة بواتيه على



شارل مارتيل يحارب العرب في فرنسا

التحقيق لم يكن فيها تغلغل كبير على عساكر الاسلام ولو بقي في شارل بعدها قوة لاخرجهم من ناربون ورمى بهم الى ما وراء جبال البيرنيه وحصن منافذ الجبال وجعلها مانعة لهجومهم ولكنه لم يستطع ذلك . واستمر العرب في جنوب فرنسا حقبة من الزمان سيما في اطراف مرسيايه . ولم نزل نشاهد في متحف نربون كثيراً من اثارهم وأوانيهم الخزفية . واليهم تنسب (جبال المور) وهي في شمال طولون ومارسيليا . كما نسبت اليهم قسطل سارازين وهي مدينة بين بوردو وطولوز والقسطل هو الحصن أو القلعة . ولم يزل في ضواحي القدس قرية يقال لها القسطل . فقسطل سارازين معناها حصن العرب وقيل غير ذلك والله أعلم

وكان هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين قد عين على افريقة عبيدة بن عبد الرحمن بعد استشهاد واليها بشر بن صفوان الكلبي في فتح صقلية وهي جزيرة سيسليا التابعة اليوم لايطاليا . غير ان ولاية عبيدة لم تطل بل عزل ونصب مكانه عبيد الله بن الحبحاب [illegible] زين تونس بالمباني الفاخرة وأنشأ في ساحلها دار صناعة للسفن اي (ترسانة) كما يسميها الاتراك أو (ثانيه) كما يقول الافرنج فلما بلغ عبيد الله وفاة عبد الرحمن في واقعة بواتيه بعث واليا على جزيرة الاندلس

وكان عبد الرحمن نازلاً بالعسكر امام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه نهر لوار ويحيط به سلسلتان من التلال تتقارب بان كلما قربتا من المدينة . فبغت شارل مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج وحاربهم من اعالي التلال واشتد القتال بين الفريقين . وأظهر عبد الرحمن من المهارة في حركات الجيش وسوق الفرسان ما حير أخصامه واضطر أخيراً على الخروج من ذاك الموقع الضيق والرجوع الى سهول بواتيه وفيها التقى الجمعان وأصطف الجيشان في محل لم يزل يقال له الى (موسه — لا — باتايل) ويراه المسافر من بوردو الى باريس في القطار الحديدي على بعد عشرين كيلومتراً عن بواتيه شمالاً اي على الضفة اليمنى لنهر كلين المنصب في نهر فينا المنصب في نهر لوار . واستمر الفريقان بضعة ايام على أهبة الحرب والطعان وشارل لا يجسر على الهجوم خدعة منه وحذراً . ففتح عبد الرحمن الحرب وأنزل للميدان مفرزة من فرسانه ودام القتال ستة ايام والنصر فيها للمسلمين وفي اليوم السابع هجمت عساكر شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم والغنائم فشغلت افكار المسلمين على أموالهم وعيالهم . وقتل عبد الرحمن على رواية مؤرخي الافرنج بعد مقاومة شديدة وكان ذلك في شهر تشرين أول سنة ٧٣٢ م وسنة ١١٤ هـ ورجعت بقية السيوف من اهل الاسلام لا عن طريق رونسيفو بل عن طريق طولوز وقرقسون ونربون لرسوخ قدمهم في تلك الجهات . ولحقهم شارل مارتل وأسترجع مدينة أفينيون ولم يقدر على استرجاع نربون فهدم ما في شمال نهر اود من الحصون والقلاع وصيره قفراً لكيلا يطمع فيه العرب . وقد نظم أحد شعراء الفرنساويين المسمى (قارل دوسنت غارد) في حدود سنة ١٦٨٤ ديواناً عنوانه اخراج العرب من فرانسا وجعل فيه البطل المغوار في هذه الحروب شيلوبراند اخ شارل مارتيل فنكت عليه الشاعر بوالو وجهله على مدحه بطلاً لم يعرفه التاريخ وحرمه من أبطال تلك الحروب

ولم تزل شهرته في البلاد وما زال الناس يتحدثون به في فرانسا وايطاليا وجميع أوربا ويروون عن شجاعته اخباراً ملفقة . ويزعمون ان بلطته أو فأسه المسمى مارتو أي مارتل قتل بها ما يربو على ثلاثمائة الف من العرب . غير ان واقعة بواتيه على

وكان عبد الرحمن نازلاً بالعسكر امام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه نهر لوار ويحيط به سلسلتان من التلال تتقاربان كلما قربتا من المدينة . فبغت شارل مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج وحاربهم من اعالي التلال وانتشب القتال بين الفريقين . وأظهر عبد الرحمن من المهارة في حركات الجيش وسوق الفرسان ما حير أخصامه واضطر أخيراً على الخروج من ذاك الموقع الضيق والرجوع الى سهول بواتيه وفيها التقى الجمعان واصطف الجيشان في محل لم يزل يقال له الى (موسه — لا — باتايل) ويراه المسافر من بوردو الى باريس في القطار الحديدي على بعد عشرين كيلومتراً عن بواتيه شمالاً اي على الضفة اليمنى لنهر كلين المنصب في نهر فينا المنصب في نهر لوار . واستمر الفريقان بضعة ايام على أهبة الحرب والطعان وشارل لا يجسر على الهجوم خدعة منه وحذراً . ففتح عبد الرحمن الحرب وأنزل للميدان مفرزة من فرسانه ودام القتال ستة ايام والنصر فيها للمسلمين وفي اليوم السابع هجمت عساكر شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم والغنائم فشغلت افكار المسلمين على أموالهم وعيالهم . وقتل عبد الرحمن على رواية مؤرخي الافرنج بعد مقاومة شديدة وكان ذلك في شهر تشرين أول سنة ٧٣٢ م وسنة ١١٤ هـ ورجعت بقية السيوف من اهل الاسلام لا عن طريق رونسيفو بل عن طريق طولوز وقرقسون ونربون لرسوخ قدمهم في تلك الجهات . ولحقهم شارل مارتل وأسترجع مدينة أفينيون ولم يقدر على استرجاع نربون فهدم ما في شمال نهر نود من الحصون والقلاع وصيره قفراً لكيلا يطمع فيه العرب . وقد نظم أحد شعراء الفرنساويين المسمى (قارل دوسنت غارد) في حدود سنة ١٦٨٤ ديواناً عنوانه اخراج العرب من فرانسا وجعل فيه البطل المغوار في هذه الحروب شيلوبراند اخ شارل مارتيل فنكت عليه الشاعر بوالو وجهله على مدحه بطلاً لم يحقق التاريخ وجوده بين أبطال تلك الحروب

فاشتهر شارل في البلاد وصار الناس يتحدثون به في فرانسا وايطاليا وعموم أوروبا ويروون عن شجاعته احاديث ملفقة . ويزعمون ان بلطته أوفاسه المسمى مارتو أو مارتل قتل بها ما يربو على ثلاثمائة الف من العرب . غير ان واقعة بواتيه على

عبد الملك بن قطن فاصلح حال الجيش وزوده وساقه على فرانسا سنة ١١٧ ﻫ سنة ٧٣٥ م فاسترد الايالات الجنوبية التي في أطراف نربون وقرقسون وعلى ضفاف اود وعبروا نهر الرين وضبطوا ايالة بروفانس باجمعها سنة ١٢٠ ﻫ او سنة ٧٣٧ م من حاكمها مورونت ومركزه اكس في شمال مرسيليا . وظلوا سائرين على سواحل البحر الشامي حتى دخلوا ايطاليا وأغاروا فيهـا على مملكة لومبارديا التي عاصمتها ميلان . فاتفق ملكها لويبراند مع المتغلب على ملك الافرنج وهو شارل مارتيل دوق أوستراسيا وناظر السراي الملوكية وأرجعا العرب الى قرب جبال البيرينة سنة ١٢٢ ﻫ أو سنة ٧٣٩ م ولم يقدرا على اخراجهم من نربون ولا من قرقسون

ثم ان عبيد الله بن الحبحاب والي افريقية عين عقبة بن الحجاج على الاندلس فحضر اليها وأستلم زمام الامر فيها فحصلت فتنة وتغلب عليه عبد الملك بن قطن الفهري فذهب عقبة بن الحجاج الى قرقسون في فرانسا وكانت عامرة بالمسلمين وبقي هناك الى ان مات ودفن في تربة قرقسون . فغضب هشام وعزل عبيد الله وولى مكانه كلثوم بن عياض والياً على افريقية وبعث معه اثني عشر الف فارس من فرسان الشام يقودهم بلج بن بشر . فقتل كلثوم في المغرب الاقصى في واقعة جرت له مع البربر ودخل بلج بن بشر بعسكره جزيرة الاندلس وقاتل عبد الملك بن قطن وتولى مكانه فبعث هشام لافريقية حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر فجاء القيروان سنة ١٢٤ ﻫ أو سنة ٧٤١ م وأصلح ما فسد في قبائل افريقية والغرب الأقصى وبعث ابا الخطار الكلبي واليا على الاندلس فورد اليهـا ونزل قرطبة وفرق عساكر الاسلام في البلاد فانزل الدمشقيين في البيرة (الويره) وهي الولاية التي عاصمتها غرناطة وتكثر فيها المياه والغوطات والرياض . ومدينة غرناطة مبنية على ثلاث تلال يمر من وسطها نهر حداره (دارو) المنصب في نهر شنيل وهو ينصب في الوادي الكبير (غواد الكفير) المار باشبيلية . ولذا دعاه العرب نهر اشبيلية . وفي غرناطة قصر الحمراء الشهير وغرناطة في جنوب مادريد وعلى خط الطول المار منها . وأما خط الحديد بينهما فسافتـه ٦٩٦ كيلو متراً ولذا اطلق على البيرة وغرناطة دمشق . وانزل الحمصيين في اشبيلية (سفيلة) ويمر منها الوادي الكبير

وفيها القصر المشهور عند الافرنج باسم (القازار) وكان داراً لملك بني عباد . ولذا أطلق على اشبيلية حمص. وانزل أهل قنسرين على ضفاف الوادي الابيض (غواد لفياد) المنصب في البحر الشامي قرب بلنسية فاطلق على تلك النواحي قنسرين . وانزل اهل الاردن في مالقه (مالاغه) وهي على ساحل البحر الشامي شرقي جبل طارق ويمر منها (وادي المدينة) واليها ينسب الخمر المعروف باسم (مالاغه) . وانزل أهل فلسطين في سيدونيا أي مدينة شريش (اكسيرس) وما جاورها وهذه المدينة بالقرب من قادس على مسافة ٢٢ كيلو متراً عن البحر المحيط واليها نسب كثير من الادباء فقيل لهم الشريشي ومنهم شارح المقامات وكتابه مطبوع في مصر. وينسب اليها اليوم الخمر المشهور باسم (شري) و (اكسيرس). وفيها فاز طارق بن زياد على رودريك ملك القوط وشتت عساكره واخذ ملكه

وانزل ابو الخطار الكلبي المصريين في تدمير وهي الايالة المشتملة على مرسية وهي على نهر سفوره تبعد عن ساحل البحر الشامي المتوسط بين البحور ٣٥ كيلو متراً بجانبها سهول هو نرته المشابهة لوادي النيل في بركة المحصول وقوة الانبات ولذا أطلق عليها مصر. ولم يزل فيه بقايا الترع العربية والقنوات . وبينما كان المسلمون في الاندلس ينظمون شؤونهم ويستعدون لفتح بلاد الافرنج ونشر الدين الاسلامي فيها ظهر الفساد في دمشق عاصمة الممالك الاسلامية دار خلافتها واختلت امور الدولة بعد وفاة هشام وجلوس الوليد (٨٤ — ١٢٦ هـ) بن يزيد بن عبد الملك بن مروان حادي عشر خلفاء بني امية . وجلس بعده في تلك السنة يزيد (٨٠ — ١٢٦ هـ) بن الوليد بن عبد الملك ثم اخوه ابراهيم . ثم رابع عشر خلفاء بني امية وآخرهم وهو مروان الحمار (٧٠ — ١٣٢ هـ) بن محمد بن مروان بن الحكم

يسمي الافرنج عرب اسبانيا مور (Maurs) نسبة الى موريتانيا القديمة وهي عبارة عن تونس والجزائر ومراكش ويسمونهم ايضاً (Sarrasins) سارازين واختلفوا في اصل هذه الكلمة فقال بعضهم من سارقين العربية وآخرون بل نسبة الى سارا زوجة ابراهيم الخليل عليه السلام لانهم اولاد جاريتها هاجر ام اسماعيل جد العرب وقال غيرهم انها تحريف شرقيين

ولم ينتظم الامر ولا لواحد منهم بعد موت هشام ولا سكنت الفتن في ايامهم ولذا لم تتقدم الفتوحات في بلاد الافرنج

١٢ — داخلية اوروبا بعد رجوع العرب عنها

أما فرنسا فاستيقظت بسبب هذه الحروب من غفلتها واجتمعت كلمتها على شارل مارتل ناظر سراي الملوك من آل قلوفيس حفيد ميروفه فاستبد بالامر وصار الآمر الناهي في المملكه وزال نفوذ الملوك من سلالة ميروفينجيان واصبحوا كالخلفاء العباسيين في آخر امرهم . ولم يستطع شلول مارتل ان يملك على الفرنساويين لشدة ظلمه وسوء سيرته وتعديه على املاك الاديرة والرهابين ولكنه هيأ الملك لولده ولحفيده من بعده . واما هو فلم يرض بعمله المسلمين ولا النصارى لانه ضبط أوقاف الاديرة والكنائس ليجهز العساكر ويقوم بنفقات هذه الحروب العظيمة فاغضب بذلك الاساقفة والرهابين المتمتعين بهذه الاموال فلم يغفروا له هذه السيئة واغمضوا العين عن جميع حسناته عليهم . وحكموا في مجتمعهم الرهباني (قونصل) في فرنسا بكفره وأدخلوه في نارجهنم .ورآه احد اوليائهم بعين الكشف وهو يعذب في النار والافاعي تنهش من جثته المنتنة . فشارل مارتل واضع اساس الدولة الثانية في ملك الافرنج لم يرض عنه المسلمون ولا النصارى

ولما مات قام بالامر بعده ابنه بيبن القيصر وحارب قبائل الجرمان في المانيا وقبائل اللومبارد في ايطاليا وكانوا معادين للباباوات في رومة فاكتسب بذلك نفوذاً وقوة وانتخبته قبائل الافرنج ملكاً عليها . وأمر البابا بدهنه بالزيت المقدس وتتويجه

نقلنا هذه الخلاصة التاريخية عن كتاب بلاد العرب (Arabie) الفرنساوى تأليف نوئيل ديفرجه (Nœl desvergers) المطبوع في باريس سنة ١٨٤٧ ونقل هو عن المستشرق (Renaud) مؤلف كتاب هجوم العرب على فرانسا المطبوع سنة ١٨٣٦ في باريس واعتمد في ماكتبه على تواريخ العرب المحفوظة في المكتبة الاهلية وكانت تسمى قبلاً المكتبة الملوكية ولا سيا على تاريخ المقري وعلى تاريخ النويري وغيرهما

فدهنه وتوجه القديس بونيفاس أسقف مايانس سنة ٧٥٢ م وانقرضت دولة ميروفنجيان بعد ان ملكت (٤٤٨ ـ ٧٥٢ م) ثلاثة قرون . وسميت الدولة الثانية قارلوفنيجيان نسبة الى شارلمان بن بين القيصر وحفيد شارل مارتل وملكت الدولة الثانية (٧٥٢ ـ ٩٨٧) قرنين ونصف قرن تقريباً . وفي سنة ٧٦٠ م أو سنة ١٤٣ ﻫ اغار بين القيصر على بلاد المسلمين واسترجع منهم نربون وجميع ايالة سبتمانيا . فلم يستطيعوا الدفاع عنها لاشتغالهم بما حدث عندهم من الانقلاب العظيم بسبب سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية مقامها . فقتلوا بني اميه واستخفى من سلم منهم فهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ودخل الاندلس سنة ١٣٩ ﻫ أو ٢٥ ايلول (سبتمبر) سنة ٧٥٩ م فاطاعه بعض المسلمين ... واستولى على اشبيلية وجعل قرطبة دار المملكة واخضع لحكمه جميع جزيرة الاندلس ونكل بالمتشيعين منهم للخلفاء العباسيين — فليفهم التسبب الذي مكن الافرنج من استرجاع نربون وقرقسون

ولما مات بين سنة ٧٦٨ م او سنة ١٥١ ﻫ جلس مكانه على كرسي ملك الافرنج ابنه شارلمان (سنة ٧٤٢ — ٨١٤ م) ومعناه شارل الكبير فنسبت اليه السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج وقيل لها (قارلوفنيجيان) أي آل قارلو لان اسم شارل يلفظ بصور مختلفة حسب اللغات واللهجات . فالالمان يلفظونه قارل وعند الاسبانيول قارلوس وعند الانكليز جارلس بالجيم الفارسية . ففتح شارلمان ممالك لومبارديه وعاصمتها ميلان وهي القسم الشمالي من ايطاليا وكان بين ملوكها وبين باباوات رومة ضغائن وعداوة فامتن البابا من ذلك و بارك شارلمان ورضي عنه ثم فتح بافاريه وساقسونيا وهما من ممالك المانيا . واخضع ايالة اكيتانيا التي كانت ميداناً ترمح فيه غزاة المسلمين . فجمع شارلمان في حكمه بين فرنسا والمانيا وايطاليا ومزج الاقوام الجرمانية بالاقوام الرومانية الذين كانوا في حكم دولة الرومان

ولما تولى شارلمان كان مشتركاً في الملك مع اخيه اتباعاً للقواعد المرعية في ذلك الزمان وهي تقسيم الملك بين الاولاد . ففي سنة ٧٧١م استقل بالملك وجعل عاصمته اكس لاشابل وهي على نهر الرين في المانيا وزينها بالمباني والقصور ولذا يعتبره

الالمانيون في عداد ملوكهم كما يعتبره الفرنساويون . وفي سنة ٧٧٨ م وسنة ١٦٢ ه تجاوز شارلمان بعساكره جبال البيرينه من ممر رونسيفو الذي مر منه عبد الرحمن حينما فتح بوردو وبوانيه وتور ومر منه قبلاً هنيبال القائد القرطاجني حينما قهر الرومانيين وهو ممر صعب في جبال البيرينه قريب من البحر المحيط . ولذا لم يرجع العرب منه بل كانوا يتجاوزون على فرنسا من جهة البحر الشامي عن طريق (بويسيردا) و (نربون) فضبط شارلمان ولاية نافار وولاية قطولونيا وتقدم على ضفاف ايبر حتى بلغ مدينة سرقسطة مركز ولاية اراغون والقى الحصار عليها وكانت بيد المسلمين . فبعث اليه عبد الرحمن الاول سنة ١١٣ — ١٧١ ه (٧٣١ — ٧٨٧ م) الملقب بالعادل . بجيش منظم طرد عساكر شارلمان من اسبانيا واوجهها الى ما وراء البيرينه . وكان المسيحيون من النفاريين والواسكون أي الباسك متفقين مع المسلمين حباً في العدل الاسلامي وكرهاً في ظلم شارلمان لوطئه بالعسكر بلادهم وقتله رجالهم وأولادهم ولذا رجحوا الاتفاق مع المسلمين مع انهم على غير دينهم وانتقموا من شارلمان وجنوده وهو يدين بما هم يدينون به

والدين انصاف الاقوام كلهم   وأي دين لآبي الحق ان وجبا
والمرء يعييه قود النفس مصحبة   للخير وهو يقود العسكر اللجبا

فلما ارتدت جنود شارلمان على عقبها خاسرة اغتنم أهل نافارا وغسكونيا المسيحيون هذه الفرصة وانقضوا عليهم وهم في ممر رونسيفيو وابادوهم عن آخرهم . وقتل في هذه المعركة رولان قائد الجنود البريطانية نسبة الى ايالة بريطانيا في غرب فرانسا ورفيقه اوليفية ونظمت في هذه الواقعة أغاني رولان الآتي ذكرها . وهي عند الفرنساويين كقصة عنتر لا بل كقصة بني هلال أو الزير . واسترد عبد الرحمن العادل وهو المعروف بالداخل ولاية أراغون وقطالونية واسترد ابنه هشام (١٤٠ — ١٨٠ ه) مدينة جيرونه ونربون وجميع ايالة سبتمانيا سنة ٧٩٢ م (سنة ١٧٦ ه) واستخدم الاسرى في بناء جامع قرطبة وكان أبوه قد باشر عمارته فنصب شارلمان ابنه لويس ملكاً على اكيتانيا وأمره بمحاربة العرب . فكانت بينهما حروب على سفح جبال البيرينه من سنة ١٨٠ ه (٧٩٦ م) وهي السنة التي توفي

بها هشام وجلس فيها ابنه الحكم خلفاً له وخرج عليه عماه سليمان وعبدالله ابنا عبد الرحمن وتحاربوا مدة وكان النصر للحكم على عميه . ودامت الحروب مع الافرنج الى سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) واخذ الافرنج في هذه الحروب ولاية نافارا وسبتمانيا وجزءاً من قطالونيا وهو المشتمل على مدينة برشلونه التي على ساحل البحر الشامي . فشارلمان لم يتمكن من اسبانيا ولكن حكمه كان نافذاً في عموم اوروبا الغربية وكان البابا وعموم الكهنة يميلون اليه ويرغبون في اعادة نفوذ امبراطورية الرومان الغربية ليضاهوا بذلك الامبراطورية الشرقية القائم بها قياصرة الروم ويحصلوا على العز الذي حصل عليه بطاركة القسطنطينية وكهنتها المنشقون ولذا دهن البابا شارلمان بالزيت المقدس والبسه تاج الامبراطورية في آخر القرن الثامن أي سنة ٨٠٠ م (سنة ١٨٤ هـ)

وكانت الخلافة العباسية في بغداد قد بلغت منتهى العز وأوج الرفعة على عهد الرشيد فاخذ شارلمان يتقرب منه وبعث اليه بسفارة مؤلفة من سفيرين فرنساويين يصحبهما يهودي اسمه اسحق وكان الخليفة يحارب قيصر الروم فرأى من السياسة التمايل الى الافرنج اعداء الامويين فاحسن ضيافة الوفد الافرنجي واكرم مثواه وأجاب طلبه بالرخصة لحجاجهم في زيارة بيت المقدس وبعث الى شارلمان بهدية فاخرة منها سرادق كبير من الحرير وساعة دقاقة وشطرنج لم يزل بعض احجاره محفوظة في المكتبة الاهلية بباريس وهي من العاج دقيقة الصنعة والقطعة منها كبيرة الحجم . وكان ذلك قبل موت الرشيد بسنة أي في سنة ١٩٢ هـ (٨٠٧ م) وتوفي شارلمان بعد ذلك بسبع سنين اي سنة ٨١٤ م وجلس في مكانه ابنه لويس الى سنة ٨٤٠ م ثم انقسمت المملكة الى ثلاثة اقسام المانيا وفرنسا وايطاليا وضعف حال ملوك فرنسا وهجم عليهم الاقوام الشمالية الذين يسمونهم نورمان من بلاد اسوج ونروج والدانيمارك وأسسوا في شمال فرنسا دوقية نورماندية وانقسمت المملكة الى دوقيات وكونتيات وكان حكامها أشد نفوذا من الملك . وصارت السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج الى ما صارت اليه السلالة الاولى فاستبد بالامر دوق فرنسا كما استبد قبله دوق اوستراسيا . وفعل هوغ قابت ما فعله ابن شارل مارتل

وأحدث السلالة الثالثة في مملكة الافرنج وهي سلالة قابتيان . وملكت هذه السلالة من سنة ٩٨٧ م الى سنة ١٤٢٨ م وفي زمنها ظهرت فرانسا للوجود وسميت مملكة فرانسا نسبة الى هوغ قابت دوق فرنسا . انتقل الملك بعد ذلك الى فرع ثان من تلك السلالة وهو المسمى فالوا ثم الى فرع ثالث وهو آل بوربون

١٣ — فتوح المسلمين في جنوب اوربا والحروب الصليبية

ثم أن المسلمين عدلوا عن فتح فرنسا ولعلهم فعلوا ذلك لشدة البرد في الاقاليم الشمالية وعدم توسع العمران فيها اذ ذاك ولصعوبة المرور من جبال البيرينه وهي أشد وعراً من جبال لبنان التي يقول المتنبي

وجبال لبنان وكيف بقطعها وهي الشتاء وصيفهن شتاء

ومالوا الى فتح جزر البحر الشامي فاستولوا على جزائر باليار وهي مايورقه ومينورقة وأفيس وما يتبعها سنة ٨٢٠ م (سنة ٢٠٥ ﻫ) وكانوا يسمونها (مايرقه) و (منرقه) ويابسة . واستمروا فيها الى سنة ١٢٣٢ م واستولوا سنة ٢٢٦ ﻫ على جزيرة قورسيقة فبقيت مستقلة عن غيرها بالحكم الى سنة ٢٣٦ ﻫ (٨٥٠م) واغاروا على سواحل مرسيليا مراراً وأسسوا سنة ٢٧٦ﻫ (٨٨٩ م) مستعمرة فراقسينه فيما بين وينيس وطولون . وكان الفينيقيون اسسوا قبلهم مستعمرة في جوار موناقو . ومكث المسلمون في فراقسينة طول القرن العاشر وتزوج بعضهم بنساء تلك الايالة الفرنساوية واشتغلوا بفلاحة ارضها حتى أصبحت زاهية بحضارتهم . ثم جالوا سنة ٣٢٤ ﻫ (٩٣٥ م) في اقليمي تارنتيزه ووالس ثم في بلاد السويس (سويسرا)التي نهبها المجر قبل ذلك ومدوا نفوذهم سنة ٣٣١ ﻫ (٩٤٢ م) على فريجوى وطولون وجميع سواحل البحر الشامي في فرانسا . ولم يزل يقال للجبال التي في شمال مرسيليا وطولون (جبال المور) ومدوا نفوذهم على ايطاليا أيضاً . فان بني الاغلب استولوا على جزر سيسليا (صقلية) ومالطة وسردانيه وجميع القسم الجنوبي من ايطاليا في حدود سنة ٢١٣ ﻫ (٨٢٨م) الى سنة ٢٦٥ ﻫ (٨٧٨ م) ورسخت لهم قدم في جميع هذه البلاد واستبحر فيها عمرانهم وحسنت بهم الزراعة والصناعة . وكانت

مدينة امالفي ومدينة ساليرم وهما في جنوب نابولي (. وكتبوها نابل) زاهيتين بحضارتهم وهما اليوم قريتان خربتان لم يزل يشاهد فيهما اثار العرب و بقايا الطواحين التي عمروها ولسان الحال تقول: ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار . واستولوا على اوستيه وكانت مينا رومة العظمى وهي بقرب مصب نهر التيبر وعلى بيزا ذات البرج المائل وكانوا يسمونها (بيش) وعلى جنوه التي في شمالها و بقي المسلمون في جزيرة (سردانيه) سردينيه الى سنة ٤٠٨ ﻫ (١٠١٧ م) وفي طارانت التي في جنوب ايطاليا الى سنة ٣٩٦ ﻫ (١٠٠٥ م) وفي جين (جنوه) الى سنة ٣٢٥ ﻫ (٩٣٦ م) (انظر خريطة مملكة العرب في اطلس شرادر الفرنساوي المطبوع في باريس)

واختلف المؤرخون في التاريخ الذي اغار فيه العرب على ليون وما في شمالها من الالايات الفرنساوية — لا ليون التي في شمال اسبانيا الغربي وتكتب (Léon) ويكثر ذكرها في تواريخ العرب — هل كان في عهد شارل مارتل فقط أم في عهده و بعد ذلك ايضاً حينما دخلوا من سواحل طولون وتقدموا في الشمال حتى بلغوا بلاد السويس . ولكن المؤرخين متفقون على ان المسلمين ضبطوا ايالة دوفينة وهي في شمال بروفانس على ضفة الرون اليسرى وضبطوا في شمالها ايالة بورغونية وسموها (ارض بورغونة) وايالة فرانش كونتة وايالتي ننا — وفينا هذه ايالة في وسط فرنسا الغربي بخلاف سميتها عاصمة اوستريا والمجر وكان حاصرها الاتراك — وضبطوا في فرانسا جميع ضفاف الرون وغزوا القرى والمدن التي في تلك الايالات . وأمهات هــذه المدن هي: ليون وهي على نهر الرون وأول مدينة في فرانسا بعد باريس ثم ماقون واليها ينسب الخمر المسمى باسمها من خمور بورغونيه ، وشالون التي على نهر السون ، وبون وسماها العرب (بونة) واوتون واحترقت فيها كنيستان عظيمتان حينما هاجمها العرب كنيسة سان ناظير وكنيسة سان جان وكذا ديرسان مارتن ، وديجون وهي منتهى ما اخذوه في الشمال من المدن العظيمة وفي شرقي ديجون و بالقرب منها مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوكو

وجميع هذه المدن هي في ممر السكة الحديدية من باريس — ليون — البحر

المتوسط أي مرسيليا وما جاورها من الموانئ البحرية . ولم يجد العرب اموالاً كثيرة في غزواتهم لان البلاد لم تكن في الثروة والعمران التي هي عليها اليوم ولكن مقصدهم الاصلي كان اعلاء كلمة التوحيد ودعوة الامم بقولهم « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبدَ الا الله ولا نُشرك به شيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . »

الحروب الصليبية

فجميع الحروب التي وقعت بين المسلمين والنصارى من ابتداء ظهور الاسلام بمكة وفتح المسلمين للقدس على عهد ثاني الخلفاء الراشدين هي من نوع الحروب الصليبية . الا ان المؤرخين اصطلحوا على اطلاق هذا الاسم على الحروب التي وقعت بين المسيحيين من الامم الاوربية وبين المسلمين من الامم الشرقية وامتدت من القرن الحاديَ عشر الى القرن الثالث عشر للميلاد وكان الباعث عليها التعصب الديني والغاية منها تخليص قبر السيد المسيح عليه السلام . واتخذ المحاربون من الامم الاوروبية الصليب شعاراً لهم ونقشوه على اثوابهم وجلودهم ولذا قيل لهم الصليبيون . وعدة الحروب الصليبية ثمانية وهي :

الاولى (١٠٩٦ — ١٠٩٩ م) — الحرب التي دعا اليها بطرس الناسك وقرر اجراها البابا اوربن الثاني في المجمع الروحاني المنعقـد سنة ١٠٩٥ م في مدينة كليرمون فيران وهي بالقرب من مدينة ليون في فرانسا . وكانت النتيجة ارسال جيشين للشرق احدهما تحت قيادة بطرس الناسك والقائد غوتيه وكان مؤلفاً من ناس لا خبرة لهم في الحرب ومعهم نساؤهم وأولادهم بغير تأهب للسفر فمات اكثرهم في الطريق وقتل آخرهم السلجوقيون في بر الاناطول . والثاني جيش متأهب للسفر ومتسلح للحرب تحت قيادة غودفروا دو بوليون دوق ايالة اللورين . عبروا بوغاز الدردنيل واستولوا في بر الاناطول على ازنيق وطرسوس وهي مينا اطنة وعلى انطاكية وكانت هذه المدن تابعة للدولة السلجوقية ومركزها قونية . ثم استولوا على القدس وكانت تابعة لخليفة مصر العلوي وقتلوا فيها كثيراً والبسوا غودوفروا تاج

الملك . وذهب المستنفرون الى بغداد فلم يستطع أهلها غير البكاء وقال المظفر الابيوردي اياتاً منها :

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات ايقظت كل نائم .
واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

الثانية (١١٤٧ــ١١٤٩) الحرب التي دعا اليها القديس برنار وقادها كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا فوصلوا دمشق الشام وحاصروها ورجعوا عنها

الثالثة (١١٨٩ ــ ١١٩٣) الحرب التي دعا اليها غليوم أسقف صور بسبب استرداد صلاح الدين الايوبي للقدس . وقادها فريدريك بارباروس امبراطور المانيا من جهة وفيليب اوغست ملك فرنسا وريشار قلب الاسد ملك انكلترة من جهة اخرى . فالاول غرق في النهر بعد اخذه قونية . والآخران اخذا قلعة عكا وعقدا الصلح مع صلاح الدين

الرابعة (١٢٠٢ ــ ١٢٠٤ م) الحرب التي دعا اليها فولك وقادها بغدوين وهو بودوين التاسع كونت ايالة فلاندر وكانت ايالة مستقلة بين فرنسا وبلجيكا . فلما وصلت هذه البعثة الى فينيسية (البندقية) استدعاها قيصر الروم في القسطنطينية لنصرته على اخيه وكان قد اراد التغلب عليه فاجابت دعوته وأيدته على كرسي مملكته. و بعد وفاته انتخب الصليبيون مكانه بودوين المذكور بعد ان أخربوا المدينة وأتلفوا ما فيها من الآثار النفيسة والمباني الظريفة واستمرت دولة اللاتين في القسطنطينية ٥٧ سنة (١٢٠٤ ــ ١٢٦١)

الخامسة (١٢١٧ ــ ١٢٢١) الحرب التي اشهرها جان دوبريين ملك القدس واندره الثاني ملك هونغارية وذهبوا فيها الى مصر وعادوا منها خائبين

السادسة (١٢٢٨ ــ ١٢٢٩ م) الحرب التي قادها فريدريك الثاني امبراطور المانيا لادعائه بميراث مملكة القدس عن جان دوبريين . فعقد مع الملك الكامل معاهدة الصلح واستلم بموجبها القدس

السابعة (١٢٤٨ ــ ١٢٥٤ م) الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا

ايفاء بنذر نذره . فخرج لمصر وغلبه الملك الكامل خامس الملوك الايوبية في محاربة المنصورة واسره فاخلى دمياط وسلمها المسلمين فكاكاً لاسره

الثامنة (١٢٧٠ م) الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس لويس ومات فيها امام اسوار تونس الخضراء . فاسترجع المسلمون حينئذ مدن فلسطين وسوريا من الافرنج واحدة بعد الاخرى . وكان آخرها فتح عكا سنة ١٢٩١ م وانتهت بذلك الحروب الصليبية

وكان لهذه الحروب نتيجتان احداهما مادة عسكرية والاخرى معنوية أدبية فالنتيجة المادية رجوع الافرنج عن الغنيمة بعد الكد بالقفل وتخليتهم القدس وجميع ما ملكوه في الشرق . والنتيجة المعنوية انتباههم من الغفلة التي كانوا فيها بمخالطتهم المسلمين وأهل الشرق وسلوكهم منذ ذاك التاريخ سبيلي « الانتظام » و« الترقي » ويسميها الافرنج (اوردر و بروغره) . قال رينان « حدث بعد الحرب الصليبية الثامنة التي قام بها لويس التاسع ومات على ابواب تونس حركتان واضحتان من جهتين مختلفتين الاولى انحطاط العالم الاسلامي والاخرى نهوض العالم المسيحي لان العلوم الاسلامية لما نفحت جراثيم الحياة في جسم البلاد الاوروبية انطفأت جراثيم حياتها . واخذ العالمان يسيران في وجهتين متعاكستين علوًّا وهبوطاً »

سارت مشرقة وسار مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

١٤ ما اقتبسه الافرنج من قواعد الشعر العربي

فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية المعترضة في هذه الرسالة ان الاختلاط بين العرب والافرنج لم ينقطع لا في الحروب الصليبية ولا قبلها حينما دخل العرب ارض فرنسا وتوطنوا في جنوبها وعمروا ارضها وتزوجوا بناتها وتاجروا مع اهلها وعمروا مدن نربون (نربونه) وقرقسون (قرقشونه) وفراقسينه واخذوا الاسرى من الافرنج وشغلوهم في عمارة جامع قرطبة القائم ليومنا هذا على الف وثلاثة وتسعين عموداً وفي غيره من المباني الفاخرة كالقصر والزهراء والحمراء والقنطرة . فكانت الافكار تتبادل بين الفريقين ضرورة ولو كانا على طرفي نقيض . وحيث كان

المسلمون في ذلك العصر ارقى حضارة وادباً من جيرانهم المسيحيين كانت الافرنج تقتبس من معارف المسلمين وتحصل العلم في مدارسهم وجوامعهم كما فعل البابا سيلفستر الثاني . واسمه الذي سماه به ابوه جربر (٩٣٠ ــ ١٠٠٤ م) فانه بعد ان حصل مبادئ العلوم اللاهوتية باللغة اللاتينية في مدينة أورياق التي ولد فيها وهي بالقرب من طولوز وفي شمالها الشرقي ارتحل في طلب العلم الى الاندلس فقطع عقاب البيرينه والوادي الكبير المار بجوار قرطبة ومن اشبيلية والمنصب في خليج قادس من المحيط غير بعيد عن شريش وجاور في مدرسة اشبيلية ثلاث سنين وعاد لاوروبا متبحراً في العلوم والمعارف حتى حسبه الناس ساحراً واتخذه الملوك مؤدباً لاولادهم وتقلب في المناصب حتى احرز رتبة البابوية . وقيل انه اول من ادخل لبلاد الافرنج ما يسمونه الارقام العربية ونسميه الارقام الهندية وهي التي تدل بذاتها على عدد وبمنزلتها على عدد آخر . وكانوا لذلك العهد يستعملون الاحرف اللاتينية التي هي بمثابة الحروف الابجدية

واقتفى طلاب العلم اثر هذا البابا الحكيم وكذا المتحلون منهم للشعر والادب كانوا يقلدون شعراء العرب وأدباءهم . وكان المجاورون تعرب من اهالي فرنسا وشمال اسبانيا يحيدون عن تعلم اشعار اللاتين ويكبون على تعلم اشعار العرب وأزجالهم . وكان فقراؤهم في القرن الحادي عشر للميلاد ينشدون الاناشيد والمدائح العربية وهم يستعطون على الابواب وفي الطرقات فيستمع الناس لهم ويتصدقون عليهم لا لفهمهم ما يقولون وانما شوقاً منهم وحناناً للالحان والانغام والقوافي الرنانة كما كانت العربية هي اللسان الرسمي في صقلية على عهد رجار ومن خلفه من الملوك بعد انقراض الحكومة الاسلامية منها وكانوا يحررون بالعربية على المباني العمومية في تلك الجزيرة

وذكرنا فيما تقدم ان لغة « رومان » وهي لاتينية سوقية محرفة بكلام الغولوا والفرنك انقسمت الى شعبتين (١) لسان اوق تكلم به أهل الجنوب لا سيما سكان بروفانس (٢) لسان اويل تكلم به أهل الشمال لا سيما سكان جزيرة فرنسا وهي الايالة التي عاصمتها باريس وكان في الشمال شعراء يقال لهم (تروفير) وفي الجنوب

شعراء يقال لهم (تروبادور) . فالتروبادور الذين كانوا في ايالة بروفانس هم صنف من المداحين يطوفون من قصر لقصر ومن قلعة لاخرى ينشدون قصائدهم ويمدحون الامراء وذوي الوجاهة ويسمون ادبهم بالعلم المطرب . ولم تكن اشعارهم ذات قواف كاشعار العرب وانما لها بدل القافية مراكز ومواقف كالاشعار التي يتغنى بها رعاة الغنم . وكان لهم فن من الشعر يسمونه تنسون (Tenson) على شكل المخاطبات يشابه ما اوجده الاندلسيون من الفنون الشعرية . واجمع العارفون على ان القوافي اول ما ظهرت في الشعر البروفانسالي وانها مأخوذة من العرب . فالقافية عند الفرنساويين هي اتحاد الاحرف الصوتية الاخيرة وما يتبعها من الاحرف الساكنة في نهاية كل بيتين أو قطعتين من الشعر مثل ساج وباج (Sâge, Pâge) فالذي أخذوه عن العرب بالسماع والتقليد هو علم القوافي . وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضاً عن القافية ما يسمونه (اسونانس) وهو اتحاد الاحرف الصوتية الاخيرة بقطع النظر عما بعدها من الاحرف الساكنة في نهاية كل بيتين مثل ساج (Sâge) وآرم (ârme) وكان استعمالهم للقوافي في القرن الثالث عشر واخذوا عن العرب في المنظوم أنواع المدح والغزل والنسيب والهجو والهزل أي ما يسمونه ليريك وما يسمونه ساتيريك . كما اخذوا عنهم في المنثور القصص والملح وضروب الامثال ومنها ما نقلوه نثراً ثم نظموه في لغتهم : وجاروا العرب في الفكاهات أيضاً فألفوا حكايات وتظريفات على اقسة القرى وخدمة الكنائس ليضحكوا منهم الامراء والفرسان الذين يسمونهم « شيفاليه » . وفي هذه الحكايات والنوادر المأخوذة عن العرب ما اصله الاول من حكايات الفرس والهنود وترجمت الى العربية ثم نقلت للافرنجية . فلو كان الحكم والغلبة لاهل الجنوب المجاورين للعرب ولغتهم المسماة « أوق » لوجدنا في اللغة الفرنساوية الحالية شيئاً كثيراً من فنون الادب العربية . ولكن الحكم والغلبة كانتا لاهل الشمال ولغتهم المسماة « اويل » وكان شعراؤهم التروفير لا يعرفون غير اشعار الحماسة وقصائدهم قصيرة والبيت مؤلف من عشرة هجاءات ليس له قافية وانما له (اسونانس) كما في اغاني رولان الآتي ذكرها واستمروا على هذا النظم الى آخر القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر أخذ

شعراء الشمال وهم التروفير ينسجون على منوال (التروبادور) وتعلموا منهم القوافي ورقة الغزل واللحن الموسيقي وصار فرسان الافرنج يقلدون فرسان العرب في انتحال الشعر فكانت فضائل الفارس المهارة في الفروسية وحفظ الشعر والتمثل به وفي لعب الشطرنج . فتحسن الشعر الافرنجي بادخال القوافي العربية فيه و باقتباس أدب الاندلسيين ورقة غزلهم

١٥ــ اقتباس الافرنج اقاصيصهم عن العرب

والحاصل ان الرومانيين لما فتحوا ارض الغول ادخلوا اليها مدنيتهم ولغة عوامهم وهي اللاتينية الدارجة فلما استولى قبائل الافرنج على ارض الغول اخذوا ما وجدوه فيها من اللسان والمدنية فنتج من هذا الاختلاط لغة جديدة قيل لها « رومان » . واقدم المدونات في هذه اللغة هريمين ستراسبوع وهو صورة القسم الذي اقسم به العسكر لاحفاد شارلمان حينما عقدوا معاهدة فيردون وقسموا مملكة شارلمان الى ثلاثة اقسام فرانسا وجرمانيا وايطاليا وأخذ كل منهم قسماً وذلك في سنة ٨٤٣ م او سنة ٢٢٩ ﻫ أي في خلافة الواثق بالله هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد في بغداد وعبد الرحمن بن الحكم في قرطبة . فهذه اول مرة دونت فيها لغة رومان وقامت مقام اللغة اللاتينية . ثم انقسمت لغة رومان الى لسان اويل والى لسان اوق . وانقسم لسان اويل وهو لسان الشمال الى لهجات غلب على الجميع لهجة جزيرة فرانسا — وهي الجزيرة المحاطة بالانهار المشتملة على باريس وما في جوارها — فصارت اللغة الفرنساوية . ثم عم استعمال هذه اللغة في الأيالات الجنوبية وغلبت على لسان أوق سنة ٩٨٧ م حينما تأسست الدولة الثالثة من دول الافرنج وهي الدولة التي دامت الى حدوث الانقلاب الكبير وظهور الحكومة الجمهورية . وكان مؤسس الدولة الثالثة هوغ قابت دوق جزيرة فرانسا فاطلق هذا الاسم على عموم المملكة وعلى اللغة

ولما كان اتساع دائرة النظم في تاريخ الادب سابقاً لاتساع دائرة النثر كان الكلام المنظوم أساساً للادب الفرنساوي واقدم نظم فيه هو « اغاني رولان »

وتاريخ نظمها في النصف الاخير من القرن الحادي عشر وناظمها أو ناظموها مجهولون ولا دليل على انه تيرولد المذكور اسمه في آخر بيت منها . ورولان هو قائد جنود شارلمان الذين حاربوا الاندلسيين . وذلك ان شارلمان لما فتح الفتوحات العظيمة وتتوج بتاج الامبراطورية واستحصل من الخليفة العباسي على الاذن لحجاج النصارى في زيارة بيت المقدس طار له ذكر في الافاق وتحدث الناس به ونظموا فيه القصائد وقصوا عنه القصص والحكايات وانشدوا الاناشيد وفعل الافرنج له ما فعله العرب لهارون الرشيد . غير ان فنون الادب الافرنجية لم تكن زاهرة كفنون الادب العربية بل كانت حديثة النشأة لم تهذب بعد وكانوا يكتبون باللغة اللاتينية ما يحتاجون الى كتابته وتدوينه ولم يكن الملوك والامراء ولا الرعية يفهمون اللاتينية الفصحى وانما كان يفهمها بعض الاساقفة والرهابين فنظمت (اغاني رولان) و (حج شارلمان) باللسان الفرنساوي الذي كان يتكلمه أهل ذلك العصر أي بعد شارلمان باكثر من قرن . وفي اغاني رولان من المبالغات ما في قصة عنترة وجسمت فيها الحرب التي حصلت بين الافرنج وعرب الاندلس وجعلت رولان عنتر زمانه والحقته بنسب شارلمان وادعت بانه ابن اخيه وذراعه اليمنى . وذكر في هذه الاغاني ان سبب هزيمة رولان هو خيانة غانيلون . وذلك ان رولان بعث بتابعه غانيلون الى والي سرقسطة مركز ولاية اراغون بمهمة حربية وكان في ذهابه اليها خطر على حياته فاغتاظ هذا المأمور من آمره وانضم الى المسلمين ودبر في قتل رولان وانهزامه فلما رجع رولان ببقية الجنود الى فرنسا ووصل مضيق رونسيفو في جبال البيرينه هجم عليهم اهالي نافارا وغاسكونيه المتفقون مع المسلمين في جيوش جرارة عدتها اربعماية الف فارس . وكان لرولان مستشار ورفيق اسمه اوليفيه فنصحه بالاستمداد من شارلمان واستدعائه لنجدته فلم يصغ في بادىء الامر لمقاله . ولما اراد ان يعمل برأي اوليفيه العاقل ويتبع مشورته فات الوقت وذهب الاوان وغلبهم العدو بكثرة عدده وامسوا مختبطين في ظلام النقع وقتل بعضهم بعضاً وضرب اوليفيه صاحبه رولان بالسيف ضربة خطاء لا عمد بجرحته وسببت موته فصورت تلك الاغاني موت رولان ثم موت اوليفيه وطلب كل منهما السماح من الآخر ومباركة الاسقف

تور بين عليها وغفران ذنوبهما . واراد رولان قبل موته ان يكسر سيفه المسمى (دوراندال) لئلا يقع في ايدي اعدائه أو يصل الى مارسيل (Marcile) والي المسلمين في سرقسطة فلم يستطع كسر هذا السيف لانه من السيوف التي لا تكسر ولا تفل ولعله من المعدن المسبوك منه صمصامة عنترة وذو الفقار علي رضي الله عنه وهو الذي قيل فيه لاسيف الا ذو الفقار . وقد تهور الافرنج في وصف (دوراندال) كما تهورت الشيعة في وصف ذي الفقار وجعلوا القوة والشجاعة باجمعها في السيف حتى لم يبق منها شيء لصاحب السيف ولم يزل اثر الضربة التي ضرب بها رولان الصخرة بسيفه باقياً الى يومنا هذا يشاهده السائحون والمارون بمضيق رونسيفو كما يشاهدون تل العلائف في جوار قرية اريحا من فلسطين وهو التل الذي احدثه على زعمهم جيش ابي زيد الهلالي حينما مروا بقرية اريحا وارادوا الصعود الى جبل القدس فنفضوا مخالي الشعير في اسفل العقبة فتكوم من الغبار الذي فيها هذا التل العظيم لانهم كانوا لا يحصون عدًا لكثرتهم . هذا ما تتناقله الالسنة ويرويه الاباء عن الاجداد ولعل الباحثين في الآثار القديمة لو حفروا في تل العلائف لوجدوا فيه اثراً من الآثار كما لو بحث العارفون بطبقات الارض وبشكل الجبال لذكروا سبباً (لضربة رولان) في صخرة رونسيفو . ولرولان حصان كانه هو وابجر عنترة بن شداد فرسي رهان . ولم يفت ناظم اغاني رولان ذكر الملائكة وكيفية نزولهم واصطفافهم حوله لقبض روحه . فصور في منظومته الجهاد المسيحي وجعل فضائل المجاهدين الشجاعة العسكرية والطاعة لاولي الامر وهم (السوزيرين) والتصلب في الدين المسيحي وبغض من لم يعتقدوا بما امر به وينتهوا عما نهى عنه بغضاً لوجه الله لا لعداوة دنيوية ولا لمال ودولة . وهذه الاغاني مطبوعة ومترجمة للفرنساوية العصرية . ومنها يظهر اعتقاد الافرنج اذ ذاك في الاسلام والمسلمين فانهم كانوا يحسبون المسلمين دعاة الى عبادة الاصنام ويعدون من اصنامهم ابولون ولم يزل الكثير من أهل القرى الفرنساوية يعتقدون هذا الاعتقاد الى يومنا هذا كما تبين لي من محادثة الكثيرين منهم . وكان لاغاني رولان شأن في عموم اوربا وفي انكلترة وترجمت في القرن الثاني عشر للميلاد للغة الالمانية ولغة السويد والنوروج

ومما نظم على نسق اغاني رولان حج شارلمان الى بيت المقدس وقصائد وحكايات كثيرة في الحروب الصليبية ربما يعتني في المستقبل بترجمتها ومطالعتها المشتغلون بالتاريخ العربي كما يعتني الافرنج في زماننا في استخراج الكتب العربية وطبعها وترجمتها ليقفوا منها على حقيقة تاريخية يوضحون فيها ما غمض من تاريخهم وفي اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر اقبل شعراء الشمال ينسجون على منوال شعراء الجنوب يقتبسون منهم المحسنات الشعرية ورقة الغزل والقوافي العربية ووضعوا الالحان الموسيقية وتغزلوا بها وطبع من ذلك دواوين ورسائل كثيرة لا حاجة لذكرها . ثم ظهرت الاشعار الهجوية والهزلية والملح والفكاهات مما هو على نسق كليلة ودمنة وضروب امثال لقمان وبقية الحكايات المؤلفة على السنة الحيوانات فمن ذلك (رومان الثعلب) و (امثال ايزوب) و (رومان روز) وغير ذلك وقيل للمنظوم من ذلك (الاغاني) أو (اغاني القصص)

١٦٠ — اقتباس الافرنج العلوم عن العرب

لما اختلط ملوك اوربا وأمراؤها بملوك الشرق وامراء المسلمين في اثناء الحروب الصليبية رأوا باعينهم ادباء العرب وشعراءهم ومؤرخيهم واطباءهم وحكامهم سيما من كان منهم بمعية صلاح الدين الايوبي مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب وعمارة اليمني الشاعر والطبيب الحاذق الذي طبب ريشار قلب الاسد فقدروا الادب حق قدره واعترفوا بلزوم وضع تاريخ لدولتهم . فالف بعض الرهبان السالكين طريقة القديس ديني (St. Denis) تاريخاً لدولة الافرنج . وكان ذلك على عهد لويس التاسع الملقب بالقديس وهو المتوفى سنة ١٢٧٠ م في تونس اثناء الحرب الصليبية الثامنة . فكان هذا التاريخ اول سجل لضبط وقائع ملوك الافرنج وتاريخ جلوسهم ووفاتهم وذكر شيء من اخبارهم وحروبهم . وداموا على هذا السجل الى ان ملك لويس الحادي عشر المتوفى سنة ١٤٨٣ . وأنشأوا في مدينة مون بيليه مدرسة للطب وذلك في القرن الثالث عشر وهي اقدم مدرسة طبية في اوربا بعد مدرسة ساليرن التي بجوار نابولي . وكانت الاندلس في منتهى عزها

وحضارتها فجلبوا منها لمدرسة مون بيليه المعلمين والمدرسين من العرب واليهود المستعربين . وفي سنة ١٣٢٣ م أنشأوا في مدينة طولوز جمعية أدبية دعوها مدرسة العلم المفرح (Collège du gai sçavoir) وجعلوا جوائز الشعر ازهاراً مصوغة من الذهب والفضة تفرق على نوابغ الشعراء بعد تقدير الجمعية وحكمها . وفي اواخر القرن الخامس عشر للميلاد أوقفت احدى المحسنات من نساء طولوز أموالها على هذه الجمعية فاتسعت ثروتها وزادت رغبة الشعراء فيها وأقبلوا على انتحال فنون الادب وحسنوا المنطق والكلام باللسان الفرنساوي . ولم تزل هذه الجمعية الادبية زاهرة الى يومنا هذا وتسمى جمعية أو (اكاديمية لعب الازهار) وتتألف من اربعين محافظاً ومن معلمين كثيرين . وسمي أعضاء هذه الجمعية بالمحافظين اشارة الى ما يجب عليهم بحسب قانونهم من المحافظة على قواعد اللسان وفنون أدبه . ويحتفلون في اليوم الثالث من شهر مايو في كل سنة ويوزعون الجوائز والنقود على مستحقيها ولهم تسع جوائز من الذهب والفضة كل جائزة على شكل زهرة مخصوصة مثل الاقحوان والياسمين والسوسن ومنها ما هو للشعر ومنها ما هو للنثر والخطب ـ ورأينا فيما سبق كيف نال فيكتور هوكو جائزة هذه الجمعية

وفي القرن الرابع عشر للميلاد ترجم الافرنج الكتب اللاتينية للفرنساوية ونقلوا علوم اليونان وفلسفتهم عن العرب ولم يكن لهم معرفة باللغة اليونانية ولا بما دون فيها فترجموا كتب ارسطو عن اللاتينية المترجمة عن العربية والعربية مترجمة من اليونانية أو السريانية . ثم ظهر فن التشخيص وكان منشأه من الكنيسة ومن تشخيص آلام المسيح عليه السلام وما شبه لهم فيه من القتل والصلب . فهذا اساس فن التشخيص ثم وسعوا دائرة هذا الفن ووضعوا فيه المؤلفات الكثيرة واستحدثوا فيه أنواعاً مختلفة وطرقاً متنوعة واقبلوا على درس ادب اللغة اللاتينية وادب اللغة اليونانية وتبحروا فيها وانتقشت اساليب هاتين اللغتين في نفوسهم وحذوا حذو شعراء الرومان واليونان واتخذوا أشعارهم وروايتهم منوالاً نسجوا عليه امثالها من كلمات أخرى فرنساوية ولم يزالوا كذلك حتى بلغوا شأواً كبيراً على عهد لويس الرابع (١٦٣٨ – ١٧١٥ م) الملقب بالكبير وأصلحوا فنون الادب وهذبوها

وفتحت الماركيزة رامبويه دارها للادباء من سنة ١٦٣٥ الى سنة ١٦٦٥ م وكانت تستقبلهم هي وبناتها ويعقدون في حضرتها منتدى ادبيًّا يحضره الشعراء والادباء والظرفاء ويتسامرون فيه وينشدون الاشعار ويقصون القصص والنوادر الادبية والعلمية . فكان اول ناد في باريس خدم انتشار الادب والمعارف وساعد على ترقي اللغة وعلى اجتماع الرجال بالنساء في جلسة ادبية محترمة وتقرب الادباء من الامراء وارباب الوجاهة بعد ان كانوا مختصرين لا يحترفون بالادب الا لاستجداء المعروف وطلب الاحسان . وصارت السيدات الفرنساويات يقلدن الماركيزة في الاقبال على تحصيل الادب والمعارف وفتح ابوابهن للشعراء والكتبة . وأرادت بعض سيدات الاستانة قبل اعلان الدستور تقليد الماركيزة في حماية الادب فنجح عملهن مدة ثم أقفلت دورهن . وفي سنة ١٦٣٥ أسس الكاردينال ريشيليو الاكاديمية الفرنساوية من اربعين عضواً وفوض اليهم جمع قاموس اللغة الفرنساوية ثم أسست اكاديمية الفنون والاداب واشتغلت بالتاريخ والآثار القديمة ثم اكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية واشتغلت في الفلسفة وعلوم الاقتصاد ثم اكاديمية العلوم الرياضية والطبيعية والاكاديمية الصنائع النفيسة وغير ذلك من المؤسسات العلمية النافعة وظهر من الادباء بالزاق وفواتير وديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) وهو الذي أحيا الفلسفة وأوجد التعبيرات الفلسفية في اللغة الفرنساوية . وكان اماماً في الادب فسلك فيه مسلكاً جديداً واتخذ لنفسه طريقة مخصوصة تنسب اليه وتسمى باسمه . ثم أنشأ الكساندر هاردي مرسحاً في باريز شخص فيه روايات كثيرة أخذ موضوعها من اسبانيا لتقدم فنون الادب فيها لسبب مجاورتهم للعرب . وظهر من فحول الأدباء بيرقورنيل (١٦٠٦ — ١٦٨٤ م) صاحب رواية هوراس التي صور فيها فضائل الرومان ومحبتهم لاوطانهم وبذلهم دونها المال والبنين . وأبدع ما في هذه الرواية حديث المرأة التي أتت شيخاً من قبيلة هوراس تخبره بموت أبنيه في حرب لهم مع قبيلة كورياس وبنجاة ولده الثالث بالفرار من ميدان الحرب فتجلد الشيخ على موت ابنيه وغضب من فرار ولده الثالث . فقالت له المرأة « ماذا تريد ان يفعل وهو وحده مع ثلاثة من اعدائه » فاجابها الشيخ « أريد

ان يموت » . ومن أئمة الادب المؤسسين لطريقة (كلاسيك) راسين (١٦٤٩ — ١٦٩٩) وكان معاصرا لقورنيل ورقيباً له . نظم رواية اندروماخه ونسجها على منوال رواية بهذا الاسم لاحد شعراء اليونان الاقدمين ثم درس تاريخ العبرانيين ونظم رواية (استير) ورواية (أتالي) التي قال فيها فولتير بانها أحسن ما الفه العقل البشري وسموا هذا النوع من الروايات الفاجعة التاريخية (تراجيدي) ومن مشاهير أدبائهم المتقدمين بواولو الشاعر الهجاء مؤلف الهزليات وصاحب المذهب في فن الادب . ومولير مؤلف المضحكات المسماة كوميدي وفنلون مؤلف تيلماك المترجم للعربية والمطبوع في بيروت وترجمه للتركية يوسف كامل باشا بالفاظ لغوية وعبارة عويصة وترجمه احمد وفيق باشا بالفاظ سهلة . ولا فونتين مؤلف الحكايات المنظومة على السنة الحيوانات وكانت المدارس الابتدائية تعول عليها في تدريس اللغة الفرنساوية وتحفظها للاطفال وأما اليوم فقلت الرغبة فيها . ثم مونتسكيو مؤلف (اسباب اعتلاء الرومانيين وسقوطهم) و (روح القوانين) و (الرسائل العجمية) . وبوفون مؤلف التاريخ الطبيعي وفولتير الشهير الذي لم يدع باباً من أبواب الكتابة وفنون الشعر والانشاء الا طرقه . وديدرو صاحب الانسكلو بيديا وجان جاك روسو الذي هيج الافكار بمؤلفاته وهيأ حدوث الانقلاب الكبير وبرناردن دوسن بير مؤلف بول وفرجيني وغيرها من القصص والسياحات

١٧ — الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في ادب الافرنج

وما اخذوه من ذلك عن العرب

أدب كل لسان — كما لا يخفى — هو مجموع ما حصلت الاجادة في تأليفه بذلك اللسان من فني المنظوم والمنثور . فمن أمعن النظر في أدب اللسان العربي وجد فيه طرقاً كثيرة ومذاهب شتى ورأى فريقاً من الذين أحرزوا قصب السبق في أدب العرب يتوخى حفظ الالفاظ وتصنيفها وفريقاً آخر يختار ضبط المعاني وترتيبها . وعلم ان لكل واحد من أئمة البلاغة وأمراء الفصاحة منهاجا معروفاً وطريقة

مألوفة . فلو راجعنا البصر في رسائلهم المنثورة وتأملنا طرز انشائها لتبين لنا ان منهم من سلك طريقة الاصول أو طريقة السجع أو طريقة الجاحظ امام الادب . ومنهم من جمع بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة . ثم لو أعدنا النظر ثانية في نظم اشعارهم لظهر لنا ان منهم من نسج على منوال شعر الجاهلية ولم يخرج عن الأساليب التي راعوها ومنهم من لم يجر على اساليب العرب المتقدمين كالمتنبي والمعري بل اتخذ كل منهما منوالاً خاصاً لنسج كلامه وأوجد قالباً جديداً لبناء شعره فاصبح في الأدب اماماً يقتدى به . ثم اذا بحثنا في مؤلفات أولئك الائمة باعتبار آخر رأينا منهم من اطلق العنان للمخيلة الشعرية فاتى بالمعجز من آيات البيان ومنهم من استغرق في الحب استغراق ابن الفارض وتجليه . واذا وصفوا الامكنة والاشخاص أو المواد والمعاني منهم من يصور لك الموصوف على حقيقته بلا خلف فيه ومنهم من يجمل وصفه يربو على الموصوف و يتعداه أو يقصر عنه . ثم اذا استقصينا البحث نجد طائفة من امراء البلاغة قد تركوا لغة مضر وما فيها من الاعراب ونظموا اشعارهم بلسان الحضر وهي اللغة الدارجة في امصارهم لان البلاغة لا تختص بلسان مضر بل توجد فيه وفي لسان الحضر وفي غيرهما من الالسن الاعجمية . ونجد منهم ايضاً طائفة اخرى في الاندلس وغيرها خرجوا عن اوزان العروض المعروف عند العرب الى اعاريض مختلفة ومقاطيع متفاوتة . الى غير ذلك مما هو مفصل في مواضعه ومعلوم عند اربابه سيما بعد طبع كتب الباقلاني والجرجاني وغيرهما من الأئمة الواضعين لفن الانتقاد الادبي

فالامم الاوروبية على اختلاف قومياتهم وتفرق لغاتهم ظلوا لاواخر القرن الحادي عشر للميلاد محرومين من الادب وفنونه ولم يكن فيهم الا افراد من القسوس والاساقفة يحفظون في الاديرة شعر فرجيل اللاتيني ولا يفهمون مغزاه كما يحفظ مشايخ الاعاجم في زماننا شعر المتنبي والمعلقات . ففي اوائل القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد اخذت الافكار تتبادل بين المسلمين و بين امم اوروبا من الاسبانيين والطليان والافرنج ودامت الصلات لاتنقطع بين الفريقين المتحاربين لافي الحرب بواسطة الاسرى والسفراء — ولا في السلم بسبب الاخذ والعطاء . وكان الارسخ

قدماً في الحضارة يكسب جاره ادباً وعرفاناً . وفي القرن العاشر للميلاد تغلب البابا سيلفستر الثاني على التعصب الديني وخرج من مدينة اورياك مسقط رأسه وقطع عقاب البيرينه ومياه الوادي الكبير وجاور في اشبيلية ثلاث سنوات . وفتح لقومه باب العلم والمعارف فدخلوه طوعاً أو كرهاً وارتحل الافرنج في طلب العلم الى مدارس الاندلس وحضروا على مشايخها وعادوا لاوطانهم متنورين يلقون الدروس في ساحات المدن الكبيرة وتجتمع حولهم الطلبة والعوام على مألوف العادة الجارية ليومنا في المدارس والجوامع الاسلاميـة . فادرك الناس فوائد العلم وقرب الملوك والامراء منهم علماء المسلمين وأغدقوا عليهم . فكان الشريف الادريسي صاحب الجغرافية عند رجار المعروف عندهم بروجر الثاني ملك صقلية ونابولي وهو من سلالة الملوك النورمانديين . وكان احفاد ابن رشد المتضلعون في علم الحيوان والنبات عند خلفاء رجار في مملكة صقلية ونابولي المعبر عنهما بالصقليتين . فكان مثل هؤلاء كمثل الاوربيين المستخدمين اليوم في الممالك الشرقية . وظل الافرنج بعد استرداد صقلية يكتبون بالعربية على المباني العمومية والعمارات الملوكية واستعمل علماؤهم اصطلاحات العرب العلمية في جميع أوروبا . وفي القرن الثالث عشر للميلاد فتحوا مدرسة للطب والعلوم في مدينة مون بيليه القريبة لمرسيليا وجاؤا لها بالمعلمين من عرب الاندلس ويهودها المستعربين . فكانت تلك المدرسة أقدم المدارس في أوربا بعد مدرسة سالرن القريبة لنابولي . ولم تزل مدرسة مون بيليه عامرة يقصدها طلبة العلم من الاستانة ومصر وغيرهما من بلاد الشرق . ثم في سنة ١٣٢٣ أنشأ أدباء الافرنج في مدينة طولوز التي فتحها العرب سابقاً جمعية ادبية لم تزل زاهرة الى يومنا هذا وتسمى جمعية لعب الازهار وتفرق في كل سنة على نوابغ الشعراء عشر جوائز مصوغة من الذهب والفضة على هيئة الازهار. وكان لفيكتور هوكو منها أوفر نصيب كما تقدم . ومعلوم ان العرب اقاموا مدة بتلك الاصقاع وحرثوا أرضها وتزوجوا بناتها وعمرت بهم مدينة اربونة (ناربون) وقرقشونة (قرقسون) وفراقسنة وكانت مستعمرة للعرب في شرق مرسيليا . وقسطل سارازين معناها قلعة العرب وهي في الشمال الغربي من طولوز

" فتعلم الافرنج من العرب القوافي ورقه الغزل وأداب النظم والنثر وتلحين الاغاني والشعر ونقلوا عنهم القصص والحكايات والنوادر وضروب الامثال والحكم المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في تواريخ الادب الفرنساوي . والى ذلك اشار الموسيو رينه دوميك في كتابه المتداول بأيدي طلبة العلم في عموم المدارس الفرنساوية . وبعد ان اطلع الافرنج من كتب الاسلام على ما عند اليونان من الفلسفة والحكمة اقبلوا على درس اللغة اليونانية ولم يهملوا كتب ادبها كما اهملها العرب من قبلهم . بل تهافتوا على درس ادب اليونان واللاتين وعلى حفظ اشعارهم والتمثل بها . وهاموا في قص قصصهم وفي تشخيص رواياتهم لان فن التشخيص او التمثيل كان شائعاً عند اليونان والرومان . وألف أدباؤهم كثيراً من الروايات واشتهر منها مؤلفات لوريبيد لاسيما رواية اندروماق التي نسج راسين على منوالها . ولا يزال السياح يشاهدون في أثينة على سفح الجبل تحت قلعة الاقروبول اثار المرسحين العظيمين اللذين هما من بقايا التمدن القديم

وكان أسبق امم اوربا الى تحصيل فنون الادب الاسبانيول والطليان المجاورون للعرب . فظهر في الاولين من فحول الشعراء لوب دوفيكه ونظم نحو الف وثمانماية رواية تمثيلية . وظهر فيهم ايضاً الشاعر قالديرون ولوقين وغيرهم . وفي الطليان ظهر الشاعر دانتي (١٢٦٥ ــ ١٣٢١ م) وطار له ذكر في العالم وهو يعد في مصاف اكبر شعراء الامم القديمة والحديثة . وسبب شهرته كتابه الموسوم بالكوميدية الالهية — ديفين كوميدي — الفه في غضون سنة ١٣٠٠ م وجعله على ثلاثة أبواب باب في جهنم وباب في الاعراف وباب في الجنة . وسمى الباب منها بالنشيد وقسمه الى مائة غناء وكل غناء يشتمل على ١٣٠ أو ١٤٠ بيتاً . وافتتح كتابه بباب جهنم وصور نفسه مشرفاً على غابة مظلمة تقشعر الجلود من وصفها . وهمّ بدخولها لو لم يعترضه ثلاثة سباع كاسرة . وبينما هو بين أظفار المنية ظهر له فرجيل الشاعر اللاتيني وعرض عليه ان يكون قائداً له في الاعراف والسعير فقط لانه لا يستطيع دخول الجنة ولا وطء عتابها لكونه من عبدة الاوثان فقبل دانتي بقيادة فرجيل له وسارا معاً في عالم أهل النار . وأطنب الشاعر في وصف اصحاب السعير وصور

عذاب الذين مر بهم من الظلمة والجبارين . واتى على قصة ايكولين وكان جباراً عنيداً في مدينة بيزا فوقع بايدي أعدائه فوضعوه مع اولاده في برج وسدوا عليهم جميعاً فاشتد به الجوع وأكل اولاده ثم هلك . فوصف دانتي جميع ذلك بصورة هائلة على الاسلوب المعروف بالدرامانيقي . ولما أدته خاتمة المطاف إلى الجنة وجد ببابها بياتريس وكانت من ربات الجمال المشهورات بمدينة فلورانسا وقيل كانت معشوقته فتلقته واخترقت به طبقات الجنة المسيحية او طباق السموات فلقي فيها كثيراً من الابرار والقديسين والملائكة المقربين وباحثهم بالمسائل اللاهوتية والعلوم الالهية والكلامية وجمع دانتي في مؤلفه علوم العصر وآدابه ومعارفه ووضع به اساس اللغة الطليانية فكان كتابه كدائرة المعارف والاداب . ولم يزل يستوقف انظار الادباء بحسن ترتيبه وجودة سبكه وبما فيه من المهارة العجيبة في التنقل من مبحث الى آخر . فالكوميدية او المضحكة الالهيه اشبه برسالة الغفران التي حررها المعري قبل تأليف الكوميدية باكثر من قرنين وقدمها جواباً لرسالة وردت عليه من أحد اصحابه الافاضل في حلب وانتقل فيها لذكر الجنة ونعيمها وذكر من دخلها من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون . وما كانوا يدخلونها الا بعمل صغير كان له عند الله اجر كبير فغفر لهم ما تقدم من الذنب وما تأخر وقالت لهم الملائكة طبتم فادخلوها خالدين

واقتفت الامم الاوربية اثر الاسبانيين والطليان في العدول عن اللغة اللاتينية الى وضع لغاتهم القومية وتدوينها . واقبل الادباء في انكلترة على التأليف باللغة الانكليزية واصلح الفرنساويون لسان رومان وهذبوه فاصبح اللغة الفرنساوية . واقتفى الالمان اثر من ذكر من الامم ودونوا لغتهم الالمانية . وكان فن الادب منحصراً في الخواص شأنه عند العرب ولا نظر للعوام فيه ولذا اختار الادباء اصطلاحات مخصوصة من اللغة وتصنعوا في كلامهم وتعملوا له . لان الخواص من الناس يأنفون من استماع الكلام السوقي المبتذل ويألفون الغوص على المعاني واعمال الذهن في استخراجها . ثم ظهر في فرنسا الكسندرهاردي وهو اول من اصلح فن التمثيل واللعب على المراسح . واتخذ الروايات الاسبانية نموذجا له ونظم على منوالها كثيراً من

فتعلم الافرنج من العرب القوافي ورقة الغزل وآداب النظم والنثر وتلحين الاغاني والشعر ونقلوا عنهم القصص والحكايات والنوادر وضروب الامثال والحكم المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في تواريخ الادب الفرنساوي . والى ذلك اشار الموسيو دينه دوميك في كتابه المتداول بأيدي طلبة العلم في عموم المدارس الفرنساوية . وبعد ان اطلع الافرنج من كتب الاسلام على ما عند اليونان من الفلسفة والحكمة اقبلوا على درس اللغة اليونانية ولم يهملوا كتب ادبها كما اهملها العرب من قبلهم . بل تهافتوا على درس ادب اليونان واللاتين وعلى حفظ اشعارهم والتمثل بها . وهاموا في قص قصصهم وفي تشخيص رواياتهم لان فن التشخيص او التمثيل كان شائعاً عند اليونان والرومان . وألف أدباؤهم كثيراً من الروايات واشتهر منها مؤلفات اوريبيدس لاسيما رواية اندروماق التي نسج راسين على منوالها . ولا يزال السياح يشاهدون في أثينة على سفح الجبل تحت قلعة الاقروبول اثار المرسحين العظيمين اللذين هما من بقايا التمدن القديم

وكان أسبق امم اوربا الى تحصيل فنون الادب الاسبانيول والطليان المجاورون للعرب . فظهر في الاولين من فحول الشعراء لوب دوفيكه ونظم نحو الف وثمانماية رواية تمثيلية . وظهر فيهم ايضاً الشاعر قالديرون ولوقين وغيرهم . وفي الطليان ظهر الشاعر دانتي (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) وطار له ذكر في العالم وهو يعد في مصاف اكبر شعراء الامم القديمة والحديثة . وسبب شهرته كتابه الموسوم بالكوميدية الالهية — ديفين كوميدي — الفه في غضون سنة ١٣٠٠ م وجعله على ثلاثة أبواب باب في جهنم وباب في الاعراف وباب في الجنة . وسمى الباب منها بالنشيد وقسمه الى مائة غناء وكل غناء يشتمل على ١٣٠ أو ١٤٠ بيتاً . وافتتح كتابه بباب جهنم وصور نفسه مشرفاً [illegible]ابة مظلمة تقشعر الجلود من وصفها . وهمَّ بدخولها لو لم يعترضه ثلاثة سباع [illegible] . وبينما هو بين أظفار المنية ظهر له فرجيل الشاعر اللاتيني وعرض عليه ان يكون قائداً له [illegible] والسعير فقط لانه لا يستطيع دخول الجنة ولا وطء عتابها لكونه من عبدة الاوثان فقبل دانتي بقيادة فرجيل له وسارا معاً في عالم أهل النار . وأطنب الشاعر في وصف اصحاب السعير وصور

عذاب الذين مر بهم من الظلمة والجبارين . واتى على قصة ايكولين وكان جباراً عنيداً في مدينة بيزا فوقع بايدي أعدائه فوضعوه مع اولاده في برج وسدوا عليهم جميعاً فاشتد به الجوع وأ كل اولاده ثم هلك . فوصف دانتي جميع ذلك بصورة هائلة على الاسلوب المعروف بالدرامانيتي . ولما أدته خاتمة المطاف إلى الجنة وجد ببابها بياتريس وكانت من ربات الجمال المشهورات بمدينة فلورانسا وقيل كانت معشوقته فتلقته واخترقت به طبقات الجنة المسيحية او طباق السموات فلقي فيها كثيراً من الابرار والقديسين والملائكة المقربين وباحثهم بالمسائل اللاهوتية والعلوم الالهية والكلامية وجمع دانتي في مؤلفه علوم العصر وآدابه ومعارفه ووضع به اساس اللغة الطليانية فكان كتابه كدائرة المعارف والاداب . ولم يزل يستوقف انظار الادباء بحسن ترتيبه وجودة سبكه وبما فيه من المهارة العجيبة في التنقل من مبحث الى آخر . فالكوميدية او المضحكة الالهيه اشبه برسالة الغفران التي حررها المعري قبل تأليف الكوميدية باكثر من قرنين وقدمها جواباً لرسالة وردت عليه من أحد اصحابه الافاضل في حلب وانتقل فيها لذكر الجنة ونعيمها وذكر من دخلها من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون . وما كانوا يدخلونها الا بعمل صغير كان له عند الله اجر كبير فغفر لهم ما تقدم من الذنب وما تأخر وقالت لهم الملائكة طبتم فادخلوها خالدين

واقتفت الامم الاوربية اثر الاسبانيين والطليان في العدول عن اللغة اللاتينية الى وضع لغاتهم القومية وتدوينها . واقبل الادباء في انكلترة على التأليف باللغة الانكليزية واصلح الفرنساويون لسان رومان وهذبوه فاصبح اللغة الفرنساوية . واقتفى الالمان اثر من ذكر من الامم ودونوا لغتهم الالمانية . وكان فن الادب منحصراً في الخواص شأنه عند العرب ولا نظر للعوام فيه ولذا اختار الادباء اصطلاحات مخصوصة من اللغة وتصنعوا في كلامهم وتمحلوا له . لان الخواص من الناس يأنفون من استماع الكلام السوقي المبتذل ويألفون الغوص على المعاني واعمال الذهن في استخراجها . ثم ظهر في فرنسا الكسندرهاردي وهواول من اصلح فن التمثيل واللعب على المراسح . واتخذ الروايات الاسبانية نموذجا له ونظم على منوالها كثيراً من

الروايات الفرنساوية وشخصها على مرسح باريس في حدود سنة ١٦٠٠م . وفن التمثيل كما لا يخفى هو من اكبر العوامل على ترقي فنون الادب واصلاح طرق النظم والنثر . لان الاديب يخاطب بهذا الفن الجمهور واصناف الناس فيتحرى في كلامه التعبير الذي يستطيعون فهمه والاساليب التي لها وقع في نفوسهم بخلاف من يؤلف كلامه للخواص فانه يتمهل في التأليف ويتصنع ليظهر تفننه واقتداره على ايراد النكت والدقائق التي لا يفهمها الا اصحاب الغوص على المعاني

والتمثيل كما لا يخفى مشتق من ضرب المثل . فان الرواية التمثيلية ما هي الا ضرب مثل جامع للاطراف والتفاصيل واحسن ضروب الامثال وابدعها وردت في القرآن الكريم الذي تحدى به النبي عليه السلام العرب وقال ائتوني بسورة من مثله فقالوا انت تعرف من اخبار الامم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا . قال فاتوها مفتريات . فالرواية هي اسلوب من اساليب المفتريات . واساس فن التمثيل عند الاوروبيين مستفاد من اعمال المتعبدين في الكنائس ومن تشخيص ما شبه لهم في المسيح بن مريم عليهما السلام من القتل والصلب ومن تمثيل آلام الذين اقتدوا به من القديسين والشهداء في سبيل النصرانية . ولما درس الافرنج اليونانية واللاتينية وانتشقت اساليب هاتين اللغتين في نفوسهم حذوا حذو شعراء اليونان والرومان واتخذوا رواياتهم منوالا نسجوا عليه امثالها من كلمات اخرى فرنساوية وربما ترجموا ابيات شعرهم وسرقوا معانيهم وصاغوها في الفاظ فرنساوية من الطبقة العليا وتأنقوا فيها نهاية التأنق. وراعوا قواعد النحو والصرف والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية والاساليب المتعارفة فجاءت اياتهم متينة وقوافيهم عامرة . وكل بيت منها كلام تام في مقصوده ويصلح ان ينفرد دون ما سواه . ولم تحصل الملكة في ذلك الا لمن هو على جانب من العلم وله الحظ الاكبر من الذوق السليم لاحتياجه الى تلطف كثير في استحصال الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له

وبلغ الادب الفرنساوي في عصر لويس الرابع عشر أي من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٧١٥ اوج الكمال ومنتهى البلاغة . واصلح الادباء فنون الادب ورتبوها على القواعد وهذبوها ووضعوا المؤلفات الجليلة والروايات البديعة وظنوا بأنهم لم يتركوا

شيئاً للمتأخرين . فكان عصر لويس الرابع في الادب عصراً مدرسيّا (كلاسيك) أشبه بعصر أوغسطوس عند الرومان و بعصر بيرقاس عند اليونان . ونبغ من شعراء الفرنساويين في فن الفاجعات (تراجيدي) الاديب بيير قورنيل والشاعر المفلق راسين . ونبغ في فن المضحكات (كوميدي) الاديب موليير ، ونبغ في فن الهجويات (ساتير) الاديب المدقق بوالو . فهؤلاء من نوابغ العصر المذكور الذي بلغ اللسان فيه منتهى الفصاحة والبلاغة . ومن احسن مؤلفات بيير قورنيل رواية السيد والكلمة عربية لقب بها احد ابطال الاسبانيين في القرن الحادي عشر للميلاد . و بيان ذلك :

أن العرب بعد استيلائهم على جزيرة الاندلس (١) التجأت بقية السيوف من القوط الى جبال استوريا وتحصنوا فيها ولموا شعثهم وشكلوا حكومات وامارات صغيرة فلم يعبأ بهم العرب وحسبوهم من قطاع الطرق المتشردين في الجبال وتشاغلوا عنهم بتعمير تلك السهول وتمتعوا بر ياضها الغناء . فمن الامارات التي اسسها القوط في شمال الاندلس استورية وليون وقشتالة وكان المالك عليها في ابتداء القرن الحادي عشر الميلاد فرديناند الاول فاوصى بتقسيم الملك بعد وفاته بين أولاده فكان ابنه الفونس السادس على ليون الاسبانية وابنه الثاني سانش على قشتالة . فالسيد صاحب الرواية ولد سنة ١٠٣٠ وسمي رودريك وكان ابو الدون دييغوا من اشراف القوط فادخله في سراي فردريناند الاول . و بعد وفاته دخل في خدمة ابنه سانش ولما اقتتل الاخوان وانهزم سانش في احدى المواقع قوّى السيد عزمه واسار عليه بالمشورات الحسنة فاتبع رأيه وانتصر على اخيه وحبسه وتفرد بالملك على ليون وقشتالة . فكان السيد له نديماً ووزيراً وناصحاً ومشيراً . ثم حدثت فتنة وقتل سانش في محاصرة زاموره وخانه اخوه الفونس السادس فأمن السيد واقسم له الايمان المغلظة بانه لا مدخل له في قتل اخيه سانش وقربه منه وزوجه بواحدة من قريباته

---

(١) قالت العرب جزيرة الاندلس وجزيرة العرب وذلك اخف من قولنا شبه جزيرة الاندلس وبحيث جزيرة العرب والاندلس تطلق على مملكة اسبانيا ومملكة البورتغال ما عدا جزر صغيرة في الشمال الغربي من مملكة اسبانيا

وكانت على رواية التاريخ عجوزاً شنعاء ولم يتزوجها السيد الا طمعاً في مالها . وبعد ان تم الامر لالفونس السادس وأمن غوائل الرقباء فعل بالسيد ما يفعله المستبدون من الملوك وصادره واراد الفتك به ففر من مملكه الى الحدود الاسلامية وعمر قلعة على قلعة بالقرب من سرقسطة (ساراغوس) بين دارقة والقنيز . ولم يزل اثر تلك القلعة على صخرة عالية تسمى صخرة السيد كما تنسب الصخرة التي في رونسيفو أي في مدخل جبال البيرينة الى رولان . واستقل السيد بحكمه في تلك القلعة وكان يتعيش هو ورجاله من النهب والغارة على القرى المجاورة ومن قطع الطرق على القوافل الاسلامية والمسيحية . فاشتهر خبره وتحدثت الركبان بشجاعته ثم اتفق مع امير سرقسطة وامير البراسين وهما من امراء المسلمين وقاتل معهما امير اراغون المسيحي وحارب كذلك عسكر الفونس السادس والمتفقين معه من امراء المسلمين لانهم كانوا متفرقي الكلمة يقاتل بعضهم بعضاً . فجاءهم يوسف بن تاشفين بعساكر المرابطين من افريقية ووحد كلمة الاسلام في عموم جزيرة الاندلس مع انه كان امياً بربرياً . فوقف السيد أمام المرابطين ودفع هجماتهم عن بلنسية ولم يمكنهم من الاستيلاء عليها الا بعد وفاته في سنة ١٠٩٩ م . فتحدث القريب والبعيد بشجاعة السيد وثبات عزمه وطار له ذكر بين الفرسان ونظمت فيه القصائد العنترية أو الهلالية بلسان رومان . ثم جاء قورنيل ونظم فيه روايته المشهورة بدون التفات للتاريخ ولا تعمق فيه بل نسج على منوال القصائد الرومانية وتخيل فيها تخيلاته الشعرية وجعل تلك المرأة التي تزوجها السيد بديعة الحسن والجمال . ولما عشقها وعشقته اتفق ان ولدها اهان والده فانقض عليه السيد وقتله وتمكن من تسليط ارادته على عشقه . أما اسم « السيد » فأطلق عليه حينما كان متفقاً مع امير سرقطه وأمير البراسين وحارب معهما ولم نتعمق في التاريخ لنفهم هل دخل السيد في الاسلام أم لا . ومن ابيات قورنيل في روايته المذكورة قوله : (كلاهما سمياك سيدهما بحضوري لان السيد بلسانهم تعادل كلمة سنيور)

اما ما ألفه راسين من الروايات الموافقة تماماً للقواعد المدرسية فاحسنها رواية (اندروماق) ونسجها على منوال سميتها الرواية اليونانية المؤلفة قبل الميلاد باربعة

قرون وتخالف رواية السيد في وحدة الزمان وفي اخلاق بطلها لتغلب العشق عليه وانتصاره على ارادة العاشق . ومن روايات راسين استير الأسرائيلية و يشخصها احياناً طلبة المدارس في بيروت . ورواية اتلي وهي من الاسرائيليات ايضاً . — قال فولتير انها احسن محصولات العقل البشري . ومن احسن ما ألفه موليير في المضحكات رواية تارتوف وهو رجل مرائي في نسكه وعبادته أغفل بخبثه أحد المتمولين من البسطاء واستولى على امواله وعياله فصار اسم تارتوف كناية عن الرياء والخبث . وقد اتى المعري بابيات كثيرة تشتمل على مضمون هذه الرواية كقوله :

وليس عندهم دين ولا نسك (فلا تغرك أيد تحمل السبحا)

وكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم يسبحون وباتوا في الخنا سبحا

والف بوالو كتاب الهجويات (ساتير) ووضع في قواعد الشعر كتاباً سماه الفن او الصناعة الشعرية (آر بويتيك) وانكر الشعر والشعراء في المتقدمين وقال لم تأت فرانسا بشاعر قبل (ماليرب) اي ان الشعراء الذين جاءوا قبل دخول القرن السابع عشر لا يستحقون الذكر في مصاف الشعراء لعدم اتيانهم بالكلام المدرسي المنتظم المعقول وانهماكهم على التهدنم البارد في الكلام واظهار الرونق الكاذب فيه و بيان ومهارتهم وعامهم بكل ما هو من فضول الكلام ولذا فكلامهم لا طعم له وفيه كثير من الغرور والاعجاب . فبوالو بالغ في كلامه وحط كثيراً من كرامة المتقدمين ولكنه أصلح اساليب الشعر الفرنساوي كما اصلح باسكال أساليب النثر . وكان باسكال اماماً في العلوم الرياضية والطبيعية . واقتفى اثر بوالو في انتقاد كلام المتقدمين الوزير ضيا باشا والف مجموعة سماها الخرابات خرب فيها كثيراً من اشعار الفرس والترك والعرب المتقدمين عليه وكانت وفاته في بروسة سنة ١٢٩٥ هـ فجاء كمال بك امام الادب في اللسان العثماني وكتب عليه انتقاداً سماه تخريب الخرابات ونشره في مطبعة ابو الضياء . فالغاية التي يتطالبها أئمة الادب العثماني كاللذين ذكرا وعبد الحق حامد بك مستشار سفارة لوندرة واكرم بك وسعيد بك من اعضاء الشورى والمعلم ناجي افندي المتوفى منذ بضع سنين وبقية النشأة الجديدة — هي تخليص لسانهم من مبالغات الفرس الاعاجم والسلوك فيه منهج بوالو وراسين وقورنيل

وموليير وبقية ادباء عصر لويس الرابع عشر . لان هؤلاء الادباء يذهبون الى أن التخيل الشعري ينبغي أن يكون مقروناً بالتعقل . فعندهم ان الشعر ليس أعذبه اكذبه بل احسنه اصدقه كما قال حسان :

وان أحسن بيت انت قائله بيت يقال اذا انشدته صدقا

واشترطوا في الروايات التمثيلية ثلاثة شروط

وحدة الزمان

وحدة المكان

وحدة العمل

أي ان الحادثة الممثلة على المراسح يشترط تصور حدوثها في زمن واحد أي في ظرف ٢٤ ساعة مثلاً ليكون التمثيل اقرب الى الحقيقة واشبه بالواقع لان حوادث الاربعة والعشرين ساعة يمكن اختصارها وتمثيلها في ساعتين . فراسين راعي هذا الشرط في رواية اندروماق . وقورنيل خالفه في رواية السيد ونقل بطل الرواية من سنة الى اخرى . فالقائلون بهذا الشرط تنقبض نفوسهم من تمثيل الحوادث التي حدثت في ازمان متطاولة . وقصدهم من وحدة المكان اشتراط وقوع الحادثة في مكان واحد لئلا ينتقل ذهن السامع من مكان لآخر فيبتعد بذلك عن الحقيقة . ولذا كانت مراسح القائلين بهذا الشرط ثابتة المناظر من أول اللعب الى آخره . بحيث اذا رفع الستار عن مكان يبقى المكان بعينه في الفصل الثاني وما بعده من فصول الرواية لمراعاة شرط وحدة المكان . والمراد من الشرط الثالث ان يكون بطل الرواية واحد وعروسها واحدة ثم السعي وراء عمل واحد وهو الحب مثلا وينتهي بفناء المحبين او احدهما أو انتصارهما أو تغلب ارادة العاشق على عشقه كما فعل السيد وقتل ابا معشوقته أخذاً بثار ابيه أو بالعكس كما قتل سفير اليونان زوج محبوبته في رواية اندروماق وخان بذلك وطنه ولم يرع عهد من ائتمنه كل ذلك مرضاة لمعشوقته

فمصدر هذه الشروط والقيود وامثالها هو التعقل في الكلام الادبي وتحكيم الذوق السليم في فنونه . ولم يكن الادباء قبل عصر لويس الرابع عشر يتعقلون في

نظمهم ونثرهم ولا يحكمون الذوق السليم فيها . ولذا كانت فنون ادبهم مشحونة بالخرافات والاباطيل و بما هو خارج عن الطبيعة والاعتدال وخارق للعادة ومشتمل على المبالغات العجمية وعلى زخرف القول . فلما تعقل الادباء في كلامهم وجدت الطريقة المدرسية التي قيل لها (كلاسيك) . والكلمة كما هو معلوم مشتقة من الصف والدرس والمدرسة . لان السالكين هذه الطريقة لا بد لهم من درس آثار الواضعين لقواعدها والارتياض في كلامهم لتحصل لهم ملكة في النظم والنثر . وامام الطريقة المدرسية وشيخها الاكبر راسين

١٩ — الطريقة المدرسية عند الافرنج

فروايات الادباء والشعراء المتقدم ذكرهم يقال لها روايات مدرسية كما يقال للكتاب الذي يدرس في المدارس كتاب مدرسي . ويقصد به الكتاب الاقرب الى مرتبة الكمال في الفن الذي هو مؤلف فيه . فرتبة الكمال يمكننا تصورها والاحاطة بها في العلوم المدرسية كالنحو والصرف والبيان والمعاني والعروض أو الفقه والحساب . ولكن في الادب وفي الروايات التمثيلية ليت شعري ما هي مرتبة الكمال ؟ ففي جواب هذ السؤال وقع الاختلاف بين مشايخ الطرق الادبية من مدرسية ورومانة وحقيقية او طبيعية . وفي نهايتهم الطريقة الانسانية وهي موضوع حديث القوم في يومنا بسبب كتاب نشره المسيو فيكتور بيرار مستشار نظارة البوستة والتلغراف وبحث فيه عن الاوديسة التي نظمها اوميروس الشاعر اليوناني . وكان المسيو بول ادم بحث عن هذه الطريقة الادبية الجديدة في مقدمة قصته التي عنوانها اسرار الجمهور (مستير دوفول) و بول ادم يحرر اليوم في جريدة الجرنال الباريسية .

فاصحاب الطريقة المدرسية يذهبون الى ان مرتبة الكمال في الادب هي « اولاً » تمام النسبة التي بين اساس الفكر وبين شكل التعبير . اي بين المعاني التي يختلقها الشاعر وبين قوالب الالفاظ التي يسكب تلك المعاني فيها . فعلى مذهبهم لا يكفي ان يكون المعنى حسناً بل ينبغي ان يكون الحسن أيضاً في كيفية اداء هذا

المعنى . فالكلام الجاري على الطريقة المدرسية هو معنى بديع في لفظ حسن (١)

فهذه الموازنة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير هي الخاصة المميزة لمؤلفات العصور المدرسية كعصر لويس الرابع عشر وعصر اغسطوس وعصر بيرقاس . والعصر المدرسي لا يوجد عند جميع الاقوام بل بعض الامم ليس لهم عصر مدرسي ولا أدب مدرسي مطلقاً ولا يتيسر لهم الوصول الى مرتبة الكمال في الادب أبداً . لانهم اذا تمكنوا من الاتيان بالمعاني البديعة فلا يتمكنون من اداء هذه المعاني بالألفاظ الحسنة ولا يقدرون على الترجمة عن أفكارهم حق الترجمة لاحد السببين : اما ان اللسان الذي يتكلمون به لم يزل على خشونته ولم يكتسب بعد الشكل البديع . وأما ان تكون اساليب الفن ولوازم الصناعة الادبية لم تعرف بعد عند المتكلمين به . ثم انهم يشترطون في التاليف المدرسي ان يكون ظهوره في الزمن التي بلغت فيه اوج الكمال ويقولون لا بد من هذا الشرط . ويعترضون على أصحاب الطريقة الرومانية لانهم تجاوزوا النسبة التامة التي بين اساس الفكر وشكل التعبير . ولم يكتفوا بالتعبير البسيط الذي يؤدي معانيهم تمام الاداء . بل أرادوا زيادة عن هذه النسبة التامة . بل تطلبوا أزيد من ذلك أيضاً . فارجعهم تهافتهم الى الوراء وساقهم الى الاساليب الاجنبية وأوصلهم الى طريقة لوب دوفيكه الاسباني والى طريقة بايرون وشكسبير الانكليزيين

(١) قال ابن خلدون : اعلم ان الصناعة في اللسان والنطق انما هو الالفاظ . واما المعاني فهي في الضمائر . فالمعاني موجودة عند كل واحد . وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج الى صناعة ؟ وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج لصناعة (Art) . وهو بمثابة القوالب للمعاني . فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف . والماء واحد في نفسه . وتختلف الجودة في الاواني المملوءة باختلاف اجناسها لا باختلاف الماء . كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد . والمعاني واحدة في نفسها . وانما الجاهل بتأليف الكلام واساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه اه كلامه . وفي بعضه نظر ولا يخفى ان الشاعر المفلق اقدر من غيره على رؤية الاشياء ببصره وباصرته وعلى التعبير عنها بلسانه . فالمعاني المتحصلة في ذهنه لا توجد عند كل واحد

ويذهب اصحاب الطريقة المدرسية الى ان مرتبة الكمال في الادب هي «ثانياً» وجود موازنة بين التخيل الشعري وبين التعقل. بل يشترطون وجود هذه الموازنة بين جميع الحواس . فاذا كان التخيل الشعري في التأليف الادبي منافياً للعقل فلا يعتبرون ذلك التأليف على نهج الطريقة المدرسية . مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب . ومبالغات العرب أقل من غيرها لا سيما في كلام الجاهلية وأهل الطبقة الاولى من الاسلاميين الذين لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم ولا حصلت لهم الفة بفنون أدب الفرس ولا بتعبيراتهم . ومن هذه المبالغات قول المتنبي في صباه يصف ما فعل به العشق :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني ... الى ان قال : لولا مخاطبتي اياك لم ترني

فهذه المبالغة لا تنطبق على العقل ولا تحدث في العادة والمتنبي ولد في الكوفة وذهب الى فارس واختلط بادباء العجم . ومبالغات نفعي كبير شعراء الترك المتقدمين (القرن الحادي عشر للهجرة) قوله بالالفاظ الفارسية والتركيب والتركي يصف يوماً شديد الحر :

(.... كيم برمور بردم كرم ايله ايلريدي درياي سراب» ومعناه ان النملة بنفس حار تجعل السبع البحور سراباً . ومن قرأ ديوان نفعي حسب ناظمه من زمرة عوج بن عناق وظن تمثال رودس الذي كانت المراكب تمر من بين ساقيه صورة له ومنها قول ضيا باشا — وهو في مقدمة ادباء النشأة الجديدة العثمانية وله وقوف على الفرنساوية — باللسان العثماني الجديد الذي يكثر فيه استعمال الالفاظ العربية. (سرولر افلا كه سرچكمش مثال قديار) . ومعناه مثل قد الحبيب كاشجار سرو تناطح برؤوسها الافلاك . ويذكرني هذا ما قاله احد الواعظين في جامع ايا صوفيا بان من صام كذا وصلى كذا وسبح كذا في ليلة القدر التي هي خير من الف شهر رزقه الله في الجنة حورية طولها ما بين بعد المشرقين . فان كنا نستهجن طول الانسة ايلابوين أطول نساء العالم ولا تتوق النفس الى قربها

وهي لا تزيد عن الطول المعتاد باكثر من قدمين فما بالك ان زاد قدّ عروسنا عن ذلك ؟

يقسم علماء المعاني المبالغة الى ثلاثة اقسام : وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً وعادة ويقال لها التبليغ . ومعقولة وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً لا عادة ويقال لها الاغراق . وغير معقولة وهي ما لا يجوز وقوعها العقل ولا العادة ويقال لها الغلو . فاهل الطريقة المدرسية يرفضون الغلو والاغراق في الكلام . ويقولون بان بعض الامم أو بعض العصور في الامة الواحدة لها تخيل شعري وليس لها تعقل . وقد جاءت هذه الامم او هذه العصور بكثير من المؤلفات البديعة التي لا تخلو من الفوائد ولكن مؤلفاتهم ليست بمدرسية لوجود التخيل الشعري فيها بدون تعقل . كما هو الحال في ماها بهاراته وراماياناه من أشعار الحماسة الهندية وفي الشعر الفارسي والتركي القديم وبعض اشعار العرب المخالطين للعجم . فمن حصائص العصور والآداب المدرسية تحكيم الذوق السليم في مؤلفاتها والذوق السليم لا يميل طبعاً الا للجمال والتناسب والقياس ولا وجود لما ذكر في زمن تشكل اللسان ولا في زمن انقراضه

ولاصحاب الطريقة المدرسية مسألة ثالثة أيضاً وهي محبتهم الصدق والحقيقة . فهم يذهبون الى ان احسن الشعر أصدقه لا أكذبه . ولكنهم لا يقصدون باتباع الحقيقة تصوير الحقيقة بعينها تصويراً تاماً كما ذهب اليه اصحاب الطريقة الحقيقية وورد في مؤلفات امامهم اميل زولا . كلا بل يقولون فقط بلزوم ارتباط التصوير الذهني وحده في الشعر لا يكفي

وعندهم ايضاً ان التآليف المدرسية يجب ان تكون منحصرة في تصوير الجميل والبديع فالتآليف المغايرة للآداب الاخلاقية والموجبة لاشمئزاز النفس يندر فيها الجمال فلا تكون مدرسية . فهم لا يطالبون الكاتب الذي يسلك طريقتهم بان لا يحرك قلمه الا في المواعظ الحسنة والاخلاق المستحسنة ولا يصور فيها شيئاً غير الجمال . ولكنهم ينددونه بسقوط مؤلفاته ان ملأها بوصف الاشياء القبيحة والافعال الشنيعة . كما فعل زولا في كتاباته وصور فيها بؤس المعيشة وسفالة الحياة . ونظم

احد الادباء في العام الماضي رواية صوّر فيها الامراض الزهرية والعلل الافرنجية التي تحدث من الانهماك في العهر وشرح ذلك على مُرسح اللعب شرحاً اليق ان يكون في غرفة الطبيب المخصصة لمعاينة الامراض السرية . فمنع المراقب تمثيلها في باريس كما منع رقصة الشربة والشمعة من المرسح المصري في المعرض الاخير . ويقال بان الرواية المذكورة في غاية من البلاغة و باعثة على التعفف

ويشترطون في الطريقة المدرسية شرطاً اخيراً وهو ان تكون المؤلفات فيها ملية قومية اي مصورة لافكار القوم الفلسفية ولاحوالهم الاجتماعيــة : فان كان التأليف الادبي وضع تقليداً للاجانب فلا يكون مدرسيًّا . فبناء عليه يكون هــذا الشرط مرعيًّا في المؤلفات التي استخرج صاحب مجاني الادب زبدتها في كتابه لانها من المؤلفات المختصة بالعرب قبل الاسلام و بعده . بخلاف المؤلفات العربية الموضوعة في زماننا على الاسلوب الافرنجي ــ وربما كانت مترجمة عن لسان من الالسنة الاجنبية فانها ليست على وفق الطريقة المدرسية . مع ما فيها من الفوائد التي سنذكرها في بحث الطريقة الرومانية .

فهذه زبدة الاقوال وخلاصة القواعد التي أسست عليها الطريقة المدرسية . فكان من اتي من الادباء بعد عصر لويس الرابع وهو القرن السابع عشر الذي بلغ اللسان الفرنساوي فيه درجة الكمال لا يخرجون في النظم والتأليف عن الاساس الذي وضعه مشايخ الطريقة المدرسية ولا عن الاساليب التي راعوها . ويتكلفون لذلك الصعاب ويعانون طول الدرس ومراعاة القواعد ليتمكنوا من تحسين العبارة ومن تطبيقها على ما يتخيلونه من التشابيه والاستعارات ويلتزمون عدم الخروج عن اوزان العروض المصطلح عليها بين قومهم وجماعتهم ويجعلون كل بيت في الغالب كلاماً تاماً ولا يأتون بشيء من الكلام السوقي المبتذل ولا يصورون رذيلة من الرذائل ولا سوأة من سوآت الانسان وعوراته ولا يصفون شيئاً من بؤس المعيشة أو سفالة الحياة الدنيــا . ويتخبون مواضيع مؤلفاتهم من تواريخ القرون الاولي أي من تاريخ اليونان والرومان والعبرانيين . فكان كلامهم مشتملاً على التخيل الشعري وعلى التعقل المشروط وجودهــا في الطريقة المدرسية ولكنه بارد

ممل بسبب ما فيه من التصنع والتعمل ومن مراعاة تلك الشروط والقيود التي قيدت عقول اصحابه ومنعتهم عن الخوض في مضمار الوسط الذي هم فيه ويشعرون به ويريدون البحث عنه فيمنعهم مراعاة تلك القواعد والاساليب الانشائية . فمؤلفاتهم استيفائها للشروط المدرسية لم تحدث تأثيراً على النفس ولا تهيجاً للعواطف كمؤلفات الطريقة الرومانية لعدم مراعاة شرط الاحساس القلبي فيها . ولذا قالوا بان راسين وقورنيل وموليير واهل طبقتهم لو اطلقوا العنان لاقلامهم ولم يتقيدوها بسلاسل تلك الشروط المدرسية لأتوا باحسن مما جاؤا به من درر الالفاظ وغرر المعاني

فهذا ما كان عليه فن الادب الفرنساوي قبيل الانقلاب الكبير ولذا كان الكثير من الكتبة لا سيما النشأة الجديدة يتذمرون من تقيدهم بتلك القيود المدرسية ويرون انفسهم كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه . فكان مثلهم كمثل غلام في مكاتبنا اراد التحرير لوالديه فلم ير امامه من نموذج الانشاء سوى ما طبع في الاستانة من رسائل الخوارزمي والبديع والهمذاني . وكانت هذه النشأة الجديدة ترى أيضاً قصور الطريقة القديمة عن حقيقة البلاغة وهي مطابقة الكلام للواقع ومقتضى الحال . لان اصحاب الطريقة المدرسية مع محافظتهم على التعقل في الكلام كادوا بكثرة تشابيههم واستعاراتهم لا يسمون الاشياء باسمائها الحقيقية ويستعملون الحشو ويتكلفون للعبارات التي لا لزوم لها . فاذا اراد أحدهم أن يعين الوقت وهو يكتب قصة أو رواية ويقول مثلاً قبل مرور ساعة من الزمان دبج عباراته وكثر استعاراته وقال :

(قبل ان يتم العقرب خطاه المنظومة وينقل الى مينا الساعة الجلاة ستين خطوة موزونة ....) الخ

كما فعل الشاعر الفرنساوي اندره شينيه وهو خاتمة الشعراء السالكين منهج الطريقة المدرسية وابلغهم كلاماً . وكانت ولادته في الاستانة وامه رومية فارتحل الى باريس وصار فيها امام أهل طبقته فلما قتل سنة ١٧٩٤ م مع من قتل من افاضل الرجال واكابرهم بآلة الكيليوتين انقرضت الطريقة المدرسية بعد ان كانت قواعدها واساليبها هي المرعية بين الادباء . يتبع فيها الخلف اثر السلف . ومع

اعتراف النشأة الجديدة بما فيها من القصور والخلل لم يقدم أحد منهم على تركها ولا الخروج عنها لاوائل القرن التاسع عشر

فقبل هذا التاريخ كان جمهور الناس وعوام الامة في تسيب وغفلة لا يتقيدون على المصالح انتظمت أو لم تنتظم ويدعون الامور تجري في مجراها حسناً كان أو قبيحاً نافعاً أو مضراً كما يجري الماء في الارض الطبية بدون حفر النهر ولا كريه . وكانوا يستعملون هذا التعبير (laisser aller) كما نستعمل تعبير (طيب معليش) . ولا يهتمون بالمسائل العمومية والاجتماعية كانها لا تعنيهم ولا يعود خيرها وشرها عليهم . فلما حدث الانقلاب الكبير في فرنسا سنة ١٧٧٩ م تغيرت البلاد ومن عليها في بضع سنين وانقلبت افكار الناس وعاداتهم واخلاقهم وزال عنهم التسيب والغفلة والكسل والرخاوة وشغفوا بحب الانتظام والدقة . فتقيدوا بالمسائل وتبصروا بالامور وكانوا صامتين ناصتين مفكرين متعقلين لا يضيعون اوقاتهم في ما لا فائدة فيه ولا يشتغلون بالعبث من اللهو واعتادوا على الآداب العسكرية في انتظام الحركات والسكنات لان الامة باسرها حتى النساء والصبيان كانوا باجمعهم تحت السلاح الكامل يكرون ويفرون من غرب اوربا الى شرقيها ومن قارة افريقيا الى قارة اسيا أي من مصر الى سوريا . فكان الواحد منهم لا يهمل في قيامه وقعوده امراً ولا يغفل في ملابسه عن زر ولا يترك فيها فتقاً بغير رتق . واذا وقف استقامت قامته لان الانسان مستقيم القامة واذا مشى او ركب لا يتوكأ على الخدم كما تفعل اكابر بعض الامم دلالاً وعظمة بل اعتمد في حركاته على نفسه . وانتزع من عقولهم اكثر الخرافات والاباطيل التي تتولد في الانسان عادة ويكبرها الوهم في مخيلته ما دام في مكانه لا يخرج منه ولا يسيح في الارض فينظر كيف كانت عاقبة المتقين

فانقلاب الاخلاق والعادات والاطوار استلزم انقلاب اللهجة وتغيير التعبيرات ولذا كان العصر الجديد مفتقراً لاسلوب جديد في النظم والنثر وكان رجال العصر يترقبون حصول انقلاب في الادب كما حصل في السياسة والعادات . فولد فيكتور هوكو وللعصر الجديد سنتان وصار رجل هذا الانقلاب الادبي

٢٠ — الطريقة الرومانية

اسلوب الطريقة الرومانية ابتدأ ظهوره في مؤلفات شكسبير امام الادب وامير البلاغة . ثم نسج على منوال هذه الطريقة ادباء الالمان وراجت بضاعتهم فيها . ثم جاء فيكتور هوكو وكشف اساس الطريقة واوضح مزاياهــا وصار امامها المشار اليه بالبنان

﴿ الادب عند الانكليز ﴾ فالانكليز كانوا في مقدمة الامم الاوربية التي انتبهت من غفلة القرون الوسطى وبادرت الى اصلاح لسانها ووضع فنون الادب والعلم فيه . وقبل ظهور الادب الانكليزي كان الانكليز انفسهم يعتنون باشعار المداحين وشعراء الربابة من الفرنساويين . وكانت اللغة الفرنساوية لسانهم الرسمي على عهد مليكهم كليوم الفاتح (١٠٢٧ — ١٠٨٧) ومن خلفه عليهم من السلالة النورماندية . ولذا بقيت الكلمات الفرنساوية مستكثرة في اللغة الانكليزية شأن الكلمات العربية في التركية والفارسية : ثم اشتغل الانكليز بتهذيب لغتهم واصلاحها فاصبحت اليوم من اغنى اللغات الجديدة ادباً بعد اللسان الفرنساوي . ونبغ فيها وليم شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦ م) وجمع في مؤلفاته ما تفرد به قورنيل وراسين من فن المبكيات وما اختص به موليير وبومارشه (١) من فن المضحكات وصار اماماً في كثير من الفنون الادبية كفن التراجيديا التاريخية والدرام والكوميديا والاغاني المعبر عنها بالشعر الموسيقي (ايريك) . فكان في افانين الادب كما قال الشاعر :

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

والف شكسبير نحواً من ٣٥ رواية ترجمت لجميع اللغات الاوربية وترجمهـا للفرنساوية فرنسوا بن فيكتور هوكو وطبعت في ١٨ مجلداً ولم تزل رواياته تمثل على مراسح الفرنساويين والطليان وغيرهما من الامم . وتمثل احياناً في الاستانة وازمير

(١) بومارشة (١٧٤٢ ـ ١٧٩٩) هو الاديب الفرنساوي صاحب رواية (حلاق اشبيلية) و (زواج فيغارو) وقد انتقد في الروايتين المذكورتين على اخلاق المعاصرين وفساد ادابهم وصور فيهما ما يشبه مجون ابي نواس

ومصر والاسكندرية ايضاً . واشهر ما يمثل منها (روميو وجوليت) وهما فتى وفتاة تحابا حباً شديداً وقاسيا تباريح الجوى بسبب العداوة التي بين اهل الفتى المحب وبين اهل محبوبته . على مثال ما يقع بين قبائل العرب من العداوات التي تحول بين العاشق والمعشوق . بل على مثال ما يحدث في سوريا وفلسطين بين العائلات والبيوت القديمة من العداوات الجاهلية المانعة لوصال المتحابين ليومنا هذا . في اواخر القرن التاسع عشر للميلاد حدث في طرابلس حادثة هائلة تشابه عشق روميو وجوليت من وجوه لا سيما في اقتران المحبين سراً بمعرفة فقيه من المشايخ كما اقترن روميو بجوليت على يد الراهب لورانس وافضى الامر الى هلاك المحبين في الحادثتين هلاكاً تذرف الدموع لقص خبره وتنفطر القلوب لمشاهدة تمثيله . فالتهويل بالموت بالحادثة الممثلة ما يجعلها من فن المبكيات . وتزيين المجلس بظرف الراهب او لطف الفقيه ما يقرب الحادثة الممثلة لفن المضحكات الذي مثلناه فيما سبق برواية تارتوف لانها احسن نموذج لهذا الفن . ولكن الفرق عظيم بين تارتوف وبين لورانس . لان تارتوف تمثال مجسم للرياء والمكر يخدع الناس بحمل السبحة بيده ويصيد قلوب المغفلين باظهار النسك وكثرة العبادة . وليس فيه شيء من الظرف والمجون ولا العلم والادب المتصف بهما ابو زيد السروجي بطل مقامات الحريري . بخلاف الراهب لورانس او الشيخ . . . فانهما من ذوي الناموس والوجدان . ولم يدخل كل منهما في الحادثة التي تخصه الا لاصلاح ذات البين . فيظهر الواحد منهما على المرسح بهيئة الكمال والوقار وعيون المتفرجين ترمقه بالاستحسان والاعتبار . ومع ذلك فوجوده في الرواية يقربها لفن المضحكات

ومن روايات شكسبير المشهورة ايضاً هاملت وهو اسم ولد لملك من ملوك الدانيمارك في قديم الزمان . وخلاصة الرواية ان ام هاملت اتفقت مع عمه وهو اخ الملك وكان شاباً حسن المنظر فسقى الملك سمة وتولى مكانه وتزوج ام هاملت فانتقم هاملت من عمه وقتله . وكان لهاملت معشوقة بديعة الحسن تلاهى عنها بتدبير الحيل في طلب الانتقام فماتت كمداً . وابلغ ما في الرواية حديث هاملت مع حفار القبور وهم يحفرون قبر معشوقته ويشربون من القرعة ويتنادمون . فالنكات الفلسفية التي

يفوه بها حفار القبور يقرب الرواية لفن المضحكات مع انها من ابكى المبكيات وقتل الملك على الزوجه المتقدم له امثال في التاريخ . منها قتل ام خالد بن يزيد لمروان بن الحكم في الدولة الاموية . وثم تزل الممثلة الشهيرة ساره برنار تمثل على المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية وتلبس لباس الرجال كما تمثل دور النسير وهو ابن نابوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا في رواية (ليكلون) التي نظمها شاعر العصر ادمون روستان . ومن روايات شكسبير ايضاً ما قبت وهو قائد لجيوش دونقان ملك ايقوسيا من بلاد الانكليز . قتل سيده وتغلب على ملكه وحكم من سنة ١٠٤٩ الى سنة ١٠٥٧ م . فصور للشاعر قصته في تلك الرواية وخلاصة الكلام فيها : ان ماقبت اجتاز يوماً مع رفيق له بمفازة مقفرة فمر بثلاث عجائز ساحرات كأنهن جنيات

• فقالت احداهن : — السلام عليك يا ماقبت يا امير غلامبس

وقالت الثانية : — السلام عليك يا ما قبت يا امير قاودور

وقالت الثالثة : — السلام عليك يا ماقبت يا من سيكون ملكاً على ايقوسيا

فقال رفيقه بانقو : اعوز بالله منكن أي النسوة انتن ؟ امن الانس ام من الجان ؟ تفاءلتن بكل خير لرفيقي ولم تنبئنني بشيء

فقالت كبراهن :— اما انت فنخبرك باحسن مما اخبرنا به رفيقك لان عاقبته مشئومة ويموت بلا ولد يخلفه في الملك . واما نسلك فسيملك على ايقوسيا ويمتد الملك فيهم . قلن ذلك واختفين كلمح البصر . وكان الامر كما تنبأن به

ففي يوم من الايام نزل الملك دونقان مع بعض خواصه عند ماقبت فبالغ لهم في الضيافة والاكرام وفرش للملك في المخدع ولقرنائه في الغرفة المجاورة وكانت زوجة ماقبت حريصة على تحقيق ما أخبرت به الساحرات فحرضت زوجها على قتل ضيفه وسيده . فدخل في ظلام الليل الحالك واخذ خنجراً لاحد القرناء وهم غارقون في النوم وغطسه في صدر الملك . فلما قتله اخذته الرهبة واستولى عليه الخوف والدهشة من هذا الجرم وغاب عن رشده . فتداركت زوجته الامر ودخلت المخدع وغرفت بيدها من دم المقتول ولطخت وجوه قرنائه وايديهم لاتهامهم بايقاع الجرم

فتمت الحيلة وجلس ماقبت وزوجته على سرير الملك ولكن لم يهدأ روع ليدى ماقبت ولا استراح ضميرها . فصور الشاعر ندامتها في الفصل الاخير من روايته بابدع اسلوب وأبلغ تعبير . واخرجها على المرسح حاملة مشعلاً وهي لا ترى في عينيها الا الظلام وتفرك بيديها كأنها لم تنق من لطخ الدماء ولا ذهبت الرائحة منها مع ما تطيبت به من طيب جزيرة العرب وعطرها المشهور . وتحسب زوجها معها فتقول له : اغسل يديك والبس ثوب النوم وقلل من اصفرار لونك الخ . . . ومن روايات شكسبير ايضاً اوتيلو بين فيها غيرة الزواج وشدته على زوجته وترجمها نظماً للفرنساوية الفرد دوفينية وله غير ذلك من الروايات

وأجاد شكسبير في تصوير أخلاق الرجال وتوصيفهم و بيان المزايا الخاصة بكل فرد من افرادهم . فسلك في الادب طريقة مستحدثة حاد فيها عن لهجة القدماء المؤسسة على اساليب اليونان والرومان ونبذ وراء ظهره قواعد الطريقة المدرسية ولم يلتفت في الرواية الى وحدة الزمان والمكان ولا تصنع في الانشاء ولا تقصد فيه ايراد البديع من الكلام ولا تهافت على التشابيه والاستعارات . بل اخذ ما يلهمه اياه الوجدان ويمليه عليه الضمير و يصور الاحساسات الباطنية والآداب الاجتماعية بلهجة مألوفة للعموم آخذة بمجامع القلوب يتقلب فيها من طور الحلم والجود والكرم الى طور الغضب والبطش والاستبداد و بين عوامل الحب والبغض واليأس والقنوط والحسد والطمع وحب الانتقام والتكبر والتجبر والتفاخر والتكاثر الى غير ذلك مما هو مغروس في طينة الأنسان من الاخلاق والطبائع و يظهر تأثيرها على النفس بعبارات سلسة جلية ليس فيها تصنع ولا تعمل

ثم نبغ في الانكليز الشاعر ميلتون ١٦٠٨ — ١٦٧٤ م وكان كاتباً لقرومويل الشهير فلما مات وانقرضت دولته غدر الزمان بالشاعر وعمي بصره وذهب ماله فاملى على زوجته و بنتيه كتاب « الجنة الضايعة » وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة ١٦٥٨ بشعر لا قافية له ورتبه على اثني عشر غناء فجاء من أحسن ابنية الشعر الانكليزي ومن ابدع ما الفه شعراء الامم الاوربية بعد كتاب (المضحكة الالهية) المشابه لرسالة الغفران

يفوه بها حفار القبور يقرب الرواية لفن المضحكات مع انها من ابكى المبكيات . وقتل الملك على الوجه المتقدم له امثال في التاريخ . منها قتل ام خالد بن يزيد لمردان بن الحكم في الدولة الاموية . ولم تزل الممثلة الشهيرة ساره برنار تمثل على المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية وتلبس لباس الرجال كما تمثل دور النسير وهو ابن نابوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا في رواية (ايكلون) التي نظمها شاعر العصر ادمون روستان . ومن روايات شكسبير ايضاً ما قبت وهو قائد الجيوش دونقان ملك ايقوسيا من بلاد الانكليز . قتل سيده وتغلب على ملكه وحكم من سنة ١٠٤٩ الى سنة ١٠٥٧ م . فصوّر للشاعر قصته في تلك الرواية وخلاصة الكلام فيها : ان ماقبت اجتاز يوماً مع رفيق له بمفازة مقفرة فمر بثلاث عجائز ساحرات كأنهن جنيات

فقالت احداهن : — السلام عليك يا ماقبت يا امير غلاميس

وقالت الثانية : — السلام عليك يا ما قبت يا امير قاودور

وقالت الثالثة : — السلام عليك يا ماقبت يا من سيكون ملكاً على ايقوسيا

فقال رفيقه بانقو : اعوذ بالله منكن أي النسوة انتن ؟ امن الانس ام من الجان ؟ تفاءلتن بكل خير لرفيقي ولم تنبئنني بشيء

فقالت كبراهن :— اما انت فنخبرك باحسن مما اخبرنا به رفيقك لان ماقبته مشئومة ويموت بلا ولد يخلفه في الملك . واما نسلك فسيملك على ايقوسيا ويمتد الملك فيهم . قلن ذلك واختفين كلمح البصر . وكان الامر كما تنبأن به

ففي يوم من الايام نزل الملك دونقان مع بعض خواصه عند ماقبت فبالغ لهم في الضيافة والاكرام وفرش للملك في المخدع ولقرنائه في الغرفة المجاورة وكانت زوجة ماقبت حريصة على تحقيق ما أخبرت به الساحرات فحرضت زوجها على قتل ضيفه وسيده . فدخل في ظلام الليل الحالك واخذ خنجراً لاحد القرناء وهم غارقون في النوم وغطسه في صدر الملك . فلما قتله اخذته الرهبة واستولى عليه الخوف والدهشة من هذا الجرم وغاب عن رشده . فتداركت زوجته الامر ودخلت المخدع وغرفت بيدها من دم المقتول ولطخت وجوه قرنائه وايديهم لاتهامهم بايقاع الجرم

فتمت الحيلة وجلس ماقبت وزوجته على سرير الملك ولكن لم يهدأ روع ليدى ماقبت ولا استراح ضميرها . فصور الشاعر ندامتها في الفصل الأخير من روايته بابدع اسلوب وأبلغ تعبير . واخرجها على المرسح حاملة مشعلاً وهي لا ترى في عينيها الا الظلام وتفرك بيديها كأنها لم تنق من لطخ الدماء ولا مذهبت الرائحة منها مع ما تطيبت به من طيب جزيرة العرب وعطرها المشهور وتحسب زوجها معها فتقول له : اغسل يديك والبس ثوب النوم وقلل من اصفرار لونك الخ . . . ومن روايات شكسبير ايضاً اوتيلو بين فيها غيرة الزواج وشدته على زوجته وترجمها نظماً للفرنساوية الفرد دوفينية وله غير ذلك من الروايات

وأجاد شكسبير في تصوير أخلاق الرجال وتوصيفهم و بيان المزايا الخاصة بكل فرد من افرادهم . فسلك في الادب طريقة مستحدثة حاد فيها عن لهجة القدماء المؤسسة على اساليب اليونان والرومان ونبذ وراء ظهره قواعد الطريقة المدرسية ولم يلتفت في الرواية الى وحدة الزمان والمكان ولا تصنع في الانشاء ولا تقصد فيه ايراد البديع من الكلام ولا تهافت على التشابيه والاستعارات . بل اخذ ما يلهمه اياه الوجدان ويمليه عليه الضمير و يصور الاحساسات الباطنية والآداب الاجتماعية بلهجة مألوفة للعموم آخذة بمجامع القلوب يتقلب فيها من طور الحلم والجود والكرم الى طور الغضب والبطش والاستبداد و بين عوامل الحب والبغض واليأس والقنوط والحسد والطمع وحب الانتقام والتكبر والتجبر والتفاخر والتكاثر الى غير ذلك مما هو مغروس في طينة الأنسان من الاخلاق والطبائع و يظهر تأثيرها على النفس بعبارات سلسة جلية ليس فيها تصنع ولا تعمل

ثم نبغ في الانكليز الشاعر ميلتون ١٦٠٨ — ١٦٧٤ م وكان كاتباً لقرومويل الشهير فلما مات وانقرضت دولته غدر الزمان بالشاعر وعمي بصره وذهب ماله فاملى على زوجته وبنتيه كتاب « الجنة الضايعة » وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة ١٦٥٨ بشعر لا قافية له ورتبه على اثني عشر غناء فجاء من أحسن ابنية الشعر الانكليزي ومن ابدع ما الفه شعراء الامم الاوربية بعد كتاب (المضحكة الالهية) المشابه لرسالة الغفران

فتحسنت اللغة الانكليزية واتسعت دائرة الادب والتخيلات الشعرية فيها ومال ادباؤها لقراءة الاشعار القومية الدارجة التي نظمها في القرون الوسطى التروبادور والزوفير وهم من شعراء الوبابة المعاصرين لعرب الاندلس وأوجدوا للشعر شكلاً جديداً وأسلوباً مبتكراً . ونبغ فيهم مثل شلي (١٧٩٢—١٨٢٢ م) وزوجته واللورد بايرون وكان ذا نفس عال وتخيل واسع فنظم القصائد المعروفة بالشرقيات وتشيع فيها لليونان تشيع العجم للسادات وتفانى في حبهم ولم يزل غرام العشق يلعب برأسه اثناء حرب المورة الى ان حطه العشق والهيام من اعلى قصور لوندرا الى اسفل اكواخ ميسولونكي وهي قرية على ساحل خليج قورنت الفاصل بين شبه جزيرة المورة وبقية بلاد اليونان . وبسبب وخامة تلك القرية وعدم نظافتها كان هواءها فاسداً فاصابت الحمى الشاعر الانكليزي وعجلت بروحه الى الاخرة ونقلت جثته الى انكلترا واقيم له في ميسولونكي تمثال يشاهده السائح في تلك البقاع . فاللورد بايرون هو مؤسس الطريقة الرومانية باللغة الانكليزية وله في الشعر الدراماتيقي رواية مانفرد نظمها في ايطاليا على نسق رواية فوست وذكر فيها السحر والارواح وخوارق الطبيعة وله ايضاً رواية دون جيان نظمها على اسلوب مبتكر . وكلتا الروايتين تمثلان الان على المراسح الباريزية

ومن مشاهير ادباء الانكليز والترسقوت (١٧٧١ — ١٨٣٢ م) كتب بالانكليزية اكثر من سبعين قصة تاريخية بين سنة ١٨١٤ و ١٨٣٢ كلها في غاية التدقيق عول عليها المؤرخون ومنهم ميشله المؤرخ الشهير . لان صاحب القصص له في الوقائع التاريخية نظر دقيق وشروح وافية قلما يتيسر للمؤرخ الاحاطة بها . ونسج على منوال والترسقوت في القصص التاريخية وليم غودوين . ثم ظهر في عالم التحرير المؤلف النحرير والديلومات الشهير بنيامين الاسرائيلي صاحب القصص السياسية وهو اشتهر في التاريخ باسم اللورد بيقونسفيلد ونبغ في فنون الادب والسياسة وساح سنة ١٨٢٩ في ايطاليا واليونان وبلاد الارناؤوط وبر الاناضول وسوريا ومصر والحبشة ونشر كتب سياحته على طرز قصصي وبين فيها آراءه السياسية وعرب المقتطف بتصرف قصة سياحته في سورية وفلسطين وله قصة

اخرى عنوانها « اسكندر بك ارناؤوط » . وصار هذا الاسرائيلي رئيساً لوزارة المحافظين وكان مخالفاً في السياسة لغلادستون رئيس حزب الاحرار . فثبت بيقونسفيلد امام مطامع روسيا وعارض في اجراء معاهدة ايلستافانوس سنة ١٨٧٧ ولكنه طمع في الاجرة على هذه الخدمة وربح اكثر من اللازم في مجاوته وتوفي سنة ١٨٨١

فينهم مما تقدم ان اول واضع لاساليب الطريقة الرومانية وليم شكسبير . ولكن اول ناسج على منوال هذه الطريقة ومظهر لمزاياها هم شعراء الالمان . وجميعهم من انكليز والمان وفرنساويين اقتبسوا افانين الادب من الاسبانيين والطليان المخالطين للعرب في القرون الوسطى

٢١ — الطريقة الرومانية عند الالمان والفرنساويين

اما الالمان فأقدم تأليف ادبي لهم اغاني هيلدبراند نظمت في القرن التاسع للميلاد بلسان الالمان كما نظمت اغاني رولان بلسان رومان . وفي القرن الثالث عشر جمع ديوان نيبلونجن كما جمعت قصة عنتر وذكر فيه الحروب التي حدثت بين قبائل نيبلوجن وبين اتيلا الذي هجم عليهم من الشرق وابادهم . فهذا الديوان هو الحماسة الالمانية . ثم حدث الانقلاب الديني وظفر لوتر مؤسس احكام الديانة البروتستانتية وترجم للالمانية الكتب المقدسة فاتسعت بذلك اللغة وتهذبت نوعاً ما وظهر نفر من الكتاب والشعراء والعلماء ومع ذلك استمر الالمان للقرن الثامن عشر للميلاد محرومين من فنون الادب المعتبرة عند الادباء . وكان الامراء والاعيان في المانيا مكبين على تحصيل الادب الفرنساوى وعلى حفظ الاشعار الفرنساوية والتمثيل بها والتكلم بالفرنساوية في نوادي سمرهم ومجتمعاتهم وضيافاتهم تشبهاً بملوك بروسيا وبما في القصر الملوكي ببرلين اذ الناس على دين ملوكهم . وكان لفريدريك الثاني ملك بروسيا اعجاب شديد بالشاعر الحكيم فولتر الفرنساوي فقربه اليه وأحله في قصره محلاً رفيعاً . والحاصل كانت بضاعة الادب الفرنساوي رائجة عند الالمانيين كرواجها عند الروس . وكرواجها أيضاً بعد حرب القرم في الاستانة العلية ومصر القاهرة . حضرت يوماً في مدرسة العلوم السياسية بباريس

امتحان طالب تركي استامبولي اجاب جواباً مقبولاً عن اكثر الاسئلة التي القيت عليه بما يتعلق باحوال فرانسا وشؤونها الداخلية اللازم معرفتها لابنائها . فلما انتبه له المعلم وسأله عن البوسنة والهرسك وعن أحوال مسلميها وجده لا يعرف شيئاً عنهما ولا يدري ان كان فيهما مسلمون أم لا . ورأيت في باريس تلميذاً مصرياً يحسن التكلم والكتابة بالفرنساوية ويتكلم العربية ولا يكتبها وله والدة تركية تحرر له المكاتيب باللغة العثمانية ولم يكن هو يعرف اللغة العثمانية لا تكلماً ولا كتابة سوى بعض عبارات متعارفة ربما كانت والدته تعرف قدر ذلك من العربية فيتيسر لهما التفاهم والتكالم باللغة العربية التركية واما المخابرة التحريرية فلم يتمكنا منها الا بواسطة الترجمان والكاتب مع ان كليهما ليسا باميين بل هما على جانب من العلم والادب فالانهماك باللغة الاجنبية ادى الى ان الولد اصبح لا يعرف لغة امه كما تجب معرفتها ادبياً وطبيعياً : لان لغة الام هي اللغة الطبيعية التي يسميها الفرنساويون (لانغ ماترنيل) ويسميها الاتراك (لسان مادر زاده) ومادر هي الام بالفارسية

وهكذا كانت الحال في المانيا بسبب تهافتهم على ادب اللغة الفرنساوية ففي الثلث الاخير من القرن الثامن عشر أي ما بين سني ١٧٧٠ — ١٧٨٠ م جاء ادباء الالمان بطرز جديد من الادب كان له رواج على مرسح اللعب واقبل الناس عليه اقبالاً عظيماً . مع ان الطرز الجديد الذي جاؤا به كان عارياً عن تلك الصور والاساليب البديعة التي في مؤلفات اهل الطريقة المدرسية وخالياً عن ذاك التصنع أو التعمل الذي كانوا يتكلفون له ومجرداً عن تلك المحاسن التي كانوا يؤلفونها تأليفاً . وانما كان كلام الادباء الالمانيين في هذا الطرز الجديد صادراً عن تأثر وتهيج وانفعال في النفس . وعن احساس في القلب . فنفخ هذا الانفعال والاحساس الروح في كلامهم وصيره كلاماً حياً تألفه ارواح المستمعين وتحن اليه . ولم يقصد ادباء الالمان في ما فاهوا الامتياز بالفضل والعلم بين الخواص وانما كانت غايتهم افهام كلامهم لعوام الناس ولجميع الاصناف من اولاد البلد الذين يقال لهم (بورجوا) . فمن اجل هذا عدلوا عن الاخذ بعالي الطبقة من الانشاء المصنع واستعملوا اللهجة المألوفة بين قومهم وابناء بلدهم وجعلوا اهتمامهم في نفخ روح الحياة في كلامهم

وادخلوا فيه كل ما يحدث انفعالاً في النفس وتهيجاً في العواطف بغير تهافت على البديع من الالفاظ ولا على رعاية القواعد وصوروا في كلامهم الغرائب والعجائب التي تتشوق الاسماع لاستطلاع حقائقها ولا تطمئن القلوب الا بعد الوصول لنهايتها فان الاذن تعشق بطبعها الاخبار ولذا نرى عوامنا في كل قطر و بلد يدورون وراء القصاص (الحكواتي) من قهوة الى اخرى ويتلذذون بسماع ما يتلوه عليهم من اخبار عنترة بن شداد والزير ابي ليلى المهلهل والزناتي خليفة وعلي الزئبق عايق زمانه وقصة الملك سيف والملك زاد بخت بن شهرمان وجميع ما ورد في الف ليلة وليلة من الحكايات . واذا بات بطل الرواية في ضيق وكرب لا يهدأ بالهم ولا تنام اعينهم الا بعد تمام الخبر وفهم ما جرى له

وكان ادباء الالمان اذا الفوا رواية فاجعة اخذوا موضوعها مما يرونه في قومهم ويشاهدونه في بلادهم واذا بحثوا عن الوقائع التاريخية اختاروا مباحثهم من تواريخ القرون الوسطى لا سيما من القصص والحكايات الدازجة على السنة الامم الالمانية والجرمانية ترجيحاً لها على تواريخ القرون الاولى وعلى قصص اليونان والرومان . كما فعل كوته (١٧٤٩ — ١٨٣٣ م) شيخ ادباء الالمان فانه اختار فوست بطلاً لروايته الشهيرة بهذا الاسم . وتداول اسم فوست على السنة العامة في المانيا وفي انكلترا قبل تأليف هذه الرواية الالمانية واشتهرت سيرته بين الناس بانه من السحرة الذين باعوا الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ولا كانوا مؤمنين وأختاروا بطلا لرواية اخرى (اكمون) وهو امير في البحر هولاندي الاصل اشتهر في تاريخ الالمان بخدمته لشارلكين وانتصاره على الفرنساويين وعلى ملكهم فرانسوا الاول المستنجد بالسلطان سليمان القانوني . ومن بديع ما الفه ايضاً الشاعر كوته قصة وارتر ثم ديوان الشرقيات (ديفان اورينتال) وهو مجموع أشعار نظمها على اسلوب غريب قلد فيها ديوان الحافظ الشيرازي احد مشاهير شعراء العجم المتوفى سنة ٧٩٤ هـ أو ٧٩١ هجرية وكان الحافظ ممن اجتمع بتيمورلنك حينما ضبط شيراز وجرى بينهما لطائف مشهورة . وقد ترجم ديوان الحافظ للغات الاوربية كما ترجمت مؤلفات الاكابر من شعراء الفرس مثل الفردوسي صاحب

الشهنامة المتقدم ذكرها ومثل الشيخ مصلح لدين سعدي صاحب الكلستان والبستان وترجمه الى ألفرنساوية الموسيو باربيـه دو مينار مدير مدرسة الالسنة الشرقية بباريس . والكلستان مترجم الى العربية والتركية ويدرس في عموم المكاتب العثمانية . وكان الصليبيون قد اسروا مؤلفه وحبسوه في طرابلس الشام وشغلوه في بناء الابراج المحيطة بها من جهة البحر . فرق له احد الاغنياء من اعيان حلب وأفتداه بمال وخلصه من الاسر وكانت وفاته سنة ٦٩١ هـ . فافرنج زماننا يحترمون سعدي قدر ما احتقره اسلافهم وذكره فيكتور هوكو في مؤلفاته ونقل عنه . ومن مشاهير ادباء الالمان شيلر (١٧٥٩ — ١٨٠٥ م) وكان معاصراً لكوته ورفيقاً له فاتخذ وليم تل بطلاً لروايته المشهورة بهذا الاسم . وكان وليم تل المذكور رئيساً للعصبة التي خرجت في بلاد السويس على حكامها النمساويين وحررت البلاد من قيد اسارتهم سنة ١٣٠٧ م . والمذكور من خبره في التاريخ ان الدوق أي والي بلاد السويس المعين من قبل امبراطور الالمان نصب ذات يوم عموداً في ساحة المدينة ورسم في رأسه تاج الدوقية وأمر الناس بالخضوع امامه . فرفض وليم تل الانقياد لهذا الامر الذي فيه التحقير والاذلال لنوع الانسان مع ما اختصه الله به من الكرامة وورد في القرآن الشريف « ولقد كرمنا بني آدم »[1] . وكان وليم تل من أشد الابطال بأساً وامهرهم رمياً بالنبل فغضب عليه الوالي وأحضره بين يديه وحكم عليه بوضع تفاحة على رأس ولده وفلذة كبده ورميها بالقوس والنشاب . ففعل ذلك وقلبه يتميز من الغيظ واصاب الهدف بعد ان كان الخطاء اقرب اليه من الصواب . فصور الشاعر هذه القصة التاريخية وبين فيها عوامل الاستبداد وعدم صبر النفس الابية على الظلم والجور والاستعباد . وكان شيلر يلقب بشاعر النساء والشبان لتأثير اقواله فيهم اكثر من تأثيرها في المتأدبين من الرجال المائلين الى التمحل والتصنع في الكلام والى الانشاء العالي الطبقة . لان كلامه كان سهلاً بسيطاً خالياً مما في الطريقة المدرسية من اصول الصك والسبك ومن انواع البديع

«١» ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . ايه : (٧٠) سوره (١٧)

والاستعارات وفيه كثير من الالفاظ العامية والتراكيب المتداولة ولكنه كان على السامع أشد تأثيراً وأخذاً بمجامع القلوب .

فبعد ان كان الالمان في الادب عيالاً على الفرنساويين وليس عندهم من المؤلفات الادبية الا ما هو ترجمة او تقليد لما حرر بالفرنساوية على نهج الطريقة المدرسية صاروا ائمة في الادب يقتدى بهم وينسج على منوالهم . واشتهرت الطريقة التي سلكها كوته وشيلر وليستنغ ومن اقتفى اثرهم بالطريقة الرومانية نسبة للغة رومان وهي اللاتينية الدارجة التي جاء بها جنود الرومانيين وموظفوهم الى بلاد الغولوا والسلت اي افرنسا فتحرفت فيها وامتزجت بلسان الفرانك وانقلبت الى اللغة الفرنساوية الحالية . فكلمة رومان كانت تطلق في القرون الوسطى على ما دوّن بلسان رومان من فني المنظوم والمنثور . وذلك مثل يمين ستراسبورغ وهو اقدم الابنية في لسان رومان ومثل رومان رولان ويقال لها ايضاً اغاني رولان ورومان المائدة المستديرة ورومان الثعلب ورومان السيد وكثير غير ذلك . فكانت المحررات الرومانية اي المدونة بلغة رومان تعتبر من التآليف الجاهلية بالنسبة للمحررات اللاتينية وهي ما حرر باللغة اللاتينية من التواريخ المقدسة وسير الصالحين والقديسين والصلوات الدينية . فاللسان اللاتيني كان اذ ذاك لسان المدارس والكنائس والمعول عليه في العلم والدين . وكان في سبكه تصنع وتعمل ومراعاة لقواعد الغراماطيق والعروض وبقية علوم الالات المدرسية . ويبلغون علوم الالات في العربية الى اثني عشر علماً كما لا يخفى . فلغة رومان لم يكن فيها شيء من ذلك بل كانت على فطرتها الطبيعية وليس في سبك عباراتها ادنى تصنع ولا تهذيب . فلما اختار أدباء الالمان مواضيع رواياتهم من رومان القرون الوسطى ورجحوه على مؤلفات اللاتين واليونان سميت طريقة ادبهم بالطريقة الرومانية . واطلقت كلمة (رومانتيك) الفرنساوية على الادب المستحدث تسمية له باسم اجنبي كما اطلقت كلمة (فرانك) الجرمانيه على قبائل الغولوا والسلت وقيل لهم فرنساويون

فطريقة رومانتيك المنسوبة لفيكتور هوكو تولدت في المانيا واشتهرت برقابتها للطريقة المدرسية وبميلها لاظهار قريحة القرون الوسطى وتصوير اخلاق اهلها وعوائدهم

وحماسة فرسانها وصلابتهم في الدين وتعصبهم للمذهب وتهورهم في المسائل ومبالغتهم في الاخبار وتصديقهم بالخرافات والخزعبلات . واراد أهل الطريقة الرومانية الفوز على اهل الطريقة المدرسية — لا بانتقاء الالفاظ وسبك العبارات وانسجام المعاني ومراعاة القواعد — بل بالاتيان بكل ما يحدث انفعالاً في النفس ويفتح مجالاً للتصور والخيال . ولذا عمدوا الى القصص الدارجة على الالسن والمنقولة عن الاسلاف والجدود ووضعوها في قالب شعري والفوا بها رواياتهم واهملوا أساطير القرون الاولى من الاسرائيليات والخرافات اليونانية والرومانية . وجاء الفيلسوف الالماني هكل وفسر تفسيراً فلسفياً حقيقة الطريقة الرومانية وهو يبحث في الصور المختلفة التي تقلب فيها العقل البشري فوجد فيها ثلاث طرق في صناعة الادب منذ نشأته الاولى الى زمانه وهي :

(١) الطريقة الرمزية (سيمبوليك)

(٢) الطريقة المدرسية

(٣) الطريقة الرومانية كما سنذكره

ويظهر الفرق بين الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية لكل مدقق حضر تمثيل رواية مؤلفة على نهج الطريقة المدرسية مثل مؤلفات راسين ومنها رواية (اندروماق) اليونانية و (استير) و (اتالي) الاسرائيليتين ومثل مؤلفات قورنيل ومنها (هوراس) وهي رواية الاخوة الثلاثة الرومانيين ثم حضر في مراسح الاستانة وازمير او مراسح مصر واوربا تمثيل رواية فوست مثلاً . فاول ما يشاهد عند رفع الستار شيخ عليه الهيبة والوقار جالس على كرسي في غرفة المطالعة وامامه مائدة تراكمت فوقها الكتب والدفاتر والاقلام والمحابر وهو يفكر في ما يكون اليه المرجع والمآب ويقلب على نور السراج اوراق الكتاب الذي خط فيه جابر ومسلمة علوم السحر والكيمياء ويتلهف على ايام الشباب وزمن التصابي ويقول :

اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخسر للعلماء

وبعد ان يستولي اليأس على هذا الشيخ الفاني ينفخ في رأسه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ويحرضه على دعوة الشيطان اليه وتلاوة العزائم

عليه فبأسرار التلاوات وخواص الطلسمات يظهر صاحب الاسم والعزيمة المتوسل بها وهو خادم من الجنة ويعلمه ما نزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر. وهكذا يقول الخادم للشيخ فيبيع الاخرة بالدنيا ويشتري الضلالة بالهدى ويعلم منه ما يعيد له الشباب والغناء ولعل ذلك بواسطة الاكسير الذي من خواصه اعادة الشباب وقلب المعادن الى الذهب على زعم المتقدمين فينهمك الشيخ فوست في اللذات ويغرق في الهناء والمسرات ويعشق بنتاً يقال لها مارغريت فيراودها عن نفسها ويفرق بسحره بينها وبين أمها ويستهويها بالجواهر واللالي ويطغيها الشيطان .. فتستحق لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . فيغتاظ اخو مارغريت من عهر اخته ويقف لعاشقها بالمرصاد ويبارزه بالسيف فيقتل بوخزة خفية من ذاك الخادم الجني المرافق لفوست . فتستحيي مارغريت من هذه الفضائح ويذهب الرشد منها فتقتل الولد الذي حملت به من فوست ويأخذها حاكم البلد بما جنت يداها ويلقيها في السجن فيأتي عاشقها لتهريبها وهذه أشد ساعة على مارغريت حيث يتنازع قلبها عوامل الحب من جهة وعوامل الندامة من اخرى فلا تجد لها ملجا غير رحمة الله التي وسعت كل شيء فتحول وجهها عن عاشقها وتتوب الى الله توبة خالصة . واذا جاءك الذين يؤمنون باياتنا فقل سلام عليكم كتبَ ربكم على نفسهِ الرَّحمةَ أنهُ من عملَ منكم سوءًا بجهالةٍ ثمَّ تابَ منْ بعدهِ وأصلحَ فأنهُ غفورٌ رحيم (١) . فيغفر الله لها ما تقدم من الذنب وما تأخر ويقبضها اليه فتخر ميتة وتذهب نفسها الناطقة الخالدة الى عالم الارواح على شكل الحمامة التي وصفها ابن سينا بقوله

هبطت اليه من المحل الارفع ورقاءُ ذات تعزز وتمنع

وتنشق في آخر الليل سماء المرسح وتظهر مارغريت بابهي الحلي والحلل في اعلى عليين بجانب اخواتها تحف بهنّ الملائكة المربون . وفوست يراها والعبرات تسيل من عينيه . واختلفوا في فوست فقالت طائفة انه من الهالكين ومقره في الدرك الاسفل من النار. وقالت طائفة اخرى لا بل استشهد في الحب

(١) سورة الانعام آية ٥٤

وتاب الى الله فتاب الله عليه والله خير التوابين . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ان الله كان توباً رحيما . انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً (١)

ويرى المتفرج على هذه الرواية افعال السحر والسحارات المكارات اللواتي يطبخن المواد السحرية في القدر و يصببنها بين المفارق ليسحرن المارين في الطرق ويرى ايضاً اعمال الشيطان الرجيم وغوايته لمن يتبعه من الانس وقدرته على خرق العوائد واظهار العجائب وتحكمه في هذه الدنيا الدنية الفاسدة وكيفية استعاذة النصارى منه بالصليب . ولذا جعل أهل القرون الوسطى قبضات سيوفهم على شكل الصليب ليتعوذوا بها من شر الشيطان الرجيم . وبهذا يكون السيف قاطعاً بقبضته في الروحيات وبحده في الماديات

ولما ذهب نابوليون الاول بعساكره الى بروسيا اجتمع في برلين بالشاعر كوته مؤلف رواية فوست المذكورة وحادثه طويلاً وعجب به وأحسن عليه بنيشان الافتخار فاتجهت نحو مولفاته افكار الادباء من الفرنساويين كما اتجهت قبلاً افكار ادباء الالمان نحو موءلفات فولتير حينما كان في سراي برلين من المقربين وكانت اساليب الطريقة الرومانية دخلت فرانسا على عهد نابوليون الاول بواسطة شاتوبريان ومدام دوستايل

أما الاول فهو الامام الذي اقتدى به في الادب فيكتور هوكو وقال : « أما ان اكون شاتوبريان او لا شي » . واسمه فرانسوا رينه فيقونت دوشاتوبريان نسبة لشاتوبريان أي لقصر بريان المشيد على نهر لوار بالقرب من نانت . وحيث كان من اشراف العائلات ذهب ايام الانقلاب الكبير الى اميركا وساح بين اهلها المتوحشين وعاد منها لانكلترا ثم لفرانسا ونشر قصة (اتلا) وذكر فيها ما شاهده في سياحته من عجائب الامم المتوحشة . ثم نشر قصة (رينه) وقص فيها اخبار نفسه وبين افكاره وانفعالاته بسبب ما كشف له من الحقائق المزعجة . وامتاز بين

(١) سورة النساء اية ١٦

الكتاب برونق الانشاء وكثرة التصورات والاحساسات وبشدة الهيام وفصاحة الكلام فراجت بضاعته في الادب ونشر حينئذ (حكمة الديانة المسيحية) وأقبل على تدقيق هذا الدين وخرج لمشاهدة الاماكن التي ظهر فيها والبلاد التي انتشر بين اهاليها فساح في اقطار فلسطين وسوريا ومصر وبر الاناضول ونشر سنة ١٨٠٩ كتاب الشهداء و بين فيه كيفية ظهور الدين المسيحي على الدين الوثني ونشر سنة ١٨١١ (دليل السياحة من باريس الى القدس) وعرف الفرنساويون بشؤون القرون الوسطى بعد ان كان ادباؤهم مشغوفين بتعريف القرون الاولى و بتقليد ادباء اليونان والرومان . وكانت جريدة الديبا المشهورة بحسن الانشاء وجودة التحرير حديثة الظهور فاقبل على التحرير فيهـا وبرع في قوة التصوير والوصف التلوين وكان لكلامه تأثير على النفوس فصار لمؤلفاته دخل كبير في ظهور اساليب الطريقة الرومانية . ودخل شاتوبريان الوزارة الخارجية وتعين سفيراً ثم ناظراً للخارجية

اما المادام دوستايل فهي بنت الوزير نيكر الشهير . اشتغلت بالعلوم والمعارف كما هي عادة سيدات النساء في ذاك العصر ونبغت في فنون الادب واصبحت عالمة فاضلة يشار اليها بالبنان . فحررت سنة ١٨١٠ م كتاباً مفيداً عن المازيا وكتبت عن الادب باعتبار مـا له من العلائق بتشكيل الهيئة الاجتماعية . فدرست درساً فلسفيـاً ادب اليونان واللاتين . و بينت مدخل الدين المسيحي في تقريب عقول اهل الشمال من عقول أهل الجنوب . وذكرت الخواص المميزة لكل من الادب الطلياني والاسباني والانكليزي والالماني . ومـا لكل منهما من العلائق بالفكر السياسي والادبي . وشرحت تأثير الدين والاخلاق والشرائع على فنون الادب . واستنتجت من تدقيقاتها العميقة ان الفكر البشري تابع لناموس الارتقاء مع المعاني الاخلاقية والفلسفية والعلمية والسياسية . . . الخ ولكنه لم يتبع ناموس هذا الارتقاء في التخيلات الشعرية ولا في التصورات الخيالية . فعندها ان الشاعر هوميروس مثلاً لا يذهب برونق كلامه وطلاوته ولا في عصر من العصور ولا يسمح به الدهر مرة أخرى

ثم ظهر لامارتين الشاعر السياسي الشهير ونظم ديوان التفكرات الشعرية فكان اول بناء من ابنية الشعر الجديد الموسيقي (ليريك) وخالف فيه اساليب من تقدمه كما خالف المتنبي اساليب الشعراء الجاهليين . واشتمل ديوان لامارتين على تمجيد الله الذي شعرف عن التمجيد وعلى استغراقات في الحب وتجليات لطيفة ووصف مظاهر الكون وعالم الطبيعة وصفاً بديعاً . ومن أحسن ما نظمه قصيدة (البحيرة) التي ترجمها نظماً للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيانا و باريس سابقا . وفهمت بان احمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم القصيدة المذكورة للعربية . وساح لا مارتين في الشرق وأحسن عليه ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان بمزرعة (جفلك) في ولاية أزمير فمكث فيها وفي ربى لبنان وحرر سياحته الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية في ثمانية مجلدات ونظم ديوان الالحان الشعرية والدينية وغيرها

٢٢ – ظهور فيكتور هوكو

فجميع من ذكرناهم من الشعراء الفرنساويين وغير الفرنساويين تقدموا على فيكتور هوكو او عاصروه ومهدوا له طريق الادب الجديد . وكانت النفوس في ابتداء القرن التاسع عشر تائقة لرؤية أسلوب مستحدث في النظم والنثر ولحصول انقلاب في الادب كما حصل انقلاب في السياسة . لان النشأة الجديدة من الخواص كانوا نافرين من قيود الطريقة المدرسية . وجمهور العوام كانوا متألمين من استبداد اصحاب الانقلاب الكبير باسم الحرية . فان رؤساء هذا الانقلاب لم يكتفوا بتغيير شكل الحكومة بل هدموا اساس الدين وسببوا حدوث الفوضوية في الامة . اي انهم افرطوا في جانب الدين والسياسة كما افرط قبلهم ذوو التيجان من الملوك المستبدين . فكان الجمهور يترقب ظهور امام في الادب يعيد لهم الرجاء والامل بالله . والشعراء يترقبون ظهور هذا الامام ليخلص فن الادب من القيود الذي قيده بها بوالو في كتابه المسمى (آربوتيك) أي صناعة الشعر . فكانوا يتمنون كسر هذه القيود واعطاء الحرية التامة للفكر كما كسرت سلاسل الاستبداد وهدم بيت

المظالم الا وهو حبس الباستيل الشهير واطلق سراح المحبوسين فيه ظلماً وعداناً

فظهر فيكتور هوكو وبرع في اللغة الفرنساوية وفي طرق الافادة بها فضلاً عن معرفته بالمفردات والتراكيب اللغوية . وصار له خبرة بما للكلمات من القيمة الموسيقية اى بالنغمة التي تحدثها كل كلمة والتأثير الذي يحصل من جمع نغمات الكلمات والحانها . لان الكلمة عند خروجها من الفم لها نغمة مخصوصة ولحن بحسب مخارج الحروف . وتختلف المخارج باختلاف الالسنة ولذا ورد في الحديث الشريف « اقرؤا القرآن بلحون العرب »

وقد عبر أئمة البلاغة من العرب عن هذه القيمه الموسيقيه « باجراس الكلام » ولا يخفى ما في هذا التعبير من الحلاوة لان الصوت يرن بالالفاظ رنة الجرس . وصار لفيكتور هوكو ايضاً مهارة بعلم القوافي . فقوافيه عامرة مختلفة ليس فيها ما هو مكرر او مبتذل بل جميعها ترد على غير ما ينتظره السامع . والخلاصة كان يعرف أي كلمة يلزم وضعها في أي بيت وأي بيت يقتضي انتقاؤه لاي موضوع . وساعده الحظ في السفر الى رياض الاندلس التي تتغذى القرائح بنفحات ازهارها وتقر العيون بحسن مناظرها . فصار ذهنه كانه آلة بديعة تفي بوظيفة السينماتوغراف والفوتوغراف معاً . فيصور ما يمر به من مشاهد الكون ويطبع ما يسمعه من حوادث الدهر ويعرضه على القراء والمستمعين بدون ان يضيع منه خبراً أو يغفل منظراً . فصور في أشعاره الخمائل وهي الشجر المجتمع الكثيف وكيفية تلاعب النسيم باوراقها والاغصان الملتفة وما ترسمه على بساط المرج الاخضر من الظل الظليل والجبال الراسية وما ينحدر عنها من الماء السلسبيل والانهار الجارية وما ينعكس على مرآة سطحها من ضياء القمر وشعاع الشمس . ووصف صفير البلابل وهديل الحمام وبغام الظباء وسجع اليمام وذكر غدوها ورواحها ما بين الرياض المزهرة والاشجار المثمرة والجداول المنحدرة وصور غير ذلك ايضاً تصويراً حقيقياً باوضح بيان وافصح تعبير حتى يخال لمن يقرأ أشعاره انه ينظر الى لوح من الالواح المصورة بقلم الرسام وفرشاته . ويسمع خرير الماء وصوت مزمار الراعي وهو يتناقص كلما ابتعد مع محبوبته في جوف الغابة . وجعل الالفاظ تلبس المعاني كما يلبس الثوب على

الجسم بجاءت الفاظه طبقاً على معانيه . وكأن بمجرد نظره في المواد تنفجر المعاني من قريحته فيزنها بميزان الحس ويصوغ لها على قدرها قوالب من الالفاظ والتراكيب كأحسن صائغ للحلى وامهر سباك للمعادن . فكانت طريقته في بادئ الامر عبارة عن وصف الطبيعة ومناظرها البديعة . ثم هجم على قواعد المتقدمين وأساليبهم هجمة الامة المستيقظة من غفلتها وكسر القيود التي قيد بها بوالو عقول الشعراء ونبذ قواعد الطريقة المدرسية وراء ظهره واصلح عروض الشعر الفرنساوي وغير تركيبه بمقاطيع مختلفة وجوز تكميل معنى البيت بالبيت الذي بعده فوضع الجملة الواحدة في بيتين مما لم يجوزه المتقدمون وجعل نظم الشعر موافقاً لاحتياجات الفكر . وفتح لاخوانه من ذوي النشأة الجديدة طريقة مستحدثة في الادب كانوا هائبين اقتحامها والولوج فيها

فاوجد فيكتورهوكو بذلك الطريقة الرومانية وحاد فيها عن استعارات الطريقة المدرسية وتشبيهاتها المديحة . ولم يتخذ كلام المتقدمين منوالاً لينسج عليه كما فعل اندره شينيه خاتمة اهل الطريقة المدرسية . بل اتخذ الذوق الطبيعي والاحساس الباطني دليلاً له في النظم والنثر كما فعل المتنبي والمعري واهل طريقتهما الخارجين عن أساليب العرب المتقدمين . فكلما شعر فيكتور هوكو بشيء صوره بقلمه كما يحس به في قلبه بدون تهافت منه على ترصيع الكلام بجواهر البديع وتدبيجه بحلل المجاز والتشابيه . فان اتى بشيء منها في كلامه عفواً بلا تصنع ولا تكلف فنعم . والا فهو لا يهتم الا بالمعاني وبما يتخيله فيها من حقائق الشعر واذا اراد تعيين الزمان مثلاً لم يتكلف ترتيب تلك الجمل المصنعة ولم يذكر حركات العقرب على مينا الساعة ولا شبه ذلك بدوران الفلك ولا بمنازل الشمس بل قال بذوقه الطبيعي :

« غداً اليوم الخامس والعشرون من حزيران سنة الف وستمائة وسبع وخمسين ... » كما ورد في مطلع رواية قروميل وهي من الروايات التشخيصية المنظومة شعراً . فهذا مقتضى البلاغة في تعيين الزمان . وهذه الشطرة المطابقة الحال أبلغ من سواها . ومن المثال السابق الذي مثلنا به من كلام اندره شينيه . فكان السالك نهج هذه الطريقة اذا عطش قال هات اسقني كما قال ابو نواس :

الا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهرُ

وأما السالك نهج الطريقة المدرسية فكان يحيد عن السوق الطبيعي ويصنع كلامه ويقول « الا ماء بارد نطفئ به حرارة جوفنا » كما قال ذلك البارد المتنحي

فايضاحاً لحقيقة الطريقة الرومانية لا نرى بدّا من تلخيص القواعد التي أوردها بوالو في صناعة الشعر ثم تلخيص القواعد التي ذكرها فيكتور هوكو في مقدمة رواية كروموبل وعارض فيها بوالو وجميع المنتسبين للطريقة المدرسية

٢٣ — طريقة بوالو

نظم الشاعر الفرنساوي بوالو كتابه الموسوم بصناعة الشعر سنة ١٦٧٤ م وهي ارجوزة طويلة محكمة البناء عالية النفس جامعة لقواعد الشعر وانواعه . اعتنى الشاعر في انشائها كثيراً وفكر فيها طويلاً لتكون قاعدة ونموذجاً في الشعر واقتفى في نظمها وتأليفها اثر الشاعر اللاتيني هوراس وهو نقل عن أرسطوطاليس في كتابه الموسوم بصناعة الشعر. ولارسطوطاليس في الشعر كتاب آخر لخصه القاضي أبو الوليد بن رشد وطبع هذا التلخيص المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانسه من ايطاليا سنة ١٨٧٣ ولا نظن بوالو اطلع على قصيدة ابن رشيق ولا على مؤلفاته في هذا المبحث لان الافرنج لم يكن لهم الفة بأدب العرب في القرن السابع عشر . وانما كانت عنايتهم باللغة العربية قبل ذلك حينما ترجموا كتب علمها الى اللاتينية ولم يعودوا لدرسها الا في اواخر القرن الثامن عشر حينما نبغ شيخ المستشرقين سيلفستر دوساسي في باريس وشرح مقامات الحريري وألف الكتب المعتبرة . ولما ظهر ضيا باشا من متأخري الادباء العثمانيين وقرأ العربية ثم الفرنساوية اقتفى أثر بوالو ونظم بالتركية كتابه المعروف بالخرابات وانتقد فيه على كثير من شعراء الترك والفرس والعرب . فجاء كمال بك وانتقد عليه في رسالة سماها تخريب الخرابات وخطأه في كثير من [illegible]

فالفصل الاول من كتاب بوالو في صناعة الشعر يشتمل على تفصيل القواعد التي اجملناها في الكلام على الطريقة المدرسية . واكثر المؤلف في هذا الفصل من الحض على مراعاة قواعد النحو والصرف والمعاني وغير ذلك من علوم الالات

وحذَّر كثيراً من الابتعاد عن سلامة الذوق ولو قدر شبر. وشرع في الفصل الثاني والثالث في تطبيق هذه القواعد العمومية على افانين الشعر المختلفة وعرف كل فن منها على حدته . وبلغت فنون الشعر عنده الى نحو اربعة عشر فناً . منها أنواع الغزل والتشبيب والمرقصات والمطربات وما احتوى على ذل العشق ورقة الكلام والادوار المنسوجة على منوال شعراء الترو بادور المعاصرين اللاندلسيين . ومنها انواع المدح وانواع الهجاء والهزل والسخرية والذم المشابه للمدح ومنها أنواع الرثاء ونحو ذلك . وتكلم ايضاً عن الروايات التمثيلية وهي (التراجيدا) أي الفاجعات و(الكوميديا) أي المضحكات وعرف كلاً منهما وبين الشروط المقتضى مراعاتها في تأليف الرواية التمثيلية ولزوم وحدة الزمان والمكان والعمل . وعرف الشعر الموسيقي وهو النشيد والتلحين المسمى عندهم (ليريك) من كلمة لير وهي العود الذي يغنى عليه . وعرف ايضاً الشعر الحماسي المسمى عندهم (إيبو به) ومعناها في الاصل الخطبة التي يقولها الخطيب.

فالشعر الموسيقي يمتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية أو الفردية أي المتفردة في ذات صاحبها . وذلك ان الشاعر يرى الحسناء فيشعر بالحب ويأمل الوصال . ويظهر له رقيب فيشعر ببغضه و بانقطاع رجائه من الوصال . وينال معروف الكريم فيشعر بالشكر له . ويموت صديق له فيشعر بالتفجع عليه . فبسبب هذه المشاعر تفيض نفس الشاعر بالغزل والنسيب والمدح والهجاء والرثاء ويشاهد أيضاً بدائع المخلوقات وينظر في خلق الارض والسموات فتفيض نفسه بالتسبيح والتهليل والتقديس والترتيل . فكل واحد مما ذكر فن من افانين الشعر الموسيقي . ويختلف عروض كل منها وقوافيه باختلاف المشاعر التي يشعر بها واختلاف الالهام الذي يهبط عليه. ويعتريه من ذلك دهشة أو انذهال وحيرة وسرور وانشراح أو انقباض وحزن فيظهر اثر ما ذكر في نظمه وشعره

وأما الشعر الحماسي فهو رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان . فقولنا رواية أي خبر ينفصل هذا النوع من الشعر عن الشعر الموسيقي لانه نشيد وغناء وعن الشعر الدراماتيقي أي الدرام لان اساسه العمل . ولا يلتبس بالتاريخ الذي

هو خبر ورواية أيضاً لان موضوع التاريخ الوقائع الصحيحة بلا اطراء ولا غلو. وأما الشعر الحماسي فموضوعه الوقائع الملفقة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادر الفروسية. واشهر كتب الحماسة الايلياذة والاوذيسة لهوميروس اليوناني. و(انييد) لفرجيل اللاتيني. والكوميذية الالهية لدانتي الطلياني. والجنة الضائعة لملتون الانكليزي. وتخليص اورشليم لطاسو الطلياني وهانرياد لفولتير الفرنساوي. والحماسة النابوليونية لفيكتور هوكو. وعند اهل الشرق ماهابهاراته وراماياته للهنود والشهنامه للفرس وكتب الحماسة للعرب واشهرها كتاب الحماسة لابي تمام حبيب بن اوس الطائي وقد طبعه مع شرح ابي زكريا يحيى بن علي التبريزي عليه المستشرق الالماني فريتغ سنة ١٨٢٨ في مطبعة مدينة بونه. والجزء الاول من عكاظ الادب هو في الحماسة الحميدية فهو (ايبوبة) الحرب اليونانية الاخيرة كما حرر فيكتور هوكو الايبوبة النابوليونية. ومن امعن النظر في الشعر العربي وجد اكثره من قبيل الشعر الموسيقي اي النشيد والاغاني وهو الممتاز بخاصته الشخصية وباظهار الحواس الباطنة ووجد فيه أيضاً من الشعر الحماسي وهو الذي روى فيه أخبار الحروب وأطنب بشجاعة الشجعان. ووجد المقامات تشابه ما عند الافرنج من فن الكوميديا. غير ان صاحب المقامات جعل اهتمامه في انتقاء الالفاظ وبلاغة التعبير ولم يلتفت كصاحب الكوميديا لدرس اخلاق الرجال وبيان المزايا الخاصة بافراد القوم أو الهيئة الاجتماعية. وكان الباحثون في ادب العرب لا يجدون فيه مثالاً «للدرام» الآتي تعريفه فجاء عبد الرحيم أفندي احمد وعرض على المستشرقين في المؤتمر الحادي عشر المنعقد سنة ١٨٩٧م في باريس رسالة الغفران للمعري وبين مشابهتها بالكوميديا الالهية ووعد بنشرها. وكان يوسف ضيا باشا الخالدي استنسخ رسالة الغفران المذكورة سنة ١٣٠٧ هـ من النسخة القديمة المحفوظة الآن بمكتبة الكوبريلي وهي تجاه نظارة المعارف وتربة السلطان محمود في الاستانة. وهمّ اذ ذاك بطبعها فحال دونه سفره لبلاد الاكراد واشتغاله السنين الطوال بترتيب القاموس الكردي وتدوين قواعد هذا اللسان الذي نبغ من ابنائه امثال صلاح الدين الايوبي صاحب الفتح القدسي. فاذا نشرت رسالة الغفران كما تطبع ترجمة الايلياذة الان في مطبعة

الهلال تمكن قراء العربية من الاطلاع على فن جديد في ادب العرب غير الشعر الموسيقي والشعر الحماسي . والمأمول ممن ينشر رسالة الغفران ان يقابل بين النسخة المصرية والنسخة الاستامبولية لكيلا يقف ذهن المطالع كما حصل في المثال المنقول سابقاً من كتاب اعجاز القرآن للباقلاني بسبب وجود بياض في الاصل[١] . ومن دقق النظر في لزوميات المعري عرف ما هو عليه هذا الشاعر الحكيم من علو الفكر واتساع القريحة ولم يشتبه في ان كتابه الموسوم بالايك والغصون لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من فنون الشعر والادب ، الا احصاها . وقد اطنب المؤرخون في كلامهم على كتاب الايك والغصون وزعموا انه في مائة مجلد . ولكن اذا نظرنا في قولهم ان اللزوميات في خمسة مجلدات ثم رأيناها مطبوعة في الهند في مجلد واحد وفي مصر في مجلدين حملنا ذلك على الظن بان المائة مجلد من كتاب الايك والغصون هي بمثابة عشرين مجلداً من اللزوميات طبعة الهند او اربعين مجلداً من طبعة مصر . وعلى كل فهو من اعظم دوائر المعارف الادبية في لسان العرب . ولا يعجز عن الاتيان بمثلها رهين المحبسين والايك هو الشجر الكثير الملتف . فكانه اشار بهذا الاسم الى ان الكتاب شامل لاصول الادب وفروعه

ثم ان بوالو بعد ما فرغ من بيان القواعد العمومية للشعر و بيان فنونه ولزوم اتباع الصدق والحقيقة فيه ذكر في الفصل الرابع من كتابه في صناعة الشعر ما ينبغي ان يتخلق به الشاعر من الاخلاق الحميدة وما يجب ان يحض عليه من الخير والمعروف . فاعترضوا عليه بذلك وقالوا بان هذا الفصل من مباحث علم الاخلاق لا من مباحث العلم والادب . ولاموه ايضاً على اعتباره الشعر في مجرد قوالب الالفاظ وعلى تحديده بالحدود والتعاريف والزام الشاعر بمراعاة هذه الحدود في كل فن من فنونه وعدم الخروج عنها . وقالوا بان الشعر هو الهام من الله والطبيعة ونور يفيض على القريحة التي فيها استعداد طبيعي لقبوله ولا يمكن تعليم ذلك ولا تحديده بالحدود . والتعاريف والصحيح ان بوالو يعترف بأن اساس الفكر المعاني الشعرية لا يمكن تعليمها بالقواعد ويقول بانها هبة من الله واستعداد فطري وغريزي

(١) طبعت رسالة الغفران بمصر سنة ١٩٠٨ وصححها المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي

في قريحة الشاعر . وانما الذي يدخل عنده تحت القواعد المذكورة هو شكل التعبير اي في قوالب الالفاظ التي تقاد بها تلك المعاني الشعروية .

٢٤ — هوكو والادب الفرنساوي

ولما الف فيكتور هوكو رواية كرمويل التمثيلية سنة ١٨٢٧ وضع لها مقدمة بين فيها ما هو الاساس الذي أنشأ عليه ابنية اوراقه وما هو أصل الشجرة التي أثمر فرعها فاكهة روايته . كما وضع المعري مقدمة للزوم ما يلزم وافتتحها بقوله « كان من سوالف الاقضية اني انشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكذب والميط » . ثم ذكر القواعد التي راعاها في تأليف هذا الكتاب و بين اللوازم التي تلزم القافية بدون ان يفتقر اليها حشو البيت واتى لها بالامثال والشواهد المعتبرة من كلام الحكمة والموعظة الحسنة كما هو مفصل في بابه . فخلاصة مقدمة كرومويل :

ان الانسان منذ النشأة الاولى الى الزمن الحاضر تقلب باعتبار التمدن اي الحضارة والعمران في ثلاث ادوار : (١) القرون الابتدائية (٢) القرون القديمة (٣) القرون الاخيرة . وحيث كان الشعر سابقا على اجتماع الانسان وملازماً له فقد تقلب معه ايضاً في ثلاثة اشكال :

(١) الشعر الموسيقي اي الغناء [1] (ايريك)

(٢) الشعر الحماسي اي الحماسة (اييك)

(٣) الشعر الدراماتيقي أي الهائلة (دراماتيك)

وذلك ان الانسان لما انتبه في القرون الابتدائية لعوالم الموجودات ـ وكانت

---

(١) قد يتغنى المرء بالشعر الحماسي ايضاً . لان الغناء انما هو تلحين الشعر موسيقياً كان اوحماسياً . ولكن الغالب في الغناء اظهار ما في نفس الانسان من الحس والشعور ولذا خصصناه هنا بالشعر الموسيقي الممتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية . وكتاب الاغاني الفه ابوالفرج الاصفهاني مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد . ولكنه جامع لكل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء فهو ديوان العرب

قريبة عهد بالحدوث — انتبه معه الشعر . فانبهر من رؤية بدائع المخلوقات واسكرته الدهشة حتى لم يكن اول كلامه الا « هيللة » . وكان تفكره تجلياً وجذباً وتصوره وحياً لقربه من موجد الكائنات وهو الله . فكان يناجي بقلبه ويهلل بلسانه كما يتنفس برئتيه . ولم يكن لعوده الا ثلاثة اوتار الخالق والنفس والمخلوقات . (١) غير ان هذا السر المثلث يشمل كل ما في الوجود . وكانت الارض مقفرة تقريباً وليس عليها من بني آدم الا بطون وفصائل ولم توجد بعد القبائل ولا الشعوب وكان لهم آباء لا ملوك . وكل عرق من عروق البشر متمتع بفنائه ولا معرفة لافراده بالملكية ولا بالشريعة ولا بالخصومة ولا بالحرب . بل الكل لكل واحد والكل

فكان الاجتماع الانساني شركة لا شيء فيها يضايق افراد الانسان . وكانوا يعيشون عيشة الرعاة والبداوة التي ابتدأ منها كل تمدن وعمران . وهذه المعيشة أوفق ما يكون لسانحات الفكر وهواجس القلب . فكانت نفس الانسان سائحة على جناح الاهواء سابحة في بحر الخيالات وفكره اشبه بسحابة تسيرها الرياح وتغير شكلها ووجهتها بحسب مهبها . فهذا هو الانسان الاول . وهذا هو الشاعر الاول . فهو شاب وموسيقي . ودينه الصلاة بمعناها اللغوي فقط وهو الدعاء وشعره الغناء . فهذا الشعر وهذا الغناء الذي للقرون الابتدائية هو « سفر التكوين »

ثم زال عن الانسانية هذا الشاب رويداً رويداً واتسعت فيها جميع الدوائر . وصار البطن قبيلة والقبيلة شعباً وامة . واحتشد كل مجتمع من هذا الاجتماع الانساني العظيم حول مركز مشترك وتأسست الممالك . وحلت طبيعة العمران محل طبيعة البداوة وتبدلت الخيام بالقصور ومحطات الرحال بالمدائن وتابوت العهد بالهيكل . واصبح رؤساء هذه الدول المستحدثة رعاة — للمواشي — بل للشعوب والامم وتبدلت عصا الرعاية بصولجان الملك . ووقف كل شيء ونمين . واخذ الدين شكلاً خصوصياً وانقلبت الصلاة من المعنى اللغوي الى المعنى المصطلح عليه عند اهل كل مذهب . وتعينت أقوالها وافعالها بحسب ذلك المذهب . وضرب الاعتقاد نطاقه

(١) لا يخفى ان فيكتور هوكو حينما الف رواية كروموبل كان من حزب الملوكيين المتمسكين بالدين الكاثوليكي ولذا فهو يرى التثليث في كل امر ومسئلة.

على العبادة . وعلى هذا الوجه اقتسم الكاهن والملك ابوة الشعب وعلى هذا الوجه قامت مقام الشركة الابوية الجمعية الثيوقراتية وهي الدولةُ الجامعة أحكامها بين الديانة والسياسة . وازدحمت الشعوب والامم على سطح الكرة فتضايقوا وتخاصموا وانتشبت بينهم الحروب واصطدمت الممالك بعضها ببعض وطغى قوم على قوم ..فاوجب هذا الطغيان مهاجمة الشعوب والامم وتغريبهم ورحلاتهم . وتصور الشعر هذه الوقائع العظيمة . وانتقل بذلك من الافكار الى الاشياء وتغنى بالقرون والشعوب والممالك وصار حماسة وولد هوميروس فهذا الشاعر في الحقيقة أحسن معرف للاجتماع الانساني في القرون القديمة . . وكل ما في هذا الاجتماع بسيط وحماسي . والشعر عندهم دين والدين شريعة أي قانون . فبعد بكارة الدور الاول ظهرت طهارة الدور الثاني من ادوار الانسانية . واستولى نوع من الوقار والاحتشام على الاخلاق البيتية والاخلاق العمومية . ولم تحفظ الشعوب من عوائدها بداوتها الا حرمة الغريب ورعاية ابن السبيل . وصار للعائلة وطن يربطها ونشأت محبة الوطن والدار وزيارة القبور

فالتعبير عن مثل هذا التمدن لا يمكن ان يكون باشعار الحماسة . وتقلبت اشعار الحماسة في اشكال كثيرة بدون أن تضيع خاصتها المميزة لهـــا . فاذا تأملنا كلام الشاعر اليوناني بندار وهو من أهل القرن الخامس قبل الميلاد والملقب بأمير الشعراء الغنائيين لجودة قريحته في الشعر الموسيقي نجد كلامه كهنوتيًا اكثر مما هو ابوي وحماسيًـــا اكثر ممـــا هو موسيقي . وفي هذا الدور الثاني من ادوار العمران ظهر المؤرخون وجمعوا الآثار وأرخوا القرون . ومع ذلك فظهور التاريخ لم يستلزم محو الشعر من الوجود بل استمر التاريخ حماسة وكان المؤرخ هيرودوس كانه هوميروس ثان . ومن نظر في روايات التراجيديا القديمة التي الفها شعراء اليونان ومثلوها على مراسحهم تبينت جليًّا أساليب شعر الحماسة ورأى غلوهم في كل شيء وتجاوزهم الحد في العظمة والجبروت والهيبة والفخامة . فالاشخاص الممثلة في هذه الروايات هم من الجبارين وانصاف الآلهة والآلهة . ومواضيع الروايات احلام وهواتف ومقدرات والواحها تعداد نفوس وتشييع جنازات وحروب وغارات . ومـــا كان ينشده الرواة من الاشعار كان يشدو به الممثلون . فـن التمثيل عند اليونان كان مقتصراً على هذا

فقط . وكانوا يبنون مراسحهم على سفح الجبل بلا سقف يقي حر الشمس ومطر السماء وانما هي درجات بعضها فوق بعض على شكل نصف الدائرة المسمى عندهم (امفيثياتر) وموضع التمثيل على الارض في صحن المرسح وهو في غاية السعة والجسامة ويستوعب تمثيل معيد بفنائه وسراي بدوائرها وقصورها وابراجها ومدينة باسواقها ومعسكر بمهماته . وكذا محل المتفرجين يستوعب ثلاثين الف متفرج . مع ان مراسح الاوروبيين لا تستوعب اربعة آلاف . والمرسح الفرنساوي في باريس لا يستوعب الا ١٤٠٠ ومرسح الاوبره فيها يستوعب ٢٢٠٠ ومرسح الشاتيلة وهو اكبر المراسح في باريس يستوعب ٣٦٠٠ وكان التمثيل عند اليونان يبتدىء في الصباح ولا ينتهي الا في المساء . وربما مثل في المرة الواحدة روايتين أو اكثر . وكان الممثلون يفخمون اصواتهم ويعظمون قيافاتهم ويتبرقعون بالبراقع المناسبة للرواية حتى يحاكي الواحد منهم الجبار العنيد أو البطل الصنديد الذي يمثل دوره . فيمثل برومته بن تيتان وهو مقيد بالسلاسل فوق جبل قفقاس والنسر يأكل في احشائه . لانه صور من طين الارض على هيئة الانسان ثم اراد ان يأخذ من نار السماء أو نورها لينفخ فيه الروح فاغضب الآلهة وجازاه كبيرهم بذلك الجزاء على ما اقترفت يداه . ويمثل ايضاً انتيغون وهي في اعلى الابراج تفتش عن اخيها الذي كان في معسكر الاعداء من الفينيقيين . وقد ذكر خبرها الشاعر سوفوقل في رواية نظمها قبل الميلاد باربعمائة سنة وسماها (اديب الملك) ونسج على منوالها الشاعر الفرنساوي فولتير وسمى روايته الفرنساوية بهذا الاسم أيضاً . واديب هذا ابن ملك من ملوك اليونان قتل اباه وملك على قومه وتزوج بأمه بدون علم منه. فلما وقف على حقيقة الامر لم يتحمل هذه المصيبة فقلع عيني نفسه بيديه وخرج من ملكه هاجاً وابنته انتيغون تقوده . ويمثل الممثلون أيضاً على مراسح اليونان مركباً كبيراً ينزل منه خمسون أميرة يتبعهن من الخدم والحشم كما في الرواية التي الفها الشاعر ايشيل قبل الميلاد بخمسة قرون . فكان يجتمع على مراسحهم فخامة البناء مع فخامة الكلام . ويمتزج التاريخ بالدين . وكان أول المضحكين عندهم من الكهان . وكانت العابهم احتفالات دينية ومواسم أهلية . فجميع الروايات المحزنة اليونانية هي من اشعار

الحماسة وجميع الشعراء المتقدمين عيال على هوميروس ورواياتهم مستنتجة من الالياذة والاوذيسة ومواضيع الجميع منها يعود الى محاصرة تروادة .

٢٤ — الديانة المسيحية والادب

ثم اخذ هذا الدور الثاني من ادوار الشعر يتقاص ويمتق كما تمتق العمران القديم وجاء الرومانيون ونسجوا على منوال اليونانيين ونسخ شاعرهم فيرجيل عن هوميروس . وانتهى دور الشعر الحماسي وفتح دور جديد للشعر والتمدن بظهور الديانة المسيحية . فالديانة الوثنية مادية ظاهرية والديانة المسيحية روحانية باطنية فلما حلت احداهما محل الاخرى ودخل الايمان بالمسيح قلب التمدن القديم قتله ووضع في جنازته المتعفنة جرثومة التمدن الحديث وثبت بتعاليمه دعائم الاخلاق . واول حقيقة جاء بها هذا الدين هي القول بوجود حياتين للانسان . احداهما فانية والثانية خالدة احداهما على الارض والثانية في السماء . وأعلم الانسان بانه مركب من حيوانية ونطق أي من جسد ونفس . وبانه نقطة الفصل المشترك وهو في علم الهندسة النقطة المشتركة بين خطين والخط المشترك بين سطحين والسطح المشترك بين جسمين أو بأنه الحلقه المشتركة بين سلسلتين من المخلوقات احداهما تتألف من الماديات والثانية من الروحانيات . احداهما تبتدىء من الجماد وترتقي للانسان والثانية تبتدىء من الانسان وتصعد الى الله

ربما فقه بعض الحكماء المتقدمين شيئاً من هذه الحقائق ولكن اول من اوضحها وجلاها الانجيل الشريف . فاصحاب الديانة الوثنية خبطوا خبط عشواء وساروا في ظلام الليل على هدى ولم يفرقوا في طريقهم بين الحق والباطل . والبعض من فلاسفتهم افاض من نبراس حكمته على الاشياء نوراً ضعيفاً لم يضيء منها الا الجانب الاصغر وزاد في الظل الممتد وراء جانبها الاكبر . فنشأ من ذلك تلك الاشباح والخيالات التي وردت في فلسفة المتقدمين واساطيرهم . لان اضاءة تلك الاشياء بتمامها لا تتيسر الا بنور الحكمة الالهية . فلما جاء امر الله قام النور الالهي مقام هاتيك الانوار المزعجة التي اتت بها الحكمة الانسانية . وكان فيثاغورس وبقراط

وسقراط وافلاطون سرج الليل فجاء المسيح بن مريم (عليهما السلام) ضوءا للنهار فحيث كانت عبادة الاوثان ديانة مادية لم يخطر على بال الاقدمين التفريق بين الروح والجسد كما في الديانة المسيحية . بل اوجدوا شكلاً وهيئة لغير الماديات وشخصوا المعنويات . فكل شيء عندهم مرئي ، محسوس ، متجسد . والهتهم مفتقرون لسحابة يختفون فيها عن الابصار . فهم يأكلون ويشربون وينامون . وتصيبهم الجراح فتسيل منهم الدماء . ويلقي بهم من السماء الى الارض فيتحطمون كما حدث لفولكين اله النار حينما حملت به امه من (جوبيتر) المشتري كبير الالهة ووضعته في اشنع صورة فاستنكفت منه ان يكون ابنها ورمت به الى الارض فهبط على جزيرة ليمن من جزر الممالك العثمانية وانكسرت رجله . وذهب لبركان اتنا ووضع فيه كور الحديد . فهو يعرج من وقعته ويشتغل في صنعته ابد الابدين ودهر الداهرين . ومن هؤلاء المعبودات ما هم آلهة ومنهم ما هم انصاف آلهة فقط . ودنياهم معلقة بسلسلة من الذهب يمسكها كبير الالهة . وشمسهم يجرها في مركبه اربع رؤس من جياد الخيل . وجهنمهم هاوية عميقة يمين الجغرافيون فوهتها على سطح الارة . وجنتهم على جبل اوليمبوس في تساليا يسكنها الآلهة ويتلذذون بنعيمها . فالديانة الوثنية عجنت جميع المفتريات من أساطيرهـا في طينة واحدة وصغرت آلهتها وكبرت اوادمها حتى تشابه الفاني بالحي الذي لا يموت . فالابطال الذين تكلم عنهم هوميروس في اشعاره كادوا يكونون أقرانـاً للمعبودين . فابو الفوارس اجاكس غضب على جوبيتر وهو راجع من محاربة تروادة واعلن الحرب عليه وعلى جماعته . واشيل عنترة الحروب اليونانية يضاهي في القوة والشجاعة المريخ (مارس) له الحرب وجلاد الفلك . بخلاف الدين المسيحي فانه فرق بين المادة والروح . وحفر وادياً عميقاً بين الجسد والنفس ووادياً آخر بين الانسان والآلهة فبظهور النصرانية وبنشر تعاليمها دخل قلب الناس شعور جديد لم يكن معروفـاً للمتقدمين واتسعت دائرة هذا الشعور عند المتأخرين اتساعاً غريباً . فهذا الشعور هو المالنخوليا أي السوداء وهي اشد من الوقار المستولي على قلوب القدماء وأخف من الحزن . فالنصرانية وضعت في طبع المتدينين بها المزاج السوداوي وجعلت

الصلاة للفقير كالغنى للغني وأسست بين الناس المساواة والشفقة والحرية . فمنذ دخل الانجيل النفس بين الحواس ووضع الخلود وراء الحياة اصبح المتمسكون به يرون الاشياء بشكل جديد

وعدا هذا في التاريخ الذي انتشرت فيه الديانة المسيحية حدث في العالم انقلاب كبير لم يتيسر معه ان لا يحصل انقلاب في العقول . لان الانقلابات التي حدثت قبل ذلك التاريخ كانت عبارة عن سقوط دولة وقيام اخرى ولم يكن لذلك تأثير كبير في قلوب العموم . بل المصيبة الحاصلة من تلك الانقلابات كانت كالصاعقة لا تصيب الا الاماكن العاليه والمقامات المرتفعة فعبروا عنها باشعار الحماسة . ففي الاجتماع الانساني القديم كان الفرد سافلاً حتى كانت المصائب لا تؤثر عليه الا اذا نزلت بيته وأصابت أهله . ولا يعرف الواحد من أهل تلك القرون الخالية البؤس ولا التعاسة خارج الآلام البيتية . ولا كان يسمع في تلك الاجيال بان المصائب العمومية الحادثة في المملكة تمس المعيشة الفردية . فلما حدثت تلك الانقلابات الكبيرة ابان انتشار الديانة المسيحية واصبحت الامم الاوروبية في هرج ومرج يتلاطمون كالامواج في البحر العجاج وانقرض التمدن القديم باستيلاء الاقوام البربرية على ممالك الرومان حدث من ذلك تأثير في قلوب العامة وانفعال في نفس كل فرد من افرادهم . وأخذوا يفكرون في مصائب الدهر ومرارة الحياة وعرفوا بان هذه الدنيا الفانية ما هي الا هزر ولعب وكدر وتعب لا ينبغي للعاقل ان يغترّ بها . فهذا الشعور الذي ولد اليأس في قلوب المشركين كما علم من حال الاديب قانون . ولد في قلوب المتنصرين الماليخوليا وهي السوداء

وفي ذلك التاريخ ايضاً تولد فكر التجسس والاختبار . لان تلك الوقائع العظيمة كانت أشبه برواية كبيرة مثلت على مرسح الدنيا وشهد المتفرجون عواقبها المدهشة . فهذه الوقائع عبارة عن وثبة وثبها الشمال على الجنوب وتغير بسببها شكل العالم الروماني . فاصبح يقاسي نزاع الموت وبلغت روحه التراقي . فلما مات هذا العالم قام جمهور من النحويين والبيانيين والسفسطائيين يتقاتلون على جنازته ويقبلون جسده الذي لاحراك به . ويشرحون ويفسرون ويعبرون ويحللون ويناقشون

ويجادلون كأنهم ذباب يتساقط على جيفة التمــدن القديم . فمن سعادة هؤلاء المشرحين للمقول وحسن حظهم انهم وجدوا جيفة يجرون عليها اول تجاربهم ويسبرون قروحها بمسبارهم . فكان اول جسد شرحوه جسد امة ميتة

وعلى هذا الوجه نرى الان ظهور جنية الماليخوليا والتفكر بجانب عفريت التحليل والتضاد . ونجد في احد طرفي هذا الدور الانتقالي البياني الشهير لونجين (٢١٠ — ٢٧٣ م) ولد في حمص من سوريا والف باليونانية في علم البيان رسالة الاعجاز التي ترجمها بوالو للفرنساوية . ونجد في الطرف الاخر القديس اوغوستين (٣٥٤ — ٤٣٠ م) صاحب المؤلفات اللاتينية . فجميع ادباء القرون الوسطى استقوا افانين العلم والادب من حياض الروم في القسطنطينية . ولا يجوز لنا احتقار هذا الدور الانتقالي من ادوار الادب لان فيه النطفة التي تخلقت وولدت وكبرت حتى صارت عروساً نتمتع اليوم ببديع جمالها . فكتبة ذاك الدور — ونرجو هضم هــذا التعبير الحر مع انه سوقي مبتذل — زبلوا رياض الادب ليجتني المتأخرون ثمارها

فحيث كان هناك دين جديد وأمة جديدة اقتضى ان ينشأ على هذين الاساسين أبنية جديدة في الشعر . لان شعر المتقدمين كان حماسة صرفاً و بسبب تأثير الدين الوثني والفلسفة القديمة كان الشعراء لا يدرسون من الطبيعة الواجب عليهم تقليدها الا وجهاً واحداً وهو وجه الجمال . وينبذون وراء ظهورهم جميع ما لا علاقة له بشيء من نموذج الجمال بدون ان تأخذهم رأفة على صناعة الادب المقتضي لها تقليد ما في الطبيعة من خير أو شر . فهذه الطريقة كانت في بادىء امرها معتبرة . ولكن باضطرادها على قياس واحد زال رونقها وذهبت طلاوتها ونقصت قيمتها كما هو شأن كل ما اضطرد على وتيرة واحدة . فلما ظهر الدين المسيحي جرّ الشعر الى الحقيقة ووضعه في مكانه . وصارت قريحة الشاعر النصراني ترى الموجودات بعين اوسع وأرق مما كانت تراه قريحة الشاعر الوثني . فشعرت هذه القريحة الجديدة بان المخلوقات ليست كلها جميلة باعتبار الانسان بل الشنيع منها بجانب الجميل والمستظرف بقرب المستقبح والشر اكثر من الخير والظلام سابق النور والجد

مخلوط بالهزل وكلام السخرية وراء الاعجاز بالفصاحة . فقالت القريحة في نفسها

أحكمة الشاعر النسبية الجزئية أحسن من حكمة الخالق المطلقة الكلية ؟

أبلغ من حد الشاعر ان يقوم ما اعوج على زعمه من خلق الله ؟

وهل الابتر والاجدع والاجذم أجمل من كامل الاعضاء ؟

وهل يحق لصناعة الادب ان تنزع بطانة الثوب الذي تردت به الانسانية والحياة والمخلوقات ؟

وهل يجوز نزع عضلة من الجسم أولولب من الدولاب ان أريد انتظام دورانه

وهل من الواجب على المطرب ان لا يعرب ؟

ثم نظرت هذه القريحة الجديدة في وقائع العالم فوجدتها مضحكة مرهبة معاً واعتراها المزاج السوداوي بسبب الاعتقاد المسيحي واثر عليها ايضاً الانتقاد الفلسفي المستفاد من ذاك الدور الانتقالي فخطت في الادب خطوة كبرى زلزلت بها العالم العقلي وقلبت عاليه سافله وحذت في الشعر حذو الطبيعة وخلطت في اختلاق المعاني النور مع الظلام وكلام السخرية مع الاعجاز بالفصاحة بدون ان تمزج احدهما بالثاني . و بتعبير آخر جمعت في الشعر بين النفس والجسد وبين الحيوانية والنطق . لان الشعر والدين متلازمان والنقطة التي يسير منها أحدهما يسير منها الاخر . فاوجدت في الشعر نموذجاً جديداً واسلوباً غريباً بالنظر للمتقدمين . وشرطت فيه شرطاً قلب شكله وأصلح قالبه . فهذا انموذج وهذا الشرط هو كلام السخرية الذي يظهر في قالب الكوميدية . فهذا هو الفرق الذي يفرق في نظرنا بين صناعة الادب الجديدة وصناعة الادب القديمة و بين الشكل الجديد الحي والشكل القديم الميت . او بتعبير اشهر من هذا ولو كان مبهماً هذا هو الفرق بين ادب الطريقة الرومانية وادب طريقة المدرسية

فيقول لنا حينئذ اهل الطريقة المدرسية :

— ها نحن امسكنا كم واخذنا كم بالسنتكم . انتم تتخذون من القبيح نموذجاً للتقليد ومن كلام السخرية اسلوباً لصناعة الادب ؟ ولكن اين اللطافة في ذلك اين حسن الذوق ؟ اما تدرون ان صناعة الادب ينبغي لها ان تقوّم ما اعوج

من الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الواجب عليها اعلاء شأن الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الاجدر بها انتخاب الاحسن مما في الطبيعة ؟ هل ادخل المتقدمون القبيح او السخرية في كلامهم ؟ هل مزجوا الكوميديا بالتراجيديا ؟ فاتبعوا يا سادة اساليب المتقدمين واقتفوا في فنون الادب اثر ارسطو و بوالو ولاهارب . . . . الخ

— وفي الواقع ان حجج اهل الطريقة المدرسية دامغة . ولكن لسنا مكلفين بالرد عليهم لاننا لا نريد وضع قواعد جديدة ولا تقييد العقل بالعقال كما قيدوه . اذ حمانا الله من القواعد ! وانما نحن حققنا وجود امر فنحن مؤرخون ولسنا متقدين ولا مشرعين . فهذا الامر موجود سواء اعجبهم أو لم يعجبهم . فقريحة الشعر الجديد تولدت من انضمام نموذج السخرية بالكلام الى نموذج الاعجاز بالفصاحة . وهي غزيرة المنبع في ابتكاراتها مختلفة الاشكال في تصويراتها . بخلاف الشعر القديم فانه وحيد الشكل وحيد الاسلوب لبساطته واضطراده على وتيرة واحدة . فهذا هو الفرق الحقيقي والاساسي بين ادب الطريقتين الرومانية والمدرسية

نعم ان المتقدمين لم يجهلوا بالكلية حقيقة الكوميديا ولا السخرية التي نحن بصددها اذ لا بد لكل شيء من اصل . وجرثومة الدور الثاني لا بد من ان تكون في الدور السابق عليه . ففي الالياذة كل من (فولكين) و (نيرسيت) نموذج لهذه السخرية والكوميديا . والاول مثال للآلهة وقد مر ذكر السبب في عرجه وإس على اعرج من حرج . والثاني مثال للبشر ووصف هوميروس في الفصل الثاني من الالياذة هذره في المنطق وهذيانه في الكلام و بين كثرة جلبته واستهزائه بجميع الناس حتى بالملوك . فكان في محاربة تروادة مضحكة اليونان يسخر بهم ويسخرون منه لان فيه جميع النقائص والعيوب . ومن امثلة السخرية أيضاً مكالمة منيلاس مع بواب القصر في رواية (هيلانة) التي نظمها الشاعر اليوناني أوريبيد في القرن الخامس قبل الميلاد

ومن السخرية أيضاً ما نراه عند اليونان من الاشخاص الخارقة للطبيعة كالذي نصفه الواحد انسان ونصفه الآخر سمكة والذي بعين واحدة في جبهته وعرائس الجن اللواتي يظهرن على الانس كأنهن حور الجنان كل واحد من ذلك نموذج

للسخرية . غير أن ادباء اليونان الاقدمين لم يتمكنوا من ايفاء هذا الموضوع حقه بسبب ما في أشعار حماستهم من الفخامة وما في رواياتهم من العظمة والجلالة . فالسخرية في كلامهم ليست في موقعها لانها مستورة بجلالة الشكل الحماسي باسلوب الحماسة يفوق فيها على اسلوب السخرية ويمنعها من الظهور والبيان . بخلاف الادباء المتأخرين فان اسلوب السخرية له في شعرهم ورواياتهم موقع مهم . وهو في كل موضع من كلامهم . ويصورون بهذا الاسلوب الشناعة والفظاعة من جهة واللعب من جهة اخرى . ويلحقون به في الدين الف وسوسة واباطيل غريبة وفي الشعر الف معنى مبتكر وتصور بديع . فاسلوب السخرية هو الذي اوجد في القرون الوسطى جميع هذه المخلوقات التي اعتقد الناس وجودها بين الانسان والله من عوالم الجن والروح والملك وملؤا بها الهواء والماء والارض والنار فلم يبق محل في الفضاء الا وهي ساكنة فيه ومنها من هو على اكتافنا يكتب اعمالنا ومنها من يأكل ويشرب معنا من طعامنا وشرابنا ومنها من يلبسنا لبس الجلد على اللحم ولا يخرج منا الا بالضرب الشديد والتعذيب . وهذه السخرية هي التي جعلت لشيطان النصارى قرون التيس وارجل الخنزير وأجنحة الخفاش وجرت الشاعر دانتي الطلياني وملتون الانكليزي الى تصوير تلك الصور الجهنمية العجيبة ووصفها بالاوصاف الهائلة والاشكال المخيفة حتى جاء في القرن السادس عشر المصور الشهير ميكال انجلو ونقش على جدار كنيسة في الفاتكيان الذي يسكنه البابا صورة مفخمة بديعة سماها اليوم الاخر وهو يوم العرض والحساب . ولو قرأ القرآن الكريم لصور جهنم ترمي بشرر كالقصر كانه جمالة صفر . ومن أمثلة هذه السخرية أيضاً الخادم الجني ميفستوفلس الرافق لفوست في الرواية المتقدم ذكرها ومنها الساحرات التي مركزهن في رواية ماقبت وانواع كثيرة من الخدام والرصد القائمين على حفظ الكنوز المخيفة والعيون الجارية والاشجار الكبيرة . وكذا الحوت الذي يظهر في البحر كالجزيرة المعشبة والثعابين التي تحاكي في الضخامة الفيلة وتحرق بنفسها كل مخضر ونحو ذلك . فالمتأخرون عبروا عن جميع ما ذكر بكلام افصح وأبلغ من كلام المتقدمين

فاسلوب السخرية ما هو في نظرنا الا ضد قام بجانب اسلوب الاعجاز بالفصاحة

ليميزه ويظهره . لان الاشياء تتميز بضدهـا . فهو اغزر المنابع التي فتحتها الطبيعة لصناعة الادب . فطريقة المتقدمين أورثت الملل والكلال باطرادها على نسق واحد ومراعاتها لاسلوب واحد وهو اسلوب الاعجاز . لان الاعجاز على الاعجاز والبلاغة وراء البلاغة والبيان تلو البيان متعب للفكر مجهد للذهن . فاذا فصل بينهما بكلام السخرية تفكه العقل وارتاح مما اجهده واضناه واستأنف السير نحو الاعجاز وهو في نشاط وارتياح بسبب توقفه بكلام السخرية والهزل . ثم لا يخفى ان الجميل اذا قرن بالقبيح زاد جماله رونقاً وصفاء وتلألؤاً واعتلاء . ولذا كانت الجنة التي وصفها ميلتون ألذ واشهى من جنان الايليزه التي وصفها هوميروس وفرجيل . لان ميلتون صور تحت جنة عدن جهنماً أشد دهشة ونكالاً من (تارتار) المتقدمين . ولو لم يصف لنا دانتي حبس ذالك الجبار العنيد في برج مدينة بيزه وسد باب البرج عليه حتى هلك جوعاً بعد ان اكل اولاده لما وجدنا طلاوة لحسن فرانسواز دو ريمني ولا لجمال بياتريس التي دخلت به جنان النعيم اذ لو لم يكن في كلامه تلك الشدة والقسوة والعذاب الاليم لما كان فيه تلك الحلاوة الرائقة والعذوبة السائغة

ففي شعر المتأخرين الاعجاز بالفصاحة يشبه النفس الناطقة المطمئنة بتعاليم النصرانية . والسخرية أي الهزر بالكلام يشبه الجسد الحيواني الذي في الانسان . فالنموذج الاول بتجرده من الهذيان وسلامته من العيوب حاز كل الحسن والجمال والرشاقة والاعتدال والجذب واللطافة والرقة والحلاوة . واخرج من خدور الافكار عرائس مثل جوليت واوفيليه اللتين صاغهما شكسبير في رواية روميو وجوليت ورواية هاملت . ولعلهما تشبهان ليلى التي افتتن بها قيس العامري على عهد الدولة الاموية ولقب لاجلها بمجنون ليلى . وفاطمة التي هام بحبها امرؤ القيس وقال لهـا « افاطم مهلاً بعض هذا التدلل » والنموذج الثاني ظهرت فيه جميع العيوب والعلل واتصف بالبشاعة والشناعة والهذيان والانهماك في الشهوات الحيوانية والرذائل الدينية وفي جر المنافع ولو بايقاع المفاسد والجنايات . فهو فسيق ، دنيء ، شره ، مهذار ، بخيل ، طماع ، مرائي ، مفسد ، مفتن ، قواد ، غدار ، كذاب ، محتال . ويتمثل في صورة باصيل وفيغارو وتارتوف وهارباغون . والاول اسم راهب يحب مسايرة

العاشقين على اهوائهم ولكنه كثير الطمع في اموالهم . والثاني اسم خادم نشيط ظريف قواد لسيده اوصله الى معشوقته ومكنه من وصالها بمهارة حيله ودسائسه . وهما من الاشخاص التي اوجدها مارشه في روايةٍ (حلاق اشبيليه) و(زواج فيغارو) ونكت بها على اخلاق المعاصرين من الفرنساويين قبل الانقلاب الكبير أي في عهد لويس السادس عشر والخامس عشر وبيّن اسرافهم واستهزأ بافعالهم . وفي سنة ١٨٥٤ أي في عهد الامبراطورية الثانية انشأ احد الكتبة جريدة هزلية سماها (فيغارو) اشارة الى انها تخدم خدمة فيغارو مع التنكيت والتبكيت وعدم المبالاة بشيء ولا التعصب لامر . فاصبحت جريدة الفيغارو اليوم من اعظم الجرائد اليومية في باريس . و (تارتوف) نموذج الرياء وهارباغون نموذج البخل وهما من اشخاص روايات موليير . ويمكن ان يعد من هذا القبيل أيضاً ابو زيد السروجي في وعظه للناس بالمواعظ الحسنة ثم جمعه الفلوس واشترائه اللحم والخمر والجلوس للمنادمة مع غلامه كما هو موضح في مقامات الحريري . فالجميل ليس له الا نموذج واحد والقبيح له الف نموذج لان جمال الجميل ما هو الانسبي بالنظر الى الانسان وباعتبار تركيب اعضائه والقبيح له نسبة وعلاقة مع غير الانسان فهو جميل بالنسبة الى عموم المخلوقات وقبيح بالنظر للانسان وحده

ففي القرون الوسطى نرى لكلام السخرية موقعاً بجانب الاعجاز بالفصاحة وكثر استعمال السخرية في الادب في الرسم والتصوير والحفر وفي الاخلاق والعادات كالرسوم التي احسن في تصويرها المصور الشهير ميكل انجلو الطلياني والمصور موريلو الاسباني وابدع ما اتت به قريحته الراسمة التي نقش فيها كيفية الصعود الى السماء ثم ظهر شكسبير وصار ملك الشعراء كما قال دانتي عن هوميروس ومزج كلام السخرية بكلام الاعجاز وصاغ منهما الدرام . فشكسبير هو ابو الدرام والدرام هو الخاصة المميزة للدور الثالث من ادوار الشعر والادب العصري وهو جامع للمرهب والمضحك من الكلام اي للكوميديا وللتراجيديا

٣٦ــ الاجمال

فاجمالاً لما تقدم لنا ذكره نقول :

ان الشعر له ثلاثة ادوار وهي الغناء والحماسة والدرام . ولكل منها مناسبة بدور من ادوار الاجماع الانساني الذي هو عمران العالم . فالقرون الابتدائية غنائية . والقرون القديمة حماسية . والقرون الجديدة درامية والغناء يترنم في الازل والحماسة تحتفل بالتاريخ والدرام يصوّر حياة الانسان . وخاصة الاول السذاجة . وخاصة الثاني البساطة . وخاصة الثالث الحقيقة : فرواة اليونان — ويسمونهم رابزود وهم اشبه برواة العرب الذي جاء منهم حماد الراوية وكانوا يطوفون القرى ويروون اشعار بندار وهوميروس وأيشيل — يدلون على دور الانتقال من الشعراء المغنين اي الناظمين لشعر الاغاني الى الشعراء الحماسيين . والرومانيون أي مؤلفو الرومانات وهي الاقاصيص الموضوعة يدلون على دور الانتقال من الشعراء الحماسيين الى الشعراء الدراميين . و بظهور الدور الثاني ظهر المؤرخون . و بظهور الدور الثالث ظهر الباحثون في حكمة التاريخ و بيان اسباب الوقائع وعللها

وأشخاص شعر الاغاني عظام الاجسام طوال القامات والاعمار مثل آدم وقابيل وهابيل ونوح . ويدخل في زمرتهم عوج بن عناق . واشخاص شعر الحماسة من القوم الجبارين وهم اقوياء اشداء . مثل اشيل بطل الحروب اليونانية واسترة آلهة العذن وأوريست بن اغا ممنون الذي الف فيه شعراء اليونان رواياتهم . ثم جاء فولتر ونسج على منوالها روايته المشهورة باسم اوريست . ويدخل في زمرتهم عنترة بن شداد . واشخاص الدرام هم بشر على الصورة الحقيقية للانسان مثل هاملت وماقبت واوتيلو الذين صورهم شكسبير في رواياته المشهورة بهذه الاسماء . وربما دخل في زمرتهم أبو زيد السروجي في مقامات الحريري والشيخ علي بن منصور الحلبي في رسالة غفران المعري . ومنبع الاغاني الوهم والخيال ومنبع الحماسة العظمة والفخامة ومنبع الدرام الحقيقة . وتتفجر هذه الينابيع الثلاثة من ثلاثة بحور كبيرة التوراة وهوميروس وشكسبير

فهذه هي اشكال الفكر المختلفة بحسب اختلاف القرون التي تقلب فيها الانسان والعمران . وهي في ثلاثة ادوار الشباب والكهولة والشيخوخة فسواء نظرنا في أدب امة على حدتها او في أدب البشر على وجه العموم فالنتيجة التي نستنتجها من جميع ذلك واحدة . وهي تقدم الشعراء المغنين او الغنائين وهم الناظمون أشعار الاغاني على الشعراء الحماسيين أي الناظمين شعر الحماسة . وتقدم الشعراء الحماسيين على الشعراء الدراميين . ففي فرانسا ماليرب (١٥٥٥ — ١٦٢٨ م) سابق على شابلين (١٥٩٥ — ١٦٧٤ م) وشابلين سابق على قورنيل (١٦٠٦ — ١٦٨٤ م) والاول هو الشاعر الغنائي (ليريك) الذي اصلح اللغة الفرنساوية وقال فيه بوالو « وفي النهاية اتى ماليرب » ..... فذهبت مثلاً . وأما الثاني فانتقد عليه بوالو في الشعر وسخر به حتى جعله اعجوبة وهزءا . ويلقب الثالث بأبي التراجيديا وهي الروايات الفاجعات . وكذلك الحال عند قدماء اليونان فشاعرهم المسمى (اورفيوس) متقدم على هوميروس . وهوميروس متقدم على (أيسيل) . الملقب بابي الترجيديا اليونانية . وفي كتاب العهد القديم أي التوراة سفر التكوين متقدم على سفر الملوك وسفر الملوك متقدم على سفر ايوب عليه السلام . واذا نظرنا في ادب البشر على وجه العموم نرى التوراة قبل الايلياذة والالياذة قبل شكسبير

ولا غرو في ذلك فان الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم يبدىء في الترنم بما يتخيله . ثم يقص ما يعمله . ثم يصور ما يفتكره . فالدرام بجمعه بين الاوصاف المتضادة كان اوعب للافكار الفلسفية والتصورات العميقة . وكل ما في الطبيعة وما في الحياة يتقلب في هذه الاشكال الثلاثة وهي الغناء والحماسة والدرام . لان كل ما في الوجود يولد ويعمل ويموت . ولو ابيح التعبير عن الحقائق البرهانية بالتخيلات الشعرية لقال الشاعر بلسان الشعر ان الشمس عند طلوعها ترنم بالغناء وعند القائلة أي الظهيرة تفاخر بالحماسة وعند الغروب تفجع بالمصيبة وهي الدرام . فهذا التعبير هو من باب الشعر وربما كان ضرباً من الجنون . انتهى كلامه ببعض تصرف وزيادة

ثم شرع صاحب مقدمة كروميل في الرد على اصحاب الطريقة المدرسية في

تقسيمهم الشعر الى الاجناس التي سبق ذكرها في الكلام على بوالو وفي تحديدهم كل جنس منها بالحدود والتعاريف وفي تفريقهم بين التراجيديا والكوميديا . وابطل قولهم بلزوم وحدة الزمان والمكان في الروايات التمثيلية ولم يقبل من وحداتهم الثلاثة الا وحدة العمل . وقد ضربنا صفحاً عن ايراد كلامه في هذه المباحث مراراً من التطويل ولان الروايات التمثيلية على ما فيها من الفوائد الجليلة في اساليب البلاغة لم تشتهر لهذا الزمان بين المتكلمين بالعربية ولا اعتنى فحول ادبائنا في تأليف الروايات لا بالنظم ولا بالسجع ولا بالنثر كما فعلت النشأة الجديدة من ادباء اللسان العثماني

وقد حض فيكتور هوكو في تلك المقدمة على تأليف روايات (الدرام) بالشعر لا بالنثر وقال : بان بيت الشعر يحيط بالمعنى احاطة الثوب الافرنجي بالبدن ويضيق عليه ويوضحه معاً . ويعطيه شكلاً الف وادق وأتم من شكل النثر . ويديره علينا كانه نوع من انواع الاكسير الذي استخرجه الكيمائيون من خمير الذهب وزعموا ان فيه لذة للشاربين وشفاء للاجسام من جميع العلل والاسقام . فبيت الشعر على رأي فيكتور هوكو هو القالب الشفاف المعنى . واذا تلطف الشاعر في نظمه وانشائه اكسب المعنى رونقاً لولا بيت الشعر لمرّ ذاك المعنى غير ملتفت اليه . فالشعر هو العقدة التي تربط سلك المعاني أو المنطقة التي تضم حواشي الهدم على الجسم وتطويه طيات متناسبة بالهندام . والشعر يزيل من الالفاظ ما هو سوقي مبتذل أو عامي سخيف ويكسب المعاني حلاوة وطلاوة ورشاقة . سيما اذا اقتصر الشاعر على استعمال الالفاظ المتعارفة بين الناس المتداولة على الالسن . وترك ما كان وحشيًا غريباً في اللغة . وعرض فيكتور هوكو بالذاهبين الى ان « أعذب الشعر اكذبه » بقوله ليت شعري ما الذي يضيع من الشعر ان دخلت فيه الطبيعة والحقيقة ؟ وهل تنقص الخمر صفة من اوصافها ان وضعت في اباريق الزجاج وختم عليها ؟ كلا بل تصير رحيقاً معتقة ختامها مسك يتنافس بها المتنافسون . وختم المؤلف مقدمة كروميل ببيان المقتضى للشاعر من النسج على منوال الطبيعة (لان كل ما في الطبيعة هو في صناعة الشعر) . وان كان الشاعر جيد القريحة فلا حرج

عليه في شيء من القواعد وله الحرية المطلقة في التصرف بجميع افانين الشعر على حسب ما يرتئيه

فهذه خلاصة مقدمة كروموبل الشهيرة بين الادباء على اختلاف لغاتهم وتباين مذاهبهم . ومنها يفهم ان الطريقة الرومانية ارجعت الشعر الى الحقيقة والطبيعة والحياة وتركت فيه التصنع وزخرفة الكلام واجراس الالفاظ ولم تلتفت الى زعم اهل الطريقة المدرسية بان زخرف القول من مقتضى الذوق السليم للشاعر . وازالت جميع الحواجز التي تعرض امام سجية الطبع وتصد الفكر عن تصوُّر الحقيقة وتوصيف الموجودات بحسب ما هو مغروس في جبلة كل منها سواء كان من صفات القبح أو صفات الجمال بلا تفريق بينهما . ولذا نكتت بعض الجرائد بقولها على سبيل القريظ والتبكيت : « فليعش الانكليز والالمان . فلتعش الطبيعة الهمجية لوحشية التي نشاهد جمالها في اشعار فيكتور هوكو واخوانه من اهل الطريقة الرومانية . » أشارة الى ان أساليب هذه الطريقة أول ما ظهرت في أدب الانكليز والالمان كما تقدم بيانه . وعرف بعضهم الروماني أي السالك نهج الطريقة الرومانية « بانه رجل ابتدأ عقله في الاختلال »

فمن امعن النظر في المبحث الاخير من تلك المقدمة وجده مطابقاً لما ذكره ائمة البلاغة والادب في لسان العرب كابي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وامثالهم . ولا حاجة لايراد اقوالهم في هذا الباب فانها معلومة ومحصلها وجوب نصرة المعنى على اللفظ لان الالفاظ خدم المعاني . قال الباقلاني « والشعر ان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه . ويضم اطرافه ونواحيه . فهو اذا تهذب في بابه . ووفى له جميع اسبابه . لم يقارب به من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب » وقول فيكتور هوكو بان الخاصة المميزة لادب الطريقة الرومانية عن غيره هي الجمع بين نموذج السخرية ونموذج الاعجاز بالفصاحة اشبه بقول المتنبي « وبضدها تتميز الاشياء » ولعل السبب الذي حمل المتنبي والمعري على ترك اساليب الجاهلية والنسج على منوال جديد هو الذي ذكره فيكتور هوكو من ان اساليب المتقدمين كانت معتبرة في بادىء امرها ثم باضطرادها على قياس واحد

مراعاة للقوانين ثقلت على السمع وملها الطبع وسترى حقيقة ذلك في التعريف الآتي للطريقة الرومانية

أما عدم تعرض فيكتور هيكو لادب العرب كما تعرض لادب الامم الاوروبية ولادب الفارسية المذبة فهو لجهله — سيما في ذاك التاريخ الذي الف فيه مقدمته — بفصاحة العرب واعجاز القرآن وحضارة الاسلام . فان التمدن العربي لم يدرس حق درسه ليومنا هذا . ولم يزل صاحبنا المستشرق البودابستي العلامة كولدزير يحض المستشرقين من كل امة على التعاون والاشتراك في تأليف دائرة للمعارف الاسلامية . فان تم هذا المشروع وأنجزت ترجمة المهم من الكتب العربية ربما تيسر بعد ذلك للباحث الاطلاع على كنه العلوم والآداب الاسلامية . ولم يزل المستشرقون يترجمون في الصوربون القرآن الكريم وتفسير البيضاوي ترجمة صحيحة ولا يكملون في كل سنة اكثر من بضع صحائف . ولم يترجم كلام المعري سوى وريقة فيها نحو مائتي بيت نشرت بالالمانية في فيينا عاصمة النمسا سنة ١٨٨٨ م . فهم يتقربون من فهم حقيقة الادب العربي رويداً رويداً . وقد رأينا فيما تقدم ان صاحب اغاني رولان يعتقد بان الاسلام فرع من عبادة الاصنام ويحسب بوالون من جملة اوثان المسلمين . ولو علم فولتير من احوال الشرق ما يعلمه علماء هذا العصر لاستحى من نفسه ومزق الرواية التي حررها باسم « محمد النبي » عليه السلام وقدمها للبابا بنوا الرابع عشر بعد ان سجد لديه وقبل قدميه [١]

ولما ذهب فيكتور هوكو لاسبانيا رأى آثار العرب في المباني والقصور والقناطر وقدرها حق قدرها ولكنه لم يفهم من الآيات والابيات المنقوشة على جدرانها اكثر مما نفهمه من احرف الصين المنقوشة على البضائع الصينية ولاسيما على علب الشاي . ولما ظهر رينان وصار شيخ العلماء في عصره درس ادب العرب الاندلسيين من حيث الفلسفة ولخص ما حققه في كتاب سماه « ابن رشيد » . فقام اليوم

١ قدم فولتير روايته المذكورة مع تحرير منه للبابا ختمه بالسجود بين يديه ولثم قدميه وكان ذلك منه رياء فحمله البابا على ظاهره واجاب عليه بجواب لطيف مؤرخ ١٩ سبتمبر سنة ١٧٤٥

البارون قرا دوفو معلم العربية في الانستيتو الكاثوليكية بباريس ونشر كتابين احدهما « ابن سينا » والثاني « الغزالي » ودرس في الاول ادب العرب وفلسفتهم الشرقية وفي الاخر علومهم الكلامية والالهية . فالكتب الثلاثة المذكورة من أحسن ما حرر في هذا الصدد . ولكن الموضوع محتاج الى تعمق وتدقيق . ولا يتيسر ذلك الا بعد استخراج الكتب العربية وفهمها . وقد خبط رينان في بعض ما حرره عن الاسلام خبط عشواء وفتح لشارل ميزمن وامثاله باباً للاعتراض عليه . كما ان البارون الكاثوليكي تعصب على ابن سينا والغزالي في ما حرره . ومع هذا قال رينان في الخطاب الذي نشره سنة ١٨٨٣ م « بان أوربا ظلت منحطة في العلم والادب عن العالم الاسلامي وخاضعة فيهما اليه حتى أوائل القرن الثالث عشر . وفيه أخذ العالم المسيحي يرقى درجات العلم والعمران والعالم الاسلامي يهبط في للدرك الاسفل من الجهل وانحطاط الحضارة . واندثرت علوم العرب بعد ما لقحت جراثيم الحياة في جسم العالم اللاتيني الغربي واستمر المترجمون من سنة ١١٣٠ م الى سنة ١١٥٠ يترجمون في مدينة طليطلة كتب العلم من العربية الى اللاتينية وهم تحت حماية الاسقف ريموند . وفي السنين الاولى من القرن الثالث عشر شرعت مدرسة باريس الكلية في تدريس كتب ابن رشيد ارسطوطاليس العرب . اما ارتحال البابا سيلفتر الثاني لطلب العلم في أشبيلية وان كان مشكوكاً فيه فقسطنطين الافريقي علامة عصره لا شبهة في أخذه العلم عن المسلمين . » اه . وقسطنطين الافريقي الذي يذكره رينان ولد سنة ١٠١٥ م في قرطاجنة وبعد ان حصل علوم الطب والحكمة صار كاتباً لاحد الامراء ثم دخل سلك الرهبنة في ايطاليا وادخل فيها علوم العرب وله مجموعتان كبيرتان باللاتينية طبعتا في بال سنة ١٥٣٩ م

ودام قول فيكتور هوكو هو المعول عليه في الطريقة الرومانية الى ان اشتهرت الطريقة الطبيعية (ناتوراليزم) في سنة ١٨٦٠ على عهد الامبراطورية الثانية وقام اصحابها يناقشون فيكتور هوكو وشيعته وينتقدون عليهم . على ان الرجل وان ظهرت له معجزات في آيات البيان فهو ليس بنبي ولا تجب لهم العصمة عن الخطإ والنسيان ومن هو الرجل الذي تحمد كل سجاياه ؟ ومن هو المبرأ من كل عيب ؟

وكفاه نبلاً انه خطا في الادب خطوة للامام ومهد الطريق لمن اتى بعده ولولا ظهور الطريقة الرومانية لمــا ظهرت الطريقة الطبيعية ولا حصل ارتقاء ونهضة في الادب . ثم ان مقدمة كرومويل وان بحث فيها المؤلف عن تاريخ الادب وبيان الخاصة المميزة لادب الطريقة الرومانية عما سواه فهي احق بأن تكون تعريفاً لنوع الدرام وحده وهو فن من فنون الشعر والادب . وأما التعريف الشامل لجميع ما حرر من فنون الادب على نهج هذه الطريقة المستحدثة منظوماً كان او منثوراً فهو مــا يأتي . اذ من شرط التعريف ان يكون جامعاً للافراد مانعاً من دخول الاغيار فيه . ولا يكفي ان يكون منطبقاً على فرد من الافراد فقط . وتعريف الطريقة الرومانية تعريفاً جامعاً مانعاً ليس بالامر السهل ولا يتيسر الا بالنظر في الخواص الظاهرة والمشتركة بين جميع فنون الادب المنسوجة على اساليب الطريقة الرومانيه والمنشأة في قوالبها

٢٧ — تعريف الطريقة الرومانة

الطريقة الرومانية هي ادب يبحث فيه عن مشاعر النفس و بدائع المخلوقات . وهذا الادب قسم من الشعر الموسيقي او الغنائي الممتاز بخاصته الشخصية كما سبق تعريفه . وبيان الفرق بينه و بين شعر الحماسة والدرام . فاذا نظرنا في اعراض النفس نجدها على نوعين احدهما اعراض قائمة بالنفس كالشعور بالحب والرجاء والشعور بالبغض واليأس والشعور بالفرح والطرب والابتهاج او بالحزن والغم والانقباض .. والثاني انفعالات تحصل للنفس بواسطة الحواس الخمس وهي البصر والسمع والذوق والشم واللمس . فهذه الحواس منها ما هو حائز على الصفة التمثيلية للعالم كالبصر والسمع وهما بهذه الصفة الات يبني الانسان بها العالم الخارجي الذي يحمل صورته في نفسه . ومنها ما لم يحز على هذه الصفة التمثيلية بسهولة و بلا واسطة كبعض الانفعالات العضلية وحاستي الشم والذوق عند اكثر الناس . فاهــل الطريقة الرومانية اكتفوا بالتعبير عن النوع الاول وعن القسم الاول فقط من النوع الثاني وصوروا بدائع المخلوقات بصور يخال منها للقارئ انه يسمع ويرى . كما يتضح لمن

طالع وصفاً من اوصاف فيكتور هوكو في مناظر الطبيعة وأصواتها في بيان حنين النفس وانفعالاتها . وتركوا التعبير عن القسم الثاني من النوع الثاني اي عن الحواس التي لم تحز الصفة التمثيلية لخلفائهم من المتأخرين وهم اهل الطريقة الطبيعية الذين قادهم أميل زولا . فصور هذا الامام في الادب حقيقة كل ما بحث فيه وتكلم عنه ومثله تمثيلاً حقيقياً وعبر عن حاسة الشم بما كتبه عن الهال وهو سوق الخضر في باريس وجعل القارئ يشم ما فيه من روائح السمك والقديد فضلاً عما يسمعه من جلبة البائعين والمشترين ويراه من السلع والمركبات وانهماك الغادي والبادي في الاخذ والعطاء

ثم اذا نظرنا في ما حرره الشعراء والادباء من اية امة وفي أي لسان نجد منهم من يتكلم عن شعور وتصور . ومنهم الذين يقولون ما لا يفعلون وينظمون قصائد الغزل والرثاء وهم لا يشعرون بشيء من الغرام أو التفجع ويمدحون الممدوح قبل معرفته ويصفون الحبيب قبل مشاهدته ويهيمون في ذكر الطلول والرسوم وفي التشبيه بالشمس والقمر والترشيح بكثرة الرماد وطول النجاد حتى يلتبس الامر على السامع فلا يدري هل القائل من أهل القرن الرابع عشر للهجرة أم من الذين مضوا قبل البعثة . فمن شرط السالك نهج الطريقة الرومانية ان يتكلم عن مشاهدة وتصور وشعور واحساس وانفعال وتأثر واعتقاد واقتناع . واذا سمع العامي شيئاً من كلامه في الحب مثلاً قال هذا كلام عاشق محروق . والى ذلك اشار ابن رشيق فيما نقل عنه من كتاب العمدة بان من بواعث الشعر العشق والانتشاء . ومن شروطه الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذا المسموع من غناء البلابل وطنين الأوتار . فاهتمامنا بانفعالات الشاعر التي ليست بانفعالاتنا وباحساسه الذي ليس باحساسنا انما هو لكوننا بشراً . والشاعر بشر مثلنا . فبيننا وبينه مشاركة في الطبيعة وفي منبع الحس والانفعال . ويزيد الشاعر عنا باقتداره على الابانة عن المعاني الكامنة في نفسه ونفوسنا . لان له سجية الشعر وملكة راسخة في التعبير عن شعوره واحساسه . ولعل هذا مقصد ابن خلدون في قوله « المعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج الى صناعة . وتأليف

واختارا مواضيعهم من القرون القديمة كما هو الحال في رواية (استير) و (اتالى) و (اندروماق) الخ . وأما اهل الطريقة الرومانية فاتخذوا مواضيعهم من القرون الوسطى والبلاد الاجنبية وتاريخ النمرانية كما هو الحال في رواية (فوست) و (كليوم تل) وجميع روايات فيكتور هوكو التمثيلية

فالطريقة الرومانية وسعت اولاً دائرة الادب . أو بالحري نقلت هذه الدائرة من مركزها لمركز آخر . ثم مزجت اساليب الفنون الادبية من تراجيديا وكوميديا بعضها ببعض . فنشأ عن ذلك تشويش في بادىء الامر ثم ظهر من هذا التشويش ترتيب جديد . وجاء الادباء بشعر موسيقي وأدب مبهج وتاريخ حي . فالطريقة الرومانية أزالت تلك الاساليب المعينة المحدودة التي من شأنها ان تمنع الشاعر من ان يتصرف فيها بفكره واختياره كما انها أزالت عن السبك والانشاء هاتيك العوائد الاستبدادية التى من خصائصها ان تصفي الهامات الشاعر وترفع منهـا الغرابة . فبتغييرها أساليب الفنون والقواعد والذوق واللغة والعروض وضعت الادب في قالب غير معين . وساقت ادباء العصر الجديد للتحري بكل حرية على اساليب وقواعد وفنون جديدة . فعثروا اول الامر على قواعد الطريقة الطبيعية وهم الان شارعون في وضع قواعد للطريقة الانسانية . ويتقربون بذلك الى الكمال شيئاً فشيئاً ويرقون معارج البلاغة درجة فدرجة

فاذا تأملنا كلام المعري ومن سلك مسلكه من الشعراء نجد فيه اهتماماً زائداً بامر الاخرة وبما بعد الموت وتفكيراً عميقاً في خلق السموات والارض ودهشة مقلقة وحيرة زائدة وانفعالاً نفسانياً واحساساً غريباً . فكان كلامه يدخل تحت التعريف المتقدم ذكره للطريقة الرومانية . ولكن بسبب فقده حاسة البصر التي لها المكان في هذه الطريقة لم يتيسر له وصف الطبيعة وصفاً لائقاً بها وبفصاحة لسانه . ولا حاجة لايراد مثال من كلام المعري فان كل كلمـة من اللزوميات تشعر بهذه الدهشة والخشية والحيرة والانفعال والاحساس والتألم ألماً يهون معه الموت ولا يحسب بجانبه مصيبة . وهذا بخلاف الجاحظ الذي يقول في اول كتاب الحيوان :

« جنبك الله الشبهة . وعصمك من الحيرة . وجعل بينك وبين المعرفة سبباً

وبين الصدق نسباً . وحبب اليك التثبت . وزين في عينك الانصاف . واذاقك حلاوة التقوى . وأشعر قلبك عز الحق . وأودع صدرك برد اليقين . وطرد عنك ذل اليأس . وعرفك ما في الباطل من الزلة . وما في الجهل من القلة » . فهو بعيد عن القلق والحيرة متثبت في الفكرة . وتأليف الكلام على هذا النمط يسمى طريقة الجاحظ وهي مخالفة لطريقة السجع

وقد تصدى ابن رشيق (٣٩٠ — ٤٦٩ هـ) لما تصدى اليه بوالو ووضع كتابا في قواعد الشعر سماه العمدة . قال ابن خلدون « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاها حقها ولم يكتب فيها احد قبله ولا بعده مثله » . فليت شعري هل اطلع على شيء من مؤلفات اليونان في قواعد الادب والبيان كالذي الفه ارسطاطاليس وترجم شيئاً منه ابن رشيد في القرن السادس للهجرة والذي الفه البياني لونجين الحمصي وترجمه بوالو للفرنساوية وسماه (رسالة الاعجاز) فان ادباء العرب كان لهم عناية بالقواعد الادبية باعتبار انها من جملة المنطق والفلسفة وان لم يعتنوا باشعار اليونان ورواياتهم التمثيلية . وكان ابن رشيق في القيروان فلما حدثت فيها الفتنة فرَّ منها الى جزيرة صقلية ونزل مدينة (مازر) وأقام بها الى ان توفي ودفن بمقبرتها . وكان الافرنج مستولين على بعض الجزيرة والمسلمون في بعضها الآخر . ولعل ذلك كان على عهد رجار الاول (روجر) . ونظن البعوض آذى ابن رشيق ايام فراره ومحنته حتى قال :

يا رب لا اقوى على دفع الاذى وبك استعنت على الضعيف الموذي
مالي بعثت اليَّ الف بعوضة وبعثت واحدة الى نمروذ

وله غير كتاب العمدة ايضاً (الانموذج) وكتاب الشذوذ وهو جامع لشواذ اللغة و (قراضة الذهب) . وقد تصدى لوضع قواعد الشعر وبيان اساليبه كما يفهم من القصيدة الاتية المفردة له وهي اشبه شيء بقصيدة بوالو التي جمعت فاوست قال

لعن الله صنعة الشعر ماذا من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما كان سهلاً للسامعين مبينا
ويرون المحال معنىً صحيحاً وخسيس الكلام شيئاً ثمينا

يجهلون الصواب منه ولا يد — رون للجهل انهم يجهلونا
فهم عند من سوانا يلامو — ن وفي الحق عندنا يعذرونا
انما الشعر ما يناسب في النظم وان كان في الصفات فنونا
فاتى بعضه يشا كل بعضاً وأقامت له الصدور المتونا
كل معنى اتاك منه على ما تتمنى ولم يكن أو يكونا
فتناهى من البيان الى ان كان حسناً يبين للناظرينا
فكان الالفاظ منه وجوه والمعاني ركبن فيها عيونا
فاذا ما مدحت بالشعر حرًّا رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسيب سهلاً قريباً وجعلت المديح صدقاً مبيناً
وتعليت ما يهجن في السمع وان كان لفظه موزونا
واذا ما عرضته بهجاء عبت فيه مذاهب المرقبينا
فجعلت التصريح منه دواء وجعلت التعريض داء دفينا
واذا ما بكيت فيه على الغا — دين يوما للبين والظاعنينا
حلت دون الاسى وذللت ما كا — ن من الدمع في العيون مصونا
ثم ان كنت عاتبا جئت بالوع — د وعيداً وبالصعوبة لينا
فتركت الذي عتبت عليه حذراً آمنا عزيزاً مهينا
وأصح القريض ما قارب النظم وان كان واضحا مستبينا
فاذا قيل أطمع الناس طرًّا واذا ريم اعجز المعجزينا

فذكر ابن رشيق من صنوف الشعر أو فنونه المدح . والنسيب . والهجاء بالتصريح او بالتعريض . والرثاء . وفرقة الاحباب . والعتاب بالوعد او بالوعيد . وذكر غيره من هذه الصنوف بكاء الديار واهلها فقال :

واذا بكيت به الديار واهلها أجريت للمحزون ماء شؤونه

فبوالو ذكر هذه الاجناس او الانواع في قصيدته (صناعة الشعر) وزاد عليها التراجيديا والكوميديا والايبوبة وعرف كل نوع منها وجعل له احكاماً وقواعد كما مر . وتوسع في هذا المبحث حتى تألف من كلامه رسالة مطولة

٢٨ — مؤلفات فيكتور هوكو

طبعت مؤلفات فيكتور هوكو مراراً عديدة في قطع متفاوتة في الصغر والكبر ومنها ما هو مزين بالتصاوير والرسوم البديعة ومنها ما هو على أجمل ورق وتمكنت المعامل الاوربية من طبخه وصقله . وآخر طبعة طبعت للجمهور في اجزاء صغيرة الحجم (قطع ٣٢) يقرب عددها من ثلاثمائة جزء ثمن الجزء ٢٥ سنتيما . واواسط هذه الطبعات ما كان بالقطع المثمن في ٤٨ مجلداً ثمن المجلد عشرة فرنكات يضاف اليها اثنا عشر مجلداً طبعت بعد وفاة المؤلف فيبلغ بذلك عدد المؤلفات ستين مجلداً . منها ١٦ مجلدا في الشعر وهي : (والارقام بين الاقواس عدد المجلدات)

(١) المدائح والمطربات
(١) الشرقيات . اوراق الخريف
(١) اغاني الشفق . الاصوات الداخلية . الاشعة والظلال
(١) القصاص (٢) التأملات اي سانحات الفكر
(٤) سير الدهور
(١) اغاني الشوارع والاحراج (١) السنة المهولة
(١) صناعة كون الانسان جداً
(١) البابا . الرحمة العالية . الاديان والدين الحمار
(١) رياح العقل الاربع

ومنها خمسة مجلدات في الروايات التمثيلية المنظومة وتسمى « درام » وهي :

(١) كروميل
(١) إيرناني . ماريون دولورم . الملك تيسلي
(١) لوكريس بورجيا . انجلو . ماري تيدور
(١) روى بلاس . اسميرالده . بورغراف
(١) توركماده . امي روبار

ومنها اربعة عشر مجلداً في القصص وتسمى « رومان » وهي :

(١) هان الاسلاندي
(١) بوغ جارغال . آخر يوم من ايام المحكوم عليه أو قلود كو
(٢) نوتر دام دو باري أو كنيسة باريس الجامعة
(٥) البؤساء
(٢) المشتغلون في البحر وفي مقدمته ارخبيل بحر المانش
(٢) الانسان الضاحك
(١) ثلاث وتسعون

ومنها ثلاثة في التاريخ وهي :

(١) نابوليون الصغير
(٢) تاريخ جرم

ومنها مجلدان في السياحة عنوانهما (نهر الرين)
ومنها مجلدان في الفلسفة احدهما أدب وفلسفة والآخر وليم شكسبير
ومنها ستة مجلدات في الاقوال والاعمال وهي :

(١) قبل النفي
(١) مدة النفي
(٢) بعد النفي
(٢) فيكتور هوكو تاريخه

هذا ما سلمه الشاعر بعد التنقيح والتهذيب للطبع فنشر في حياته . وله مؤلفات أخرى جمعت من التساويد التي سودها والاوراق التي تركها وطبعت بعد وفاته بغير تصحيح في اثني عشر مجلداً وهي :

(١) الاشياء المرئية (١) الله (١) عاقبة الشيطان (٣) كل العود
(١) المرسح الحر (١) التوائم (١) مراسلات الخطبية
(١) السياحة في فرانسا والبلجيك (١) السياحة وفي جبل الالب في جبل البيرينة
(١) السنون المشؤمة

فما ينشر بعد موت المؤلف يسمى (Posthumes) ويجوز فيه التنقيح

والتهذيب عند اعادة طبعه . والذي ينشر في حياة المؤلف يسمى (ne Varietur) اي الذي لا يتغير ولا يجوز التبديل فيه بعد وفاة صاحبه ولا تحريف الكلم عن مواضعها . ولو وجد من يتحرى في اوراق فيكتور هوكو لربما تمكن من استخراج مجلد أو مجلدين أيضاً . كما جمعت اخيراً المكاتيب التي حررها العلامة رينان لامه وهو في المدرسة حديث السن وطبعت في مجلد . ولعل القارىء يستكثر عدد هذه المؤلفات التي لا يجد الانسان وقتاً لمطالعتها فضلاً عن تحريرها وسبك انشائها ولا سيما ما يحتاج منها لدقة وتلطف كقرض الشعر ونظم الروايات التمثيلية . ولكنه اذا تأمل في همة رجال العلم والادب واقدامهم زال استغرابه وعلم ان ملكتهم رسخت في النظم والانشاء حتى صار التحرير طبيعة ثانية لهم كالكلام . وانا نشاهد المبعوثين في مجلس نواب الامة يتكلم الواحد منهم الساعات الطوال بدون أن يتلعثم . ويضبط كلامه بالاصول المعروفة بالاستنوغرافيا وينشر في جرائد المساء فيملا الاعمدة الكثيرة والصحائف الكبيرة . وقد بلغنا عن مبعوث في بلاد المجر انه تكلم في موضوع اثنتي عشرة ساعة بحيث انه بدأ في الصباح وبعد استراحة الظهر عاد لموضوعه واكمل بحثه في اليوم الثاني . فتألف من كلامه مجلد ضخم . ولو قرأنا فهرست الكتب التي الفها الكندي والرازي واصحاب المعاجم والتاليف الضخمة لوجدناها تقارب هذا المقدار أو تزيد عليه . ورأينا في ما تقدم ما الفه العرب في افانين الادب من المؤلفات الكبيرة ككتاب الايك والغصون للمعري ونحوه . على ان لفيكتور هوكو معنيين في اعماله . فتاريخ فيكتورهوكو في مجلدين حررته زوجته الشرعية الشاهدة على حياته . وكانت الممثلة البارعة جوليت دروه تنسخ له وهو يملي عليها . وربما كتب له ايضاً الشاعر اوغست فاكيري . وحرر ابنه فرانسوا من جزيرة كيرنزي لاحد أصحابه في فرنسا يقول

« نحن كلنا نشتغل . والدي يتمم نظم الحماسات الصغيرة . وشارل يصنف روماناً وانا اتحف فرنسا بشكسبير واجتهد بان اكون ترجماناً صادقاً لهذه القريحة الواسعة . »

وفي الحقيقة ان فرانسوا هوكو ترجم مؤلفات شكسبير احسن ترجمة فطبعت

في ثمانية عشر مجلداً بعد ان عرضها على ابيه واستكتبه عليها المقدمات والحواشي . فجميع المؤلفات كانت تعرض على فيكتور هوكو وبعضها يطبع باسمه لانه كان رأس هذه العصبة ومدير هذه الجمعية المؤلفة من زوجته وصاحبته واولاده واصحابه . ولم يزل صغار الكتبة والشعراء في اوربا ينسبون مؤلفاتهم واشعارهم الى مشاهير الرجال ترويجاً لها وانفاقا لبضاعتهم في سوق العلم والادب . فان المؤرخ الشهير الفرنساوي ميشله المستند في مؤلفاته على القصص التاريخية التي الفها والترسكوت الانكليزي نسب لنفسه في التاريخ الطبيعي الكتب الاربعة التي عنوانها « الطير ، الحشرة ، البحر ، الجبل » مع ان المحرر الحقيقي والمصنف لهذه الكتب النفيسة على ما يقال هي زوجته المادام ميشله وكانت من الفاضلات . ووجد المحققون في تاريخ الكيمياء ان بعض كتبها القديمة حررها اصحابها في القرون الوسطى وعزوها الى جابر وهرمس تقوية لسندها واقناعاً بصحتها . فانتحال الشعر أو الكتاب المصنف شائع بين الكتاب والشعراء وتارة يكون برضى المؤلف الحقيقي وتارة يكون بغير رضاه وهو السرقة . وقد يكون السارق المنتحل أشعر وأقدر من صاحب الشعر والتصنيف ولكن وقته لم يسمح له بالاتيان بمثل ذلك المؤلف . ولذا اتهمت الاكاديمية فكتور هوكو بسرقة القصيدة التي عرضها على لجنة التحكيم والمسابقة وسماها (فوائد المطالعة) ولم يعطوه الجائزة التي استحقها

وكان يحدث امثال ذلك في ايام العرب وفي حضارة الاسلام كما اتهم الحريري في مقاماته . وكان قد عمل مقامة واحدة على مقامات البديع الهمذاني وعرضها على انو شروان بن خالد بن محمد وزير السلطان محمود السلجوقي وكان الحريري خصيصاً به . فأمره الوزير بانشاء المقامات واتمامها فصنف اربعين مقامة واتى بها من البصرة محل دار تحصيله العلم الى بغداد ونزل في الحريم وهي سرة العاصمة والمحلة المشتمله على دار الخلافة وقصور الامراء والاعيان وكان ذلك في خلافة المقتدي بالله سابع وعشرين الخلفاء العباسيين . فاستحسن الادباء طرز المقامات وحسدوه عليها واتهموه بسرقتها . ولما امتحن سد عليه ولم تجد قريحته بشيء وهو في الحريم وسط تلك العاصمة الكثيرة الزحام والجلبة فنفي الي المشان قرية بقرب البصرة

مشتملة على نخل وزرع ولكن هواءها فاسد بسبب المستنقعات وكان اذا غضب على شخص نفي اليها . فألف الحريري في المشان عشر مقامات اخرى وكملت مصنفاته خمسين مقامة فقال فيه ابن جكينا يهجوه :

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالمشان وقد الجمه في الحريم بالخرس .

وكان الحريري ينتسب الى ربيعة الفرس وهي قبيلة من قبائل العرب على حدود فارس . وكان اولع بنتف لحيته والعبث بها . ووعده احد الامراء يوماً بولاية على شرط ان يترك نتف لحيته فامتثل برهة ولم يستطع الصبر فقال « أحب الي ان تعاد لي الولاية على لحيتي من كل ولاية » . ونشأ الحريري في مجمع العلماء والادباء واليهم نسبت الاقوال الكثيرة في النحو فقيل مذهب البصريين ومذهب الكوفيين وكانت ولادته في البصرة وقيل لا بل ولد بالمشان المجاورة لها (٤٤٦ — ٥١٥ ﻫ) وكانت السلطة والنفوذ في ذلك العصر للدولة السلجوقية التي ظهرت في العراق العجمي واتخذت مدينة الري عاصمة لها ويقال للمنسوب لها الرازي وقد صار علماً على كثير من العلماء والفلاسفة ولم تزل خرابات الري مشاهدة بظاهر طهران عاصمة الدولة الايرانية . ويقال لها عبد العظيم نسبة لاحد الاولياء المدفون فيها وهناك كان مقتل الشاه السابق . وسميت ملوك هذه الدولة السلجوقية بسلاجقة ايران تمييزاً لهم عن سلاجقة الروم الذين اتخذوا قونية عاصمة لهم وعن سلاجقة كرمان الذين حكموا في الجنوب الشرقي من بلاد العجم . وظهر في سلاجقة ايران ١٤ ملكاً في ظرف ١٦١ سنة واعظمهم ثالثهم ملكشاه ٤٤٧ — ٤٨٥ ﻫ) ابن الب ارسلان ويسمى ابا الفتح جلال الدين واليه ينسب التاريخ الجلالي الذي وضعه عمر الخيام الاديب الفلكي الشهير وكان وزيره نظام الملك صاحب المدرسة النظامية في بغداد . فيفهم من ذلك ان ملوك هذه السلالة ووزراءها كانوا حريصون على تعزيز جانب العلم والادب ولا غرو ان اتى الادباء في زمانهم بمثل المقامات الحريرية . والف كمال بك امام الادب في اللسان العثماني رواية بليغة سماها « جلال » لها مقدمة يعدها الادباء من ابلغ ما حرر في اللسان العثماني على الاسلوب الجديد

فيتضح مما سبق ان مؤلفات فيكتور هوكو على نوعين منظوم ومنثور . وكل واحد منهما يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام . فالمنظوم منه ما هوشعر ويشتمل على فنون كثيرة مثل الاود والبلاد والايليجي الخ . ولكل منها عروض مخصوص ومنه ما هو روايات تمثيلية تتلى على المراسح كما يتلى النثر المرسل بغير التفات الى أوزان النظم ولا قوافيه أي بلا ترنم ولا تطريب ولا تغريد ولا ترخيم في الصوت ولاوقوف على القافية . ونظمت هذه الروايات التمثيلية التي يقال لها درام على عروض البحر الاسكندري في الغالب وهو المبني على اثني عشر هجاء

فاذا جرى التوقيع بالروايات الدراماتيقية على آلات الطرب ولحن فيها على طريقة الصناعة الموسيقية سميت « اوبرة » ولاجلها بنيت المراسح الكبيرة التي يقال لها اوبرة كاولابرة الخديوية في القاهرة والمرسح الذي بني في الاستانة ثم احترق ولم يجدد بناؤه . ويقال لاوبرة باريس اكاديمية الموسيقى لانها شعبة من شعب اكاديمية الصنائع النفيسة التي هي في عداد الاكاديميات الخمس الشهيرة في باريس . ومثال ذلك اوبرة فوست التي صنف قصتها الدراماتيقية الاديب الالماني كوته ثم جاء الملحن الفرنساوي كونو ووفق ترجمة كلامها على صناعة الالحان . وكذا رواية عائدة (آيدة) التي وضعها على صناعة الالحان الملحن الشهير الطلياني فردي ثم نظمها بالفرنساوية أديبان من ادباء الفرنساويين . واول ما مثلت هذه الرواية الاخيرة في الاوبرة الخديوية بالقاهرة سنة ١٨٧١ ثم مثلت في باريس على المرسح الطلياني سنة ١٨٧٦ وتمثل اليوم على جميع المراسح الفرنساوية في العاصمة والايالات وفي اكثر المدن الاوروبية ولعل هذه الرواية هي التي ترجمت للعربية باسم (عائدة)

فالاوبرة هي تأليف دراماتيقي اجتمع فيه الشعر والموسيقى . ولذا فهي تشتمل على اوزان العروض وأنغام المزامير واقاويل الشعر أي ما فيه من التشبيه والتخييل فان دخل في الاوبرة مع الكلام المنظوم كلام منثور أيضاً سميت أوبرة — كوميك كرواية كرمن . وان لم يكن موضوع الرواية دارما أي فاجعة بل كان كوميديا مضحكة سميت (بوف) و (بوفون) و (أوبيريت) تصغير أوبرة . واجتهد بعض الادباء الترك في التأليف بين الشعر والموسيقى في اللسان العثماني فترجموا

رواية كرمن نظماً للتركية وشخصوها مع الانغام الموسيقية على المراسح المتخذة من الاخشاب في محلة اقسراي وفي متنزهات ضواحي الاستانة . ومع ان مشروعهم ابتدائي فالتمثيل كان لا بأس به رغماً من حداثة نشأته . فلو حصلت عناية في تنشيط هذا المشروع بقوة المال وهمة الرجال لنجح ولا شك باللغة التركية و باللغة العربية أيضاً فان دوائر البلدية في مدن اوروبا الثانوية فضلاً عن العواصم تنفق النفقات الباهظة في كل سنة لاعانة المراسح . لان ما يجمع من اجرة الدخولية لا يكفي لتحسين المراسح الى الدرجة التي بلغتها مراسح اوربا . وكان علماء العرب وفلاسفتهم المتقدمين اهتمام بعلم الموسيقى وللفارابي فيه اليد الطولى ومما ألفه كتاب الموسيقى الكبير . ونقل صاحب الارز في ما نشره من الازجال والموشحات عبارة عن ابن رشد وردت له في تلخيصه كتاب اوسطوطاليس في الشعر الذي طبعه المستشرق فوستو لازينو في مدينة فلورانسه سنة ١٨٧٣ قال ابن رشد :

« المحاكاة في الاقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة اشياء . من قبل النغم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عند صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ اعني الاقاويل المخيلة الغير الموزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة باسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والازجال وهي الاشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أي الاندلس » . اه . ولا شبهة في أن أعاريض الموشحات والازجال من انسب العروض لنظم روايات الاوبرة لسهولة الترقيع بها على آلات الطرب بخلاف البحور الستة عشر في العربية أو البحور الثمانية عشر بالفارسية والتركية . ولا نطيل الكلام في هذا المبحث فان أهله اولى بالبحث فيه والتفتيش عن دقائقه وخوافيه ونعود للصدد الذي كنا فيه

وأما النثر الذي ألفه فيكتور هوكو فكله من قبيل المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها . وليس عند الافرنج سجع وهذا المنثور على اقسام وفنون شتى منها القصص التي يقال لها « رومان » وهي ما صور فيها مؤلفها غرائب الواقعات وعجائب

الاتفاقات واستلفت نظر القارىء أو السامع بمفترياته وتخيلاته البديعة . وسميت هذه القصص رومان أو رومانس باسم اللغة القديمة التي كتب فيها رومان رولان وأمثالها من القصص والحكايات المنظومة والمنثورة . والرومانات على اقسام كثيرة منها الرومان التاريخي والغرامي أو الاحساسي والروحاني والفني والسياسي الخ ومن منثور فيكتور هوكو أيضاً التاريخ والسياحة والفلسفة و لاقوال والاعمال والرسائل والخطب والسياسات وغير ذلك .

٢٩ — نظم فيكتور هوكو

قرض فيكتور هوكو الشعر في اعاريض مختلفة . منه ما هو على وزن البحر الاسكندري المنسوب لاحد الشعراء اليونانيين أو المدينة الاسكندرية التي زهت فيها العلوم والمعارف والمدارف والاداب اليونانية على عهد البطالسة . ويتألف عروض البحر الاسكندري من اثني عشر هجاء اذا كانت القافية مذكرة ومن ثلاثة عشر اذا كانت مؤنثة . ويقسم كل بيت الى شطرين بوقفة Césure تأتي بعد الهجاء السادس لمساواة الشطرين . والنظم في هذا البحر صعب يحتاج الى نفس عال وتلطف كثير ومهارة زائدة و به تظهر قوة الشاعر واقتداره على التصرف في الكلام ولذا اختص بالمواضيع الجدّية العالية لقصائد الحماسة وروايات الفاجعة . واختاره فيكتور هوكو لنظم روايات الدرام التمثيلية المذكورة في الكتب الخمسة المتقدم بيانها ولنظم غيرها من الاشعار الحماسية والتاريخية ولكنه غير فيه كثيراً ولم يراع الوقوف على الهجاء السادس بل قسم البيت الى شطرين غير متساويين وجوز تكميل معنى البيت الاول بالفاظ من البيت الثاني . مع أن العرب يشترطون ان يكون كل بيت من ابيات الشعر تاماً في بابه مستقلاً في معناه . ويمكن تشبيه البحر الاسكندري بالبحور العربية الستة عشر أو البحور الفارسية الثمانية عشر

ومن شعر فيكتور هوكو ما هو على اوزان متخالفة تتألف من ستة أو ثمانية أو عشرة هجاءات نظمت أسماطاً أسماطاً واغصاناً اغصاناً وجعل لها ادواراً ولازمات على نسق ما استحدثه الاندلسيون و بقية شعراء العرب المتأخرين من الموشحات

والازجال . وهي اسهل طريقة واقرب تناولاً من البحر الاسكندري كما ان الموشحات والازجال العربية اسهل من بقية البحور. ولها عند الافرنج اسماء بحسب اجناسها مثل اود و بلاد وروندو وايلجي الخ . ولها ادوار تسمى قوبله وستروف ولها ايضاً لازمات refrain الخ واقتبس الفرنساويون هذه الاعاريض من شعراء الترو بادور. وهؤلاء تلقوها عن عرب الاندلس كما اخذوا عنهم علم القوافي. فان شعراء الافرنج على الاطلاق لم يكن لهم معرفة بالقوافي وانما كانوا يعتاضون عنها في اشعارهم بما يسمونه (اسوانس) وهو شبه القرادي والمتابي كما مر ذكره . ومثلنا فيما سبق للقافية بكلمتي (ساج) و (باج) ربما يسمونه اسوانس بكلمتي (ساج) و (آدم) والافرنج لا يلتزمون في القصيدة او المنظومة قافية واحدة أو روياً واحداً كما يفعل العرب . ففيكتور هوكو لم يلتفت كثيراً لاوزان العروض التي نظم فيه من تقدم عليه من الشعراء بل تساهل جدًّا في جانب الالفاظ واستحدث من عند نفسه انواعاً جديدة ووضع هذه القاعدة وهي :

« ان الشعر ليس في قوالب المعاني وانما هو في المعاني نفسها . فالشعر هو الامر الباطني لكل شيء في الوجود »

فهذه القاعدة ليست مجهولة بالتمام عند أدباء العرب . ولعل ابن رشد اشار اليها في العبارة السابقة بقوله عن المحاكاة في اللفظ « اعني الاقاويل المخيلة الغير الموزونة » . وحكي عن حسان بن ثابت حينما اتاه ابنه عبد الرحمن وهو صبي يبكي ويقول لسعني طائر

فقال حسان — صفه يا بني

فقال — كأنه ملتف في بردي حبره ـ وكان لسعه زنبور

فقال حسان — قال ابني الشعر ورب الكعبة

فمقصود الصبي ان الطائر الذي لسعه يشبه في اجنحته وشكله المنقش العجيب الشخص الملتف برداء موشى ومصبغ . وقول حسان حجة على ان الشعر لا ينحصر في الكلام المقفى الموزون وانما حقيقة الشعر في المعاني والتخيل وفي ما يحدثه على النفس من التأثير . ولكن درج تعريف الشعر على الالسنة بانه كلام مقفى موزون . وسبق

لنا ذكر تعريف ابن خلدون للشعر بانه « الكلام البليغ ، المبني على الاستعارة او الاوصاف ، المفصل اجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على اساليب العرب المخصوصة » . وعلى هذا التعريف يكون كلام المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء . وقال ابو الفداء عن المعري « وطبق الارض ذكره .... واكثر مصنفاته ركيكة فهجرت لذلك » . والصحيح ان كلاً منهما امام مجدد في الادب خرجا بالكلام من تلك القيود المدرسية واطلقا للقريحة عنان الحرية وكان النوع المعروف بين الادباء هو نوع القصيد وله اساليب معروفة عندهم تختص بمطلع القصيد وبيت التخلص والختام وذكر الاطلال والرسوم والراحلة والسفر. فالمعري والمتنبي خرجا عن هذه الاساليب ولكنهما أفرطا في ايراد التشابيه الغامضة والالفاظ اللغوية واحتاج شعرهما الى شرح طويل وتفسير ثم صار هو ايضاً شعراً مدرسيًّا بسبب نسج المتأخرين على منواله وتهافتهم على التشابيه الغامضة . وقال فيكتور هوكو في كتابه المسمى أدب وفلسفة :

« لا يكفي أن يكون للشعر قالب حسن الالفاظ بل يلزم ان يحتوي على معنى أو تشبيه أو احساس ليكون له رائحة ولون وطعم . تسعى النحلة في بناء الواجهات الست لبيوتها من الشمع . ثم تملأها بالعسل . فهذه البيوت أو الخلايا هي ابيات الشعر . والعسل هو الشعر . » اه

فشبه الشعر بالشهد وهو العسل في شمعه . وبالخمر أيضاً ولها أوصاف ثلاثة : رائحة تفوح منها كما يفوح المسك . وتسمى باصطلاحهم (بوكه) . ولون كانه ياقوتة سيالة أو صفراء فاقع لونها . وطعم يعرفه أهل الذوق كما تعرف طعوم المآكل ويميزون فيه بين الحسن والاحسن والضار والنافع والانفع . ورأيت في اهل الذوق من رسخت لهم ملكة حتى أصبحوا يعرفون الخمر من أي كرم وقرية ومن محصول اي سنة بمجرد معاينة أوصافها الثلاثة بالحواس الثلاث حاسة البصر وحاسة الشم وحاسة الذوق . وتشبيه الشعر بالخمر والعسل معروف عند العرب ويقولون فلان من أهل الذوق في الكلام وتقول العامة « كلام بلا طعم » ومما يؤيد ان الشعر في

المعاني قول ابي محمد الخازن من ادباء اصفهان وكان ينتسب للصاحب بن عباد ويراسل ابا بكر الخوارزمي قال :

لا يحسن الشعر ما لم يسترق له   حر الكلام وتستخدم له الفكر
انظر تجد صورة الاشعار واحدة   وانما لمعان تعشق الصور

ثم ان تقسيم الشعر عند الافرنج الى اود وبالاد وايليجي ... الخ هو تقسيم باعتبار الشكل الخارجي أي باعتبار قوالب الالفاظ وبحور العروض والادوار ... الخ . . واما باعتبار المعنى فيقسم الى ثلاثة اقسام غرامي وحماسي ودرامي . فالغرامي — ويسمى الموسيقي ايضاً لأن الاصل فيه الانشاد على نغمات الاوتار — هو كل شعر اعرب عن الحواس الشخصية . فمؤلفه يبين فيه احساسه وعواطفه وحبه وبغضه وشقاءه وسعادته . فاذا جرى التوقيع به على آلات الطرب كان أشد وقعاً وتأثيراً على النفوس . والشعر الحماسي هو ما وصف به شجاعة الشجعان وذبهم عن الحريم والاوطان وفيه احاديث المروأة والغيرة والحمية فهو بهذه الصفة تاريخي . والدرام هو ما صور فيه الحياة الانسانية وتقدم تفصيل الكلام عليه

فالاود والبلاد والايليجي . . الخ يقابلها في العربية المدح والغزل والرثاء .. الخ غير ان هذه الاقسام في العربية من الاقسام المعنوية واما عند الفرنساويين فهي من الاقسام اللفظية التي لكل منها عروض مخصوص وشكل معروف . ومن هذه الاقسام اللفظية أيضاً الشعر الفاجع وهو ما صور فيه الشاعر حادثة مهمة من شأنها تهييج العواطف وتحريك الغضب واستجلاب الشفقة والرحمة وتنتهي الرواية الفاجعة في الغالب بمصيبة. فروايات المتقدمين التي على هذا الطرز تسمى تراجيديا . وروايات اصحاب الطريقة الرومانية التي على اسلوبها تسمى درام . واما الكوميديا فهي مصورة لاخلاق الهيئة الاجتماعية ومساويهم ومعايبهم بصورة هزلية مضحكة كروايات موليير ومنها رواية تارتوف وهي مترجمة للتركية ومنشورة في مطبعة ابو الضياء . وأشعار الهجاء عند الافرنج تشتمل على الهجو والذم والانتقاد والتعريض والاستهزاء وخلط الجد بالهزل ونحو ذلك . ومن انواع الشعر عندهم أيضاً الشعر البدوي المصور لاخلاق البدو والرعاة وهم في البادية والجبال . وقد أحسن لبيد بن

ربيعة العامري في تصوير اخلاق البادية والمعيشة البدوية قبل الاسلام وديوانه مطبوع في فينا عاصمة النمسا . ومن الشعر ما تقص فيه الحكايات وتضرب الامثال على السنة الحيوانات كحكايات لا فونتين . ومنه ايضاً الشعر الذي على نهج الرسائل والمكاتيب . . وله امثال عند العرب ومن شعراء دمشق المتأخرين من نظم حجة شرعية بجميع ما يلزمها من القيود والشروط

وجل مهارة فيكتور هوكو في الشعر الغرامي او الموسيقي المعرب عن الاحساس الشخصي واشعره نغمة مطربة وقواف عامرة . والحان تحنُّ لها القلوب وترتاح لسماعها النفوس . وهو الذي اوجد عند الفرنساويين الهجو الموسيقي في المنظومات التي هجا بها نابوليون الثالث . ولم تزل هذه الانغام والقوافي والالحان هي الباعثة على رواج اشعاره واقبال الجمهور عليها

وكما ان فيكتور هوكو غير افاعيل الشعر وتفاعيله واصلح عروضه على المثال المشار اليه آنفاً . فقد أصلح كذلك الفاظ الشعر ومعانيه . وابطل جميع اصطلاحات الادباء أي الاساليب والتعبيرات المصطلح عليها بينهم والتي لا يفهمها الا أهل الغوص على المعاني وهم خواص الناس . وقال بان جميع الالفاظ سواء . لا فرق فيها بين اللفظ الذي وقع اختيار الادباء عليه و بين اللفظ الذي رفضوه وقالوا عنه سوقي مبتذل . وجوز للكتبة والشعراء الاخذ بكل واحد من نوعي الالفاظ المختارة والسوقية واستعمالها بلا فرق في النظم والنثر [١] على شرط موافقتها قواعد النحو والصرف وابطل ايضاً ما كان يستعمله الادباء في كلامهم من المقدمات والدوارات التي من شأنها تغطية المعنى والتثقيل عليه وكذا التعبيرات العمومية والاجمالية التي يتلاشى بها المعنى ويستبهم كما يفعل ادباء العرب في خطبة الكتاب المصنف وفي مقدمته . ولم يرض من جميع ذلك الا بالتعبير الاصلي والمعنى الحقيقي الدال على

---

١ ذكر الجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع اخيراً في مصر في الكلام على الالفاظ المستحسنة ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم . ويتداولونه في زمانهم . ولا يكون وحشياً غريباً . او عامياً سخيفاً , سخفه بازالته عن موضوع اللغة واخراجه عما فرضته من الحكم والصفة كقول العامة (اشغلت) و (انفسد)

خصوصية الموضوع . لان الغرض من تأليف الكلمات وتصنيف الكلام انما هو تشخيص الموضوع وبيان مزيته وغرابته . فلا حاجة للاستعارة ولا للمعنى المجازي . ويقوم مقام الاستعارة التشبيه أو التخييل الذي هو نوع من الاحساس لا التشبيه والتخيل المستفاد من طرز الكتابة . فالواجب على الكاتب ان لا يشغل نفسه بالاستعارات وانواع البديع وان لا يتصنع ولا يتعمل في الكلام . بل ينبغي له ان يهتم ببيان الموضوع الذي هو فيه وايضاحه ووصفه بالاوصاف السديدة المظهرة له ظهور الشمس في رابعة النهار ويوضح انفعالاته النفسية في ذاك الموضوع ليكون أشد تأثيراً على السامع . فتأثير الكلام يكون من جهة الانفعال النفسي والتصوير الطبيعي لا من جهة الاستعارات

غير ان فيكتور هوكو واهل طريقته لم يمنعوا انفسهم من استعمال الاستعارات المدرسية والتعبيرات المصنعة لرسوخ ملكتهم فيها . ومن الاستعارات التي وردت لفيكتور هوكو على الطرز القديم قوله « نجوم المركبة » يريد المصابيح التي تنار بها المركبات ليلاً وتظهر عن بعد كالنجوم

فادباء العرب قالوا ان جل محاسن الكلام ان لم تكن كلها متفرعة عن التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية وجعلوها اقطاباً تدور عليها المعاني . ولذا نجد غزلهم مثلاً يدور دائماً حول التفنن في تشبيه القدود بالاغصان والنهود بالرمان والخدود بالورد والجلنار والعيون بالنرجس ونحو ذلك . على حد قول الشاعر

قلبي على قدك المشوق بالهيف ... طير على غصن أم همز على الالف
وهل سويداه خال بخدك ام ... خويدم أسود في الروضة الانف

وهي قصيدة غراء من كتاب ريحانة الالباء المطبوع في بولاق . والمراد تشبيه قد المشوق بالغصن او بالالف . وقلب العاشق بالطير او بالهمزة . وفي البيت الثاني تشبيه سويداء القلب وهي الحبة السوداء التي فيه بالخال الذي على خد المحبوب وتشبيه الخال بالخادم الصغير الاسود وهو في الروضة . لان جسد الحبيب في اصطلاحهم بستان فيه جميع الازهار والفواكه والاشجار والانهار والتلال والوهاد والاغوار والانجاد . فكان جميع المخلوقات الطبيعية تتشخص في هذا الجسد . فجميع

اشعارهم في الغزل وجميع تفنناتهم فيه يدور ويرجع لاصل واحد واحسن مثال له القصيدة الآتية

نالت على يدها ما لم تنله يدي ... نقشاً على معصم اوهت به جلدي
كانه طرق نمل في اناملها ... او روضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يدها من نبل مقلتها ... فالبست زندها درعاً من الزرد
مدت مواشطها في كفها شركاً ... تصيد قلبي به من داخل الجسد
وقوس حاجبها من كل ناحيــة ... ونبل مقلتها ترمي به كبدي
وعقرب الصدغ قد بانت زبائنه ... وناعس الطرف يقظان على الرصد
ان كان في جلنار الخد من عجب ... فالصدر يطرح رماناً لمن يرد
وخصرها ناحل يمشي على كفل ... مرجرج قد حكى الاحزان في الخلد
انسية لو رأتها الشمس ما طلعت ... من بعد رؤيتها يوماً على احد
سألتها الوصل قالت انت تعرفنا ... من رام منا وصالاً مات بالكمد
وكم لنا عاشق في الحب مات جوى ... من الغرام ولم يبدي ولم يعد
فقلت استغفر الرحمن من زلل ... ان المحب قتيل الصبر والجلد
وخلفتني طريحاً وهي قائلة ... ما تنظرون فعال الظبي بالاسد
قالت لطيف خيال زارني ومضى ... بالله صفه لا تنقص ولا تزد
فقال خلفته لو مات من ظمإ ... وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت صدقت الوفا في الحب شيمته ... يابرد ذاك الذي قالت على كبدي
واسترجعت سألت عني فقيل لها ... ما فيه من رمق دقت يداً بيد
وامطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ... ورداً وعضت على العناب بالبرد
وانشدت بلسان الحال قائلة ... من غير كره ولا مطل ولا رمد
والله ما حزنت اخت لفقد اخ ... حزني عليــه ولا ام على ولد
فاسرعت واتت تجري على عجل ... فعند رؤيتها لم استطع جلدي
واغمرتني بفضل من عواطفها ... فعادت الروح بعد الموت للجسد
هم يحسدوني على موتي فوا اسفي ... حتى على الموت لااخلو من الحسد

فهذه القصيدة اشتملت على كثير من التشابيه وعلى شيء قليل من المعاني وعلى شيء اقل من الاحساس . فشبه النقش الذي تنقشه الماشطة على يد العروس بطرق النمل وهم ذاهبون لمساكنهم قطاراً بجانب قطار . وبالمبرد النازل على روضة البقل وبدرع الزرد وبشرك الصيد أي شبكته . وشبه الحاجب بالقوس والاهداب بالنبل والكبد بالهدف . وشبه الشعر الاسود على الصدغ بالعقرب وطرفه الملوي بالزبانة · وزبانتا العقرب قرناها . وشبه الخد بالجلنار وهو زهر الرمان وبالورد أيضاً والثدي بالرمان وشبه نفسه بالاسد وشبهها هي بالشمس والظبي وشبه دموعها باللؤلؤ وعينيها بالنرجس واناملها المصبوغة بالحنا الاحمر بالعناب واسنانها بالبرد . وردفها بالحزن وهو ما غلظ وارتفع من الارض ويسمى الرابية والكثيب أيضاً

وأما المعاني التي في هذه القصيدة فهي سؤاله الوصل وجوابها بالرد وصبره وتجلده على البعد ووفاه في الحب حتى لم يبق فيه رمق .. فشفقت عليه وبكت وحزنت حزن الاخت لفقد اخيها والام على ولدها واتت اليه تجري على عجل وتعطفت عليه وانعشته لحسده العوازل

فادباء العرب يستعذبون هذا الكلام المصنع المرصع كما يستحسنون النقش على اليد والصبغ الاحمر على البنان . والفرق بين اليد البيضاء الطبيعية والانامل المنظفة بالمبرد والمقص وبقية آلات التنظيف وبين اليد المنقوش عليها نقشاً وحسياً والانامل المخضبة بالحناء لا يخفى على اهل النظر والذوق والامم المتوحشة لا يستحلون العرائس الا اذا كثر على اجسادهن النقش والوشم وشرحت خدودهن وكسرت اسنانهن ليحصل فيها الفلج وثقبت انوفهن وشفاههن واذانهن ليعلق فيها الاقراط والحلقات فهم يبدلون خلقة الله بما يرونه حسناً بحسب اذواقهم . وكذلك الادباء يعدلون بالكلام عن السوق الطبيعي الى تلك التشابيه والاستعارات واذا نظرت الى مدحهم رأيته أيضاً يدور حول طول النجاد وكثرة الرماد كقوله

طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد اذا ما شتى

فهذا البيت يليق مدحاً حقيقيًّا بشيخ قبيلة بدوية أو بملك امة متوحشة من مم اواسط افريقيا لا في كل ممدوح . واذا مدح به ملك امة لها حظ من الحضارة

ينقلب المدح ذماً . وهكذا يقال في بقية فنون الكلام وضروبه مثل الهجاء والرثاء والاستماحة ، والشفاعة ، والشكر ، والاستعطاف ، والافتخار ، وبث الشكوى ، والمواعظ ، والحجج . ولا سيما الوصف وهو اعمها واكثرها ضروباً فان كل فن من هذه الفنون يدور حول تشابيه معلومة واساليب مدرسية يندر فيها الاحساس الشخصي والانفعال النفس وانما هي تقاليد يتبع فيها الخلف السلف

ففيكتور هوكو وأهل طريقته لا يرون شيئاً من الحسن في هذه التشابيه والاستعارات المدرسية ولا يستعذبون معنى من تلك المعاني التي ليست بطبيعية . بل يجدونها من المعاني السخيفة الغير المعقولة . خرج بها اصحابها عن الذوق السليم وعن دائرة الطبيعة وشوهوا وجه الكلام بتلك الاستعارات كما سخموا وجه العروس و بدنها بالنقش والوشم والصبغ ثم جاؤا يقولون (نالت على يدها ما لم تنله يدي) . ورأينا في معرض بارنوم الذي يطوف به صاحبه مدن العالم القديم والجديد شخصاً من المتوحشين وشم جميع بدنه فكان يتجلى امام الناظرين كانه لابس ثوباً مبرقشاً والوشم هو ان يغرز الجسد بابرة ثم يذر عليها النؤور وهو النيلج (نبات النيلة) . وفي الحديث لعن الله الواشمة والمستوشمة . واليك وصف مؤلفاته

١ — المدائح والمطربات

هو أول ديوان نشره فيكتور هوكو في الشعر وافتتحه بمقدمات نثرية بليغة ترجمنا احداهما لمناسبتها المقام ومنها يعلم أن تعبيرنا عن الاود والبالاد بالمدائح والمطربات فيه تساهل لان قصائد هذا الديوان لا تقتصر على المدح والغزل بل فيها أيضاً الرثاء والهجاء ممزوجة بعضها ببعض

قال فيكتور هوكو :

هذا ديوان في الشعر الموسيقي (الغرامي) . فيه نوعان من افانين الشعر احدهما (اود) ويدخل تحته جميع المنظومات المشتملة على الهامات دينية أو مطالعات قديمة أو المترجمة عن واقعة عصرية أو عن تأثر شخصي . والثاني (بالاد) وهو نوع مخالف للفرع المتقدم . ومنظوماته انما هي مسودات فن هوائي . وهي عبارة عن

ألواح مصورة وخيالات وأحلام ومناظر بديعة وحكايات دارجة وأحاديث خرافة واساطير ووسوسة . والقصد من نظمها اعطاء فكر عن ماهية الاشعار والقصائد التي نظمها في القرون الوسطى شعرآء الترو بادور المتقدمون الذين هم رواة الشعر في عالم النصرانية . وكانوا لا يملكون من الدنيا إلا السيف والرباب ويطوفون على الامراء في قلاعهم وقصورهم ويتضيفون على موائدهم وينشدونهم الاشعار استجداء لاحسانهم ولو لم يكن في التعبير خفخفة لقال المؤلف بأنه وضع روحه في الاود وتخيله في البالاد على انه لا يعبأ بتقسيم الشعر الى أنواع وأفانين ولا بتصنيفه أصنافاً متباينة . لان حقيقة الشعر واحدة مهما اختلفت عروضه وأدواره . ولذا فهو لا يبالي باعتراض من يزعم ان ما ورد في هذا الكتاب ليس هو في شيء من الاود ولا من البالاد . (كما قيل عن شعر المتنبي والمعري . لانهما لم ينسجا على منوال شعر الجاهلية ولا حافظا على الاساليب القديمة .) فدعهم يقولون ما يشاؤن ويسمونها بما يشتهون من الاسماء فان العبرة بالمسمى لا بالاسم . ونسمعهم يتشدقون كل يوم بصلاحية الفن الفلاني من فنون الشعر . وارفقية الفن الاخر ويقولون بمحدودية هذا وبوسعة ذاك . ويمنعون في فن التراجيديا ما يجيزونه في فن الرومان . ويسمحون في نوع الغناء بما يحظرونه في نوع الاود ... الخ . فمن سوء حظ هذا انه لا يفهم شيئاً مما يقولونه ويفتش في كلامهم عن المعاني ولا يرى فيه الا التشدق بالالفاظ فالذي يظهر له ان ما هو في الحقيقة ونفس الامر جميل صحيح يكون جميلا وصحيحاً في كل مكان . وما كان دراماتيقيا أي فاجعاً في قصة من القصص يكون دراماتيقيا أيضاً في رواية ممثلة على المرسح . وما كان موسيقيا أي غرامياً في دور (قوبله) من ادوار الشعر يكون موسيقيا أيضا في سمط (ستروف) من اسماط الشعر المنظوم أسماطاً اسماطاً واغصاناً اغصاناً . والحاصل التمييز الوحيد الحقيقي في محصولات الفكر انما هو التمييز بين الحسن والقبيح . والفكر ارض مخصبة لم تفتلح تبغي محصولاتها النماء فيها بحرية . أعني حسب التصادف بدون ان تصنف صنفاً صنفاً أو تجعل صفاً صفا في احواض مصنعة كما تجعل الازهار في البستان الصناعي . اوكما جمعت نوابغ الكلم في رسائل البيان وقيدت المنتخبات في سفائن الاشعار

ومع ذلك فلا ينبغي لك ان تظن هذه الحرية مستلزمة للتشويش . كلا بل هي بالعكس باعثة على حسن الانتظام . وايضاحا لذلك نقول : تأمل في الحديقة الملوكية التي في قصر فيرسايل بالقرب من باريس تجدها في غاية من التسوية والتعشيب والتقضيب والتنظيف والجرف والكري والترميل مشتملة على كثير من الشلالات الصغيرة، والبحيرات الصغيرة، والروضات الصغيرة، وفيها من التصاوير النحاسية ما هي على هيئة آلهة البحر، نصفها سمكة والنصف الآخر انسان . وهي سابحة على الماء ومتجمعة فوق بحار صناعية جلبت من نهر السين بصرف النفقات الباهظة وفيها من تماثيل المرمر والرخام ما هو على صورة آلهة اليونان والرومان، وهم يغازلون حور الجنان، ويعزفون بالمزامير والعيدان، وقد احدقت بهم اشجار السرو العالية على هيئة رمزية . وترى، شجر اللبان في شكل اسطواني، وشجر الليمون في شكل كروي، وشجر الآس في شكل منحرف، واشجاراً كثيرة لم تكن في اصل خلقتها الطبيعية على أشكال منتظمة ولكنها اقتضبت بمقص البستاني وهندمت بآلاته الزراعية . ثم قايس بفكرك بين هذه الحديقة المصنعة وبين غابة عذراء من غاب العالم الجديد تجد فيها اشجاراً ونباتات على سائر الاشكال من غياض، وآجام وأيك، ودوح، وكلاء (١) وحشيش، وعشب طويل، ونبات متعرش بلبالب وشوك واوراق مختلفة . وفيها مروج نضرة كانها بين تلك الاشجار الصلبة الشامخة سوارع أوطرق واسعة لا يسقط فيها نور الشمس ولا يمتد ظل الشجر الا على بساط من الخضرة . ويطير في تلك الغابة الف نوع من الطير بالف لون من الريش وتجري فيها انهار كبيرة تقتلع الاشجار وتسحب جزراً مكالة بالازهار . وتتدفق المياه

---

(١) واشهرها غاب اميركا وغاب افريقيا ومنها غابة الكونغو . والغاب جمع غابة . والغياض جمع غيضة وهي مغيض ماء يجتمع فينبت فيها الشجر وتجمع ايضاً على اغياض . والآجام والاجمات جمع اجمة وهي من القصب . والايك جمع ايكة وهي الشجر الكثير الملتف . والدوح جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة من اي نوع . والكلاء هو العشب رطباً كان او يابساً . والحشيش هو الكلاء اليابس . اهـ مختار الصحاح

الجارية من مكان اعلى الى مكان أسفل فتحدث الشلالات . ويتخلل الضياء بين تلك المياه الساقطة فينقلب الى قوس قزاح . ويتألف من هذا الهدير والخرير والتغريد والزئير الحان وحشية لا مثيل لها . — فنحن لا نقول : اين العظمة ؟ اين العزة والجبروت ؟ اين الجمال الحقيقي ؟ بل نسأل فقط : اين الانتظام واين عدم الانتظام ؟ فهناك مياه حبست وحولت عن مجراها الطبيعي لتتدفق من ينابيع صناعية وتركد في حياض محتقرة ثم تنتن فيها . وهناك ايضاً آلهة تحجرت ، واشجار قلعة من الارض التي انبتت فيها ، ونقلت من الاقليم الذي ربيت فيه ، وحرمت من شكلها الطبيعي ، ومن ثمارها الطيبة ، واكرهت على تحمل منجل البستاني يفعل فيها حسب اهوائه ومشيئته ، ويديرها كيف دار حبل استقامته ، فالانتظام الطبيعي مضاد ، معكوس ، مقلوب ، مخروب

وأما هنا فبالعكس كل شيء خاضع لناموس لا يتغير . وفي كل شيء آية على وجود الله حي [١] . وقطرات الماء تنحدر في مضيها وتجري انهاراً تجتمع وتصير بحاراً . وبذر النبات يختار الارض الصالحة له ويصير احراجاً . وكل نجم [٢] وكل شجرة صغيرة او كبيرة تنبت في فصلها وتنمو في ارضها وتثمر ثمرتها فتنضج في اوانها . فكل ما في هذه الغابة جميل حتى الشوك . فنسأل أيضاً اين الانتظام ؟

فاختر اذاً بين أحسن ما اتت به الصناعة البستانية وبين مصنوعات الطبيعة ، بين ما هو جميل بحسب الاصطلاح وبين ما هو جميل بغير القواعد الاصطلاحية بين أدب مصنع مرصع وبين شعر مبتكر لم ينسج على منواله أحد

ربما قال معترض بان الغابة العذراء البعيدة عن الناس قد يربض فيها الف حيوان مفترس واما حياض الحديقة الصناعية التي استنقعت المياه فيها فلا تحتوي في الغالب الا على قليل من الضفادع المستقذرة . فهذا الاعتراض وارد مع الاسف ولكن اذا خيرنا فنحن نفضل التمساح المفترس على الضفدع القذر . كما نفضل

(١) وفي كل شيء له اية تدل على انه واحد (ابو العتاهية)

(٢) النجم من النبات ما لم يكن على ساق

بربرية الشاعر الانكليزي شكسبير على سخافة عقل الشاعر الفرنساوي قامبسترون (ولد في طولوز ١٦٥٦ — ١٧٢٣ م)

ومن المسائل المهمة المقتضى بيانها هو ان الانتظام يمتزج بالحرية في الادب كما يمتزج بها في السياسة . لا بل الانتظام نتيجة للحرية فيهما جميعاً . ولكن ينبغي التفريق بين الانتظام وبين رعاية القواعد . فرعاية القواعد أمر لا يتعلق الا بالشكل الخارجي . وأما الانتظام فينتج من باطن الاشياء اي من ترتيب العناصر الاصلية التي في الموضوع المبحوث عنه ترتيباً يستحسنه الذوق . فرعاية القواعد هو تأليف مادي ووضع انساني . واما الانتظام فهو أشبه بالامر الالهي . فهاتان الخاصتان المتخالفتان في ذاتهما كثيراً ما توجد احداهما بدون الاخرى . فالكنيسة المبنية على القالب القرطي يظهر لنا فيها انتظام بديع رغماً عن سداجتها وعدم رعاية قواعد البناء فيها . وأما الابنية الفرنساوية الحديثة التي بنيت على قوالب ابنية اليونان والرومان وقلد البناؤن في بنائها تقليداً أعمى بغير ذوق ولا مهارة فتظهر لنا غير منظمة رغم ما في بنائها من رعاية القواعد المعمارية . فالمؤلف العادي لا يتعذر عليه تصنيف تأليف على حسب القواعد ، واما وضع الانتظام في التأليف فلا يتيسر الا لذوي العقول الكبيرة من المؤلفين . لان الخلاّق [١] الذي ينظر من الاعلى ، ينظم . والمقلد الذي ينظر من القرب ، يطبق على القواعد . فالاول يعمل بمقتضى ناموس طبيعته . والثاني يتبع قواعد طريقته . فالصناعة الهام للاول . وعلم للثاني . والحاصل رعاية القواعد هي ذوق المتوسط [٢] . والانتظام هو ذوق القريحة . ومن هنا يفهم الفرق بين ادب الطريقة الرومانية وبين ادب الطريقة المدرسية

واعلم ان الحرية في هذا المقام لا ينبغي ان تصل الى الفوضوية . وان الخروج عن الاسلوب لا يقتضي ان يكون وسيلة لتجويز اللحن والغلط . فبقدر ما يتهور المؤلف في الخروج عن الاسلوب يلزم ان لا يكون في تأليفه لومة للائم . لانه اذا

(١) اي مختلق المعاني (٢) اي المتوسط في الادب الذى لم يبلغ شاو لمع فيه

أراد التفوق في حق واحد على غيره يجب ان يكون معه عشرة حقوق زائدة عليه وبقدر ما يهمل علم البيان والمعاني يجب عليه ان يراعي علم النحو والصرف ولا يجوز له خلع ارسطوطاليس البياني (١) الا اذا جلس مكانه فوجيلا النحوي (٢) . وتبتغي محبة (صناعة الشعر) التي الفها بوالو لاجل انشائها على الاقل ان لم يكن لاجل ما فيها من القواعد . فالكاتب الذي له اقل اهتمام بما يكتبه يجتهد دائماً بان يصفي منطقه بدون ان يمحو الصفة الخصوصية التي يفصح بها تعبيره عن شخصية فكره . فادخال التعبيرات الجديدة في الكلام ما هو الا دليل على عدم المقدرة . واللحن في الاعراب لا يأتي بمعنى جديد (٣) . فالانشاء مثل الزجاج كلما صفا تلالأ

ربما اوضح مؤلف هذا الكتاب في غير هذا المحل كما اشار اليه هنا . ولكنه قبل ان يختم كلامه يستميح القراء في بيان ان رأي التقليد (اي رعاية الاسلوب) الذي وصى المتقدمون باتباعه حفظاً للطرق الادبية ، ظهر له دائماً بانه بلاء على صناعة الادب . فهو لا يجوّز للكتبة التقليد لاساليب الطريقة الرومانية فضلاً عن الطريقة المدرسية . لان الذي ينسج على منوال شاعر من شعراء الطريقة الرومانية يصير بالضرورة مدرسياً ما دام انه يقلد . فسواء عليك كنت صدى الشاعر الفرنساوي راسين أم كنت انعكاساً لنور الشاعر الانكليزي شكسبير فما انت الا صدى وما انت الا انعكاس . ولو تيسر لك النسج بالتمام على صورة شاعر من ذوي القريحة . تفوتك دائماً غرابته (٤) اي قريحته . فلنعجب باكابر

(١) وقد لخص ابن رشد كتاب ارسطوطاليس في الشعر وطبعه المستشرق فوستو لازينو في فلورانسه سنة ١٨٧٣ (٢) نحوي فرنساوي الف كتاب الملاحظات على اللغة الفرنساوية (١٥٨٥ ــ ١٦٥٠) وهذا ما قاله الجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع في مصر « ان تكون الالفاظ مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم ولا يكون وحشياً غريباً . او عاميا سخيفاً ، سخفه بازالته عن موضوع اللغة واخراجه عما فرضته من الحكم والصفة . كقول العامة (اشغلت) و (انفسد) (٣) لا كما يقولون ليس على المطرب ان يعرب

(٤) يقول ادباء العرب هذا البيت من الغريب المبتكر • وراسين كما لا يخفى هو امام الطريقة المدرسية وشكسبير امام الطريقة الرومانية

الشعراء ولا نقلدهم . ولنعمل بطريقة اخرى . فان نجحنا فنعم ، وان سقطنا فما الاهمية ؟

يوجد سوائل التصبير اذا غطست فيها زهرة او ثمرة او عصفورة وتركتها مدة تكسوها قشرة سميكة حجرية وتحفظ في الحقيقة اشكالها الاصلية . ولكن رائحة العطر ، ولذة الطعم ، وحركة الحياة فقدت . فالتعاليم المتشدق بها ، والقياسات المنطقية الاسكولاستيقيه ، وسريان داء العادة ، وجنون التقليد ينتج عين هذه النتيجة ، فاذا دفنت فيها قواك الغريزية وتخيلك وفكرك فلا تخرج منهن ابدا . وما تستخرجه منهن ربما تجده محافظاً على شيء من ظاهر العقل والقريحة والذكاء ولكنه يكون متحجراً كتلك الاشياء المصبرة

فاصحاب الطريقة المدرسية يقولون « يحيد عن طريق الحقيقة والجمال كل من لم يتبع الاثر الذي طبعه باقدامهم السالكون قبله في هذا الطريق » فهذا خطأ واصحاب الطريقة المدرسية يخلطون بين العادة والدأب وبين صناعة الادب . ويمشون على اثر المجلات توهما بانها الطريق

فالشاعر لاينبغي أن يكون له الا أنموذج واحد وهو الطبيعة ودليل واحد وهو الحقيقة . ولاينبغي له أن يكتب مع ما كتب بل مع نفسه وقلبه . ومن جميع الكتب المتداولة بأيدي الناس ينبغي له درس كتابين فقط . اوميروس والتوراة . فهذان الكتابان المحترمان — اللذان هما أول الكتب تاريخاً وقيمة وكادا يكونان قديمين كالدنيا — هما في حد ذاتهما عالمان للمعاني . ويجد فيهما الكاتب بنوع ما الخليقة باجمعها مصورة في شكل مضاعف . في اوميروس مصورة بقريحة الانسان وفي التوراة بالهام الله

انتهى في اكتوبر سنة ١٨٢٦

وبعد المقدمات النثرية البليغة ورد في هذا الديوان المنظومات وهي تزيد على خمسين منظومة بديعة اطيرفيها من رقة الالفاظ وجودة المعاني وقوة التخيل والتصور ما حمل ادباء العصر وشعراءه على الاقرار والاعتراف له بالفضل والشاعرية وبالقبض على زمام الصناعة الادبية . وأحسن هذه المنظومات المنظومة التي عنوانها « فانده »

وهو اسم ايالة على شاطىء البحر المحيط في شمال بوردو اشتهرت ايام الانقلاب الكبير بالحرب الاهلية التي حدثت فيها بين حزب الجمهورية وبين المتنصرين للملوك من الاعيان والرهبان . وكذا المنظومة التي عنوانها (عذارى فيردون) وفيردون مدينة على الحدود الالمانية ومشهورة في التاريخ قديماً وحديثاً . وأبدع فيكتور هوكو في رثاء الذين قتلوا ونكبوا في تلك الحروب الاهلية وكان اذ ذاك على مذهب الكاثوليكيين . ومن قصائد هذا الديوان ومنظوماته البديعة (لويس السابع عشر) و (اعادة تمثال هانري الرابع) و (موت دوق بري) و (ولادة دوق بوردو) و (تعميد دوق بوردو) و (جنازة لويس الثامن عشر) و (تتويج شارل العاشر) و (الى عمود ميدان فاندوم) و (الى والدي) و (حرب اسبانيا) . . . الخ

٢ — الشرقيات

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقدمتين وختمه بشروح مفيدة واورد فيه احدى وار بعين منظومة وقال بان الباعث على نظمها اتجاه انظار الادباء نحو الشرق بعد ان كانوا منذ عهد لويس الرابع عشر لا يبحثون الا في آداب اليونان والرومان ومعارفهم . ففي القرن التاسع عشر اقبلوا على درس لغات الشرق وآدابه وتاريخه وعلومه فوجدوا فيه الافكار والتخيلات عبرانية ، تركية ، يونانية ، فارسية ، عربية ، اسبانية ، لان اسبانيا جزء من افريقيا وافريقيا جزء من آسيا لوجود مشابهة وعلاقة بينهما . وشبه ما في هذا الديوان من المعاني والتخيل بمدن اسبانيا القديمة المشيدة على نمط المدن الشرقية . ووصفها بان فيها منتزهات لطيفة تظللها اشجار الليمون وتجري من تحتها الانهار . ويسطع نور الشمس على ميادينها الواسعة الممدة للاحتفال بالمواسم والاعياد وازقتها ضيقة بعضها مظلم وبعضها غير نافذ ولا مستقيم . وابنية دورها من جميع الازمان وعلى كل الاشكال منها العالي والمنخفض والمسود والمبيض والمصبوغ والمنحوت والمنقوش . واتصلت العمارات بعضها ببعض من دور وقصور وفنادق واديرة وثكنات للعساكر . وكل منها يختلف عن الآخر

في طرز البناء والاسلوب المعماري و يدل على نوع غريب قائم بذاته . واسواقها غاصة بالانام يعلو فيها الصياح والخصام . واذ دخل الاحياء مقابرها وقفوا سكوتاً كأنهم اموات وفيها المرا مح والكنائس والمشانق التي بقي اثرها من الازمان الغابرة وفي وسط كل مدينة كنيستها الجامعة مبنية على القالب القوطي المعروف . وهناك أيضاً الجوامع قائمة بين اشجار النخيل والجميز وفيها مغشاة بالنحـاس والقصدير وابوابها مصبغة وحيطانها مجلاة منقشة ونوافذهـا عالية وعلى كل باب كتبت آية قرآنية . ورصفت الارض ورصعت الجدران بالفسيفساء . فاصبح كل جامع من هذه الجوامع كانه زهرة كبيرة تفتحت في نور الشمس وفاح طيبها في الجو

وكان تأليف هذا الديوان في اثناء حرب المورة واستقلال اليونان لان الثورة ظهرت سنة ١٨٢١ في المورة وسرت الى بقية الولايات والجزر اليونانية واستولى الثائرون على اثينا واسسوا فيها حكومتهم وعينوا ماورو قورداتو رئيساً عليهم . وكان من جملة زعماء الثورة ربان سفينة يونانية يدعى فناري هجم ليلة ١٨ و ١٩ حزيران سنة ١٨٢٢ على الاسطول العثماني الراسي على جزيرة ساقز واحرق بعض مراكبه . فساقت الدولة العلية على اليونان رشيد باشا من الروم ايلي وابراهيم باشا من مصر . وكانت العساكر المصرية مدربة على النظام الجديد فخرجت بالمراكب الى شبه جزيرة المورة واخمدت ثورتها واسترد رشيد باشا اثينا وكادت الفتنة تنام لو لم توقظها اوربا باحراق المراكب العثمانية . وذلك ان الافرنج لما رأوا انخماد ثورة اليونان قامت الجرائد والشعراء تهيج الافكار العمومية في اوربا على العثمانيين وتنتصر لارباب الفساد والعصيان من اليونانيين . فتداخلت في المسئلة انكلترا وروسيا وفرنسا وبعثوا اساطيلهم فأحرقت الاسطول العثماني واغرقته بدون اعلان حرب على الدولة العلية ولا مراعاة للحقوق المتعارفة بين الملل والامم وجرت هذه الحادثة المؤلمة بتاريخ ٢٠ تشرين اول سنة ١٨٢٧ امام فرضة نافرين في جنوب المورة واشتهرت في التاريخ بواقعة نافرين . ثم انتشبت الحرب بين الدولة العلية وروسيا واخلت العساكر العثمانية بلاد اليونان وعاد ابراهيم باشا لمصر وصارت اليونان ايالة ممتازة تحت سيادة الباب العالي ثم اعلن استقلالها تماماً

فشعراء الافرنج لم يقتصروا كشعراء العرب، على مدح الامراء والتغزل والرثاء بل هم يبحثون في السياسة الداخلية والخارجية ويرجون الرأي الذي يرونه. ولذا اتبع فيكتور هوكو في السياحة خطة استاذه شاتوبريان وخطة اللورد بايرن. وهذا الشاعر الانكليزي بعد ان خدم السياسة اليونانية بقلمه اراد ان يجرب فيها سيفه ويثبت اقتداره في ميدان الحرب كما اثبته في ميدان الادب. فنزل من قصور لوندرا الى اكواخ ميسولونكي من بلاد اليونان ومات فيها بالحمى. وتهور في فعله وخاطر بنفسه كما خاطر المتنبي حينما خرج قاصداً الكوفة سنة ٣٥٤هـ فلقيه اعراب من عشيرة فاتك بن الجهل الاسدي وأخذوا ما معه وانصرفوا. فقال له مفلح وكان من اتباعه ألست القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال بلى وأظهر الشجاعة حيث ينبغي اظهار الحزم والرأي وكر على الاعراب كرة الفوارس فقتلوه وقتلوا ابنه معه. واسس الانكليز جمعية دعوها جمعية بايرن (بايرن سوسيتي) وغايتها حماية المسيحيين في الممالك العثمانية كما كانت مقاصد هذا الشاعر وأمانيه ولهذه الجمعية شعبة في الاستانة واخرى في اتينا وغيرها ولها علاقة بالمسئلة المكدونية كما كان لها علاقة بالمسئلة الكريدية

وتوهم شعراء الافرنج في انتصارهم لليونان ان الموجودين في هذه العصور هم من نسل اولئك الابطال والفلاسفة الذين انقرضوا في القرون الغابرة واورثوا المسلمين علومهم وفلسفتهم. فهذا هو السبب الذي حمل فيكتور هوكو على التعصب لليونان على العثمانيين وعلى تحريضه امم النصارى على قتل المسلمين ومناداته بالحرب الصليبية. وكان لم يزل في سن الشباب وعلى سياسة المذهب الكاثوليكي والحزب الملوكي. ولم يك بعد قد اهتدى للتوحيد الفلسفي ومحبة الانسانية ولا لاتباع الانصاف الذي ذكره المعري بقوله:

والدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لآبي الحق ان وجبا

وفعل الافرنج ما فعلوه من الانتصار لليونان بلا مشوق ولا مستصرخ فظن الارمن والبلغار بانهم يتمكنون من استمالة اوربا اليهم بالاستصراخ والتصويت

والاناشيد الحماسية فعقدوا في اوربا المجتمعات وخطبوا فيها الخطب المهيجة على غير فائدة . وبعد انقضاء المعرض الاخير باريس بعث المقدونيون شاعرهم المفلق ميخايلوفسكي مع وفد من ادبائهم لامهات مدن اوروبا فكان يكثر من انشاد القصائد الشرقيات لفيكتور هوكو ومن انشاد اشعار بايرون الانكليزي ومن تنظير هذه القصائد والنظم على منوالها باللسان البلغاري ثم ترجمتها للفرنساوية وتلاوتها على الحاضرين في المجالس بكل شوق وحماسة وطنية وهيجان عظيم . ومع ذلك لم تنفعل اوربا ولا تأثرت الافكار العمومية فيها كما تأثرت ايام استقلال اليونان لاسباب كثيرة منها ان الجمال لا يتكرر . والامم اصبحت تنظر لمنافعها الاقتصادية والتجارية اكثر من التفاتها للحماسة الجاهلية . وتوهم شبان مصر ما توهمه هؤلاء أيضا ايام بعثوا صاحب جريدة اللواء الى باريس يحمل صورة عظيمة تمثل مصر وهي في الاسر وتحتها ابيات عربية تستغيث فيها من مجلس النواب الفرنساوي كما هو معلوم ومطلع الابيات افرنسا يا من نصرت البرايا .... انصري مصر ان مصر بسوء ... الخ

اما عنوان المنظومات التي في هذا الديوان فهي « الصاعقة » و « قناري » سمي هذه المنظومة باسم احد زعماء الثورة المتقدم ذكره ووصف بها المحاربات البحرية وصور فيها اعلام الدول وهي تخفق على المراكب الحربية . وقصيدة « رؤوس السراي » نظمها سنة ١٨٢٦ على أثر الاشاعة الكاذبة التي اشاعتها الجرائد عن موت قناري بقنبلة اصابته في محاربة ميسولونكي وعن ارسال رأسه مع رؤوس رفقائه الى الاستانة . ووصف في هذه المنظومة السراي وما فيها من السراري والطواشية والبذخ والقصف ورثى قناري ورفيقين له افجع رثاء وحرض امم النصارى على قتال المسلمين . و (نافارين) صور فيها محاربة نافارين العدوانية واظهر الشماتة باحراق المراكب العثمانية ومن ابياته قوله «مضت ست سنوات ونحن نرى افريقيا تركض لمساعدة آسيا على امة تعلمت كيف تموت . وابراهيم الذي لا يسكنه شيء طار من البرزخ الى السطح كانه صقر بلا وكر كانه ذئب تحكم في حظيرة الغنم . فهو يجري الى حيث تستدعيه الغنيمة فاذا عاد الى خيمته رمى بيده الرؤوس الى السراي . »

ومن منظومات هذا الديوان ايضاً (حض المفتي على الجهاد) و (وكدر الباشا) صور فيها جلوس الباشا في دائرة الحرم حزيناً وارتباك رجال المعية والخدام والخصيان وتساءلهم عن سبب حزنه وعما ينقصه من النعم التي هو غريق فيها بين رقص الجواري وغناء الغانيات في قصور عاليات مفروشة بالديباج تعبق فيها روائح المسك والعنبر ودهن الورد . فوجدوا كدره لا على خراب البلاد ونهب العباد وكثرة الظلم والاستبداد وانما هو على موت خصيه الحبشي . ومن هذه المنظومات ايضاً (اغاني قرصان البحر) صور فيهـا كيف كانت المراكب تجري في البحر المتوسط وتغير على ما في سواحله من بلاد الافرنج وتأسر البنات والغلمان وتبيعهم في السرايات للباشوات . ومنها (الاسيرة) و (ضياء القمر) و (النقاب) صور في هذه المنظومة غيرة الاخوة على اختهم وقتلها لانكشاف الحجاب عنها بسبب الهواء وهي مارة في الطريق امام باب الجامع وبعد قتلها كفنوها وقالوا لهـا هذا حجاب لا يكشف ستره ونحو ذلك من القصائد .

ولم يدع مدينة من مدن الشرق المشهورة الا ذكرها في هذا الديوان . واكثر من ذكر مدن ايطاليا واسبانيا ادخالا لها في الشرق . وكان لهذا الديوان رواج عظيم حينما نشر لعلاقته اذ ذاك بالمسائل السياسية الجارية . اما اليوم فقد ذهبت طلاوته وزال رونقه وقلت الرغبة فيه . لان فيكتور هوكو فضلا عما كان عليه اذ ذاك من الغرض والتعصب الاعمى لم ير الشرق بعينيه ولا عرفه الا بدرس الكتب ومطالعة ما نظمه الشعراء مثل شاتوبريان و بايرون وكوتيه ناظم (ديوان اورينتال) وامثالهم وطالع ايضاً ما ترجم من كلام الحافظ الشيرازي والشيخ سعدي صاحب الكلستان . ومن شروط اهل الطريقة الرومانية الكتابة والنظم عن رؤية وانفعال نفسي ولذا يجدون شعور فيكتور هوكو في الشرقيات مبهما وكلامه مصنعاً لا طبيعياً . بخلاف القسم المتعلق بالاندلس واسبانيا من هذا الديوان فلم يزل له رونق واعتبار عند ادباء الافرنج . لان الشاعر زار اسبانيا في صباه وقرأ مع اولادها في المدرسة فساعدته ذاكرته على وصف ما فيها باحسن صورة وأبدع أسلوب . ومنظوماته التي عنوانها (غرناطة) هي السحر الحلال كانها كتاب في

الجغرافية أفرغ في قالب شعري ومنها يتضح تبحر الشاعر في الجغرافيا والتاريخ والآثار القديمة والفلسفة وقد ترجمنا هذه لقصيدة لتعلم اساليب الشعر الافرنجي ومناحيه وهي :

٢ — غرناطة

لا توجد مدينة لا بعيدة ولا قريبة ، لا عربية ولا اسبانية تنازع غرناطة الجميلة في تفاحة الحسن [١]. ولا تظهر اكثر منها ابهة شرقية ولا رشاقة تحت السماء الطف من سمائها . قادس فيها النخل . مرسية اشجار البرتقان . جيان فيها القصر القوطي ذو القلل الغربية . أغريدة فيها الدير الذي بناه القديس ادمون . سيغونة فيها اشيكل الذي تقبل اعتابه وفيها قناة قائمة على ثلاثة صفوف من القناطر تجري اليها المياه من قمة الجبل . ليير فيها الابراج . برشلونه فيها عمود على رأسه منارة مطلة على البحر . تودله (تطيله) راعية لصداقتها ملوك اراغون وهم في قبورهم العتيقة وحافظة لصولجانهم الحديد . طلوشه فيها سوق الحدادين المظلم كان دكاكينه في الدجا منافذ على جهنم

السمكة التي شفت في غابر الازمان عين طوبيا من العماء تلعب في جوف الخليج الذي رقدت فيه (فونتارابي) [٢] . اليقانت تمتزج فيها المآذن بالجرسيات . قومبوستله فيها قديسها . قرطبة فيها الدور العتيقة وفيها الجامع الذي تحار العين في عجائبه . مادريد فيها نهر مانزانارس . بلباوَ تغطيها امواج البحر ويكسي المرج

---

١ اشارة الى تفاحة الحسن التي تخاصمت عليها آلهات اليونان كما فصل خبرها في الاساطير اليونانية

٢ طوبيا من اتقياء بني اسرائيل ذهب حينما اسرهم شلمنصر الى نينوى وعمي بصره فخرج ابنه يفتش له عن دواء واجتمع بالملك اسرافيل عليه السلام فوصف له سمكة يأخذ مخها ويكحل به والده ففعل وعاد اليه بصره وعاش اربعين سنة اخرى وكتبت سيرته في رسالة الحقت بالتوراة . واما فونتارابي فقيل معناها عين العرب وقيل غير ذلك وهي على الحدود الفرنساوية من جهة البحر المحيط —

الاخضر سورها المسودّ من الهرم • مدينة ذات الشجاعة العظيمة تخفي فقرها من كبرها تحت رداء دوقاتها وليس لها شيء سوى شجر الجميز لان قناطرها الجميلة من بقايا العرب وقنواتها من بقايا الرومان • بلنسية فيها جرسيات كنائسها الثلاثمائة • القنطرة ذات التي اسلمت لهبوب النسيم رايات الترك المعلقة على عواميدها (١) • سلمنكه تجلس وهي ضاحكة على ثلاث تلال وتنام على نغمات الاوتار وتستفيق مذعورة من جلبه اولاد المكاتب الصغار • طرطوشة غالية على القديس بطرس . بو يسرده الغنية فيها الرمر مثل الاحجار . نويه تفتخر بقلعتها المثمنة الشكل • طرّا كونة تفتخر باسوارها التي بناها احد الملوك • سموره يجري من تحتها نهر دورو طليطلة فيها القصر العربي . اشبيلية فيها جيرالدة . برغة وضعت ثرونها على قمتها . بينافلور مركيزة . جيرونة دوقة . بيغارة كانها زهدت في الحلي الفخيمة . بامبلونه المضامة متهيئة دائماً للحروب وقبل ان تنام على ضوء القمر تقفل الابراج المحيطة بها كالمنطقة

فهذه المدن الاسبانية اما منتثرة في السهول او مرتفعة على الجبال • وفي جميعها قلاع لم تضرب يد الاعداء فيها بالنواقيس • وفي جميعها كنائس جامعة لها جرسيات حلزونية الشكل (٢) . ولكن غرناطة فيها الحمراء

الحمراء وما ادراك ما الحمراء قصر زوقته الجن وملأته بالمحاسن كانما هو في الحلم . بل وقلعة ذات شرف مخرمة مقلبة . اذا جن الليل سمعت منها اصواتاً سحرية واذا طلع القمر من وراء اقواسها العربية الكثيرة وانعكس نوره على الجدران احدث عليها نقوشاً بيضاء عجيبة . غرناطة فيها من العجائب اكثر ما في الرمانة من الحب الذي لونه كلون العقيق و ينبت الرمان في وديانها بكثرة . غرناطة اسم على مسمى غرناطه اذا اشتعلت نار الحرب فقمت في وجوه اعدائها اشد من فقع القنبلة الحمراء بمائة مرة

(١) لعل مراد الشاعر الرايات التي يحملها النصارى من الاراضي المقدسة التابعة للترك ويعلقونها على عواميد الكنائس تعبدا

(٢) لانها كانت ماذن

اذا اجابت (فينانوبن) (فيقاقونالد) بدفها المزين بالاجراس او تتوجت (جنة العريف) بالنور وامست كانها خليفة ورفعت في ظلام الليل قتها المضيئة فلا شيء أجمل من ذاك ولا شيء اعظم من ذلك . وتعزف الابواق من (ابراج العقيق) كانها جمهور نحل تسوقه الرياح . وفي القوافة نواقيس مهيئة دائماً لاعلان الافراح.وتطنطن في ابراجها الافريقية لتوقظ من في البيضاء . غرناطة لا تجاريها الرقباء ولا في شيء . غرناطة تغني الاغاني الرقيقة بارق مما هي • وتصبغ دورها بابهى الالوان . ويقال بان النسيم يحبس انفاسه اذا نثرت غرناطة في ليلة من ليالي الصيف نساءها وازهارها في سهولها

جزيرة العرب جدتها . والعرب الرحل المتحمون انما قطعوا اسيا وافريقيا من اجلها فقط . ولكن غرناطة كاثوليكية . غرناطة ضحكت منهم . غرناطة تلك المدينة الظريفة لو امكنها ان تكون اثنتين لكانت اشبيلية أخرى . انتهى

فان كان هذا وصف غرناطة عند فيكتور هوكو فكيف يكون وصف اشبيلية . ولا يخفى ما في تعداد هذه المدن الاسبانية من الاهمية في تاريخ آداب العرب لانتساب الكثير من العلماء والادباء اليها كالشريشي شارح المقامات والشاعر الاشبيلي والشاطبي ناظم الشاطبية وكثير من امثالهم • وأما قوله تحبس انفاسها فهو من تشابيه اصحاب الطريقة المدرسية على حد قول العرب اذا برزت الحسناء احتجبت الشمس خجلاً ونحو ذلك

اما غرناطة فهي في اسفل جبال نفاده (سيبرانفاده) وعلى مجتمع نهري دارو وجنيل المنصب في الوادي الكبير وهي مبنية على ثلاث تلال تحتها سهل واسع من اجمل السهول يسمى لافيكه • وغالب ابنيتها من القرميد الاحمر رصفت بعضها فوق بعض فاشبهت الرمانة المفلوقة • ولذا سميت غرناطة ومعناها الرمانة وأشهر ابنيتها « الحمراء » وهي على تلة يجري من تحتها نهر دارو وفيها برج عظيم على رأسه شرف ولونه عقيقي ولذا قيل له (نورفيرمبل) وتجاه الحمراء (البايسين) اي البيضاء وهي حارة من حارات غرناطة تشتمل على دور لطيفة للسكن • وبقرب الحمراء جنة العريف (جنراليف) وهي قصر للصيف من ابدع القصور مرتفع على

قمة عالية وسميت الحمراء لانها مبنية بالقرميد الاحمر ومنظرها الخارجي ليس بعجيب فاذا دخل الزائر من بابها بهره ما يراه داخلها من التزيين والنقش العربي (ارابسك) والتزويق والترصيع بالفسيفساء والتصفيح بانواع المرمر والقيشاني وكتبت عليه آيات قرآنية وعبارة (لا غالب الا الله) • وفي كل زينة من زيناتها او تزويقة من تزويقاتها دليل على سلامة الذوق والمهارة التامة في الصنعة وحسن الانتخاب. ومشتملات الحمراء دوائر كثيرة وساحات ومخادع واروقة وجنات تجري من تحتها الانهار . وفيها جامع وحمامات . واشهر مشتملاتها حوش السباع وهي ساحة سماوية مبلطة بالرخام الابيض يقرب طولها من ٣٠ متراً وعرضها ١٦ متراً وعلى جوانبها اروقة قائمة على عمد من الرخام واقواس بديعة . وفي وسط الساحة قصعة بيضاء قائمة على اثني عشر سبعاً من المرمر الاسود ينصب الماء من افواهها و يجرى في قنوات، مكشوفة الى البيوت والمخادع . ولكن الماء مقطع اليوم عنها . ومن مشتملاتها الظريفة قاعة السفراء وقاعة الاختين وغير ذلك . وقد مثلت الحمراء في كثير من المدن الاوروبية ومثلت في معرض باريس الأخير احسن تمثيل

وتغزل شعراء العرب في غرناطة باشعار كثيرة ونظم رئيس كتابها عبدالله بن زمرك موشحات لطيفة منها :

لازمة

نسيم غرناطه عليل لكنه يبري العليل وروضها زهره بليل ورشفه ينقع الغليل

دور

عقيلة تاجها السبيكه تطل بالمرقب المنيف
كانها فوق مليكه كرسيها جنة العريف
تطلع من عسجد سبيكه شموسها كلها تطيف الخ

وقال ايضاً ووجهه بها من فاس الى غرناطه

لازمه

ابلغ لغرناطه سلامي وصف لها عهدي السليم فلو رعى طيفها زمامي ما بت في ليله السليم

دور

اعندكم انني بفـاس اكابد الشوق والحنين
اذكر اهلي بها وناسي والليل في الطول كالسنين
الله حسبي فكم اقاسي من وحشة الصحب والبنين

لازمه

مطارحاً ساجع الحمام شوقاً الى الالف والحميم والدمع قد لج في انسجام منتراً عقده النظيم

دوه

يا ساكن جنة العريف أسكنتم جنـة الخلود
كم ثم من منظر شريف قد حاف باليمين والسعود
ورب طود بـه منيف ادواحه الخضر كالبنود

النهر قد ... ل كالحسام لراحة الشرب مستديم
والزهر قد راق بابتسام مقبلاً راحة النديم

ولد هذا الاديب في غرناطة واتصل بواسطة لسان الدين بن الخطيب الشهير الى اميرها واحرز منه رئاسة الكتاب وترجمه لسان الدين في كتابه « الاحاطة » واثنى عليه وقيل بأن ولده كتب هامشاً على ترجمة عبدالله بن زمرك وطعن فيه وقال بأنه تقرب للامير بالافساد والوشاية على والده لسان الدين وتوفي ابن زمرك مقتولاً سنة ٧٥٥ هـ قتلته زوجته مع ولدين له . ومما قاله ايضاً في غرناطة

عروسة تاجها السبيك وزهرها الحلي والحللْ
لم ترض من عزها شريك بحسنها يضرب المثل
ايدها الله من مليك يملك المجد للدول
بدولة المرتجى المهيب الملك الطاهر الاثر تختال من بردها القشيب في حلة النور والزهر
كرسيها جنة العريف مرآتها صفحة الغديرْ
وجوهر الطلي عن شنوف تحكمـه صنعة القدير
والانس فيه على صنوف فمن هديل ومن هدير

كم خرق الزهر من جيوب وكلل القضب بالدرر

فالغصن كالكاعب اللعوب والطير تشدو بلا وتر

وهي طويلة اقتصرنا منها على ما يناسب المقام . فجنة العريف التي اكثر الشعراء من ذكرها هي اشبه بقولهم اليوم قصر يلديز . ونظم في بارية ايضاً موشحات ووصف قصرها العجيب فقال

عليك بارية السلام ولا عدا ربعك المطار

مدخل في قصرك الامام فقربك السؤل والوطر

عروسة انت يا عقيله تجلى على مظهر الكمال

مدت لك الف مستقيله تمسح اعطافك الشمال

والبحر مرآتك الصقيله يشف من ذلك الجمال

الى آخره

وقال ايضاً في هذا القصر من موشح آخر

يا حبذا مبناك فخر القصور بروجه طالت بروج السما

ما مثله في سالفات العصور ولا الذي شاد ابن ماء السما

كم فيه من مردى بهيج وقور في مرتقى الجو به قد سما . الخ

ومما ورد على منوال منظومة فيكتور هوكو القصيدة الشهيرة التي مطلعها (لكل شيء اذا ما تم نقصان) حيث ورد فيها

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية واين شاطبة ام اين جيان

واين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان

واين حمص وماتحويه من نزه ونهرها العزب فيضان وملآن

قواعد كن اركان البلاد فما عسى البقاء اذ لم تبق اركان

تبكي الحنيفية البيضاء من اسف كما بكى لفراق الالف هيمان

على ديار من الاسلام خالية قد اقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن الا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه أبعد حمص تغرّ المرء اوطان

وحمص هي اشبيلية وهي على الضفة اليسرى للنهر اي الوادي الكبير المنصب في المحيط عند خليج قادس وارتفع وراء المدينة جبل ولذا قال فيها احد واصفيها :

ذكرتك يا حمص ، ذكر هوى امات الحسود وتمنيته
كانك والشمس عند الغرو ب عروس من الحسن منحوته
غدا النهر عقدك والطود تا جك والشمس اعلاه ياقوته

وهذا اشبه بقول الشريف العقيلي المنتسب لعقيل بن ابي طالب في مدينة الفسطاط قاعدة الديار المصرية في اوائل الاسلام :

تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

ونظموا في اشبيليه كثيراً من الاشعار لانها كانت دار انسهم وسرورهم ومركز عزهم وحضارتهم وكان اهلها يزيدون على اربعمائة الف نفس . واما اليوم فلا يبلغ سكانها المائة وخمسين الفاً

وفيها القصر الشهير المعروف عند الافرنج باسم (القازار) وفيها منارة جيرالده وارتفاعها (٩٤) متراً وكان يرصد فيها الافلاك . ومما قيل في بلنسية المعروفة بمدينة فالانس وهي على شاطيء البحر المتوسط عند مصب (غواد الافيار) واليها ينسب كثير من الادباء :

بلنسية جنة عالية ظلال القطوف بها دانية
عيون الرحيق مع السلسبيل وعين الحياة بها جارية

قاله ابو العباس احمد بن الزقان ومدحها باشعار كثيرة . ومما قيل في قرطبة أيضاً :

بأربع فاقت الاقطار قرطبة وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم افضل شيء وهو رابعها

وقرطبة كما تقدم على نهر الوادي الكبير والزهراء حارة من حاراتها

٣ — اوراق الخريف

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقالة ادبية تاريخية سياسية نظر فيها نظرة عامة الى الاحوال الجارية في سنة ١٨٣١ والى المسائل الخارجية وشبه القرن السادس عشر الميلاد بصراط مرت عليه الامم الاوربية من الجامعة الدينية والسياسية الى حرية الضمير وحرية المدنية اي استقلالها بادارة بلديتها . ومن الفلسفة المنطقية الرهبانية الى الفلسفة الحسية التحليلية المؤسسة على البحث والتفتيش ومن الدين الكاثوليكي الى الدين البروتستانتي . ومن افانين الصناعة القوطية الى افانين الصناعة المدرسية وهي المستفادة من آثار الرومان واليونان . قال ولم يكن حينئذٍ في اوربا الا حروب دينية وحروب اهلية وحروب على الاعتقاد بالسر المقدس وعدم الاعتقاد به ولم يكن يسمع فيها الا صليل السيوف ولغط العلماء المتعصبين فظهر لوتر مؤسس الدين البروتستانتي وظهر ميكل آنج مصور (اليوم الاخر) وهو شيخ المصورين وامامهم وحدث انقلاب وتبدل في اوربا ولكن القلب الانساني مثله كمثل الارض . يتيسر لك حرثها وزرعها وبناء ما تريد بناءه عليها ومع ذلك لا تنفك عن انبات العشب المغروس في طبيعتها وبزوره في داخل جوفها . ولا يتمكن المحراث من الوصول الى اعماقها ولا قلب سافلها لعاليها . وكذا القلب الانساني لا يزل مغروسا فيه شيء من الافكار العتيقة . ولا تزول هذه الافكار تماماً الا بهدم القلب الانساني . اذ لا يكفي ان يقلب عاليه سافله فقط . فالذي يهدم القلب الانساني هو الشعر

وترنم الشاعر في هذا الديوان بمحبة الوالدة وبذكر المعاهد البيتية واحوال الطفولية وعبر عما يجده في نفسه ويحس به في قلبه ولذا كان تأثيره على نفوس القراء اشد من تأثير ديوان الشرقيات . غير ان الشرقيات اكثر سناء وضياء من اوراق الخريف

اما المنظومة الاولى فمطلعها « كان لهذا العصر سنتان » يعني حينما ولد سنة ١٨٠٢ فشخص كيفية ولادته وحضانة امه وحنوها ورأفتها عليه . وذكر في القصيدة الثانية بيت ابيه وكيفية الذهاب اليه وما في طريقه من المدن وما حوله من الرسوم والاطلال وما ابقاه في ذهنه من التصور والخيال . وقال في منظومة اخرى « حينما

يولد الطفل تهتف العائلة باصوات الفرح وتقر عيونهم جميعاً برؤية لحظه اللطيف اللامع وتهال وجوههم بالبشر مها كانت حزينة او عبوسة .... » واطنب في وصف ما يتعلق بالمولود ومحبة امه له وخفقان قلبها عليه وكيفية نومه وقعوده وبكائه واكله . وصور جميع ذلك باسلوب بديع يخيل منه للقارىء انه في دار الولادة يسمع ويرى ما يحدث فيها من الاحتفال بالمولود . وعلى منوالها منظومة اخرى مطلعها « ما اجمل الطفل وهو يبتسم » . وكان تزوج وولدت زوجته فاختبر لذة العائلة وعرف محبة الاولاد . ولذا خالف في هذا الموضوع المعري القائل :

على الولد يجني والد ولو انهم — ولاة على امصارهم خطباء
وزادك بعداً عن بنيك وزادهم — عليك حقوداً انهم نجباء
يرون اباً ألقاهم في مؤرب — من العقد ضلت حله الارباء

وله ايضاً :

ابوك جنى شراً عليك وانما — هو الضب اذ يسدي العقوق الى الحسل

وهو ولد الضب ولذا كني ابا حسل . ويقال في المثل هو أعق من الضب

وهو القائل في اللزوميات ايضاً من قصيدة غراء مطلعها :

ترنم في نهارك مستعيناً — بذكر الله في المترنمات

ومنها : ولا ترجع بايماء سلاماً — على بيض اشرن مسلمات : الى ان قال

خمور الريق لسن بكل حال — على طلابهن محرمات
ولكن الاوانس باعثات — ركابك في مهالك مقتمات
صحبنك فاستفدت بهن ولداً — اصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء — بذلك عن نوائب مسقمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق — وارزاء يجئن مصممات
وان تعط الإناث فاي بؤس — تبين في وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حلياً — ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب — ولا في غارة متغشمات (١)

١ تغشم اذا دخل الامر بشدة

ودفنّ والحوادث فاجعـات لاحداهن احدى المكرمات
وقد يفقدن ازواجا كرامـاً فياللنسوة المتأيمـات
يلدن اعادياً ويكنّ عاراً اذا أمسين في المتهضمات
يرعنك ان خدمن بغير فن اذا رحن المشي مخدمات (١)
ومنها : وما الجارات الا جاريات بعيبك ان وجـدن مهمات
فـلا تسأل أهنـد أم لميس ثوت في النسوة المتخيمات
ولا ترمق بعينك رايحات الى حمامهن مكمات
الى ان قال
وساو لديك اتراب النصارى وعيناً من يهود ومسلمات
ومن جاورت من حنف وسرب صوابي (٢) فليبنّ مكرمات
فان الناس كلهم سواء وان ذكت الحروب مضرمات
ومنها : وواحدة كفتك فلا تجاوز إلى اخرى تجيء بمولمات الخ

وفي هذا المعنى ابيات من قصيدة لعلقمة بن عبدة من شعراء الجاهلية مدح بها الحرث الغساني واولها :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
تكلفني ليلى وقد شط اهلهـا وعادت عواد بيننا وخطوب

ومنها :

فان تسألوني بالنساء فانني بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء او قل ماله فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المـال حيث وجدنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

فكان فيكتور هوكو عارض المعري وصور في هـذا الديوان سرور العائلة بالاولاد . وكان لما نظمة في زهو الشباب ، فالشاعران في هذا المبحث على طرفي

---

(١) بغير فن اي بضروب كثيرة ومخدمات ذوات خدم وهي الخلاخل

(٢) الحنيف المسلم على ملة ابراهيم عليه السلام • والصابئون جنس من اهل الكتاب

نقيض . ولكنهما يتفقان (في تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد ووضع المنن في كل جيد) وفي الحيرة مذهب الذين قالوا رب زدني فيك تحيراً كما قال ابن الفارض

زدني بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشا بلظى هواك تسعرا

فاظهر فيكتور هوكو حيرته في منظومة عنوانها « ما يسمع على الجبل » . قال فيها : بانه صعد الى جبل مشرف على المحيط الغربي ووقف صامتاً ساكتاً يرى السماء فوقه والماء تحته ويسمع تلاطم الامواج وتضارب الرياح وامتزاج اصوات البر باصوات البحر وصعودهما الى الملأ الاعلى . فالصوت الذي يصعد من البحر فيه جلالة وسرور وهو من تلاطم الامواج والهدير . والصوت الذي يأتي من البر فيه كآبة وحزن وهو من تضارب الرياح وتأفف الانسان من مصائب الحياة . فالبحر يرتل آيات الفرح والسلام كترتيل المزامير في صهيون ويحمد الخالق على ما ابدعه من جمال المخلوقات فيصعد كلامه الطيب الى الله . وكلما فرغت موجة من تسبيحها قامت وراءها موجة اخرى تسبح الله . وأما البر فينادي باصوات الويل والحرب ويصرخ ويشتم ويلطم . فهذا الصراخ والعويل هو بكاء الارض وصراخ الانسان . وهذان الصوتان احدهما يقول « الطبيعة » والثاني يقول « الانسانية » . قال الشاعر « وتأملت طويلاً في هذا المنظر الباهر وفكرت في لج البحر الذي تعلوه الامواج فانفتح في قلبي لجة عميقة لا قعر لها وقلت في نفسي لمَ نحن هنا ؟ ما هو الغرض من كل هذا ؟ ما تصنع النفس ؟ أيهما احسن البقاء ام الفناء ؟ والله يقرأ وحده في لوحه المحفوظ لاي سبب يمزج على الدوام غناء الطبيعة ببكاء الجنس البشري :

قال المعري :

ارى الخلق في امرين ماض ومقبل وظرفين ظرفي مدة ومكان
اذا ما سألنا عن مراد الهنا كنى عن بيان في الاجابة كان

ونظم فيكتور هوكو في هذا المعنى قصيدة اخرى عنوانها « الشموس الغاربات » صور فيها غروب الشمس وظهور الشفق وتكاثف الغيوم على الافق . واستدل بنظره في المخلوقات على وجود الخالق . « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل

والنهار لآيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » فاولو الالباب من الشعراء لا سيما الذين نهجوا نهج الطريقة الرومانية لا يفترون عن التفكير في هذا الامر . ومما هو في منظومة الشموس الغاربات من لطائف الابيات قوله : « هذه السحب الملونة بالوان الرصاص والذهب والنحاس والحديد تستكن فيها الزوبعة والاعصار والصاعقة والجحيم وتدمدم دمدمة خفية . فهو الله الذي يعلقها جميعاً في السموات العميقة كما يعلق الفارس على اوتاد البيت اسلحته المتصلصلة . » (١)

ومما ورد لفيكتور هوكو في هذا الديوان من القصائد البديعة ، التي سماها « الدعاء للجميع » قال :

يا بنتي قومي للصلاة . — انظري قد عسعس الليل ، ونزل الضباب على الافق ، وطلع النجم من وراء السحاب كانه دينار . العمتي لم يبق الا مركبة تكر في الظلام على بعد . والكل دخل ليستريح . والشجرة التي على الطريق نفضت غبار النهار بريح المساء (وهي الدبور) .

زحزح الشفق عن النجوم ستار الليل وفجر كل نجم كالشرارة الحامية . ورقق المغرب حاشيته الحمراء . وفضض الليل في الدجا وجه الماء . وامتزجت اقلام المحراث بالمسالك وبما حولها من الشوك . واختفى الجميع عن العيان . والتبست الطريق على ابن السبيل .

النهار للاذى والتعب والبغض . فلنشرع في الصلاة حيث دخل الليل . ١٠

(١) سورة النبأ : الم نجعل الارض مهاداً . والجبال اوتاداً . وخلقناكم ازواجا وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجا . وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حباً ونباتاً . وجنات الفافاً

والسبات الراحة . والمعصرات السحائب تقتصر . والاعصار ريح تثير سحابا ذات رعد وبرق

أصفى الليل وما أوقره ! الراعي يعود والماشية تجأر ، والريح تعزف في نوافذ البرج ، والمياه تركد في المستنقعات . والجميع يتألم ويشكو . لان الطبيعة من شدة تعبها امست في احتياج للنوم والصلاة والحب .

هذه الساعة هي التي يتكلم فيها الاولاد مع الملائكة . واما نحن فنهرع فيها لملاهينا الغريبة . فجميع الاولاد الصغار يدعون في آن واحد بدعاء واحد . وهم راكعون على الارض واعينهم شاخصة الى السماء وايديهم مضمومة وارجلهم حافية . ويطلبون لنا الرحمة من الله تعالى .

ثم ينامون . — وحينئذ تتناثر احلامهم الذهبية في حنادس الليل بعد ان تتولد من هوشات آخر النهار . فاذا رأت عن بعد انفاسهم متصاعدة وشفاههم محمرّة طارت الى ناموسياتهم كما يطير النحل الى الازهار ورفرفت حولها .

فيا عجباً لنوم السرير ! ويا عجباً لدعاء الصغار ! فهو صوت حنو ورأفة لا عدوان فيه . وما احلى هذا الدين الذي يقر العين ويضحك السن ! هذا مطلع النشيد في ليلة السعود . فينيم الولد عقله الصغير في الدعاء كما يضع الطير رأسه تحت جناحه .

٢

يا بنتي قومي للصلاة . — وادعي اولا وخاصة للتي هزت الليالي الطوال في سريرك . للتي التقطك من عالم الذر وانت نفس لطيفة ووضعتك في الدنيا وصارت لك اماً شفوقة وقسمت لاجلك نصيبها من هذه الحياة المرة الى قسمين فشربت الحنظل واستقتك العسل

ثم ادعي لي . فاني احوج منها لدعائك لانها مثلك صالحة ، بسيطة ، صادقة ، قلبها صاف ، ووجهها راض . شفقت على كثيرين ولم تحسد احداً . عاقلة ، حليمة ، صابرة على غصص الحياة ، متحملة للشر بدون ان تعرف فاعله

طالما قطفت الزهور ويدها الطاهرة لم تمس قشر الشجرة المنهي عنها (١) . ولم

(١) قيل ان الاديب الماهر في الانتقاد الادبي سنت ريف كان يغازل زوجة فيكتور هوكو ولذا حصل بينهما تقاطع وعداوة

تقع بالفخ مع ضحكة سنها . وتنسى دائماً كل ما سلف ومضى . ولا تعرف الافكار الخبيثة التي تمر في الذهن كما يمر الظل على الماء

تجهل — واجهلي مثلها دائماً — ما في هذا العالم من الشقاء الملوث للنفس ، والحظوظ الكاذبة ، والاباطيل الفانية ، وكل ما عاقبته الندامة وتبكيت الضمير ، والشهوات التي ترغي على القلب كارغوة ، وخواطر الخجل والمرارة الباعثة على احمرار الوجه

انا اخبر بالحياة و يمكنني ان اقول لك متى كبرت واقتضى تعليمك بان الجري وراء السلطة والسعادة والتفنن هو جنون ودناءة . و بان كاس [1] الانتخابات تدور علينا وتسقينا الخزي بدلا عن الفخار . وبان الانسان يخسر نفسه في لعب هذا القمار .

كلما عاشت النفس تعطشت . والامور وان شفت بدايتها عن نهايتها وظهرت اسبابها في عاقبتها فالانسان مع ذلك يشيب على الرذيلة وعلى الضلال المنفور منه . من كثرة المشي يتيه الانسان ويداخل عقله الشك . والكل يترك شيئاً على شوك الطريق التي سلكها فالغنم تترك صوفها والرجل يترك فضيلته

قومي اذاً وادعي لي وقولي في مقام كل دعاء : « يا الله يا الله يا ربنا انت ابونا فارحمنا انك انت الرحيم . فارحمنا انك انت العظيم . » ودعي قولك يذهب الى حيث ترسله نفسك . ولا تقلقي فلكل شيء طريق . فلا تقلقي على الطريق التي يذهب فيها

لا شيء في هذه الدنيا الا وله مجرى . فالنهر يجري متلوياً بين السهول حتى يصب في البحر والنحلة تعرف الزهرة التي فيها العسل . وكل طائر يطير ويقع دائماً على غرضه فالنسر يطير و يرتفع نحو الشمس . والعقاب يهبط على المقبرة والخطاف (السنونو) يطير في الربيع . والدعاء يصعد الى السماء

فاذا ارتفع صوتك الى الله بالدعاء لي اكون كالعبد الذي جلس في الوادي بعد ان حط حمله على حافة الطريق واشعر بخفة نفسي لان دعاءك يأخذ معه وهو

(١) وهي كاس تجمع فيه الاصوات لانتخاب رئيس المجلس او غيره

صاعد جميع ما يثقل على عاتقي من الآلام والاوزار والخطايا

قومي ادعي لابيك . — لاصير اهلاً لرؤية طيف ملك يمر في المنام كطير الحمام . ولتشتعل نفسي مع اشتعال البخور . امحي خطاياي بنفسك الطاهر ليصير قلبي معصوماً نقيـا كانه صحن الهيكل الذي يغسل في كل مساء

٣

ادعي ايضاً لجميع من يمر على هذه الارض من الاحياء ولجميع الذين اندثرت مآثرهم بهبوب الرياح وتلاطم الامواج عليها . وللاحق الذي يفرح بلمعان الحرير و بسرعة عدو الخيل . ولكل من يتألم و يشتغل سواء كان غادياً أو بادياً . سواء عمل خيراً أو شراً

ادعي للمنهمك في اللذات والعاكف عن القبلات الى الصباح . ولمن يتخذ وقت الصلاة ليلهو بالرقص أو الجلوس على المائدة . و يشتغل بالفحشـاء في الساعة التي تتلو النفس الزكية فيها دعاء المساء واذا فرغت من دعائها رجعت خائفة من الله يسمع رجاءها

يا ولدي ادعي للعذارى المستورات . والمحبوس في القلعة . وللعواهر اللواتي يبعن اسم الحب الغالي . وللعاقل الذي يستغرق في مطالعاته و يفكر في الخالق . وللكافر الملعون الذي يطعن في الشريعة المقدسة . — لان الدعاء لا نهاية له . لانك تؤمنين عن الذين يجحدون والطفولية تقوم مقام الايمان

ادعي ايضاً للذين هم راقدون تحت حجر القبر . يا لها من حفرة سوداء تفتح امامنا في كل آن . جميع هذه النفوس الهالكة مفتقرة لمن يزيل عنها صداء الجسم (١) هل سكوتها دليل على انها لا تتألم ؟ يا أولادي لننظر تحت الارض لان الشفقة على الاموات

٤

اركعي اركعي على الارض حيث وضع ابوك اباه . وحيث وضعت امك امها . حيث يرقد كل من عاش عليها رقدة عميقة في حفرة يمتزج فيها الغبار بالغبار .

(١) معري : تجاورهذا الجسم والروح برهة فما برحت تأذن بذاك وتصدا

ويجد الانسان تحت ايه آبا. كاللج تحت اللج في بحر لا قعر له

ياولدي حينما تنامين تبسمين . فيأتي الطيف وهو فرح في الظلام الذي غطست فيه . فيجفل من نفختك ثم يعود اليك ايضاً . وفي النهاية تفتحين عينيك الالهيتين اللتين احبهما . في الوقت الذي يفتح فيه الفجر على الافق جفنه وله اهداب ذهبية فان الفجر عين الهية ايضا

ولكن الاموات لو تعلمين اي نوم ينامون ! فرشهم باردة وثقيلة على عظامهم ولذا شنعتهم . والملائكة لا يسبحون وهم مجتمعون حولهم وطيف الخيال يثقل عليهم بجميع ما جنته ايديهم . ليلهم ليس له فجر والندامة تنقلب دوداً في القبر وتفتت قلوبهم

يمكنك بكلمة يمكنك بقول ان تجعلي ندامتهم تتخذ لها جناحاً وتطير . وان تبعثي بحرارة لطيفة تلذذ عظامهم . وان تجعلي الشعاع يصيب أيضاً اجفانهم الغامضة وان توصلي لهم خبراً من النور والحياة وشيئاً من الرياح والاحراج والمياه

قولي لي حينما تذهبين وانت طفلة مفكرة تدورين في شاطىء البحر المتلاطم او تحت الشجر الذي يملأ القلب مهابة بظله وبتضارب الرياح عليه ، الا تسمعين صوتاً يقول لك يا بني حينما ألا تدعين لي ؟

هذه شكوى الاموات ؟ فالاموات الذين يدعى لهم ينبت على قبرهم نبات اشد اخضراراً واكثر ازهاراً . ولكنهم منسيون واحسرتاه ! حتى الشيطان لا يضحك لهم ولا ضحكة استهزاء . ليلهم بارد مظلم . وبعض الشجر الهائل الذي يظلل قبورهم يغرس دائماً عروقه في قلوبهم بلا شفقة عليهم

ادعي ! حتى ان الاب والعم والاجداد الذين لا يطلبون منا الا الدعاء فقط ، يهتزون في قبورهم عند سماع ذكرهم . ويعلمون ان على وجه الارض من يتذكرهم بعد ، ويشعرون بحصول دمعة في عينيهم الفارغة كما يشعر ثلم المحراث بتفتح الزهرة

٥

يا حماتي لا ينبغي لي انا ان ادعي لجميع الهالكين . ولا للاحياء المارقين من الدين . ولا لجميع الذين ضمهم القبر . والقبر اصل المعابد

لا ينبغي لي انا الذي نفسه فانية ، مملوءة بالخطايا ، وفارغة من الايمان ، ان ادعي للجنس البشري . لان صوتي يكاد لا يكفي ليستغفر الله عن ذنوبي

كلا بل لو امكن احد أن يدعي اليوم لهذه الارض الفاسدة لكان انت . انت الذي صوتك يسبح . ودعاءك الطاهر يا ولدي يمكنه ان يكاف بالآخرين

اسئلي هذا الاب العظيم الذي يبسم في افقك لماذا الشجرة الكبيرة تخنق الشجرة الصغيرة ؟ ومن الذي يميل بالعقل البشري عن الحق الى الباطل

اسئليه هل الحكمة لا تختص الا بالازلية ؟ لماذا نفخته تحطنا ؟ لماذا تحشر الانسانية في القبر بلا انقطاع ؟

الاولاد يسهرون في المكان المقدس على الذين افناهم الاثم . فهم ازهار يعطرونهم وهم بخور يفوح عليهم . وهم اصوات ترتفع الى الله

فلنترك هذه الاصوات العالية تفعل . ولنترك الاطفال جاثين على الركب . ايها المذنبون كانا ولنا ذنوب . كانا على شفا جرف هار . فينبغي للطفولية ان يدعو لنا

٦

الخ . . الخ . .

وقصيدة الدعاء للجميع طويلة ومشتملة على قواعد الانسانية والفلسفة الاجتماعية التي شرعها واوضحها في كتاب البؤساء لان النثر اوسع مجالاً من الشعر الذي يضيق عنه الكلام ولا يتيسر فيه الا الرمز للمسائل والاشارة اليها واللبيب تكفيه الاشارة . وانما أوردنا منها ما ذكر لتعلم الاساليب الشعرية التي جرى عليها المؤلف في النظم على نهج الطريقة الرومانية ولتظهر افكاره في الموجدات . وكان نظمه لهذه القصيدة وهو في سن الشيخوخة أي في سنة ١٨٨٠ وهي معتبرة من ابلغ كلامه

ولعله اتبع في هذا الدعاء الحديث الذي رواه مسلم عن ابي هريرة عن النبي عليه السلام

قيل — يا رسول الله من احق الناس بحسن الصحبة ؟

قال — امك ثم امك ثم اباك ثم أدناك ثم ادناك

ومما ورد في القرآن قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » .

وقال المعري في اللزوميات :

واعط اباك النصف حيًا وميتاً وفضل عليه من كرامتها الاما
أقلك خفًا اذ اقلتك مثقلاً وارضعت الحولين واحتملت تماً
والقتك عن جهد والقاك لذة وضمت وشمت مثل ما ضم او شما

والنصف هو النصفة والانصاف . واقل بمعنى حمل . واحتملت تماً اي أتمت أيام حملها وولدت لتمام . ولو تتبعنا كلام المعري أو ما ورد على شاكلته من الشعر العربي لوجدنا فيه اكثر المعاني الواردة في قصيدة الدعاء الجميع

٤ — اغاني الشفق

ويشتمل هذا الديوان على نحو خمسين قصيدة . . ابلغها المنظومة التي عنوانها (الى العمود) وهو المركون في ميدان فاندوم بباريس . وكان قد نصب على عهد الامبراطورية الاولى تذكاراً لانتصارات نابوليون الاول على النمساويين والروسيين واغتنامه منهم الغنائم الكثيرة وفي جملتها ١٫٢٠٠ مدفع فبني العمود بالاحجار وصفح بنحاس المدافع المغتنمة بعد ان نقش عليه صور المحاربات على الاسلوب المعروف عند الرومان وبقية الامة الفاتحة القديمة التي نصبت المسلات ولاعمدة والاهرام وصورت الصور على جدران المعابد والقبور . وعدد الشاعر في هذه المنظومة مظفريات نابوليون ومآثره ومفاخره وقال بان يد قدرته شيدت هذا العمود بالمجد والنحاس . والقصيدة من ابلغ اشعار الحماسة وقد صدرت من افصح شاعر في حق أعظم فاتح

ومن قصائد هذا الديوان المنظومة التي عنوانها (نابوليون الثاني) ومطلعها :

«الف وثمانمائة واحدى عشرة » وهي السنة التي ولد فيها الممدوح . وهذا المطلع من اساليب الطريقة الرومانية وليس فيها تعمل ولا تصنع كما في مطلع القصائد المنظومة على نهج الطريقة المدرسية ونابوليون الثاني هو ابن نابوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا و يسمى دوق ريشتاد وكانت نشأته في فينا عند امه . والف فيه شاعر العصر أدمون روستان رواية بديعة سماها النسير (لبكاون) تصغير نسر وتمثل في يومنا على المراسح

وفي هذا الديوان أيضا منظومتان عنوانهما (قناری) وهو بطل اليونان المتقدم ذكره في ديوان الشرقيات . وكانت ولادته سنة ١٧٩٣ في جزيرة إبصاره المجاورة لجزيرة ساقز ووفاته سنة ١٨٧٧ . وكان رئيساً على مركب صغير و بعد استقلال اليونان صار رئيساً للاسطول وناظراً للبحرية ثم رئيساً للوزارة .

وفيه أيضا قطعة عنوانها (الرجاء بالله) ومنها يعلم حسن اعتقاد الرجل وان كان من اهل الحيرة وهي : ضع يا ولد أملك في الغد ، ثم في الغد ايضاً ، ثم في الغد دائماً . ولنعتقد في المستقبل . ضع املك وكلما طلع الفجر لنكن هناك حاضرين لنستغفر كما ان الله حاضر ليغفر . خطايانا يا حبيبي وملكي هي المسببة لآلامنا . فاملنا اذا اطلنا القعود على الركب يغفر الله لنا بعد فراغه من الغفران لجميع المعصومين ولجميع التائبين

٥ — الاصوات الداخلية

نقل المؤلف في مقدمة هذا الديوان عن شكسبير انه قال في بعض مؤلفاته بان كل انسان في داخله موسيقى فتبًا لمن لا يسمعها . واورد في هذا الديوان اثنتين وثلاثين قصيدة غراء ومن ابلغها قصيدة البقرة صور فيها قرية بما حولها من الدجاج والكلاب . ينبح هؤلاء والناس نيام وتصرخ اولئك عند طلوع الفجر . فالديوك حراس النهار والكلاب حراس الليل . وفي تلك القرية بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقفت بكل هيبة ووقار لاتعبأ بالذين حولها . وجاء صبية بشعور مغبرة واطمار بالية واسنان حادة وصحة تامة وهم في صراخ وجلبة يزاحم بعضهم بعضاً

وينادي كل فريق منهم رفاقه . واغتنموا فرصة غياب اللبان وانقضوا على البقرة يعصرون ثديها باصابعهم ويلتهمون حلماتها الكثيرة بافواههم ويمتصون حليبها وهم متكأكئون حول احشائها وهي غير مكترثة بما يفعلون وشاخصة ببصرها تنظر الى بعض النقط التي حولها

فمثل هذه البقرة كمثل الدنيا ام المخلوقات وملجأهم الوحيد يلتقطون العشب واللبن من تحت احشائها الابدية . قال المؤلف فنحن معشر العلماء والشعراء تعلقنا بثديك المتين ايتها الطبيعة وارتوينا مما ادرّه علينا فكان لبنك دماً وروحاً لنا . واستفدنا من نورك وحرارتك واوراق شجرك ومن جميع ما عليك من الجبال الراسية والانهار الجارية والمروج الخضراء والسماء الزرقاء وانت تفكرين بربك ولا تنزعجين منا

فبقرة فيكتور هوكو اشبه بام دفر المعري حيث قال :

دنياك تكنى بام دفر　　لم يكنها الناس ام طيب

والدفر هو النتن والتعفن ولا تخفى مناسبته في تكوين الحيوان والنبات . ولكن بقرة فيكتور هوكو تدرُّ على ابنائها بلبن سائغ للشاربين . والمعري

يحلف ما جادت الليالي　　الا بسم لنا قطيب

والقطيب الممزوج

٦ — الاشعة والظلال

افتتح هذا الديوان بمقالة ادبية نثرية قال فيها :

كتب شاعر عن جنة عدن الضائعة وكتب شاعر آخر عن النار . فالدنيا بين الجنة والنار . والحياة بين البداية والنهاية . والانسان بين اول انسان وآخر انسان . فالانسان موجود باعتبارين احدهما بالنظر للجمعية والثاني بالنظر للطبيعة . ووضع الله الشهوة في الانسان . ووضعت الجمعية فيه العمل . ووضعت الطبيعة فيه الخيال فمن الشهوة الممزوجة بالعمل اي من الحياة في الحاضر ومن التاريخ في الماضي تولد

« الدرام » (١) ومن الشهوة الممزوجة بالخيال تولد الشعر بمعناه الاصلي . فاذا نزل توصيف الماضي الى التفصيلات العلمية ، واذا نزل توصيف الحياة الى التشريحات الدقيقة صار الدرام روماناً . فالرومان ما هو الا درام مفصل تارة بالفكر وتارة بالقلب تفصيلاً لا يليق بالتمثيل على المراسح . وعدا هذا فالشعر فيه درام . والدرام فيه شعر . فالدرام والشعر ينفذ كل منهما في الآخر كما تنفذ الحواس في الانسان أو كما ينفذ النور في الاجسام . والعمل فيه احياناً خيال . مثال ذلك ما قاله السيد في الرواية التي الفها قورنيل « هذا النور المظلم الذي يهبط من النجوم »

لا احد في هذا الكون يتخلص من السماء الزرقاء والشجر الاخضر والليل المظلم والرياح العاصفة والطيور المغردة . وليس من مخلوق يقدر على التجرد من الخليقة . على حد قول المعري : أأخرج من تحت هذي السماء فكيف الاباق واين المفر . — ومن جهة اخرى الخيال فيه احياناً عمل ... لان الواحد يتمم الآخر والشيء يكمل بعضه بعضاً . فالجمعية تقوم في الطبيعة والطبيعة تظرف الجمعية

فالشاعر تنظر احدى عينيه للانسانية والاخرى للطبيعية . والعين الاولى تسمى الملاحظة والاخرى تسمى التصور . فمن هاتين العينين الشاخصتين في موضوعها يتولد في مخ الشاعر الهام يقال له القريحة .... الخ

ثم افتتح المؤلف هذا الديوان بقصيدة عنوانها « وظيفة الشاعر » وكان تكلم على هذه الوظيفة في مقدمة الديوان الاول وقال ينبغي للشاعر ان يكون للامة نوراً يسعى بين يديها . ويريها طريق الصواب . ويقودها الى المبادىء الحسنة . وهي الانتظام والشرف ومكارم الاخلاق . ولتكون سلطة الشاعر هينة على الامة يلزم ان يهتز بين اصابعه جميع الياف القلب الانساني كما تهتز اوتار العود . ويلزم ان لا يكون كلام الشاعر صدى لكلام احد سوى كلام الله تعالى . وينبغي للشاعر ان يذكر الامة بان لها ديناً ووطناً وهذا ما اغفل ذكره المتقدمون وان ينشر دائماً باشعاره ما يكون لبلاده من الاقبال والادبار وما في دينه من الزهد

(١) مؤلف الجنة الضائعة هو الشاعر الانكليزي ميلتون . ومؤلف النار اي الكوميديا المقدسة هو الطلياني دانتي انظر مقدمة روى بلاش في تعريف الدرام

والاستغراق في الحب حتى ينال المتقدمون عليه والمعاصرون له شيئاً من قريحته ومن روحه وحتى لا يقول عنه من يأتي بعده في المستقبل بانه كان ينشد اشعاره بين قوم جاهلين

و بيّن فيكتور هوكو في القصيدة التي عنوانها وظيفة الشاعر افكاره وشرحها احسن شرح وشبه الطبيعة بعود كبير وشبه الشاعر بريشة الهية يضرب بها على اوتار هذا العود . فالشاعر يلهم الشعر وهو يسبح بين غياض الاشجار وعلى سواحل البحار و يسمع هدير الماء وملاعب النسيم بالاوراق . وقال في آخر القصيدة الرابعة : انشر ايها الشاعر نشيدك الديني بين العائلات و بين الصبيان والبنات و بين الشيوخ وأرد باصبعك الساحل للذين سارت بهم السفن في لج البحر والارياح متغيرة (١). وأرد للعذارى العصمة وهي كوكب السعد والشرف . وارد للجمهور المحراب الذي غطاه الكفر . وارد للشبان المستقبل وللشيوخ الخلود وصب دليلك في عقول الرجال والنساء . وارد لكل منهم الصحيح من الجهة المقنعة حتى يجد عندك كل مفكر ما يفتش عليه . أغرس محبة الله في القلوب والق في كل نفس كلمة الهية من جنس ما تشعر به ..... الخ

وهذا ما اشار اليه المعري في مقدمة لزومياته حيث قال نشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكذب فمنها ما هو تمجيد لله و بعضها تذكير للناسين وتنبيه للرقدة الغافلين وتحذير من الدنيا الكبرى التي عبثت بالاول واستجيبت فيها دعوة جرول اذ قال لامه

جزاك الله شراً من عجوز   ولقاك العقوق من البنينا

فهي لا تسمح لهم بالحقوق وهم يباكرونها بالعقوق . . الخ

فهذه صفة الشاعر الذي ينبغي الاقتداء به والنسج على منواله . لا الشعراء الذين يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون و يقولون ما لا يفعلون حتى صار لهم الكذب خلقاً والتملق للامراء سجية استجداء لمعروفهم وطلباً لاحسانهم

وارق ما في هذا الديوان المنظومة التي عنوانها حزن اولمبيو كنى بهذا الاسم

(١) يموج بحرك والاهواء غالبة   لراكبيه فهل للسفن ارساء (معري)

عن نفسه وقايس فيها بين جلال الطبيعة وجمالها و بين قلة حظ الانسان وقصر ايام سعادته وليالي انسه وانقضاء شهواته وفناء اذاته . اذ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . قال فيكتور هوكو في آخر هذه القصيدة : يقرضنا الله المروج النضرة والعيون الجارية والاشجار المتمة والصخور الوعرة والسموات الزرق والبحيرات والغدران والسهول لنضع فيها قلوبنا واماننا واشواقنا . وهذا القرض لاجل مسمى . ثم يسترد جميع ذلك منا ويطفىء سراجنا ويغمس في الليل المغارة التي كنا مستنيرين ونحن فيها . ويقول للوادي الذي انطبعت عليه روحنا ان يمحى اثرنا وينسى ذكرنا . فلا حيلة . انسينا ايتها الدار والبستان والظل والخضرة . وابلي يا عتابنا . واخف يا شوك اثر اقدامنا وغردي يا طيور واجري يا انهار وانمي يا اوراق فان الذين نسيتموهم لا ينسوكم ابداً ..... الخ . وهي طويلة محزنة . وفي هذا المعنى أو ما يقارب به قصيدة المعري التي يقول فيها :

للمليك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات اماء
فالهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا و... ... والنار والنثر ة [1] والارض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا بك في قول ذلك الحكماء
خلني يا اخي استغفر الله فلم يبق فيَّ الا الذماء
ويقال الكرام قولاً وما في العص ر الا الشخوص والاسماء
واحاديث خبرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء

وهي طويلة مدروجة في اللزوميات وكلها حكم ، ونفس المعري ونفس فيكتور هوكو يتقاربان ولكن الاول اعمى والثاني بصير يرى بهجة الطبيعة وزينتها فيظهر وصفها في شعره . ويزيد فيكتور هوكو على المعري بانه من اهل عصر جديد بزغت في افقه شمس الحرية والمدنية واتسع فيه نطاق العلوم وافانين الصناعات فارتفعت مدارك الشاعر

(١) النثرة نجمتان صغيرتان يقال لهما انف الاسد

ويشبهون القصيدة (حزن اولمبيو) (١) بقصيدة البحيرة التي نظمها الشاعر الشهير لا مارتين وترجمها للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيينا وباريس سابقاً . ورأيت في كتاب فرنساوي نشر حديثاً بان أحمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم قصيدة لامارتين المذكورة للعربية . ومؤلف هذا الكتاب الفرنساوي فرديناند دي مرتينو وعبد الخالق بك فروت وعنوانه منتخبات من غزل العرب ترجما فيه من كلام الجاهلية واهل الطبقة الاسلامية ومن اقوال المعاصرين ايضاً مثل حسين حسني ومحمود باشا سامي البارودي واسماعيل باشا صبري وحفني بك ناصيف .

***

هذا ما نظمه فيكتور هوكو من الشعر الموسيقي في الدور الاول من حياته . وأما ما نظمه في الدور الثاني اي في منفاه فهو اعلى طبقة وأحسن ديباجة وأشد تأثيراً واهاجة واكثر توقداً وتوهجاً لان قريحته نضجت في شمس الغربة وهو معتزل عن الناس بتلك الجزيرة . واستبحر فكره بمجاورته المحيط الغربي لان للجوار حقاً . فنظم احسن مؤلفاته وهي ديوان القصاص وديوان التأملات وديوان سير الدهور . وابلغ هجاء لفيكتور هوكو ما هجا به نابوليون الثالث في ديوان القصاص وافجع رثاء له ما رثى بنته في ديوان التأملات . وأحسن شعر حماسي له ما ورد في ديوان سير الدهور كما قرره العارفون بكلامه .

٧ — القصاص

الف فيكتور هوكو ديوان القصاص بعد انقلاب الجمهورية الثانية الى الحكومة الامبراطورية وذلك ان البرنس لويس نابوليون بونابرت بن لويس بونابارت الذي كان ملكاً على هولاندا واخ نابوليون الاول انتخب رئيساً للجمهورية لاربع سنوات ختامها سنة ١٨٥٢ فحلف امام مجلس نواب الامة وبحضور فيكتور هوكو

(١) اوليمبيو اسم لامعنى له ولا هو من الاسماء التاريخية وانما كنى به الشاعر عن نفسه

الذي كان عضوا فيه على ان لا يبدل القوانين الموضوعة ولا يخالف احكام القانون الاساسي ولا يخون عهد الجمهورية . ثم صارت الاكثرية في المجلس لحزب الاورليانيين وارادوا تولية كونت باريس وهو شاب من العائلة الملوكية في فرنسا . وكان يعارضهم حزب الوارثين الذين يقولون بان حق الوراثة في الملك انما هي لكونت شامبور فهو الذي ينبغي توليته على سرير الملك الفرنساوي . فاغتنم رئيس الجمهورية هذه الفرصة وكان حق الوراثة في الامبراطورية التي اسسها نابوليون الاول منتقلاً اليه لوفاة نابوليون الثاني عند اهل امه في فيينا وهو الملقب ليكاون اي النسير ودوق ريشتاد . وكان لنابوليون الاول شهرة عظيمة واعتبار زائد في نظر افراد الامة فاخذ رجال المعية وحاشية القصر يشوقون ابن أخيه على الاستبداد بالامر كما يفعل المقربون من أولي الامر في كل جيل وفي كل أمة وكما فعلت بطانة هارون الرشيد ودسوا للمغنين الشعر المهيج واحتالوا على سماعه للخليفة تحريضاً له على البرامكة ومن هذا الشعر قولهم :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة . واحدة انما العاجز من لا يستبد

فلما سمعها الرشيد قال اي والله اني عاجز حتى بعثوا الي بامثال هذا . وهكذا كانت بطانة البرنس بونابارت رئيس الجمهورية يغرونه على الاستبداد ونكث العهد وقلب الحكومة . ففي ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ أي قبل حلول الاجل المضروب لانتهاء رئاسته نكث الايمان التي حلفها وغير القانون الاساسي الذي تعهد برعاية احكامه وعدم تغيير مضمونه و بدله بقانون اساسي آخر يخوله حق البقاء في رئاسة الجمهورية عشر سنين . ثم أبدله أيضاً بقانون اساسي ثالث أعلن به الحكومة الامبراطورية بدل الحكومة الجمهورية . وصدقت الامة على هذين القانونين وكان عدد الاصوات المصدقين يزيد على ٧ ملايين صوت . فاعلن لويس نابوليون امبراطوراً على فرنسا وتلقب بنابوليون الثالث . وشرع في اضطهاد المخالفين لسياسته وتعذيبهم . ففر فيكتور هوكو من بطشه و بعث يقول له ما معناه

وحلفت انك لا تميل مع الهوى اين اليمين وأين ما عاهدتني

فاجاب لسان الحال عن نابوليون الثالث

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وخرج مشير القصر الامبراطوري يجول بالعساكر في شوارع باريس ويقول ما معناه

ان المعالي عروس غير وامقة ما لم تخلق رداءها برشح دم

وكان اول هذا الملك من رجل سعى الى ان دعوه سيد الامم

فهذا الرجل هو نابوليون الاول الذي لا يختلف في شجاعته ومهارته اثنان ولكن عساكر الامبراطورية الثانية لم تظهر البسالة على قول فيكتور هوكو الا في طرق باريس وميادينها بقتل أحرار الرجال والنساء والاطفال ونفيهم من الارض وتغريبهم على الجواري المنشآت في البحر . ولما انتشبت الحرب بينهم وبين جيرانهم ولوا مدبرين ولذا يقول لهم الشاعر متهكماً « أسد علي وفي الحروب نعامة » . على انا نحن معشر العثمانيين لا ننكر بسالة عساكر الامبراطورية ولا شجاعة ماقهون حينما صعد على قلعة مالاكوف في مدينة سباستابول من شبه جزيرة القرم فقيل له بان الروس وضعت تحت البرج باروداً لتطيره فاجاب « انا هنا وهنا أقعد » فذهبت مثلا وكان ذلك في الحرب التي حدثت بين الدولة العلية والروسيا سنة ١٨٥٥ وكانت فرنسا وانكلترا متفقتين مع العثمانيين

يشتمل ديوان القصاص على نحو مائة منظومة تفجرت منها سهام السخط والغضب وتساقطت كالرجوم والشهب على نابوليون الثالث وعلى أشياعه وأحزابه . ولم يدع منهم احداً الا وعرض به ورماه بنبال هجوه فندد باعضاء مجلس المبعوثان (١) ومجلس الاعيان لتصديقهم على لائحة القانون الاساسي للحكومة الامبراطورية . وبالذين نفذوا هذا القانون من الوزراء وامراء العسكرية وسائر رجال الدولة والمعية . وبالذين تملقوا لرجال القصر الامبراطوري وقبلوا اعتابهم جرًّا لمغنم أو دفعاً لمغرم . وبالحكام الذين راعوا خواطرهم في الاحكام وحكموا على

(١) مجلس المبعوثان هو مجلس نواب الامة والالف والنون ليست للتثنية وانما هي اداة جمع بالفارسية

احرار الرجال بل والنساء بالحبس والنفي والاعدام . وبالاقسة والرهبان الذين دعوا في كنائسهم بتأييد عز الدولة الامبراطورية . وساق الجميع بالسنة حداد . وكلما ذكر سيئة أو رذيلة لنابوليون الثالث قارنها بحسنة أو فضيلة من حسنات نابوليون الاول وفضائله ولذا لقب الاول بالكبير والثالث بالصغير. فورد في أشعاره كثير مما يسميه ادباؤنا في فن البديع بالطباق وهو الجمع بين متضادين لا سيما في الهجوية التي عنوانها الاستغفار او تكفير السيئات فانه جعلهما فيه على طرفي نقيض . فهاهي ديوان القصاص تتخللها أشعار المدح والحماسة . وفي هذا الديوان ايضاً رثاء الذين قتلوا في حادثة ٤ دسمبر والحانين الذين اخرجوا من ديارهم ونفوا بعيدين عنها واناشيد الذين سفروا على البحر ووصف حالة اولئك المصابين والمحكومين والمنفيين وحنينهم الى اوطانهم وشوقهم لمن تركوه فيها من الارامل والايتام ومن الاخوات والبنات والاباء والامهات اللواتي يبكين بكاء الخنساء على اخيها مما تتفطر له القلوب وتتفتت الاكباد لا سيما من قرأ شعره وهو يتألم بلدغة الاستبداد

فمما ورد في هذا الديوان من بدائع المعاني القصيدة الثالثة من الفصل الثاني وعنوانها « تذكار ليلة ٤ » وهي الليلة الثانية من جلوس نابوليون على تخت الامبراطورية . نظمها الشاعر ليلة عيد الجلوس سنة ١٨٥٢ وصور فيها ما شاهده في تلك الليلة وجسم الحادثة بكيفية بديعة ومضمونها ان صبيًّا يتيماً حسن الصورة حسن الاخلاق كان يلعب مع الصبيان امام دارهم فاصابته رصاصتان من بنادق عسكر الامبراطورية وهم يتجولون في شوارع باريس لارهاب الناس وتسكينهم . ولم يكن لهذا الصبي المقتول الا جد وجدة طاعنان في السن ليس لهما وارث سواه فادخلته جدته الدار والدم يسيل من جراحه ومات بين يديها فاخذت تنوح وتلطم وتقول واسوأتاه ! واحسرتاه ! كيف اعيش بعدك يا ولدي ومهجة كبدي . لم تخلف لي امك سواك . افهموني انتم يا حاضرون لماذا قتلوه ؟ اريد ان تعرفوني السبب . الصبي لم يصرخ لتحي الجمهورية

قال الشاعر اما نحن فكنا واقفين صامتين دهشة وفرائصنا ترتعد امام هذا المأتم الذي لا عزاء له .... الى ان قال لها مخاطباً .

اينها الجدة انك لا تفهمين السياسة ابدًا . الموسيو نابوليون — وهذا اسمه الصحيح — فقير بل وامير أيضاً (برنس) يحب القصور ويقتضي ان يكون له خيل وخدم ونقودٌ للعب القمار ولسفرة الطعام والخزائن الملبوسات وللخروج للصيد . وبهذه الوسيلة يخلص العائلة والكنيسة والجمعية . ويريد ان يكون قصر بين كلو مملوءا بالورد طول الصيف لتأتي اليه ولاة البلاد واعيانها ويسجدوا له . فهذا هو السبب الذي اوجب الجدات العجائز أن يخطن باصابعهن المرتجفة من الهرم اكفان صبيان لم يتجاوزوا من العمر سبع سنين

والقصيدة السادسة من الفصل الثالث عنوانها « الشرقية » قال فيها

لما رأى عبدالقادر وهو في سجنه قد دخل عليه ذلك الرجل ذي العينين الضيقتين الذي يسميه التاريخ نابوليون الثالث قال مزدرياً من يكون هذا الرجل ؟ رأى وهو في نافذته رجل قصر الايليزة الاحول يمشي وخلفه قطيع كالغنم في خدمته . اما هو فكان اسد الصحراء والسلطان الذي ولد تحت اشجار النخيل وصاحب السباع الكاسرة . فهو الحاج النافر وعيناه هاديتان . والامير المفكر الشديد الرحيم . وهو رجل عابس متشائم شبح اصفر في برنس ابيض . وثب وهو خمران بعداوة الحرب ثم وقع في الظل على الركب . وهو الذي يصلي على قارعة الطريق ويجلس في الخباء المرفوع الاطناب وترى النجوم يديه المصبوغتين بدم الانسان وهو ساكن الجأش . وهو الذي يسقي السيوف ويجلس على الرؤوس المقطوعة مفكراً في بديع خلق السموات . فلما رأى لحظ هذا الرجل الخائن المحتال وجبهته المظلمة من الخجل احجم عنه وهو العسكري الجميل والشيخ المهيب الجليل ونفر من شاربي ذاك الشنيع (١)

فقيل له انظر ايها الامير بلطات العساكر وهي مارة فهذا الرجل هو قيصر الحرامي اسمع هذه الشكايات المرة وهذا الصراخ المتعالي . فهذا الرجل الذي لعنته الامهات ولعنته الزوجات . لانه رملهن وكسر قلوبهن . واخذ فرانسا وقتلها وهو الان يلغ في

(١) وكان نابوليون الثالث ذا شاربين افقيين عكس امبراطور المانيا الحالي غيليوم الثاني

دمها . فحينئذ سلم عليه الحاج عبد القادر . ولكنه في الباطن احتقر هذا الدني الدموي فهذا النمر الاشم الانف شم ذلك الذئب وهو مستخف به . اه

نظم فيكتور هركو هذه الهجوية وهو في جزيرة جرسي في نوفمبر سنة ١٨٥٢ وكان الامبراطور ناپوليون بعد جلوسه يذهب للاصطياف في مدينة بو التي هي من اجمل المدن الفرنساوية على حدود جبال البيرينه وفي مدينة بياريس التي على ساحل المحيط الغربي بالقرب من الحدود الاسبانية فزار في احدى سفراته الامير عبد القادر الجزائري ولطفه واطلق سراحه

فان هذا الامير الخطير بعد ان ثبت أمام الفرنساويين ١٥ سنة واظهر من البسالة والدراية في الحرب ما لا مزيد عليه اضطر سنة ١٢٦٤ ه على تسليم نفسه فسيره الدوق دومال والي الجزائر في ذلك الحين الى فرانسا . فانزل في قصر لامانغ من مدينة طولون . ثم نقل منه الى قصر مدينة بو ويسمى قصر هنري الرابع وهو من احسن القصور بناء وزينة ولم يزل السائح يشاهد فيه الدائرة التي سكنها الامير عبد القادر سنة ١٨٤٨ م ثم نقل منه الى قصرامبواز وهو بالقرب من مدينة تور التي انتهت اليها فتوحات العرب في اوائل القرن الثاني من الهجرة . وفي سنة ١٢٦٩ ه حضر الامير عبد القادر للاستانة ونال التفات السلطان عبد المجيد وذهب ليقيم في مدينة بروسه . ولما حصلت فيها الزلازل ارتحل عنها الى دمشق سنة ١٢٧٢ ه وتوفي سنة ١٣٠٠ ه في قصره الذي بقرية دامر فنقل نعشه الى الصالحية ودفن بتربة محيي الدين بن العربي رحمهم الله جميعاً . والامير عبد القادر هو رب السيف والقلم وله تآليف معتبرة مطبوعة وترجم احدها للفرنساوية المسيو دوغا . وكان الامير عضواً فخريًّا في الجمعية العلمية الفرنساوية

ومما في هذا الديوان من الاهاجي والمناجاة البليغة المنظومة الثانية من الفصل السادس وعنوانها « دعاء المغربين » وفيها توسلات الاهية ومخاطبات لحمام الوادي ونسيم الصبا كانها مترجمة عن العربية قال فيها :

يا الله يا كبير اليك ترتفع اكفنا ونحوك تشخص ابصارنا . اللهم ان هؤلاء المكبلين بالحديد وعبراتهم تسيل على الخدود لهم أشد الممتحنين بـلاء مع انهم

اصلح الناس حالاً . ايتها الطيور المارة ان هناك منازلنا . ايتها الرياح الجارية ان هناك اخواتنا وامهاتنا يبكين ليلاً ونهاراً . بلغهم يا طير بؤسنا . واحمل اليهم يا نسيم الصبا اشواقنا . وانت يا الله نرسل اليك ذكرنا . ونسألك ان تنسى هؤلاء المحكوم عليهم بالقتل ظلماً ولكن أن تجعل مجدهم لفرانسا المهانة وان تتركنا نحن المظلومين نموت في هذا العذاب الاليم ..... الخ . وهذا يذكرنا بقول ابن المعتز حينما أخذ ليقتل

يا نفس صبراً لعل الخير عقباك   خانتك من بعد طول الامن دنياك
مرت بنا سحراً طير فقلت لها   طوباك يا ليتني اياك طوباك
أن كان قصدك شوقاً بالسلام على   شاطي الفرات ابلغي ان كان مثواك
من موثق بالمنايا لا فكاك له   يبكي الدماء على الف له باكي

ولا ادري أن كان لها بقية ام لا ولكن الغالب في الشعر العربي ان يعلو به النفس ثم ينقطع قبل أن يشفي غليل النفس بذكر الوسط الذي يقوم فيه الشاعر وشرحه وتوصيفه بجميع ما فيه كما يفعل شعراء الافرنج . نعم أن شعراء الجاهلية ومن نسج على منوالهم شرحوا اوصاف الفرس أو الناقة مثلا واطنبوا في ذلك ولم يتركوا عضواً ولا حركة ولا هيئة الا ذكروها وتخيلوا فيها ولكنهم مع ذلك حصروا نظرهم في نقطة واحدة ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالا الى ما حولهم من مناظر الطبيعة وبدائع المخلوقات

وابن المعتز اشعر بني هاشم وهو ابن الخليفة العباسي المعتز بالله بن المتوكل ويسمى خليفة يوم لانه ولي الخلافة يوماً واحداً ثم خانته الايام وغدرت به السياسة فسلم لؤنس الخادم فقتله . وتشبيهات ابن المعتز واشعاره مشهورة ومن مؤلفاته كتاب الزهرة والرياض ، كتاب البديع ، كتاب مكاتبات الاخوان بالشعر ، كتاب الجوارح والعين ، كتاب السرقات ، كتاب اشعار الملوك ، كتاب الآداب كتاب حلي الاخبار ، طبقات الشعراء كتاب الجامع في الغناء ، أرجوزة ذم الصبوح ومن قوله

سقى الحظيرة ذات الظل والشجر   ودير عبدون هطال من المطر

فطالما نبهتني للصبوح بهــا في غرة الفجر والعصفور لم يطر

ومن كلامه البديع قوله : أنفاس الحي خطاه الى أجله . وكان مستجمعاً للكمالات الانسانية وقيل في رثاه

ما فيه لولا ولا ليت فتنقصه وانما أدركته حرفة الادب

قرأ على المبرد وثعلب وتاريخ ولادته (٢٤٧ — ٢٩٦ ه)

والفصل السابع من هذا الديوان هجوية عنوانها « هاتينَ قدوركنّ يا ساحرات شكسبير » اشارة الى رواية ماقبت التي ألفها شكسبير وما فيها من خبر الساحرات اللواتي يطبخنَ السحر في القدور و يفتحن للنساء الفال فقال فيكتور هوكو هاتينَ قدوركن يا ساحرات شكسبير . وخذن عني يا ساحرات ماقبت كل الامبراطورية من قديمة وحديثة . وضعن في كانون واحد برجه السمين والكونت فروشو وفلان وفلان .... وعدداً كبيراً من رجال نابوليون الى ان قال واحنين رؤوسكن وانفشن شعوركن وحملقن عيونكن واكشفن نحوركن وانفخن بملء رئاتكن على النار التي تحت القرعة وانظرن فان الصغير يخرج من الكبير وصيرن باروش وطاليران بخاراً وكذا ابن الاخ الذي يهبط بينما ان العم يعلو . فما الذي بقي في قعر الانبيق؟ العار

فكان فيكتور هوكو وهو في جزيرة جرسي كلما سمع بنفي المتهمين بالسياسة لبلاد الجزائر أولاميركا يفور غضبه و يشتد غيظه ويهدر كهدير البحر . وشبه السفن التي تحمل المنفيين بالبوم التي تنادي على خراب البلاد بابعاد نخبة الشبان الاحرار منها . ولكنه مع ذلك لم ينقطع رجاه ولا خابت امانيه بل كلما نظر في المستقبل لاح له قبس الفلاح ولمع في عينيه نور الصباح وراقت اشعاره وصفا كلامه ولذا شبهوه بالبحر الذي يهيج تارة و يسكن اخرى . وله في البحر تشابيه واستعارات لم يسبق اليها . وقال في خاتمة هذا الديوان انه سوف ينبلج صبح العدل و يزهق ليل الباطل ان الباطل كان زهوقا . وأنذر باستيقاظ الامة من رقدة الغفلة ومجازاتهـا الظالمين المستبدين المجرمين . ان المجرمين في ضلال وسعير . ان الذين كفروا وظلموا لم

يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . ولو أطلع السيد عبد الله نديم على ديوان القصاص لما حرر كتاب المسامير

٨ — ديوان التأملات

وعرف هذا الديوان بتسميته أيضاً سانحات الفكر ولخص فيه أعمال ربع قرن من حياته وما شعر به من فرح وترح وقال في مقدمته بأنه تاريخ حظ من الحظوظ البشرية في شقائه وسعادته أو هو ديوان الحياة الانسانية منذ خرجت من معمى المهد الى ان نزلت في معمى اللحد . وأبواب هذا الكتاب هي : الفجر النفس الزاهرة التنازع والاماني ، في المسير ، على ساحل اللامتناهي . ومنها يفهم فكر الشاعر في ترتيب المنازل التي يقطعها المسافر في طريق الحياة . واجاد في وصف المناظر الطبيعية وتصوير وجوه الارض على حد قول أبي تمام :

يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما ترَيا وجوه الارض كيف تصورُ
تريا نهاراً مشمساً قد زانه زهر الربا فكانما هو مقمِرُ

ومن ذلك ايضاً قول القاضي عياض وقد تولى قضاء سبتة وغرناطة :

انظر الى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

وأبدع ما في هذا الديوان الرثاء الذي رثى بنته حينما انشبت فيها المنية اظفارها وهي في ريعان الشباب واشهر العرس وأتى بالبدائع والعجائب في وصف قلب الوالد على ولده وما يكابده بسبب موته من الام الحياة وعذابها . ولعله تابع في النظم شعوره وأحساسه فجعل اول المراثي تفجعاً وبكاء . ثم أرتفع صوته بالنحيب والعويل . ثم زاد ألم الرزيئة عليه وكبرت المصيبة في عينيه فصار يهدر كما يهدر المجنون ولا يعي ما يقول فطوراً يقاتل القضاء وتارة يامن القدر وانقطع من الدنيا وزال رجاؤه بالآخرة ويئس من هذه الحياة الثانية

ثم برد قلبه شيئاً فشيئاً وهدأ باله رويداً رويداً فصار يندب ميته ويعدد محاسنها ويتذكر زمن طفولتها وشبابها وعرسها وكل ذاكرة منه تسيل من عينيه عبرة

وتودع في قلبه حسرة . ولم ير له ملجأ الا في تسليم الامر لله والرضاء بمـا قدره وقضاه فصبر على البلاء ورجع بانكسار وتزلل الى الله وانكب على اعتاب مراحمه كأنه عمل بنصيحة الشيخ محمد دايش حيث قال :

الزم باب ربك واترك كل دون وأسأله السلامة من دار الفتون
لا يضيق صدرك فالحادث يهون الله المقدر والعالم شؤون
لا تكثر همك ما قدر يكون

نحن والخلائق كلنا عبيد والاله فينا يفعل مـا يريد
همك واغتمامك وبحك لا يفيد القضا تحكم فالزم السكون
لا تكثر همك ما قدر يكون

ومنها أيضاً :

مولاك المهيمن انه يراك فوض له امورك وأحسن في الظنون
ومنها الرضا فريضة والسخط حرام والقنوع راحة والطمع جنون

وأفجع رثاء واحسن توسل لفيكتور هوكو ما جاء في المرثية التي عنوانها « الى فيلكيه » وهي المدينة التي غرقت بقربها ليوبولدين وهي تتنزه مع زوجها في زورق على نهر السين وقد أتينا على ترجمتها بالحرف بياناً لاسلوبه في التفجع والرثاء . قال فيكتور هوكو وكان قد خرج من باريس وذهب الى جبال البيرينة وسواحل المحيط الغربي :

الى فيلكيه

الان باريس وطرقها وجدرانها وضبابها وسطوحها بعيدة عن عينيَّ . الان أنا تحت غصون الايك وأستطيع التفكير في حسن السموات . الان خرجت مصفرًّا من المأتم الذي أظلمتْ منه روحي وشعرت بان سلام الطبيعة الكبرى دخل قلبي

الان استطعت ان أجلس على شاطىء البحر متأثراً من هذا الافق اللطيف الهادي وان افحص في ضميري عن الحقائق الغامضة وان انظر الى الازهار وهي في الحدائق

الان ياربي ، حصلت لي سكينة محزنة استطيع بسببها ان أرى بعيني رأسي

الحجر الذي أعرف انها نامت في الظل تحته نومة ابدية

الان قد رقت عواطفي بهذه المناظر الالهية ما بين سهول وغابات وصخور واودية ونهر كالفضة

ولما رأيت عجزي ورأيت معجزاتك رجع لي عقلي امام جلالك فجئت اليك يا الله يامن يجب علينا الايمان به . وأحضرت لك قطع هذا القلب الذي كسرته وهو مملوء بحمدك

جئت اليك يا الله ، معترف بانك رؤوف رحيم حليم وبانك اله حي . وأقر بانك وحدك تعلم ما تصنعه وبان الانسان ما هو الا ريشة في مهب الريح

أقول بان القبر الذي يغلق على الاموات يفتح الفلك الاعلى . وان ما نحسبه في هذه الدنيا نهاية هو البداية

أقرّ ايها الاله العظيم وانا راكم بانك وحدك مالك لما هو حقيقي ، مطلق ، لا نهاية له . أقر بان انجراح قلبي هو خير وهو عدل . لان الله أراد ذلك

لا أعترض أصلاً على جميع ما اصابني بارادتك . فالنفس تتدحرج في الابدية من مأتم لمأتم والانسان يتدحرج من ساحل لساحل

لا نرى من الاشياء الا طرفاً واحداً والطرف الاخر غاطس في سرابيل مرعب فالانسان يتحمل الاذى بدون ان يطلع على الاسباب . وجميع ما يراه قصير ، زائل ، لا فائدة فيه

أنت تلقي الانسان دائماً في طريق الشك ولم ترد ان يكون له على هذه الارض يقين ولا سرور

ولا يملك الانسان خيراً الا ويسترده القدر منه فهو لم يعط شيئاً في ايامه السريعة الزوال ليتمكن من ان يتخذ له مسكناً ويقول : هنا بيتي وارضي وأحبابي. جميع ما تراه عيناه ينبغي ان يراه في مدة قليلة . ثم يهرم وتخور قواه . فما دامت هذه الاشياء واقعة فانا أقر بانها حدثت كما يلزم ان تحدث (١) . يا الله ! العالم مظالم والحانه التي لا تتغير مؤلفة من البكاء ومن الغناء ايضاً . والانسان ما هو الا ذرة

(١) ليس في الامكان ابدع مما كان . لو اطلعتم لقلتم الخيرة في الواقع

وتودع في قلبه حسرة . ولم يرله ملجأ الا في تسليم الامر لله والرضا بما قدره وقضاه فصبر على البلاء ورجع بانكسار ونزال الى الله وانكب على اعتاب مراحمه كانه عمل بنصيحة الشيخ محمد عايش حيث قال :

الزم باب ربك واترك كل دون وأسأله السلامة من دار فتون
لا يضيق صدرك فالحادث يهون الله المقدر والعالم شؤون
لا تكثر همك ما قدر يكون
نحن والخلائق كلنا عبيد والاله فينا يفعل ما يريد
همك واغتمامك وبحك لا يفيد القضا تحكم فالزم السكون
لا تكثر همك ما قدر يكون

ومنها أيضاً :

مولاك المهيمن انه يراك فوض له امورك وأحسن في الظنون
ومنها الرضا فريضة والسخط حرام والقنوع راحة والطمع جنون

وأفجع رثاء واحسن توسل لفيكتور هوكو ما جاء في المرثية التي عنوانها « الى فيلكيه » وهي المدينة التي غرقت بقربها ليوبولدين وهي تتنزه مع زوجها في زورق على نهر السين وقد أتينا على ترجمتها بالحرف بياناً لاسلوبه في التفجع والرثاء . قال فيكتور هوكو وكان قد خرج من باريس وذهب الى جبال البيرينة وسواحل المحيط الغربي :

الى فيلكيه

الان باريس وطرقها وجدرانها وضبابها وسطوحها بعيدة عن عينيّ . الان أنا تحت غصون الايك وأستطيع التفكير في حسن السموات . الان خرجت مصفرًّا من المأتم الذي أظلمتْ منه روحي وشعرت بان سلام الطبيعة الكبرى دخل قلبي

الان استطعت ان أجلس على شاطىء البحر متأثراً من هذا الافق اللطيف الهادي وان افحص في ضميري عن الحقائق الغامضة وان انظر الى الازهار وهي في الحدائق

الان ياربي ، حصلت لي سكينة محزنة استطيع بسببها ان أرى بعيني رأسي

الحجر الذي أعرف انها نامت في الظل تحته نومة ابدية

الان قد رقت عواطفي بهذه المناظر الالهية ما بين سهول وغابات وصخور واودية ونهر كالفضة

ولما رأيت عجزي ورأيت معجزاتك رجع لي عقلي امام جلالك فجئت اليك يا الله يامن يجب علينا الايمان به . وأحضرت لك قطع هذا القلب الذي كسرته وهو مملوء بحمدك

جئت اليك يا الله ، معترف بانك رؤوف رحيم حليم وبانك اله حي . وأقر بانك وحدك تعلم ما تصنعه وبان الانسان ما هو الا ريشة في مهب الريح

أقول بان القبر الذي يغلق على الاموات يفتح الفلك الاعلى . وان ما نحسبه في هذه الدنيا نهاية هو البداية

أقرّ ايها الاله العظيم وانا راكع بانك وحدك مالك لما هو حقيقي ، مطلق ، لا نهاية له . أقر بان انجراح قلبي هو خير وهو عدل . لان الله أراد ذلك

لا أعترض أصلاً على جميع ما اصابني بارادتك . فالنفس تتدحرج في الابدية من مأتم لمأتم والانسان يتدحرج من ساحل لساحل

لا نرى من الاشياء الا طرفاً واحداً والطرف الاخر غاطس في سرابيل مرعب فالانسان يتحمل الاذى بدون ان يطلع على الاسباب . وجميع ما يراه قصير ، زائل ، لا فائدة فيه

أنت تلقي الانسان دائماً في طريق الشك ولم ترد ان يكون له على هذه الارض يقين ولا سرور

ولا يملك الانسان خيراً الا ويسترده القدر منه فهو لم يعط شيئاً في ايامه السريعة الزوال ليتمكن من ان يتخذ له مسكناً ويقول : هنا بيتي وارضي وأحبابي. جميع ما تراه عيناه ينبغي ان يراه في مدة قليلة . ثم يهرم وتخور قواه . فما دامت هذه الاشياء واقعة فانا أقر بانها حدثت كما يلزم ان تحدث (١) . يا الله ! العالم مظالم والحانه التي لا تتغير مؤلفة من البكاء ومن الغناء ايضاً . والانسان ما هو الا ذرة

(١) ليس في الامكان ابدع مما كان ، لو اطلعتم لقلتم الخيرة في الواقع

في هذا الظلام الغير المتناهي . فهذا ليل يصعد فيه الابرار ويهبط الاشرار . أعرف بان لك يا الله اشياء اخرى كثيرة تشتغل بها عوضا عن ان تشفق علينا جميعاً و بان الولد الذي يموت ويخلف الحزن لامه لا يضرك منه شي،

أعرف، بان الثمر يسقط من الريح الذي يهزه وبان الطير يفقد ريشه والزهر يفقد رائحته وبأن الخليقة دولاب كبير لا يمكنه ان يدور بدون ان يسحق احداً

الشهور، والايام، وامواج البحر، والعيون الذارفة بالبكاء تمر جميعها تحت السماء . الازرق أعرف يا ربي انه يلزم للعشب ان ينبت وللاولاد ان يموتوا . لعلك في سمواتك ما وراء طبقة الغيم وفي اعماق الزرقة النائمة التي لا تتحرك تصنع اشياء مجهولة يدخل فيها ألم الانسان كانه عنصر من عناصرها

لعل هلاك الاشخاص الملاح بتيار المصائب فيه فائدة لمقاصدك التي لا تحصى . طوالع نحوسنا تسير تحت نواميس واسعة لا يغيرها شيء، ولا يرقق عواطفها شيء . وليس في الامكان ان تأتي المراحم الالهية فجأة وتغير ناموس العالم

أتوسل اليك يا الله بان تنظر لنفسي وتعتبر باني اتيت لعبادتك خاضعاً خضوع الصبي وليناً لين المرأة

وأعتبر ايضاً باني منذ طلوع الفجر اشتغلت وتألمت وفكرت وسعيت وجادلت وانا افسر الطبيعة للناس الذين يجهلونها وانير كل شي بنورك . واني عملت الواجب علي في هذه الدنيا وأنا اقتحم المهالك والمخاطر ولا يمكني ان أنتظر هذا الجزاء ولا أقدر ان أتأمل بانك انت ايضاً تنزل يد بطشك على رأس المنحني و بأنك أنت الذي ترى قلة حظي تأخذ ايضاً ولدي على عجل . واعتبر بان النفس التي امتحنت بمثل هذه المصيبة هي مدفوعة على الشكوى . و باني اجترأت على سبك وعلى رفع صوتي عليك كالولد الذي يرمي البحر بحجر .إعتبر يا ربي ان المرء قد يشك في الله حينما يشتد عليه الالم . وان العين التي تبكي كثيراً تعمى في النهاية . وان الشخص الذي يلقيه مأتمه في أظلم هاوية لا يمكنه ان يضرع اليك وهو لا يراك

اليوم وانا ضعيف القلب كالوالدة المحني على اعتابك تحت سمواتك المنكشفة وأشعر في مرارة المي باني استنرت بنظرة وقعت مني على العالم .

يا ربي ، انا اعترف بان الانسان اذا جسر على الشكوى منك فهو في حالة الجنون . فها انا تركت الشكوى وتركت السبّ . فدعني ابكي . واحسرتاه ! دع الدموع تجري في جفوني لانك خلقت البشر لذلك . دعني انحني على هذا الحجر البارد واقول لولدي : اتشعرين باني هنا ؟

دعني اكلمها في المساء حينما يسكن كلّ شيء وانا منحن على ما بقي من جسدها وهي كانها ملك ينصت لي وكأنها تفتح في الليل عينيها السماويتين

واحسرتاه ! لم يبقَ في الدنيا شيء يسليني . فالتفتُ نحو الماضي بعين الاشتياق ونظرت الى تلك اللحظة من حياتي فرأيتها تفتح جناحيها وتطير . وسأرى تلك اللحظة حتى مماتي . تلك اللحظة التي فاضت فيها دموعي وصرخت قائلاً : ماذا اذاً ؟ الولد الذي كان لي الآن فقدته بالكلية !

لا تغضب عليَّ يا ربي ان قلت هذا . لان جرحي سال دمه زماناً طويلاً والضيق في نفسي لم يزل شديداً . وقلبي وان خضع لكنه لم يسلم ولم يرض

لا تغضب يا ربي ! حيث يصعب علينا أن نخرج نفسنا من هذه الاكدار العظيمة . انت يا ربي اعلم بان اولادنا لازمونٌ لنا . اذا رأى الانسان ذات يوم في حياته وهو بين اكداره واتعابه وفقره والبلاء الذي رمته به اقداره قد ولد له ولد جميل ضاحك بشوش يخال انه رأى باب السموات فتح له . فاذا رأى مدة سبع عشرة سنة ولده الذي هو قطعة من جسده يكبر وينمو ويعقل واذا عرف ان هذا الولد الذي يحبه هو نورٌ في قلوبنا وضياء في بيوتنا وانه هو السرور الوحيد الذي لنا من جميع ما نتمناه في هذه الدنيا . فلا يخفى عليك يا ربي انه اذا فقد منا يكون حزننا عليه عظيماً . اه — فيلكيه في ٤ سبتمبر سنة ١٨٤٧

وبعد ان طال رثاء فيكتور هوكو وندبه حصلت له الثقة بالموت واعتاد عليه . فانحنى على القبر كانه يريد انتزاع السر المكنون فيه ونظم قصائده التي عنوانها « كلام على الكثيب » و « وقفة في المسير » و « ما هو الموت » . ولكن لم يتيسر له رفع الستر عن القبر ولا ازالة الحجاب عن هذا الباب . واكثر في كلامه من توحيد الله وذكر الآخرة وخلود النفس

ومن القصائد المشهورة في رثاء الاولاد القصيدة العينية التي نظمها ابو ذؤيب الهذلي المتوفى سنة ٢٧ الهجرة وكان مات له في سنة واحدة خمسة اولاد في الطاعون الذي حدث بمصر ومطلع قصيدته :

امن المنون وريبه تترجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
ومنها اودى بنيّ فاعقبوني حسرة عند الرقاد وعبرة لا تقلع
فالعين بعدهم كأن حداقها كحلت بشوك فهي عور تدمع

وفي اشعار فيكتور هوكو ما يحاكي كلام ام حكيم زوجة عبيد الله بن عباس والي اليمن من قبل علي رضي الله عنه بينما اتاهما بشر بن ارطاة قائد عساكر معاوية وذبح لها ابنين صبيين فلم تملك امها نفسها ولا قدرت ان تقر في مكانها بل كانت تحوم حوم الطير حول وكر صغارها وقد ذهب عقلها وفرغ صبرها فقالت تبكيهما وتولول :

ها من احس بابني اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
ها من احس بابنيَّ اللذين هما قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطف
ها من احس بابني اللذين هما مخ العظام فمخي اليوم مزدهف
من ذل والهة حيرى مدلهة على حبيبين ذلاًّ اذ غدا السلف
خبرت بشراً وما صدقت ما زعموا من افكهم ومن القول الذي اقترفوا
انحى علي ودجى ابني مرهفه مشحوذة وكذاك الاثم يقترف

ومثل ذلك مراثي شواعر العرب وجمع كلامهن احد افاضل العلماء ونشره في بيروت وسيدة شواعر العرب الخنساء القائلة :

اعيني جودا ولا تجمدا الا تبكيان لصخر الندى
الا تبكيان الجريء الجميل الا تبكيان الفتى السيدا

ومن شواعر العرب برة بنت عبد المطلب جد النبي عليه السلام قالت في وفاة أبيها :

اعيني جودا بدمع درر على طيب الخيم والمعتصر
على ماجد الجد واري الزناد جميل المحيا عظيم الخطر

والبكاء على الاموات وندبهم من عادة نساء العرب ولذا نبغت فيه الشواعر منهن سيما وان قلب المرأة ارق واحن ولذا قال فيكتور هوكو بانه صار ضعيف القلب كالوالدة

ومما ورد للعرب في هذا المعنى قول ابي بكر بن زهر الاندلسي

ولي ولد مثل فرخ القطا　　صغير تخلف قلبي لديه
وافردت عنه فيا وحشتا　　لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته　　فيبكي عليَّ وابكي عليه

وهذا الشاعر الرقيق اشتهر بفن الطب وعلم الادب وسارت الركبان بموشحاته وهو حفيد ابي العلاء بن زهر الطبيب المشهور. وكان صاحب هذه الابيات بعث به الى مراكش وسمم فيها فمات سنة ٥٩٦ هـ وله بنت وأخت ماهرتان في الطب والقبلة نفيتا أيضاً الى مراكش وقتلتا مثل اخيهما بالسم. وابقى ولده في الاندلس فقال الابيات المذكورة متشوقاً

٩ — سير الدهور

ديوان جليل ملأه الشاعر بالحكمة والفلسفة فاحوج مطالعه الى الدقة والتبصر فيه ومراجعة كتب التاريخ والفلسفة لفهم دقائق معانيه كما يحتاج لذلك قارىء اللزوميات ورسالة الغفران واشباههما من كتب الادب والفلسفة التي خفيت وقائعها على كثيرين فنسبوا لها الركاكة. ومن هذه الكتب أيضاً ما ألفه الصفدي شرحاً على الطغرائي صاحب لامية العجم والقصائد المعروفة في الكيمياء. ومنها أيضاً ما الفه ابو بكر بن وحشية صاحب الفلاحة النبطية سنة ٩٠٤ م ومنها نسخة في مكتبة ايا صوفيا. وزعم المستشرق الروسي شولسن بان لابن الوحشية معرفة بعلوم الاراميين والبابليين وفنون ادبهم ومن منظوماته « الشوق المستهام » تكلم فيه عن خطوط المتقدمين وكتاباتهم. وله أيضا « سدرة المنتهى » بحث فيها عن مواضيع دينية فلسفية. ومثل ذلك ايضا « ازهار الافكار في المعادن والاحجار » لشهاب الدين ابي العباس التفاشي المتوفى سنة ١٢٥٣ م تكلم فيه عن المعادن والاحجار

الثمينة وطبعه المستشرق رافيون في اوتراخت من هولاندا سنة ١٧٨٤ م ثم طبعه كليمان موله سنة ١٨٦٨ م . ومن ذلك ايضاً ديوان شذور الذهب لبرهان الدين بن ارفع رأسه من مدينة جيان في اسبانيا المتوفى سنة ١١٩٧ م في فاس . وغير ذلك

وجمع فيكتور هوكو في هذا الديوان سيراً حماسية انتخبها من تاريخ البشر في القرون الاولى والوسطى والاخرى وصورها في الواح معظمة وسبكها في قوالب مكبرة وقصها قصصاً مفجعة شرح فيها سير الانسان في مراقي العمران وخروجه من الظلمات الى النور ومن قيد العبودية الى سراح الحرية . وجعل الحق للامم والقوة للملوك الجبابرة المستبدين بالرعية . و بين كيفية تغلب الحق على القوة كلما خطا الانسان خطوة في التاريخ وارتقى درجة في سلم الحضارة . وأظهر بذلك قاعدة الحكم لمن غلب » من بين الامم شيئا فشيئاً و يعلو الحق و ينتصر رويداً رويدا لان الحق يعلو ولا يعلى عليه

فنظم فيكتور هوكو في تصوير القرون الاولى قصيدة « تيتان » سلك فيها طريقة الشاعر اليوناني ايشيل مؤلف رواية « برومته » المقيد بالسلاسل و بين فيها ظلم الجبارين ومحاربتهم للآلهة ثم سقوطهم في مهاوي الخزلان . اما تيتان فورد ذكرهم في اساطير اليونان بانهم من اولاد السماء والارض وقيل بانهم عصوا على الالهة وارادوا ان يبنوا لهم صرحاً ليبلغوا به اسباب السموات أي نواحيها . فعمدوا الى الجبال ووضعوا جبلاً فوق جبل حتى كادوا يبلغون السماء الدنيا لولا ان كبير الآلهة جوبتير صعقهم بصاعقة دكت الجبال دكاً

ونظم فيكتور هوكو أيضاً « ضمير قاين » و يعرف عندنا بقابيل الذي قتل أخاه هابيل ثم ندم على ما فعل (١) . فصور الشاعر ندامته وعين الله ناظرة اليه بالغضب ونظم هذه القصة وجسمها تجسيماً لائقاً برجال ذلك العصر الذين منهم عوج ابن عناق . ولشعراء الترك والفرس مبالغات عجيبة في تصوير مثل هذا الموضوع . كالشاعر نفعي الذي وصف شدة الحر وقال بأن زفرة من زفرات النمل كافية

(١) سورة المائدة : واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من

لتنشيف البحور السبع وجعلها سراباً ووصف شاعر آخر رستم عنترة الفرس وقال بان النبل الذي رمى به من قوسه اخترق السموات السبع ودخل في اللامكان . واستخرج فيكتور هوكو من التوراة والاسرائيليات غير هذا الموضوع وصوره كذلك في هذا الديوان

ونظم في تاريخ القرون الوسطى عدة منظومات مثل لا ديسلاس وسيجسموند وغيرهما من الظلمة وقطاع الطرق الذين توصلوا بالقتل والنهب والحيل والدسائس الى لبس تاج الملك والجلوس على كرسي الامبراطورية . وقارنهما بالسيد ورولان وغيرهما من الفوارس الشجعان الذين جاهدوا بأنفسهم في سبيل النصرانية وتفانوا في الغيرة والحمية الدينية . ورولان هو ابن اخ شارلمان وقائد جيوشه وشارلمان هو الامبراطور المعاصر لهارون الرشيد . وتقدم ذكرهم وذكر السيد ايضاً وهو عنترة الاسبانيين كما ان رولان عنترة الفرنساويين وكلاهما اشتهرا في الحروب مع مسلمي الاندلس . وصور فيكتور هوكو القرون الوسطى بما فيها من المظالم والجرائم الفظيعة واراقة الدماء والاستبداد والنخوة الجاهلية والتعصب الديني وأطنب غاية الاطناب في توصيف ذلك وتعظيمه وتجسيمه

ونظم في القرون الاخرى مقبرة ايلو وهو مكان في المانيا انتصر فيه نابوليون على عساكر الروس وبروسيا . ونظم فصلاً سماه جماعة الظلام وافتتحه بقصيدة

احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما انا بباسط يدي اليك لاقتلك اني اخاف الله رب العالمين اني اريد ان تبوء باثمي واثمك فتكون من اصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوأة اخيه قال يا ويلتى اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فاواري سوأة اخي فاصبح من النادمين . من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض فكانما قتل الناس جميعاً ومن احياها فكانما احيا الناس جميعاً ...... الخ

١١ — السنة المهولة

هجا في بعض هذا الديوان نابوليون الثالث وعد سقوط حكومته الامبراطورية كفارة لما اقترفه من السيئآت على زعمه في حادثة ٢ ديسمبر . وبين في بعضه الاخر ما جاء به الفرنساويون من الغيرة والشجاعة في الدفاع عن الاوطان في اثناء حرب السبعين الالمانية وما قاموا به من الثبات في حصار باريس . واعتبر الحرب الفرنساوية الالمانية كانها حلقة لسلسلة الحروب التي اثارتها دول القرون الوسطى المعبر عنهم بالفيودالينه وهم اشبه بما كان في بلادنا من اصول التيمار والزعامة وبحكومة الامراء الذين قيل لهم (دره بك) . وعد انقطاع تلك السلسلة وزوال هاتيك الافكار العسكرية بظهور الفكر الجديد والتقدم العصري . وتكلم في القسم الثاني من هذا الديوان على ويلات الحرب الاهلية وما اقترفه الرعاع (كومين) في باريس من الفظائع الدموية واظهر حمقهم وجهالتهم في احراق الديار وذبح الرجال وختمه بطلب العفو عن المجرمين المغلوبين

١٢ — صناعة كون المرء جدًّا

تكلم في هذا الديوان على الاطفال والاولاد وشبههم بالملائكة واعتبر وجودهم على الارض دليلاً على رحمة الله وتأييداً لما يرجوه الناس من الحياة الاخرة . وكان فيكتور هوكو يطرب لبأباة الاطفال ومناغاتهم ولعب الصغار وهوشاتهم ويفرح لابتسامهم وضحكهم وتبريق عيونهم وتهلل وجوههم ويحصل له من جميع ذلك تجل واستغراق ظهر اثره في نظمه . وبعد ما اصيب في اولاده عكف على حب حفيده جورج وحفيدته حنه (جان) وشغف بهما شغفاً زائداً والتزم تربيتهما بنفسه فكان يشاهد نشوءهما وتفتح الروح وانتناق الذهن فيهما وينظم مطالعاته وما يلهم به من الشعر . فنظم جميع ما يتعلق بالاطفال والاولاد من تهليل وترقيص وتلهية وتلعيب وصور جميع حركاتهم وسكناتهم ونومهم وقيامهم وجريهم ونطهم ولعبهم . مثال ذلك القصيدة التي عنوانها « اغاني لترقيص الاولاد الصغار في الحلقة » وكذا

المنظومة التي عنوانها ايضاً « حنه كانت في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف » وذلك أن مربيتها جازتها بهذا الجزاء تأديباً لها . فجاءها جدها من وراء الباب المقفل واطعمها الحلواء خفية فقالت له تبت وما عدت ادخل اصبعي في انفي ولا ادع الهرة تخمشني فذهب يتشفع لها عند مربيتها . فاعترض عليه اهل الدار وقالوا له اطعمتها كثيراً وافسدت تربيتها . وكيف ينتظم امر البيت ان لم يكن فيه وازع ورادع وقانون يتبع . فاقر بخطئه واعترف بان كثرة المرحمة مضرة بمصلحة العائلة كضررها بمصلحة الامة وتبعث على انحطاطها وهلاكها . وقال ثم انا المخطيء ضعوني مكانها في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف . فقالوا له انت مستحق لذلك لان القانون ينبغي أن ينفذ على الكبير والصغير . فنظرت اليه حنه بعين الشفقة والمرحمة وقالت له بصوت منخفض « وانا اجيب لك الحلواء » . فنظم الشاعر هذه القصة بصورة بديعة والفاظ عذبة وهي مثال لمواضيع قصائده . فكان كالصغير مع الصغار ولذا انتقد عليه بعض الادباء وقالوا ان في اشعاره ما هو اشبه بأباءة الاطفال لا لذة فيه ولا طعم له

• •

ثم نظم اربعة دواوين صغيرة لخص فيها مسلكه الفلسفي وجميع معارفه العلمية وافكاره الدينية والهاماته الربانية وسماها « الاديان والدين » . « البابا » . « الحمار » « الرحمة العالية » ونظم فيها شيئاً كثيراً مما نقرأه في لزوميات المعري على حد قوله :

دين وكفر وانباء تقص وفر ... قان ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل اباطيل يدان بها ... فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

وقوله

جاء القرآن وامر الله ارسله ... وكان ستر على الاديان فانخرقا
ما ابرم الملك الا عاد منتقضاً ... ولا تألف الا شت وافترقا
مذاهب جعلوها من معايشهم ... من يعمل الفكر فيها تعطه الارقا

• • • • • • • • • • • • • • •

ولكن كلام فيكتور هوكو اوضح واظهر واجمع واكثر تفصيلاً وترتيبا وان كان الشاعران يتفقان كثيراً في اصل الفكرة وتتوارد خواطرهما على المعاني الواحدة .

١١ — السنة المهولة

هجا في بعض هذا الديوان نابوليون الثالث وعد سقوط حكومته الامبراطورية كفارة لما اقترفه من السيئآت على زعمه في حادثة ٢ ديسمبر . وبين في بعضه الاخر ما جاء به الفرنساويون من الغيرة والشجاعة في الدفاع عن الاوطان في اثناء حرب السبعين الالمانية وما قاموا به من الثبات في حصار باريس . واعتبر الحرب الفرنساوية الالمانية كانها حلقة لسلسلة الحروب التي اثارتها دول القرون الوسطى المعبر عنهم بالفيودالينه وهم اشبه بما كان في بلادنا من اصول التيمار والزعامة وبحكومة الامراء الذين قيل لهم (دره بك) . وعد انقطاع تلك السلسلة وزوال هاتيك الافكار العسكرية بظهور الفكر الجديد والتقدم العصري . وتكلم في القسم الثاني من هذا الديوان على ويلات الحرب الاهلية وما اقترفه الرعاع (كومين) في باريس من الفظائع الدموية واظهر حمقهم وجهالتهم في احراق الديار وذبح الرجال وختمه بطلب العفو عن المجرمين المغلوبين

١٢ — صناعة كون المرء جدًّا

تكلم في هذا الديوان على الاطفال والاولاد وشبههم بالملائكة واعتبر وجودهم على الارض دليلاً على رحمة الله وتأييداً لما يرجوه الناس من الحياة الاخرة . وكان فيكتور هوكو يطرب لبأبأة الاطفال ومناغاتهم وللعب الصغار ومشاتهم ويفرح لابتسامهم وضحكهم وتبريق عيونهم وتهلل وجوههم ويحصل له من جميع ذلك تجل واستغراق ظهر اثره في نظمه . وبعد ما اصيب في اولاده عكف على حب حفيده جورج وحفيدته حنه (جان) وشغف بهما شغفاً زائداً والتزم تربيتهما بنفسه فكان يشاهد نشوءهما وتفتح الروح وانتشاق الذهن فيهما وينظم مطالعاته وما يلهم به من الشعر . فنظم جميع ما يتعلق بالاطفال والاولاد من تهليل وترقيص وتلهية وتلعيب وصور جميع حركاتهم وسكناتهم ونومهم وقيامهم وجريهم ونطقهم ولعبهم . مثال ذلك القصيدة التي عنوانها « اغاني لترقيص الاولاد الصغار في الحلقة » وكذا

المنظومة التي عنوانها ايضاً « حنه كانت في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف » وذلك أن مربيتها جازتها بهذا الجزاء تأديباً لها . فجاءها جدهـا من وراء الباب المقفل واطعمها الحلواء خفية فقالت له تبت وما عدت ادخل اصبعي في انفي ولا ادع الهرة تخمشني فذهب يتشفع لها عند مربيتها . فاعترض عليه اهل الدار وقالوا له اطعمتها كثيراً وافسدت تربيتها . وكيف ينتظم امر البيت ان لم يكن فيه وازع ورادع وقانون يتبع . فاقر بخطئه واعترف بان كثرة المرحمة مضرة بمصلحة العائلة كضررها بمصلحة الامة وتبعث على انحطاطها وهلاكها . وقال نعم انا المخطيء ضعوني مكانها في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف . فقالوا له انت مستحق لذلك لان القانون ينبغي أن ينفذ على الكبير والصغير . فنظرت اليه حنه بعين الشفقة والمرحمة وقالت له بصوت منخفض « وانا اجيب لك الحلواء » . فنظم الشاعر هذه القصة بصورة بديعة والفاظ عذبة وهي مثال لمواضيع قصائده . فكان كالصغير مع الصغار ولذا انتقد عليه بعض الادباء وقالوا ان في اشعاره ما هو اشبه بأبأة الاطفال لا لذة فيه ولا طعم له

ثم نظم اربعة دواوين صغيرة لخص فيها مسالكه الفلسفي وجميع معارفه العلمية وافكاره الدينية والهاماته الربانية وسماها « الاديان والدين » . « البابا » . « الحمار » « الرحمة العالية » ونظم فيها شيئاً كثيراً مما نقرأه في لزوميات المعري على حد قوله :

دين وكفر وانبـاء تقص وفر قان ينص وتوراة وانجيـل
في كل جيل اباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

وقوله

جاء القرآن وامر الله ارسله وكان ستر على الاديان فانخرقا
ما ابرم الملك الا عاد منتقضاً ولا تألف الا شت وافترقا
مذاهب جعلوها من معايشهم من يعمل الفكر فيها تعطه الارقا

. . . .

ولكن كلام فيكتور هوكو اوضح واظهر واجمع واكثر تفصيلاً وترتيبا وان كان الشاعران يتفقان كثيراً في اصل الفكرة وتتوارد خواطرهمـا على المعاني الواحدة .

ويظهر في كلامهما أثر الحيرة والدهشة من النظر في الكون ولكن فيكتور هوكو لم يستول عليه اليأس ولا القنوط الذي استولى على افكار المعري واحرمه من نعيم الدنيا ولذائذ الحياة مع ما كان له من سعة الرزق وكثرة المال . ومما انشده في ذلك :

واتهامي بالمال كاف ان يطلب مني ما يقتضي التمويل
ويقول الغواة خولك الله كذبتم لغيري التخويل
عيشة ضاهت الهواذير ما فيها مفيد وكلها تطويل
ان حباك القدير كالنيل تبرأ فليفضه العطاء والتنويل
الى ان قال واذا هولت علي المنايا راقني من وعيدها التهويل
حوليني عن ظاهر الارض فالقلب يسلي همومه التحويل الخ

ووردت ترجمته في بعض الكتب الفارسية وقيل فيها بانه كان من اهل الثروة واليسار مع زهد وتقشف

١٣ — الاديان والدين

ديوان مشحون بالحكم ولكن ضيق الوقت منعنا عن تدقيقه ومقابلته بما ورد على مثاله من شعر العرب . وهو على خمسة ابواب : باب الجدل ، باب الفلسفة ، باب لا شيء ، باب الاصوات ، باب النتيجة ، ونظم في باب المجادلات تسع منظومات : (١) يوم الاحد (٢) اول التفكير (٣) التيولوجي ونسميه المتكلم أو المتكلمون وهم الباحثون في علم الكلام والتوحيد . (٤) للتيولوجي أي خطاباً لهم ومطلعها :

ايها الرهبان ، ايها اللابسون الحرام والطيلسان ، سواء عليكم تعممتم بعمائم البز أو تتوجتم بالتيجان المرصعة بالجواهر واللآلىء فحيث جعل لكم في هذه الدنيا حق بالحماقة فانتم تتجاوزون فيها الحد بشدة لا مثيل لها . لان العلي الاعلى يغض بصره ويصم اذنه عنكم .... الخ . (٥) الاختراع . (٦) الايدي المرفوعة نحو السماء . (٧) احسن الصنع وبين فيها ما يقوله المتكلمون من النصارى في حق الله (٨) بقية . (٩) مسائل

ثم ذكر في الباب الثاني آراء الفلاسفة وفي الباب الثالث آراء الملحدين الجاحدين الذين يقولون بعدم وجود شيء . ان هي الا ارحام تدفع وارض تبلع وما يهلكنا الا الدهر . وانما مثلنا كمثل الزجاجة اذا انكسرت لا يعاد لها سبك . واما الخاتمة فهي منظومة طويلة نظر بها في حسن السماء ونجومها التي هي زينتها وفي الشمس والقمر ونورها وفي الكون باجمعه وقال في ختامها : هو موجود : هو موجود : انظري ايتها النفس . فله اوج وهو الضمير . وله محور وهو العدالة . وله نقطة اعتدال وهي المساواة . وله فجر واسع وهو الحرية . وشعاعه ينير فينا ما تتصوره النفس فهو موجود : موجود ! موجود ! بلا نهاية ، بلا بداية ، بلا كسوف ، بلا ليل ، بلا فراغ من العمل ، بلا نوم

فارتجي يا دودة الارض عن خالق الشمس . اه وهذا على حد قولنا لا تفكر في ذات الله وحقيقته بل تفكر في خلقه ومصنوعاته

١٤ — الحمار

اراد المؤلف بنظم هذا الديوان بيان افضلية الطبيعة والذوق الطبيعي على العلم لا سيما على العلم الكاذب والاباطيل . وقايس فيه بين صبر الحمار وبين خشونة الرجل وعبث الصبي . لان الحمار وان كان في عرفنا كناية عن البلادة والغباوة ومن اوصاف الذم لكنه في عرف المتقدمين رمز عن الصبر ولذا سمي مروان الحمار وكان ذا شجاعة وحزم . وسمى اليونان بعض رجالهم واظنه أشيل الحمار أيضاً . ففيكتور هوكو سمى حماره الصبر وقايس بينه وبين الفيلسوف كانت وجعل بينهما مخاطبات فلسفية بديعة وقال لكانت « ما الذي وجدته بعد خوض بحار العلوم وما الذي استنتجته من سبرغورها والى اين أوصلتك هذه الكتب والدفاتر فهي لم تدون ولا وضعت في الكتبيات الا لترعى في حواشيها الارضة وتتخزن فيها الرطوبة والعلم الحقيقي هو في وجه الطبيعة والطفولية وفي الابتسام والصلاح والبشاشة ... الخ »

١٥ — الرحمة العالية

صور في هذا الديوان الظلم والاستبداد وبكاء المظلومين ولعنهم الظالمين وشخص القوة المستبدة أحسن تشخيص وبين الحامل للمستبد في امرهم على الشكوى، ولكن الملك في باطن الامر ونفس الحقيقة يرى اولئك الظالمين الملعونين في حاجة وفقار للشفقة عليهم ايضاً . لان حمل الحكومة والدولة من أثقل الاحمال لا سيما وان اولي الامر واصحاب الاستبداد محاطون دائما بالمداهنين والمتملقين . فالظالم شنيع ولكن المغري له والمتبصبص اشنع فالمتملقون يفسدون اخلاق الملوك منذ حداثة سنهم وهم يكررون عليهم في كل صباح ومساء « كل هذه الامة هي لك » . فحب الملك خصلة كبقية الخصال الانسانية والملوك يستوون في الخصال مع بقية الناس ولكنهم يفرقون عنهم بان الحقيقة تخفى عليهم بالكلية ولا يطلعون على جلي الخبر فهم أحق وأولى بالرحمة العالية

الدرام

استعمالنا هذا الاسم ريثما يضع ادباء العرب اسماً مقابلاً له أو يعربونه كما عرب المتقدمون كلمة موسيقى او ارتماطيقي ونحوهما من الكلمات اليونانية . والمقتضى لهم ايجاد كلمة تكون على وزن من اوزان الاسماء العربية ويسهل النطق بها على اللسان لانا في عصر يحتاج فيه لادخال كلمات جديدة في لغة العرب كما ادخل السلف قبلها الكلمات اليونانية والفارسية وغيرهما على عهد الخلفاء العباسيين

١ — كرومويل

اول درام الفه فيكتور هوكو هو درام كرومويل وتقدم ذكر مقدمة هذه الرواية في تعريف الطريقة الرومانية . أما كرومويل فهو من أشهر رجال الانكليز في القرن السابع عشر للميلاد اشتغل بالسياسة حتى صار رئيساً للحزب الجمهوري وأحدث (الثورة) الانقلاب الذي قتل فيه شارل الاول ملك الانكليز سنة ١٦٤٩ كما قتل لويس السادس عشر ملك فرانسا سنة ١٧٩٣ م واستبد اوليفيه كرومويل

بالجمهورية وصار صاحب الامر والنهي كأنه ملك ولم يقنع بما استحوذ عليه من السلطة والنفوذ بل وسوس له الخناس الذي يوسوس في صدور الناس بان يتملك على الانكليز . فاخذ في تهيئة الاسباب واعداد المعدات كما فعل نابوليون الثالث حينما تتوج بتاج الامبراطورية . واستعدت بلدية لوندرا لتقديم الصولجان له وتهيأ البرلمان لالباسه التاج وكان الاحتفال برسم التتويج يتم في كنيسة وستمنستر حسب الاصول والتقاليد القديمة ولم يبق بينه وبين الفوز بامانيه الا قاب قوسين أو ادنى . فحينئذ اكتشف على عصبة سرية من اصحاب الجمهورية يأتمرون على قتله ولا يؤخرهم عن الفتك به الا انتظار رسم التتويج ليغمدوا سيفهم المسلول في قلب ملك لا في قلب رئيس للجمهورية . فخاف ورجع عما تشتهيه نفسه واظهر ميله للمحافظة على قوانين الجمهورية وكراهته في لبس التاج والتملك واخفى شوقه لعروس المملكة وحرصه الزائد على نيل وصالها لان الظلم من شيم النفوس ...

وكان اوليفيه كروميل ذا اخلاق غريبة وطينة عجيبة وطبيعة متقلبة اجتمع في خصاله الضدان من شهامة ودناءة وجبن وشجاعة وشدة ورحمة ولين جانب وقساوة وحرية افكار ونفاق ومجاملة ولذا اتخذه فيكتور هوكو بطلاً لروايته وصور اخلاقه تصويراً بديعاً وجعل مجرى الرواية في ويت هال سنة ١٦٥٧ وافتتح الرواية بقوله : « غداً الخامس والعشرون من حزيران سنة الف وستماية وسبع وخمسين » وختمها بقول كروميل « اذاً متى اصير ملكاً ؟ » اشارة الى شدة حرصه على الملك . فالادباء الناهجون منهج الطريقة الرومانية يعتبرون هذا المطلع وهذه الخاتمة من ابدع المطالع والخواتم وابلغها مع بساطتها وخلوهما عن التشابيه والاستعارات المدرسية . ويقولون بان انشاء الرواية من اعلى طبقات الانشاء ولكن تمثيلها على المراسح متعسر لطولها وكثرة اشخاصها فهي اشبه بكتاب تاريخي مدقق منها بالرواية التمثيلية . وعدا هذا فمؤلفها لم يحسن توصيف اخلاق الرجال ولم يستطع اعطاء كل رجل صفته الحقيقية بدون افراط ولا تفريط بل اتبع في الوصف تصوراته وخيالاته . والمطلوب في الرواية التمثيلية تصوير الرجل بذاته وافكاره بلا غلو ولا اطراء ولا مبالغة ولكل رجل تاريخي احوال مخصوصة تكتنف به ينبغي مراعاتها

في تأليف الرواية فنابوليون مثلاً له تعبيرات وافكار واطوار لو خرج عنها مؤلف الرواية لافسد تأليفه وكذا الملك صلاح الدين الايوبي مثلاً . ولكننا لم نزل نجهل حقيقة تاريخنا فضلاً عن معرفة اخلاق رجل واطواره . أما الافرنج فلكثرة معلوماتهم وسعة اطلاعهم لو حضر أحدهم تمثيل رواية وكان من اصحاب الذوق في الكلام لا يكتفي بالتبصر في محاسن الالفاظ وتنسيق الكلام ورونق الاشعار وعلو الانشاء بل ينظر مع ذلك الى الاهم وهو حسن الموضوع وتصوير اخلاق الرجال وأستنتاج النتائج الادبية الفلسفية الاخلاقية . بخلاف من يتلو منا مقامات الحريري والهمذاني أو يستمع ملحين الاشعار وأنشادها على العود والقانون فان طربه في الغالب انما هو لحلاوة التعبير ويلهو بها عما يحتويه من الفكرة والمعاني فحلاوة التعبير هي كالديباج والحلي للافكار والمعاني . وربما يلهو المرء بحلي الغانية وزينتها عن جمالها الحقيقي كما نشاهد ذلك على المراسح في المشخصات المتوسطات في الحسن اذا برزن بزينة الاميرات وبأثواب الملكات

٢ — ايرناني

وسماها المؤلف ايضاً الشرف القشتالي وقشتالة ايالة في وسط اسبانيا . وصور فيها الدولة الاسبانية وهي في ذرى مجدها وأوج عزها

وذلك ان العرب بعد فتحهم اسبانيا وتأسيسهم الدولة الاموية فيها فرّ بقية امراء القوط الى جبال استوريا في الشمال الغربي من اسبانيا وأسسوا فيها دولاً صغيرة . فلم يعبأ بهم المسلمون وحسبوهم من المتشردين فلم يستأصلوا جرثومتهم ولا اجلوهم الى ما وراء جبال البيرينه كما كانت تقتضيه الحكمة السياسية من تحكيم الثغور في هذه الجبال واتخاذها سدًّا مانعاً لهجوم الاعداء على المملكة الاسلامية . ثم ظهرت ملوك الطوائف من المرابطين والموحدين وبني زيان وبني هود وآخرهم بنو الاحمر ومؤسس هذه الدولة عبد الله محمد بن احمر سنة ٦٣٣ هـ وعدة ملوكها عشرون واستمر ملكهم ٢٦٥ سنة وكان آخرهم ابا عبد الله الصغير وكانت عاصمتهم غرناطة[١]

فلما ضعف امر المسلمين وكثر النزاع والجدال بين امرائهم قويت شوكة

(١) الخلافة الاموية في الاندلس من سنه ١٣٩ — ٤٢٣ = ٢٨٤ سنة هجرية

المسيحيين في شمال اسبانيا . وكان يوان الثاني حاكماً على اراغون وهي ايالة في شمال اسبانيا على ساحل البحر المتوسط وعلى صقلية فزوج ابنه فرديناند بابنة حاكم قشتالة وهي ايزابلا . وتلقب فرديناند بالكاثوليكي وخلف اباه في الملك واستولى على قشتالة بالوصاية عن زوجته وحارب المسلمين وأخذ منهم غرناطة وأخرجهم من اسبانيا وأخذ من الفرنساويين مملكة نابولي في ايطاليا وفي ايامه اكتشفت اميركا وحمل ما فيها من الذهب الى اوربا . وبعد وفاة ايزابلا انتقل ملك قشتالة بالارث الى بنتها حنه المجنونة وكانت متزوجة بفيليب الجميل ارشيدوق اوستريا وخلفت منه ولداً اسمه الدون كارلو فانتقل اليه بالارث ملك جده فرديناند وجدته ايزابلا واجتمعت له المملكة الاسبانية بما فيها من الثروة الاميركية . ثم ورث من جده الثاني امبراطورية المانيا وصار انتخابه لها وتلقب بشارلكين وحاز على جميع الممالك المذكورة في الجدول الآتي :

جدول في بيان ما ورثه شارلكين اي شارل الخامس من الممالك

(١) آل اسبانيا		(٢) اوستريا	
فردينانه الكاثوليكي ملك اراغون ونابولي	تزوج ايزبلا دى قشتالة ملكة اسبانيا والمستعمرات الاسبانية في اميركا	مكسيمليان امبراطور المانيا وارشيدوق اوستريا	تزوج ماري دي بورغونيا الوارثة من شارل الجسور (هولانده وارتوا وفرانش كونته)

ملوك الطوائف	من سنة ٤٢٣ — ٤٧٩ = ٥٦	سنة هجرية
دولة المرابطين (يوسف بن تاشفين)	« ٤٧٩ — ٥٤٠ = ٦١	«
دولة الموحدين	« ٥٤١ — ٦٦٨ = ١٢٧	«
ملوك الطوائف :	« ٦٦٨ — ٨٩٨ = ٢٣٠	«
فرديناند وايزابلا	١٤٧٩ ميلادية	
ال اوستريا (شارلكين)	١٥١٩ «	
ال بوربون	١٧٠٠ «	

حنه المجنونة .	تزوجت	فيليب الجميل

الدون قارلو وهو شارل دوتريش الذي لقب فيما بعد شاركين

أما اوستريا فكانت احدى الامارات التي تتألف منها امبراطورية المانيا

أما امبراطورية المانيا فكانت مجموع امارات ومدائن حرة وكانت الامبراطورية فيها بالانتخاب لا بالوراثة وذلك انه عند موت الامبراطور يجتمع امراء الامارات السبعة وهم اكبر الامراء الذين تتألف منهم الامبراطورية ولذا لقبوهم (المنتخبين السبعة) وانتخبوا امبراطوراً من اوستريا في الغالب اي من العائلة التي تملك على امارة اوستريا . فلما مات مكسميان امبرطور المانيا سنة ١٥١٩ م انتخب حفيده شارلكين . وكان فرانسوا الاول ملك فرانسا صاحب عظمة وثروة ونفوذ وعسكر فكان يسعى مع المنتخبين في انتخاب نفسه ورشاهم بكثير من الاموال والهدايا فاخذوا ماله وانتخبوا عدوه شارلكين فاشتدت الرقابة بينهما . وكاد شارلكين يتفرد بالملك في اوربا ولم يبق له رقيب فيها سوى فرانسوا الاول ملك فرانسا فحاربه واسره واحضره الى مدريد عاصمة ملكه وعقد معه معاهدة موافقة لسياسته ثم اطلق سراحه فلما وصل ارض فرانسا نقض العهد واستعد السلطان سليمان القانوني وكان اقوى ملوك الارض قاطبة . وجرت محاربة بحرية في مياه تونس بين اسطول شارلكين واسطول خير الدين باشا المشهور باسم بارباروس اي ذي اللحية الشقراء وانتصر فيها العثمانيون وانتصرت العساكر الانكشارية أيضاً على العساكر الالمانية في محاربة اخرى برية وقعت على حدود النامسا والمانيا . وكان شارلكين شديد الحرص على التفرد بالملك والسؤدد فلما لم يستطع ادخال جميع اوربا في حكمه وتحت نفوذه استولى عليه اليأس وانقطعت آماله فتنازل عن ملك اسبانيا لابنه فيليب الثاني وتفرغ عن امبراطورية المانيا لاخيه فرديناند واعتكف هو في دير من الاديرة الى ان مات حزناً وكمداً

أما موضوع رواية ايرناني فهو ان الدون قارلو قبل ان يصير أمبراطوراً على المانيا ويسمى شالكين كان يهوى في ماريد غانية اسمها الدونة سوله وكان يهواها

أيضاً عمه الدوق روى غوميز . أما هي فكانت تعشق شابًا من الاشقيـاء وقطاع الطريق اسمه ايرناني وكان ثلاثتهم يترددون عليها بدون ان يشعر احدهم بالآخر . فصادف الدون قارلو عند معشوقته هذا الشاب مرتين ففي المرة الاولى مكنه من الخروج ولم يتعرض له وفي المرة الثانية ضيق عليه بالحرس وحصره بالعسكر واباح لهم دمه وجعل جائزة لمن يأتيه برأسه ففر ايرناني بكل مشقة من بيت حبيبته واختفى عن الابصار . فلما انقطع امل هذه الغانية من الملك ومن حبيبها الشاب القت نفسها بين ايدي عاشقها الثالث وكان شيخاً هرماً ففرح بها وحملها الى قصره واراد الدخول بها . ثم اهتدى ايرناني الى حبيبته وجاء اليها و بينما هو يغازلهـا و يعانقها واذا دخل صاحب البيت وهو الدوق روى غوميز ووجدهما متعانقين ثم جاءهم الملك بغتة واراد القبض على ايرناني فامتنع الدوق من تسليمه وعدّ اخذه من بيته اهانة لشرفه واشار الى صور ابائه واجداده المعلقة على جدران الغرفة وهم حماة الملهوفين ومغيثو المستجيرين . فترك الملك ايرناني واخذ الغانية عوضاً عنه وخرج بها من القصر فلما نجا ايرناني من الهلاك طلب من الدوق ان يطلق سراحه ليتعقب اثر محبوبته ويخلصها من ايدي الملك وعاهده على ان يعود اليه متى طلبه واعطاه بوقاً لينفخ فيه متى اراد ان يستدعيه فاذا سمع صوت البوق حضر اليه بالحال

ثم ينتقل مجلس التشخيص الى اكس لاشابل في المانيا وكانت عاصمة الامبراطور شارلمان وفيها قبره ثم جرت العادة بتتويج الامبراطور في هذه المدينة . فاذا ارادوا تولية امبراطور اجتمع المنتخبون وهم الملوك أو الامراء السبعة الذين لهم حق الانتخاب واختاروا أحدهم والبسوه التاج واطاعوه . وكان الدون قارلو مرشحاً لهذا الامر . فائتمرت عصبة على قتله وفيهم عمه الدوق روى غوميز واختلفوا في المحل الذي فيه قبر شارلمان واخذوا معهم ايرناني ليطعنه بخنجره . فعلم بهم الدون قارلوس ودخل المقبرة ونزل لقبر شارلمان وفاه بكلام هو من ملوك الكلام ومن ابلغ ما نظم فيكتور هوكو . ثم اطلقت المدافع ودقت الاجراس اعلاناً بانتخابه امبراطوراً على المانيا وخليفة لشارلمان والقى القبض على المتآمرين واراد قتل ايرناني لانه ليس من ذوي الرتب والشرف ولكنه بين نسبه يظهر بان اسمـه الحقيقي هو جان دراغون

دوق سيغورب وقاردونيا فعفى عنه وزوجه بمعشوقته الدونة سوله فلما اخذها وأراد الخلوة بها في قصره سمع صوت البوق فتذكر عهده وفضل الموت على عدم الوفاء بالوعد فشرب السم وشربت حبيبته . ثم قتل الدوق روى غوميز نفسه أيضا من شدة حبه لتلك الغانية . فهذه الرواية ليس لها حقيقة تاريخية وانما هي من مختلقات الشاعر وتخيلاته ولكنها في اعلى طبقة من البلاغة والانسجام وحسن الذوق

٣ — روى بلاس

صور المؤلف في هذه الرواية التاريخية انحطاط دولة اسبانيا في اواخر القرن السابع عشر للميلاد وذلك انه بعد فيليب الثاني ابن شارلكين المتقدم ذكره جلس على كرسي المملكة الاسبانية ابنه فيليب الرابع ثم شارل الثاني آخر ملوك هذه السلالة النامساوية . ولما جلس سنه ١٦٦٥ م كان عمره اربع سنوات وهو لا يستطيع المشي ولا الكلام فكانت الوصاية لامه ثم لاخيه وامرأته ووزراء دولته . وبعد ان كبر ايضاً لم يلتفت لمصالح الملك وأهمل ادارة مملكته و بيته وزوجته وكان يقضي ايامه في الصيد والتجول في البراري والغابات وامرأته في هم وكدر من وحدتها وتكلفها بمراسم التشريفات و بالتقاليد المرعية في قصر الملك ولم يكن لشارل الثاني ولد فوصى بالملك لحفيد لويس الرابع عشر ملك فرانسا وانتقلت دولة اسبانيا من آل اوستريا الى آل بوربون سنة ١٧٠٠ وزال نفوذها واعتبارها من بين الدول الاوروبية ولم تزل في انحطاط لم تتخلص منه للان وترى بعين الحسد تهافت الدول الاوروبية على استعمار افريقيا ومدهم فيها السكك الحديدية وجرهم المنافع التجارية وهي شاخصة ببصرها كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه . واضاعت بالامس آخر مستعمراتها في اميركا وهي جزيرة كوبه ثم جزائر فيلبين ولم تكسب اليوم من تقسيم البلاد المراكشية الا جزءاً موهوماً على ساحل المحيط الغربي يسمى (ريودور) اي نهر الذهب . ويشاهد رسمه على الخريطة المرسومة بعد عقد المعاهدة بينها وبين فرنسا ولا يرى اثر لحقيقة مسماه وجل ما يعلم عنه ان ليس هناك لا نهر ولا ذهب

فصور الشاعر في هذه الرواية انحطاط المملكة الاسبانية وشرح اسباب انقراض دولتها فاذا رفع الستار عن المرسح ظهرت غرفة من غرف قصر الملك في مادريد وفيها وزير المملكة وقد غضبت عليه الملكة وطردته من القصر لانه لم يقبل بان يتزوج بنتاً من حاشيتها بعد ان راودها وحظي بها وقبل ان يخرج من القصر ليلتزم بيته صمم على الانتقام من الملكة فاستدعى ابن عم له يسمى قيصر وكان لفقره معاشراً للهمل وقطاع الطريق مع ما له من الحسب والنسب واراد ان يتخذه آلة لدسائسه . فاستنكف من ذلك ورد ما عرضه عليه من المال والجاه فامر بنفيه للهند فنفي اليها والبس خادمه روى بلاس لباس الاشراف ودعاه بابن عمه قيصر وقدمه لرجال الدولة واعيانها بعد ان استكتبه اوراقاً يعترف فيها باصله وخدمته له وكان روى بلاس يعشق الملكة فتقرب منها وحظي لديها بالقبول وصار من اعظم وزرائها واكبر مستشاريها . وبينما هو حائز على رضاء الملكة وعلى أعظم مسند في المملكة ظهر له سيده وأخذ يهدد الملكة ويوبخها على هيامها في خادمه وعلى تفريطها بنفسها وطلب منها امضاء ورقة ليتخذها حجة عليها ولا يبوح بسرها ما دامت مسلمة له زمام الملك فكادت الملكة تقبل بذلك خوف الفضيحة والعار ولكن روى بلاس اشتد غضبه حرصاً على شرف الملكة محبوبته وقتل سيده ثم شرب سماً ومات والملكة تندب عليه وتبكي . فهذا محصل الرواية

وقال فيكتور هوكو في مقدمتها :

ان المتفرجين في المراسح على ثلاثة اصناف : احدهما النساء . والثاني الخواص . والثالث العوام . فالذي يتطلبه العوام من التآليف الدراماتيقي بدون استثناء تقريبا هو العمل [1] والذي تتطلبه النساء قبل كل شيء هو الشهوة والذي يتطلبه الخواص على الخصوص هو الاخلاق . فاذا امعنا النظر في هذه الاصناف

---

(١) اي الفعل الذي يجري على المرسح من ضرب وقتل وقيام وقعود وحركة وسكون

الثلاثة من المتفرجين نجد العوام هائمين بالعمل لدرجة يتساهلون فيها عند اللزوم بالاخلاق و بالشهوات . ونجد النساء مكترثات بالعمل ايضاً ولكنهن مستغرقات بتفاصيل الشهوة حتى يقل اشتغالهن جدًّا بتصوير الاخلاق . ونجد الخواص يتلذذون بمشاهدة الاخلاق اي بمشاهدة الرجال احياء على المراسح ويتاقون الشهوة كانها عارض طبيعي في التأليف الدراماتيقي ويحصل لهم انزعاج من العمل . والسبب في ذلك ان العوام انما يتطلبون في حضورهم المراسح الهيجان . والنساء يتطلبن الخلجان . والخواص يتطلبون التفكير . والجميع يبغي لذة ولكن اولئك يبغون لذة النظر . وهؤلاء يردن لذة القلب . والاخرون يبغون لذة العقل . ومن ثم حصل في رواياتنا — اي روايات فيكتور هوكو — ثلاثة انواع مختلفة من التأليف . احدهما عامي سافل . والاخران رفيعان عاليان . ولكن في ثلاثتهم الكفاية لسد الاحتياج . فالعوام لهم الميلودرام أي ما كان فيه انتقام وقتل وأزلال وفضيحة والنساء لهن التراجيديا التي تشرح الشهوة . والخواص لهم الكوميديا التي تصور الاخلاق الانسانية

وربما يتداخل بعض هذه الثلاثة في الآخر لان العوام ربما كان فيهم من له شوق طبيعي لتطلب الجمال كما يكون له ذوق في الاشياء التافهة . ومن له هيام في التصورات والتخيلات البديعة قد يكون له اقبال على الاشياء العادية المزدرى بها . وكل واحد من خواص الادباء البالغين في الأدب رتبة الكمال ينبغي ان يتصف بصفة المرأة من جهة الاحساس القلبي كما ان المرأة تتصف احياناً بصفة خواص الادباء المفكرين

فاذا أمعنا النظر في اصناف المتفرجين الثلاثة نراهم جميعاً محقين . فان النساء لهنَّ حق في ابتغائهن خلجان القلب . والخواص لهم الحق في أبتغائهم التعلم والاستفادة . والعوام لا لوم عليهم في طلبهم التسلي . فمن هذا الشرح ينتج قانون الدرام

فالقصد من الدرام والغاية منه هو تصوير الاخلاق . أي أختلاق رجال وتمثيلهم على المراسح بمقتضى الشروط المؤلفة من صناعة الادب ومن الطبيعة . والقاء الشهوات في هؤلاء الرجال لبيان أخلاقهم وأيضاحها . ثم أستخراج الحياة

الانسانية من تصادم هذه الاخلاق والشهوات بالنواميس الكبرى الالهية . أي استخراج وقائع كبيرة ، صغيرة ، مؤلمة ، مضحكة ، هائلة تشتمل على لذة للقلب يسميها الناس المنفعة وعلى عبرة للعقل يسميها الناس محاسن الاخلاق . فيتضح من ذلك ان الدرام يخرج من التراجيديا بتصوير الشهوات ومن الكوميديا بتصوير الاخلاق والصفات . فالدرام هو الشكل الثالث الكبير من اشكال الصناعة الادبية ويشتمل على الاثنين الاولين ويجمعهما ويفضلهما . فلو لم يوجد شكسبير بين قورنيل وموليير ولم يعط يده اليسرى لقورنيل ويده اليمنى لموليير لبقي كل منهما بعيداً عن الاخر . ولكن بوجوده التقت الكوميديا بالتراجيديا التقاء القطب المثبت بالقطب المنفي من الكهربائية . فحصل من التقائهما شرارة هي الدرام . اه .

ثم انتقل فيكتور هوكو لبيان حقيقة الدرام بالنظر لفلسفة التاريخ فقال :

اذا اقتربت مملكة من السقوط تمكن الناظر فيها من ملاحظة علائم كثيرة . ففي بادىء الامر يميل الاشراف للانحلال ، وبانحلالها تنقسم على الوجه الآتي :

تضطرب المملكة وتنطفي السلالة المالكة . وتزول احكام القانون . وتتجاذب الدسائس الوحدة السياسية فتمزقها شذر مذر . وتخمد كبار العائلات وتنقرض . ويشعر الجميع في الداخل والخارج بضعف مميت . وتسقط عظائم الامور التي تقوم عليها الدولة ولا تبقى واقفة الا على صغائر الامور وحدها ويصبح منظرها العمومي محزناً . ولا يبقى فيها لا ضابطة ولا عسكر ولا مالية . وكل واحد يحسب الساعة آتية لا ريب فيها . فمن ذلك يحدث في الاذهان كدرٌ من البارح وخوفٌ من الغد واحتراسٌ من كل انسان ويأس من كل شيء ونفرة زائدة . وحيث ان مرض الدولة في رأسها فاعيان المملكة الذين هم أقرب الى الرأس يكونون أول المصابين بهذا المرض . فماذا يحدث حينئذ ؟ لا يبقى في قصر الملك من الاعيان المقربين الا الذين هم أقل حياء وأسوأ أخلاقاً وجميعهم على وشك الانقراض ويضيق الزمان وتنبغي العجلة ويلزم لهم الاستهلاك في جمع المال والارتقاء لاعلى المراتب والاستفادة من الحال الحاضرة . ولا يفتكر الواحد منهم الا بنفسه . ويجمع بلاشفقة على الوطن ثروة قليلة خاصة به في قرنة صغيرة من الفقر العام

الكبير . ويصير نديماً ويصير وزيراً ويتهالك في الوصول للسعادة ونفوذ الكلمة وينفتق ذهنه باستحضار الاجوبة الظريفة وينافق ويداهن ويلاطف فينجح . وكلهم يستحوذون على مقامات الدولة ومناصبها وعلى وساماتها ورتبها والقابهـا واموالها . ويأخذون الجميع . ويتعابون الجميع . وينهبون الجميع . ولا يعيش الواحـد منهم الا بالحرص والطمع . ويخفون قلاقل المملكة وفسادها وسوء اداراتها الداخلية تحت مهابة ظاهرية . وتشرئب نفوسهم للعجب وتتطاول اعناقهم للعظمة والكبرياء . ولما كان الشرط الاول في حياة هؤلاء المقربين هو نسيان جميع الحواس الطبيعية فيصبح الواحد منهم كانه وحش مفترس . ومتى جاء يوم سقوطه وابعاده عن مناصب الدولة صار مدهشاً عجيباً وانقلب ابليساً

فاذا يئست الدولة من حالتها ابعدت عن مراكزهـا النصف الثاني من اعيان المملكة الذين هم اكرم نسباً واحسن جرثومة . فيلازمون بيوتهم ويدخلون قصورهم ويذهبون لبلادهم ومعاقلهم ومصائفهم وينفرون من مصالح الدولة ولا يستطيعون تدبير أمر ولا حيلة بيدهم لان المملكة قد حان موتها ولم يبق في الايام الا ذماء . (الذماء بقية الروح في المذبوح) كيف العمل وماذا يجدي التحسر وما ينفع البكاء ؟ فينبغي التغافل واغماض العين وتسلية النفس بالملاهي واللعب والاكل والشرب والتلذذ والتنعم . من يعلم ؟ هل بقي للواحد منهم سنة أو سنتان امامه ؟ فاذا تفوه سادة المملكة وكبراؤها بذلك أو شعروا به واحسوا بشيء منه فقط اقبلوا على التهور في مصالحهم والافراط في امورهم . فزادوا في مشترياتهم وفي حلي نسائهم وفي ضيافاتهم واتقان مطابخهم وموائدهم واسرفوا وبذروا واهدوا وفرقوا وباعوا واشتروا ورهنوا واستدانوا وسلموا انفسهم لآكلي الربا واتلفوا مداخيلهم واضرموا النار في الجوانب الاربعة من املاكهم . فيصبح الواحد منهم يوماً وقد حلت به المصيبة ونزل عليه البلاء وخرب هو قبل خراب المملكة رغمـا من سرعة سيرها نحو الانقراض . فينفد ماله ويحترق كله ولا يبقى من تلك الحيـاة الزاهرة والطهي والبهرجة ولا الدخان لانه طار أيضاً . ولم يبق الا الرماد ولا اكثر من ذلك . فيتركه جميع الناس وينسونه الا اصحـاب الديوان . فتصير حالة هذا الشريف

لمسكين الى ما يمكن أن تصير اليه . فيصبح بائساً سفيلاً من الرعاع ويدور مع الهمل ويختلط بجمهور العامة ويغيب بين افواجهم المزدحمة .. ولم يكن خالط العوام قبل ذلك ولا رآهم الا على ابوابه واعتابه فيغطس الان بينهم ويلتجئ اليهم . ولم يبق معه نضار وانما بقيت له (الشمس) أي نضارة الحياة وهي ثروة من لا ثروة له وبعد أن اقام في اعلى طبقات الجمعية فهو الان يقيم في اسفل طبقاتها . ويدرب نفسه على الذل بعد العز . ويهزأ بالذين لمشتهم الحرص والطمع حتى نافقوا وتقربوا من اولي الامر وصاروا من الاغنياء النافذي الكلمة . وأما هو فيصير فيلسوفاً لا يبالي بالاقبال والادبار ويشبه من حوله من رعاع الناس واوباشهم بحاشية القصر ورجال المعية ويتخذ منهم جماعة واخذانا ويترأس عليهم ويراعي النخوة والشهامة في جانبهم . وعدا هذا فهو طيب العنصر جسور القلب مفطور على النجابة والفطنة جمع في اخلاقه وخصاله بين ذوق الاديب الشاعر ودناءة الصعلوك الفقير وشهامة الرئيس الامير . لا يبالي بشيء ويسخر من كل شيء ويشوق رفاقه واصحابه للسرقة كما كان يبعث برجاله واتباعه للنهب والغارة ولكنه لا يتنزل لان يسرق أو يستعطي بنفسه . تراه رث الظاهر سليم الباطن ذا كرم وسخاء كالامير وتهور كتهور اليائس الفقير . لم يبق له من الاصالة الا شرف النسب الذي يحافظ عليه والاسم الذي يخفيه والسيف الذي يشهره

فهاتان الصورتان اللتان رسمناهما ووصفنا بهما قسم المقربين وقسم المبعدين من اشراف المملكة يوجدان في وقت من الاوقات في تاريخ جميع الممالك . ولكنهما في اواخر القرن السابع عشر للميلاد وجدتا في اسبانيا بصورة تستلفت النظر ولذا شخصنا في هذه الرواية التمثيلية القسم الاول من كبراء اسبانيا في الدون سالوست المقرب في قصر الملك والمنعم عليه والقسم الثاني في الدون قيصر (سيزار) الذي يرعى مع الهمل مع ان كلاً منهما ابن عم الآخر. وعدا هذين الشخصين اللذين يتمثل فيهما كبراء المملكة الاسبانية المقربين والمبعدين يوجد تحتهما شيء كبير مظلم مجهول يتموج في جنح الظلام . فهذا الشيء هو الشعب الذي له المستقبل وليس له الحاضر . فالشعب يتيم فقير ولكنه ذو قوة واستعداد وقابلية يتطلب العلي وهو في

الدرك الاسفل . وعلى ظهره علامة الخدمة والاستعباد وفي قلبه شوق للمعالي . الشعب خادم للسادة الكبراء وعاشق وهو في الذل والشقاء للصورة الوحيدة التي تتلألأ له وسط هذه الجمعية المنقرضة كانها نور الهي ويتمثل له فيها الحاكمية والشفقة والنمو . فالشعب هو روى بلاس خادم الدون سالوست

فاذا تصورنا هؤلاء الاشخاص الثلاثة على الوجه المشروح بقي علينا احياؤهم وتمثيلهم امام المتفرجين وان ندير عليهم اعمالاً ثلاثة تتلخص فيها جميع احوال المملكة الاسبانية في القرن السابع عشر . ويوجد فوق هؤلاء الرجال الثلاثة مخلوقة صافية نيرة . فهذه المخلوقة هي امرأة وملكة وهي في شقاء من حيث انها امرأة لانها لم يكن لها زوج . وهي في شقاء من حيث انها ملكة اذ ليس لها ملك . ومتعطفة على من تحتها بعاطفة ملكة وقلب امرأة وناظرة للدرك الاسفل . بينما أن روى بلاس الذي تتشخص فيه الامة ناظر للمقام الاعلى . فهذه الروس الاربعة المجتمعة على هذا الوجه (بقطع النظر عن الاشخاص الثانوية) هي في نظر المؤرخ الفيلسوف النكات الاصلية لمملكة اسبانيا منذ ١٤٠ سنة . ويمكن لنا ان نضيف رأساً خامساً لهذه الرؤوس الاربعة وهو رأس الملك شارل الثاني . ولكن شارل الثاني ملك اسبانيا لم يكن شخصاً بل هو في نظر التاريخ ظلٌّ ولذا بقي في الدرام ظلاً لم يبن شخصه

فما ذكرناه للآن انما هو بيان حقيقة هذه الرواية وهي روى بلاس بالنظر لفلسفة التاريخ . ويمكننا النظر اليها باعتبار آخر . لان الاشياء في هذا العالم تختلف اشكالها باختلاف النظر اليها . ومثل ذلك كمثل الجبل الابيض . ان نظرت اليه من المحل المعروف باسم (فروادوفايشر) تراه بهيئة غير الهيئة التي تراه فيها لو نظرت اليه من المحل المعروف باسم (سالانش) . ومع ذلك فهو دائماً الجبل الابيض . وكذا الحال في هذا الدرام فانه يختلف شكله باختلاف النظر اليه . فلو نظرنا اليه باعتبار الانسانية المحضة لرأينا الدون سالوست يتشخص فيه حب الذات والاهتمام واشتغال الفكر والتغرض . والدون سيزار بعكسه يتشخص فيه عدم المبالاة وعدم الاهتمام وراحة البال وعدم التغرض . وروى بلاس يتشخص فيه

الذكاء والعشق واقتحام الاخطار والمهالك . والملكة يتشخص فيها الفضيلة المائلة للانهاك بسبب الملل وضيق الخلق

وأما باعتبار صناعة الادب فيجتمع في هذا التأليف الانواع الثلاثة من الروايات التمثيلية . الدون سالوست هو الدرام . والدون سيزار هو الكوميديا وروي بلاس هو التراجيديا . فالدرام يعقد العمل والكوميديا تشوشه والتراجيديا تحسمه

فالموضوع الفلسفي لهذه الرواية هو تطلع الامة وتطلبها للمقامات العالية . والموضوع الانساني هو رجل يحب امرأة . والموضوع الدراماتيقي أي الفاجع أو الهائل هو محبة خادم لملكة . فجمهور العوام لا يرون الا الموضوع الاخير اي الدراماتيقي الذي هو الخادم . والحق معهم . وهكذا يقال في كل تأليف من هذا القبيل . فترتوف يضحك منه واحد و يرهب منه آخر . فان ترتوف حية تسعى في البيت . فهو المرائي بعينه . فيكون تارة انساناً وتارة معنى . وأوتلو هو في نظر البعض اسود يحب بيضاء . وفي نظر البعض الآخر وضيع تزوج بشريفة وفي نظر الاخرين غيور او هو الغيرة على النساء

ثم ان هذه الرواية لها تعلق من جهة المعنى التاريخي برواية ايرناني . فان حالة الكبراء في الروايتين تظهر بجانب حالة المملكة . ففي ايرناني لم تكن اسبانيا اكتسبت شكل الحكومة المطلقة ولذا كان الكبراء ينازعون الملك في الامر ويقومون عليه تارة بالنفوذ وتارة بالسيوف ويخرجون عليه مرة ويطيعونه أخرى — كما كان الحال في المملكة العثمانية على عهد الجزار صاحب عكا وباشوات مصر وبكوات تونس ودايات الجزائر وبقية الامراء الذين يقال لهم دره بك — ففي سنة ١٥١٩م كان الكبراء في اسبانيا يبتعدون عن قصر الملك ويقيمون في الجبال وفي المعاقل والحصون . ويكونون تارة من قطاع الطريق مثل ايرناني وتارة من الامراء المستقلين في ادارتهم الداخلية مثل روى غومز كما فصلت احوالهم في تلك الرواية : ثم بعد مئتي سنة من ذاك التاريخ انقلبت القضية فصار الكبير الذي كان اشبه بالمستقل في ادارته رجلا من رجال المعية ينافق لينفق والبعض الآخر من الكبراء سقطوا في الفقر والمذلة فهم يخفون اسماءهم لا للتملص من سطوة الملك بل للتملص من اصحاب

الديوان والخاحهم فالواحد منهم لا يصير قاطع طريق بل يصير نورَيّا أي من الرعاع . فيرى من ذلك ان الحكومة المطلقة مرت على هؤلاء الكبراء اعواماً كثيرة فاحنت رأس هذا وقطعت رأس ذاك

ثم ان بين رواية ايرناني ورواية روى بلاس مضى على اسبانيا قرنان من الدهر حكم خلفاء شارلكين في غضونهما الدنيا . وكان من الحكمة الالهية عدم زيادة ساعة ولا نقص ساعة في هذين القرنين . لان شارلكين ولد سنة ١٥٠٠ م وشارل الثاني مات سنة ١٧٠٠ م ورث لويس الرابع عشر شارلكين كما ورث نابوليون سنة ١٨٠٠ م لويس الرابع عشر . فالمؤلف عطف انظاره نحو التاريخ ونحو ظهور هذه الدول المعظمة فيه وملأ رواية ايرناني بضياء الفجر ورواية روى بلاس بظلام الشفق . ففي ايرناني اشرقت شمس آل اوستريا . وفي روى بلاس غربت شمس باريس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٣٨ م . انتهى

فيتضح من هذه المقدمة مع ما فيها من ركاكة الترجمة لعدم تنقيحها بسبب ضيق الوقت حقيقة الروايات التمثيلية وكيفية تشخيصها للاخلاق الانسانية وتصويرها الوقائع التاريخية كما يظهر الفرق بين انواع الروايات من درام وكوميديا وتراجيديا فان تأليف الروايات له شروط وقواعد وأساليب كما ان له غاية ومقصداً . ويتضح من ذلك ايضاً وجه اعتراض الافرنج على المقامات الحريرية التي هي أشبه بالكوميديا . ولعل ادباءنا ينهجون هذا المنهج الجديد في التاليف الادبيــة ولا يقفون عند حد القصيد والرجز أو الرسائل والمقامات والخطب فان القرن العشرين مفتقر الى تصوير الاخلاق الشرقية باسلوب الروايات التمثيلية ومحتاج الى درس تاريخ الامم الشرقية درساً مدققاً ومعرفة خصال كل رجل من مشاهير رجاله كصلاح الدين وموسى بن نصير وامثالهما . ونظم الكونت دوليسل وهو خليفة فيكتور هوكو والمنتخب عوضاً له في الاكاديمية قصيدة غراء سماها موسى الكبير وصور فيها محاكمة موسى بن نصير ووقوفه بين يدي الخليفة الاموي ومدافعته عمــا اتهم به كما ان عبد الحق حامد بك ألف باللسان العثماني رواية طارق بن زياد وهي نثرية تمثيلية وفيها اشعار بديعة

٤ — الملك يتسلى

صور فيها المؤلف فرانسوا الاول ملك فرنسا ومجنونه تريبوله . لان الملوك كان لهم مجانين ومهرجون ومضحكون واقزام قصار القامة ومساخر . ولم يزل يشاهد اثرهم وبقيتهم في بلاد الشرق . ولعهد قريب كان للولاة في بلادنا مساخر ومضحكون يسمونهم المهرج والسوطري ولم يزل منهم من هو حي ليومنا. واما في اوربا فاعتاضوا عن جميع ذلك بالمراسح وتفننوا في تنويعها. فجعل المؤلف فرانسوا الملك المتكبر الجبار وتريبوله المجنون المضحك الهزئة على طرفي نقيض في مرسح اللعب . ولكن تريبوله مع ما هو عليه من دناءة النفس والتلصص كان اباً حنوناً شفوقاً على اولاده . فكانت له خصلة حسنة من جهة الابوة وقد قام بحقها احسن قيام واظهر احساسه الابوي على بنته حينما أراد الملك ان يقع بها للتسلية

٥ — لوكريش بورجيا

بورجيا عائلة اسبانية الاصل انتخب منها باباوات اشهرهم اسكندر السادس وصار لهذه العائلة نفوذ عظيم في رومية وايطاليا وجميع العالم الكاثوليكي . وكان للبابا اسكندر السادس اولاد منهم قيصر بورجيا المشهور بارتكاب الافعال الدنيئة والجنايات الفظيعة وكان اسقفاً وله اخت تسمى لوكريس بورجيا

فموضوع الرواية ان خمسة شبان من اولاد الكبراء اجتمعوا في البندقية (فينيسيا) في مرقص تنكر فيه الراقصون والراقصات بالبراقع ثم جلس هؤلاء الاصحاب يتسامرون وافضى بهم الحديث الى ذكر الفظائع وتعداد الجنايات التي ارتكبتهـا عائلة بورجيا . وكان أحدهم القبطان جينارو نام على حديثهم ثم استفاق على قبلة قبلته اياها في جبهته امرأة مستترة بالبرقع لم يعرفها . فهذه المرأة هي امه لوكريس بورجيا وسمعت قذف اولائك الشبان في حقها وحق عائلتها . ولم يكتف الشبان بالكلام بل مروا بباب دار زوجها الدوق دوفيرار ومعهم جينارو فتطاول على تاج الدوقية المرسوم على بابه وطعن في لوكريس بورجيا وفي اخيها وابيها . فامر الدوق

بالقاء القبض عليه وحبسه وطلبت زوجته قتله ثم لما علمت بانه ولدها طلبت العفو عنه . فاغتش الدوق دوفيرار من ذلك وظنه واحداً من عشاقها واجبرها على سقيه السم . و بعد خروج زوجها من البيت سقت ولدها المسموم ترياقاً نافعاً ضد السم فشفي وفتحت له الباب وهربته وهو لايدرى بانها امه ثم ارادت الانتقام من رفقه الخمسة الذين طعنوا فيها في مرقص البندقية . فاحتالت في دعوتهم عند الاميرة نغروني وفي سقيهم السم القاتل و بينما هم منهمكون في اللذات على المائدة ومتنعمون بنعيم الضيافة سمع النواح ودخل الرهبان باثواب المأتم وخلفهم خمسة توابيت لحمل الموتى . وظهرت لوكريس بورجيا على المرسح شامتة في اعدائها الخمسة الذين قذفوا في عرضها والسم يدور في بدنهم ولا يمهلهم الا برهة قليلة . ولكن جينارو لحق برفاقه وأراد الموت معهم وشرب من كاسهم ورفض من امه الترياق الذي ناولته اياه لتنقذه من السم وطعنها بخنجره وهولا يدري انها امه فقالت له حينئذ لوكريس بورجيا (انا امك) وختمت الرواية بموتهم جميعاً . ومراد المؤلف من هذه الرواية بيان ان اشقى النفوس واظلمها واطغاها قد تتجمل باحساس كالاحساس الناشيء من محبة الوالدة لولدها

٦ — توركماده

وهي من الروايات التمثيلية التاريخية . امـا توماس توركماده فهو رئيس محاكم التفتيش الديني في اسبانيا . وقد اشتهرت هذه المحاكم بالظلم والعدوان والتعذيب بانواع آلات العذاب كالضرب الشديد وشد المعذبين بالمشدات حتى تتخلل عظامهم ونتف شعورهم والباسهم الطاسات المحمية ووضعهم في صناديق مسمرة حتى اذا تحرك الموضوع فيها دخل المسمار في بدنه ومزق جلده ولحمه وغير ذلك من انواع العذاب والاحراق بالنار أو التغريق في الانهار والبحار . وعرفت هذه المحاكم باسم (انكيزيسيون) وكان اول تأسيسها في قشتالة واراغون من اسبانيـا لمحاكمة المسلمين واليهود والمشكوك في ايمانهم من النصارى الذين يتساهلون بفرائض الدين الكاثوليكي وتوفي توكاده سنة ١٤٩٨ م أي عقب اخراج المسلمين من اسبانيا .

٧ — بورغراف

وهي من الروايات التمثيلية ايضاً . وهذا الاسم يطلق على ذوي الآراء السخيفة لا سيما في المسائل السياسية . والبورغراف هم امراء البلاد ومحافظو القلاع كما كان الجزار في عكا وابو نبوت في يافه ولم يزل له في يافه سبيل ينسب اليه . ويروى عن هؤلاء الولاة والامراء الروايات الغريبة والاقاصيص العجيبة . فصور فيكتور هوكو في رواية بورغراف اخلاق امراء الالمان وغرائب احوالهم

٨ — ماري تيد عن وهي ملكة الانكليز (١٥١٦ — ١٥٥٣ م) بنت هانري الثامن . وكانت مخالفة للاصلاحات والنظامات الجديدة شأن المستبدين من الملوك . فالف الشاعر فيها هذه الرواية

٩ — انجلو . اسم ملك ظالم من ملوك بادو في ايطاليا اتخذه الشاعر موضوعاً لروايته

١٠ — ماريون دولورم . غانية من غواني باريس كانت على عهد لويس الثالث عشر والكردينال ريشيليو الوزير الشهير فصورها الشاعر في روايته

١١ — اسمرالده . اسم نورية في باريس ولعلها من الاشخاص الموهومة واتخذها المؤلف عروساً لهذه الرواية التمثيلية ولقصة « نوتردام دوباري »

١٢ — امى روبسار

فهذا ما الفه فيكتور هوكو من الروايات التمثيلية وسماه درام . واكثر هذه الروايات منظوم ومنها ما هو نثر

نثر فيكتور هوكو

المنثور من كلام فيكتور هوكو على فنون كثيرة منها فن القصص المعبر عنها بالرومان ومنها الادب والفلسفة والانتقاد الادبي والتاريخ والرحلة والمراسلات والاقوال والاعمال والمشهودات ونحو ذلك

١ — فاشهر القصص التي الفها هي قصة البؤساء وذكرنا فيما سبق ان العلامة الفاضل شمس الدين سامي بك الفراشري — وفراشر قرية في ولاية يانيه من بلاد الارناؤد — ترجم جزءا كبيراً من هذه القصة للسان العثماني وسماه السفلاء ونشره بمطبعة مهران في الاستانة . ولسامي بك تآليف كبيرة مفيدة مثل قاموس الاعلام في ستة مجلدات ضخمة وقواميس صغيرة وكبيرة من التركية للفرنساوية ومن الفرنساوية للتركية وغير ذلك من المؤلفات النافعة العصرية .

أما الباعث على تأليف هذا الكتاب فهو ما ذكره المؤلف في مقدمته حيث قال :

طالما وجد عذاب اجتماعي بفعل القوانين والعادات ، طالما لم تحلّ الثلاث المسائل العصرية وهي الحط من كرامة الانسان بكثرة البؤساء وسقوط المرأة في العهر بسبب الجوع وفقردم الاولاد باشتدا برد الليل ، وطالما وجد في الناس جهالة وفقر فالكتب التي هي من جنس هذا الكتاب لا تخلو من الفائدة ....

وموضوع الكتاب ان رجلاً فقيراً يدعى جان فلجان كسر قفل الخباز وسرق رغيفاً ليطعمه لاولاد اخته الجياع فحكمت عليه المحكمة وفقاً للقوانين بالاشغال الشاقة والقي في الحبس الذي هو جهنم الهيئة الاجتماعية ولاقى من الآلام والمحن ما لاقاه على زعم النصارى المسيح بن مريم عليهما السلام تخليصاً للبشر من الخطايا . فكان جان فلجان فداء للاخلاق الانسانية . وبعد تحمله الآلام والمشاق الكثيرة صعد الى النور . وكان الاسقف ميريل وهو من اشخاص هذه القصة وعظ هذا الجاني بالصبر على المصيبة ووضع في نفسه المظلمة شعاعاً طفيفاً فاستنارت ثم توقدت وتوهجت فصور الشاعر ما اختلج في صدر هذا المحكوم عليه من الهيجان وعبر عن ذلك

بحدوث زوبعة عاصفة في قرعة الرأس . ومن اشخاص هذه القصة وابطالها البنت فوزيت والبوليس جافر وبين حالة العملة والشغال الذين يلجئهم الفقر والجوع الى ارتكاب القبائح والجرائم وحالة البنات الشغالات اللواتي صيرتهن المتربه من العواهر الفاجرات وصور الفقر المدقع والجوع القتال احسن تصوير . وفي هذه القصة أيضا اخبار كافروش وهو من رعاع باريس وما جرى له مع البوليس جافر وقد اشتهر خبرهما حتى ضرب بهما المثل . ومما ذكره المؤلف بطريق العرض في هذه القصة محاربة واترلو التي غنمها نابوليون الاول ووصفها بكلام شعري اشبه بالشعر الحماسي . وذكر أيضاً الفتنة التي حدثت في باريس سنة ١٨٣٢ أما البوليس جافر فجعله مثالاً للطاعة والقيام باعباء الوظيفة

٢ — نوتردام دو باري . وهي كنيسة باريس الجامعة سمى بها قصته لجريان حوادثها في هذه الكنيسة وفي اطرافها . وهي بنيان ضخم غايتا وفي وسط باريس بقرب نظارة الضبطية ونظارة العدلية أو الحقانية . وموضوع القصة عشق ضابط فرنساوي يدعى فوبوس لرقاصة نورية تدعى اسميرالده ورقابة راهب الكنيسة لها وخطف احد الاشقياء المدعو كازيمودو للبنت . فالموضوع بسيط عادي ومهارة المؤلف تظهر في تصوير الحالة التي كانت عليها باريس في القرون الوسطى ووصف ما فيها من الازقة المظلمة والطرق الغير المستقيمة ووصف أهلها ما بين بائع وتاجر وصانع وتلميذ وجندي وشريف ووضيع وهم يمرون امام الكنيسة أفواجاً أفواجاً ويروحون ويغدون في فنائها ويستظلون بظلها وصور جميع ذلك بصورة خيالية وهمية لطيفة تعجب القارئين وهي مؤلفة على اسلوب اللغة الرومانية

٣ — هان الاسلاندي . هي قصة مصورة للجمال الذي قد يكون في الشنيع كما صور محبة الوالدة لولدها وتهافتها على انقاذه من مخالب الموت في رواية لوكريس بورجيا رغما عن قساوة اخلاقها وسوء افعالها . وكما صور هذا المؤلف ايضا في رواية الملك يتسلى اشفاق الوالد على بنته وغيرته على ناموسها وسعيه في تخليصها من ايدي الملك مع ان هذا الوالد لا يغار على ناموس نفسه ولا على شرفها ولا يبالي في ارتكاب انواع الدناءة والمجون . ومن بديع الحكم التي في قصة هان الاسلاندي

ما ذكره في مقدمتها عن (نضج القريحة) قال :

في كل مصنف فكري مثل الدرام والشعر والرومان ثلاثة اشياء : ما شعر به المؤلف، وما نظر فيه المؤلف، وما تنبأ به المؤلف، فليكون الرومان (القصة) حسناً ينبغي ان يكون فيه كثيرٌ مما شعر به وكثيرٌ مما نظر فيه . وأما الشيء المتنبأ به فيلزم ان يظهرمن تمام الشيء الذي شعر به والشيء الذي نظر فيه بغير احتياج للحل وانما بالطبع والبداهة

فاذا انقضى الفصل ألاول من العمر وانحنت الجبهة على الكتاب والكتابة وشعر المرء باحتياجه لعمل شيء آخرخلاف الحكايات الغريبة التي يخوف بها النساء العجائز والاولاد الصغار واحتك بالحياة احتكاكاً اخلق ديباج شبابه، يعلم حينئذ ان كل ايجاد وكل اختلاق وكل تنبوء في هذه الصناعة ينبغي ان يكون اساسه مبنيًّا على الدرس والنظر والتفكير والعلم والقياس والمقابلة والتعقل الصحيح وكمال الدقة في تصوير الاشياء بحسب الطبيعة ونقدها نقداً خالياً من الغرض والهوى . فالالهام الحاصل من مراعاة هذه الشروط الجديدة لا يضيع شيئا من هذه الصناعة الادبيه وانما يكسب صاحبها نفساً عالياً وجناحاً قويًّا ويعرف الشاعر بالطريق التي يسلكها حينئذ . وجميع التخيلات الهوائية التي تخيلها في سني حياته الاولى تجمد على هيئة مخصوصة كما يجمد الجليد ويتشكل منها فكرة ورأي . فهذا الدور الثاني من حياة المصنف المتفنن هو الزمن الذي يؤلف فيه أحسن مصنفاته ويكون فيه شابًّا نضيج الرأي . فهذه هي الصحيفة الثمينة والنقطة العليا التي هي الاوج والساعة التي يشتد فيها الحر والضياء من وسط النهار واللحظة التي يقل فيها الظل الى اقل ما يمكن ويكثر فيها النور الى أكثر ما يمكن ..... اه

٤ — بوغ جارغال . حرر فيكتور هوكو هذه القصة وهو في السادسة عشرة من عمره وطبعها ثم صححها واعاد طبعها، وموضوعها انه في سنة ١٧٩١ اي في اثناء الانقلاب الكبير الفرنساوي كان في جزيرة سن دومينيك من جزر الانتيل الاميركانية عبد اسود يسمى بييرو يخدم عند اوربي من اغنياء المستعمرين فاحب ابنته مارية حبًّا شديداً وكانت بديعة الحسن والجمال ولها خطيب فاخفى العبد حبها ولم يبح لها

بشيء ولكنها كانت تلاحظ حنوه واشفاقه عليها وخطيبها كان يرى ذلك و يعجب من جراته على محبة خطيبته . ثم حصلت ثورة العبيد السودان على المستعمرين من البيضان وفي اثناء معامع الثورة خطف احد السودانيين مارية وذهب بها الى مكان بعيد فخرج خطيبها يفتش عنها فقبض عليه الثائرون وارادوا قتله واحضروه بين يدي بيرو وكان انتخب بوغ جارغال أي رئيساً للثائرين فحماه من شرهم وجمع بينه و بين خطيبته مارية . ثم ان بوغ جارغال ضحى نفسه لسلامة معشوقته وخطيبها وتخلصهما من ايدي العبيد الثائرين وسلم نفسه لاعدائه البيضان ليقتلوه وأداه حبه الى فداء روحه في سبيل محبوبته ومن هذه القصة يظهر اقتدار المؤلف في تصوير الوقائع مع حداثة سنه

٥ — آخر ايام المحكوم عليه بالقتل . الف فيكتور هوكو هذه القصة سنة ١٨٢٩ وصور فيها المحكوم عليه بالاعدام وهو في سجنه ينتظر حلول الساعة التي ينقضي فيها اجله وتزهق روحه . وعبر باسلوب بديع عن بكائه واضطرابه وانزعاجه و بين جميع ذلك باساليب شعرية لا وصفية فقط . فكان المؤلف كانه يشاهد جميع حركات هذا المسكين وارتجافه واختلاج عضلاته اختلاجاً طبيعياً لكسر سلاسل الحديد التي برجليه والحبل المربوط بيديه وكانه يفهم ما يقوم في ذهنه ويخطر في باله من الافكار المرعبة والتصورات الهائلة المدهشة فحرر جميع ذلك بكيفية مؤثرة محزنة يكاد القارىء يجن من تلاوتها . ففيكتور هوكو اجهد نفسه كثيراً في ابطال الجزاء بقتل النفس وسعى في الغاء هذا الجزاء بقلمه ولسانه وخطب في هذا الموضوع خطباً كثيرة في مجلس النواب وفي النوادي والمجتمعات ولكنه لم يوفق لرفع جزاء القتل من القانون الفرنساوي

٦ — المشتغلون بالبحر . ومقدمتها تبحث عن ارخبيل بحر المانش الفاصل بين فرنسا وانكلترا . فصور المؤلف في هذه القصة ما يكابده الملاحون والنوتية من العذاب الاليم وما يقاسونه من الاهوال والشدائد عند تخالف الهواء وحصول الانواء وتلاطم الامواج وانكسار السفن واشراف من فيها على الهلاك ووقوعهم فريسة للحيوانات البحر ومنها الحيتان الكبيرة ومنها ما يلتف على الانسان كما يلتف

الحبل ويشد وثاقه شدًّا محكماً حتى لايستطيع حراكاً ثم يعض بدنه كالعلقة ويمتص دمه ويسمى هذا الحيوان البحري (Pieuvre) هبراو (ر بيله) ومن البلاء الذي يقع فيه الفلاحون وصيادو السمك أيضاً رمال المستنقعات التي على سواحل البحار يحسبها الواحد منهم ارضاً يابسة فاذا وطئها غاصت رجلاه في الرمال وكلما تحرك حركة للتخلص منها زاد غطساً فيها الى رأسه ويستمر في هذا العذاب الاليم وهو يشاهد الموت بعينه ولا سبيل للنجاة حتى يغرق ويموت خنقاً . فوصف الشاعر مجاهدة المشتغلين بالبحر من افراد الانسان والمعترك الذي يحصل بينهم وبين الطبيعة أتم وصف مما يذكرنا بقصة السندباد البحري وما لاقاه في اسفاره

٧ — الانسان الضاحك . الف فيكتور هوكو هذه القصة سنة ١٨٦٩ وجعل حوادثها تجري في انكلترا على عهد ملكتها حنه (آن) المعاصرة للويس الرابع عشر في اوائل القرن الثامن عشر للميلاد . وموضوع القصة ان احد مرقصي الدبب كان يتجول في جنوب انكلترا ومعه دب سماه هومو ومركبة يسكن فيها ويجر اثقاله عليها كما يفعل مرقصو الدبب ليومنا هذا في اوربا ولم يزل منهم في جنوب فرانسا واكثرهم عثمانيون من اهل البوسنه والهرسك يحملون الباسابورط ويحتمون بقناصل الدولة العلية . فكان هذا الرجل يرقص دبه امام الجمهور ويضحكهم ويسليهم ويمتاش من احساناتهم وعطاياهم وكان صافي النية حسن الطوية مع كونه هزأة ومسخرة للناس . فالتقى ذات يوم بصبي مشوه الخلقة يحسبه الناظر اليه ضاحكاً على الدوام وكان هذا الصبي اختطفه سارقو الاولاد فشوهوا خلقته وتركوه وحده في البراري فالتقى ببنت حسنة الوجه ولكنها عمياء كانت خرجت مع امها فنزل الثلج عليهم وماتت امها من شدة البرد فاصطحب الصبي بالبنت وأحبها . ثم ان ذلك الرجل التقى بهما وتبناهما وحملهما معه في مركبته وطاف بهما البلاد وهو يسترزق من حرفته ويطعمها. ولم يزل على ذلك الى ان كبرا و بلغا أشدهما . فذهب بهما الرجل يوماً الى لوندرا فتعرف أناس الى الشاب واخبروه بانه ابن البارون فلانشاري من اعيان انكلترا ولورداتها فاستلم هذا الانسان الضاحك ثروة ابيه وملكه وصار عضواً في مجلس اللوردات بعد تلك السفالة التي

قضاها في سني صبوته وصار لا يتكلم في المجلس الا بالمحاماة عن البؤساء والتقريع على الاعيان والكبراء الذين لا ينظرون الى الضعفاء والمساكين وكان ذا لهجة شديدة ولكنها غير منتظمة فكان اذا أتم خطبته استولى الضحك على جميع الاعضاء ولم يقرروا اجراء شيء من طلباته

واورد المصنف في هذه القصة كثيراً من الحكم والفلسفة . من ذلك ما قاله عن الطبيعة والحياة : ...... بعد كل شيء فالانسان لا يعيش كثيراً والحياة قصيرة تمضي بسرعة . كلا ! بل هي طويلة !! لان الطبيعة اظهرت — ولو بشيء قليل — عنايتها بالانسان لكيلا تفتر همتنا في غضون ذلك ولكي يكون على بصرنا غشاوة فنرضى بالبقاء ولا نغتنم الفرص المناسبة لشنق انفسنا بما اعدته لنا من الحبال والمسامير ولذا أنبتت لنا القمح وانضجت العنب وانطقت البلابل وهي مرائية بانشادها اغاني السرور راخفائها الكمد . وارتنا في بعض الاحيان شعاعاً من الفجر فهذا ما يسمونه بالسعادة . وما هي الا طرف رقيق من الخير يحيط بكفن عريض من الشر . فهذا حظنا من الدنيا نسج الشيطان منه السداة واللحمة ولم يطرز الرحمن فيه الا اطرافه وحواشيه . اه

قال المعري مخاطباً الدنيا :

يموج بحرك والاهواء غالبة ... لراكبيه فهل للسفن ارساء
اذا تعطفت يوماً كنت قاسية ... وان نظرت بعين فهي شوساء

. . . .

فلا تغرنك شم من جبالهم ... وعزة في زمان الملك تعساء
نالوا قليلاً من اللذات وارتحلوا ... برغمهم فاذا النعماء بأساء

٨ — ثلاث وتسعون . سماه بذلك لانه بحث فيه عن وقائع سنة ١٨٩٣ وقص فيه قصصاً حكمية فلسفية موضحة لحقيقة الانقلاب الكبير الفرنساوي وللسبب الحامل لاصحابه على الثورة ومقاومة بعض الاهالي للثائرين لعدم فهمهم المراد من الانقلاب ومن الاصلاحات الجديدة ولاعتقادهم ان الملك قوة الهية مفوضة للملك يفعل بمقتضاها ما يشاء برعيته فهم عبيده يتصرف بهم تصرف المالك في ملكه فبين

المؤلف ذلك باساليب بديعة يفهمها العوام والفلاحون وعرفهم بان القوة الحاكمة ينبغي ان تكون في الامة وأن سيد القوم يجب ان يكون خادمهم

وأما ما ألفه في التاريخ فهو :

١ — نابوليون الصغير : كتبه المصنف بعد لبس نابوليون الثالث تاج الامبراطورية وكان هو يستشيط من ذلك غضباً فتهور في الطعن فيه والحط عليه ولما طبع الكتاب جاء احد المتربصين بنسخة منه للامبراطور وكان في قصر سن كلو وهو في ضواحي باريس على نهر السين فنظر فيه طويلاً ثم التفت لمن حوله من الوزراء وامراء العسكرية وقال لهم باستهزاء وسخرية انظروا يا سادة هذا نابوليون الصغير ألفه فيكتور هوكو الكبير . فلما بلغ الخبر مسامع فيكتور هوكو هجاه بقصيدة بليغة لم أرَ لها مثيلاً في شعر أهل العصر الا قصيدة كمال بك كبير الشعراء عند الاتراك

٢ — تاريخ جرم : وهو تاريخ حادثة نابوليون الثالث سنة ١٨٥١ ألفه المصنف في خمسة أشهر ولم ينشر الا بعد ٢٥ سنة حينما سقط نابوليون الثالث ويقسم هذا التاريخ الى اربعة ايام : يوم المكيدة والكمين . يوم الحرب والنزال. يوم الذبح وقتل الاطفال . يوم الفوز بالنصر . ثم اتبعه بفصل خامس عنوانه يوم السقوط . فاوضح المؤرخ في هذا التاريخ صورة الجرم ثم بين القصاص واستنتج من ذلك وظيفة الفرنساويين وهي العدل والحق

« الرين » وهو عنوان كتاب صنفه فيكتور هوكو في الرحلة والسياحة وحرر فيه ما وجده في نفسه من التأثر والاحساس الباطني والانفعال بمشاهدة ضفاف الرين وهو نهر في اوربا ينبع من جبال الالب ويمر من بحيرة قونستانس وبمدينة بال ومايانس وقوبلينتس وقولونيا واوترخت وليدن ويصب في بحر الشمال ومما قاله في هذا التأليف عن الضمير والكائنات :

... لا شيء فيَّ يعارض كون الشجرة عالمة بثمرتها . ولكن من المحقق ان الانسان لا علم له بالمقدرة عليه . حياة الانسان وعقله هما على خاطر وهوى لا ادري

أي ماكنة مظلمة يسميها البعض عناية الهية والبعض الآخر يسميها صدفة . فهذه الماكنة أو الآلة تخلط وتمزج وتحلل كل شيء في الوجود . . وهي تخفي دواليبها في الظلمات وتعرض نتائج محصولاتها في رابعة النهار . يحسب المرء نفسه يفعل شيئاً آخر . فالتاريخ مملوء بذلك .....

ولكن بين هذا الاختباط يوجد قوانين . فالاختباط ما هو الا في الظاهر والانتظام في الباطن . فبعد انقضاء مدة طويلة ترجع الحوادث المدهشة التي فتحت عيون اجدادنا كما ترجع النجوم ذوات الاذناب من اعماق التاريخ المظلمة . فالفخاخ هي دائماً تلك الفخاخ بعينها والسقوط دائماً عين ذاك السقوط . والغدر دائما عين ذاك الغدر . والمهالك هي دائما تلك المهالك بعينها . فالاسماء تتغير والاشياء ثابتة

أما ما حرره فيكتور هوكو في المقدمة فهو :

١ — أدب وفلسفة ممزوج بعضها ببعض : وقد ذكرنا فيما سبق من هذا الكتاب تعريف الشعر وبانه لا يكفي وجود الاسلوب الحسن والشكل الظريف في البيت بل ينبغي ان يحتوي على فكر أو صورة أو احساس وشبه بيت الشعر ببيت النحل الذي يتخذه من الشمع والشعر فيه كالعسل

وقال ايضاً في تعريف الانشاء :

الانشاء هو الذي يخلد ذكر الشاعر ويبقى تأليفه . لأن حلاوة التعبير تزين الفكر كالمينا على السن

وقال في تعريف الواجب :

ما دام الممكن لم يفعل فالواجب لم يؤد . فهذا فكر من افكاره

ومنها أيضاً في الزواج :

الزواج هو تطعيم فيه امساك جيد أو ردىء

وقال في التغير والتقلب :

اذا قلنا عن رجل « رأيه السياسي لم يتغير منذ اربعين سنة » نكون مدحناه

مدحاً مذموماً . لان قولنا هذا يؤدي الى انه لم يحصل له تجربة في المسائل اليومية ولا حصل لفكره انعكاس ولا اشعاع على الحوادث . فهذا من قبيل مدحنا الماء بكونه راكداً والشجرة بكونها ميتة . وتفضيلنا ما في الصدف من سمك البحر على النسر الطائر . فبالعكس كل شيء متغير في الرأي . وفي الاشياء السياسية لا شيء مطلق على اطلاقه الا الاخلاق الباطنية لتلك الاشياء . فهذه الاخلاق هي من خصائص الوجدان وليست من خصائص الرأي ومتعلقاته . فرأي الرجل يمكن حينئذ ان يتغير تغيراً لا يمس بشرفه بشرط ان لا يتغير وجدانه . فالحركة سواء كانت تقدمية أو تأخرية هي في حد ذاتها حيوية ، انسانية ، اجتماعية . » اه

وهكذا يقال في صاحب الجريدة كما يقال في رجل السياسة . وقد رأينا في ما تقدم ان رقباء فيكتور هوكو عابوا عليه تقلبه في احزاب السياسة وتغير رأيه من الملكية الى الامبرطورية الى الجمهورية

٢ — وليم شكسبير : ومما ورد في هذا التأليف من الحكم ما ذكره عن التقدم والترقي قال :

فبطالة التقدم تدعى انقلابات . فاذا تمت الانقلابات اعترف الانسان بما يأتي وهو : ان النوع الانساني تألم وترضرض ولكنه مشى

فالتخريب هو الشغل والتعمير هو العمل (أي البناء كما في بناء الدار فان فيها تعميراً مثل رفع الجدران الجديدة وتخريب مثل هدم الجدران القديمة وحفر الاسس) فالتقدم يهدم باليد اليسرى . اما باليد اليمنى فهو يعمر . فاليد اليسرى تسمى القوة واليد اليمنى تسمى العقل . اه

ففيما ذكر من مؤلفات فيكتور هوكو كفاية لمعرفة ماهيتها ولا حاجة لذكر بقيتها

الخاتمة

لا ريب في ان فيكتور هوكو من اكابر الشعراء الذين نبغوا في العالم الانساني كله في قديم الزمان وحديثه . وهو عند الفرنساويين شيخ الطريقة الرومانية والشعر الغرامي المعروف باسم « ايريك » . كما انه من فحول القصاصين ومؤلفي الروايات التمثيلية المشهورة باسم « درام » . غير ان الطريقة الرومانية التي كان لها المقام الاول في صناعة الادب سقطت بظهور الطريقة الحقيقية التي امامها اميل زولا . وروايات فيكتور هوكو التمثيلية لم تبلغ درجة الاعجاز لا بالنظر الى المؤلفات السابقة عليها . ولا الى المؤلفات اللاحقة لها من هذا النوع . لعدم كشف فيكتور هوكو اسرار القلب الانساني واظهار ما فيه من الاحساس الحقيقي . ومع ذلك فهو لم يزل امام الشعر الغرامي ومجدد اساليب النظم والنثر ولذا لقبوه بابي الشعر العصري واقتفى الشعراء اثره وسلكوا مسالكه . وكان الباعث على شهرته في العالم المتمدن كله من اوربي واميركي وما يلحق بهما ثلاثة امور : احدها سياسي وثانيها ديني وثالثها علمي :

نبغ فيكتور هوكو في عصر الانقلاب والتجدد وطال عمره وكثر عمله . وكان لقومه الحظ الأوفر من التقلبات السياسية والتبدلات الاجتماعية واستوقفوا نحوهم انظار العالم المتمدن باسره . فكان هذا الشاعر لسان حال الامة وترجمانها في كل انقلاب حدث فيها وتبدل طرأ عليها وغير حكومتها من ملكية مطلقة الى جمهورية مفرطة ، الى امبراطورية ديمقراطية ، الى ملكية مقيدة بقليل أو بكثير من القيود ، الى جمهورية ثانية ، الى امبراطورية ثانية ، ثم الى جمهورية ثالثة . فهذه التقلبات هيجت الافكار العمومية وكثرت الاحزاب السياسية ودعت الى استماع قول الشاعر الحكيم والتمثل باشعاره في نوادي السمر الادبيـة والسياسية على اختلاف الاراء وتبدل المشارب . ومتى تحدث أهل العاصمة بامر سارت الركبان بحديثهم الى الولايات واطراف المملكة ثم فشى في الممالك المجاورة وجسمه البعد في المخيلات فاصبح صداه في الخارج اشد من صوته في الداخل . وبعد ان استبد نابوليون الثالث بالحكم مال لابهة الملك وعظمة السلطنة وتفاخر بالصيت والشهرة واشتد حرصه

على السمعة في البلاد الاجنبية . وانتشرت اللغة الفرنساوية على عهده في اكثر الممالك المتمدنة وصارت اللسان الرسمي المتداول بين الدول في المناسبات الديبلوماتية وفي الاجتماعات السياسية والادبية وفي قصور الملوك والامراء وفي حفلاتهم وسهراتهم ومراقصهم وعلى موائد ضيافاتهم وفي تحرير المراسلات والمعاهدات كما اصبحت اللسان الرسمي في نظارة الخارجية العثمانية وفي كثير من دوائر الدولة العلية ومعاملاتها ولم تزل الى يومنا هذا

فلما اقترن اسم فيكتور هوكر باسم نابوليون بسبب مدحه نابوليون الاول وهجوه نابوليون الثالث زاد شوق الناس للاطلاع على اشعاره وقصصه في داخل فرنسا وخارجها وراجت بضاعته في الادب فلم يدع باباً من ابواب الشعر الا طرقه ولا مسألة الا بحث فيها . ثم ساعدته الظروف بالانتصار على نابوليون الثالث بعد حرب السبعين الالمانية وتشكل الجمهورية الثالثة فزاد ذلك في اهمية الشاعر وفي انتشارشعره وبالغ رجال الجمهورية في الاحتفاء به والاحتفال له كاحتفال الامبراطورية بشخص الامبراطور

أما السبب الثاني لشهرته فهو سهولة اشعاره ووضوحها وتصويرها المسائل العظيمة والافكار الدقيقة . فاظهر بشعره فرحه وسروره بنعمة الحياة وابتهاجه بالمخلوقات . ورأى في امنا الدنيا بقرة حلوباً تدور على ابنائها بلبن سائغ للشاربين وتكلم على افراح العائلة وزينة البيوت بالاولاد ولذة اجتماع الاهل على المائدة ومحبة الوالدين وحنوهما . وحضَّ على الاحسان للفقراء والمساكين والشفقة عليهم وبين اعتقاده بالله الغفور الرحيم ورجاءه بتقدم نوع الانسان في الحضارة و بتحسن الحياة البشرية والمعيشة الانسانية بسبب انتشار الافكار الجديدة وتغلب الحق رويداً رويداً على القوة والنور على الظلمة حتى تتساوى الناس في الحقوق ويرتفع عنهم الضغط والاستبداد ويزول من بينهم الظلم والاستعباد وينشر العدل ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ..... فجميع ذلك مما يرغب الجمهور في تلاوة اشعاره وتعليمها للاولاد ونشرها في البيوت بين النساء والبنات . بخلاف اشعار المعري التي لا يذكر فيها الا بخل أم دفر على بنيها بالحقوق ومبادرتهم لها بالعقوق .

ولا يرى بقرة فيكتور هوكو تجود الا بنسم قطيب أي ممزوج بحلاوة . ومع غنى المعري وثروته لم يلتذ بالمال والبنين ولا بشيء من زينة الحياة الدنيا وزهد في اكل اللحوم وشرب المكيفات وعمي بصره عن مشاهدة المناظر الطبيعية والرياض النضرة وحيث كان لفيكتور هوكو اعتقاد ثابت في الله ورجاء كبير في حسن المستقبل وارتقاء الانسان الى دار السعادة عرف وظيفة الشاعر وبين ما يترتب عليه وعلى كل عاقل مفكر في الامر من نشر الحقائق بين قومه وابناء لسانه وزعم ان الشاعر ينبغي ان يكون رسولاً للامة ونوراً يسعى بين يديها ليهديها الصراط المستقيم فكاني بالمعري يقول له :

واخو الفطانة في اختياله . كانهم لقوم انبياء

ولم يكن فيكتور هوكو يهودياً ولا نصرانياً وتبرأ من اصحاب هذين الدينين وقال بأنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً واوصى بعدم دفنه على سنن واحد منهما و بعدم حضور احد من رهبان النصارى ولا من احبار اليهود في جنازاته . كما انه لم يكن يعرف تحقيقة الدين الاسلامي ولا امعن نظره في آيات القرآن لما قدمنا ذكره من الاسباب وهو عدم توسع دائرة المعارف الاسلامية في عصره . والذي ذكره في شعره من القرآن هو امثال قليلة نقلها عن غيره بدون ان يبحث فيها بفكره ومع ذلك ففيكتور هوكو موحد اعترف في كثير من اشعاره باعتقاده بالله وحسن رجائه باليوم الآخر واهتدى للتوحيد بنظره في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار كما اهتدى ابراهيم جد الانبياء عليه وعليهم السلام : « واذ قال ابراهيم لابيه آزَرَ أتتخذ أصناماً آلهةً إني أراكَ وقومكَ في ضلالٍ مبين . وكذلك نري ابراهيم ملكوتَ السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفلَ قالَ لا أحبُّ الآفلين . فلما رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريءٌ مما تشركون . إني وجهت وجهيَ للذي فطر السموات والارضَ حنيفاً وما أنا من المشركين . »

وهكذا قال فيكتور هوكو لقومه اني بريءٌ مما تعبدون . فلم يكن مشركا بالله

ولا كان منكراً جاحداً نكار الشاعر فولتير وجحوده بل ربما كان حنيفاً . والحنيف هو الذي يؤمن بالله ولا يتخذ شكلاً مخصوصاً للعبادة وكان منهم اناس في جزيرة العرب قبل الاسلام مثل ورقة بن نوفل وغيره . فاذا امعنا النظر في كلام فيكتور هوكو نراه من الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض . ونراه ايضا كثير البغض في الجبابرة المستبدين ويدعو الناس الى عدم اتخاذ ارباب من دون الله وقد ورد في القرآن الكريم في سورة آل عمران وهي السورة الثالثة والآية ٦٠ .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم ؟ وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده افلا تعقلون . ها انتم هولاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وانتم لا تعلمون . ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيُّ والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين . » انظر الى بلاغة هذا الكلام وتأمل قوله ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله تجد جميع الادباء من قديم وحديث ومن عربي أو اعجمي عالة عليه في هذه البلاغة التي وصلت اعلى الدرجات وهي المعبر عنها في صناعة الادب بالاعجاز . ولقد ورد لفيكتور هوكو كلام متشابه يدل على حيرته والحيرة مقام من مقامات العلم بالله ولكنه لم يفتر عن القول بأنه موجود موجود موجود . ولما ماتت بنته وأشتد حزنه سب الله عدواً بغير علم ثم رجع وأستغفر لذنبه وشبه نفسه بالصبي الذي غضب ورمى البحر بحصاة . فهو لم يضر البحر في شيء ولكن فعله دليل على سفاهته وحمقه . فمثل الله كمثل البحر ولله المثل الاعلى : قال الحكيم الفيلسوف ارنيست رينان عن فيكتور هوكو وعن فولتر بأنهما سارا من قطبين متخالفين ولم يتلاقيا الا على محبة العدل والانسانية

والباعث الثالث على شهرة فيكتور هوكو هو كثرة عمله وغزارة معارفه . عدا معرفته بدقائق اللغة الفرنساوية و بعلم القوافي والعروض والموسيقى وما يلزم للشعر

وكان حكيماً فيلسوفاً يضع كل شيء في موضعه وكل معنى في قالبه ولم يغب عن علمه شيء من التاريخ والجغرافيا واسماء البلدان وله اطلاع على العلوم الرياضية وجميع المسائل الاجتماعية وكليات القوانين البشرية والسياسية . وله اقتدار عجيب في التخيلات والتصورات والاختلاقات . واذا نظر في شيء تمكن من رؤيته بعين لم يتيسر لغيره من الشعراء الرؤية بها . فوقف على كنه الاشياء وحقيقتها وعلى جميع ما يعرض لها من الصور والاشكال والالوان وبقية الخواص الظاهرة والباطنة . واذا ذكر اسبانيا مثلاً لم يترك فيها مدينة الا وصفها بالوصف اللائق بها سواء كان وصفاً جغرافياً أو طبيعيا أو تاريخيا بالنظر لمن اشتهر فيها أو لما ينبت في ارضها أو لمرآها الطبيعي ومنظرها الخارجي وذكر كذلك كثيراً من مدن فرنسا وايطاليا وقال في جبل نارها فيزوف

نابولي مرساها معطر بالازهار يقف فيه فصل الربيع ولا يمرّ
وجبل فيزوف الملتهب بالنار يغطيه بتاج متوقد
كانه فارس من فرسان الحرب كثير الغيرة والحسد شهد عرساً
فحسد اهله على افراحهم ورمى بقلنسوته الحمراء وبسط ازعاجهم .

ولا يخفى ان ضباط العساكر الفرنساوية يزينون قلنسواتهم بالريش الحمراء وهي على هيئة جبل النار في حالة اشتعاله وتصاعد الدخان واللهيب من جوفه . ومن عادة الاسبانيين اذا طربوا برؤية وجه حسن اوسماع نغم أو حضور مناطحة الثيران والبقر رموا بقبعاتهم الى الارض ونخروا نخرة او تأوهوا . وقد شاهدت هذه العادة في شباب بعض المدن الشرقية والسورية ولعلهم اخذوها عن الاسبانيين بواسطة اليهود الذين لم يزالوا في بلاد الشرق يتكلمون اللغة الاسبانية رغماً من كل ما اجراه الاسبانيون فيهم من النفي والاجلاء والتعذيب في محاكم الانكيزيسون . فهذه الابيات على حد قول الشاعر العربي في حمص الاندلس وهي اشبيلية :

غدا النهر عقدك والطود تا جك والشمس اعلاه ياقوته

وتقدم ذكر الابيات فيما سبق

فهذا مثال لاساليب فيكتور هوكو وتشبيهاته وكان له ولع بالامور العظيمة والمقامات العالية والمناظر الواسعة والمعاني الدقيقة فمرف لج البحر الذي لا يرى ساحله وبعد الفضاء الذي لا تدرك نهايته وقلد اصوات الاشياء ووصف الجمدات وصفاً يخال منه للقارئ انها حية تنطق . ولذا قالوا بأن فيكتور هوكو انطق الجماد ونفخ فيه بأساليبه الشعرية روح الحياة . وله ابتكارات بديعة وتشابيه ظريفة وتعبيرات لطيفة . ونجد لما ورد في كلامه من التشبيه والتخييل والبديع امثالاً كثيرة في الشعر العربي والاندلسي تكلم عليها الباقلاني فيإعجاز القرآن والجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع في جريدة المنار ومن سلك مسالكهما من علماء اللغة والبلاغة . ولكن فيكتور هوكو يفوق بسعة الاطلاع والاحاطة بالمسائل . واكثر شعراء العرب انحصرت اقواهم في الدائرة الذين هم فيها فلم يخرجوا منها ولا تعدوا الاساليب التي وضعها شعراء الجاهلية . والذين خرجوا عن تلك الاساليب واتسعت مداركهم قليلون مثل المتنبي والمعري الذي تكلم على كثير من المسائل الاجتماعية والسياسية ونادى بالحرية والمساواة بين افراد البشر وبين ماهية الحق والعدل وشرح كثيراً من المسائل الفلسفية واظهر شعوره واحساسه بالوسط الذي القينا فيه فكان سجناً لنا لا خلاص منه الا بالموت . فهو متحير في هذه العقدة التي أضلت الادباء في حلها

ثم ان اهل النقد الادبي من بلغاء الافرنج يقولون نعم ان فيكتور هوكو انطق الجماد وتوصل باساليبه الشعرية الى وصف المناظر الطبيعية وتصوير العصور الخالية والهيئة الاجتماعية باحسن تصوير وابدع وصف . فهذا لا ينكر ولكنه لم يتوصل الى معرفة باطن القلب الانساني ولا لايجاد اوصاف تامة ولاحياة طبيعية للاشخاص الذين اختلقهم على مرسح التمثيل . ولذا لم يكن اوحد الادباء في تأليف روايات الدرام . فهو وان انطق الجماد لكنه اخرس البليغ . مثال ذلك ان ابدع ما في رواية ايرناني التمثيلية هو الفصل المنظوم على لسان الدون قارلو الذي انتخب امبراطوراً لالمانيا وتلقب بشارلكين . فهذا الفصل هو بيت القصيد من هذه الرواية كما ان فصل القبلة أو النافذة هو بيت القصيد من رواية (سيرانودو برجيراق)

التي اشتهر بتأليفها شاعر العصر ادمون روستان وقد انتخب بالامس عضواً في الاكادمية الفرنساوية وموضوع هذا الفصل ان المعشوقة وقفت في النافذة (البالكون) وعاشقها واقف تحت النافذة يغازلها ويطلب منها مقبلة وهو يتلعثم في كلامه. ولم يدر كيف يكلمها بلسان الادب. فالشاعر سيرانو دوبرجيراق خاطبها عنه وافصح في تعبيره عن حقيقة الالم والتقبيل حتى لانت بكلامه وانجذبت اليه. وهنالك تظهر قوة البيان وان من البيان لسحرا. فكلام شارلكين في رواية ايرناني هو من كلام الملوك فينبغي ان يكون من ملوك الكلام فلما حان زمن انتخاب الامبراطور وترشح الدون قارلو لهذا المسند العظيم وحصلت المؤامرة على قتله بدسائس فرانسوا الاول ملك فرانسا المتطاب ايضاً لهذا المسند واتفق المؤتمرون على الاجتماع في الغار الذي فيه قبر شارلمان بمدينة اكس لاشابل من المانيا. اكتشف الدون قارلو اي شارلكين على مؤامرتهم وسبقهم الى ذلك الغار وكان الهيام بمحبوبته قد اخذ كل مأخذ واستولى على جميع حواسه فكان يتلهب شوقاً وغراماً اليها وقد قربت ساعة الوصال. ومعشوقة الملوك كما لا يخفى هي المملكة ولا يحبون احداً سواها ويضحون كل عزيز عليهم في سبيلها اذ لا اعز منها عليهم لا دين ولا ولد ولا زوجة ولا اب. فكم قتل الوالد ابنه والابن اباه للتوصل للملك كما ان معشوقة الراهب العابد هي الكنيسة وزوج الراهبة العابدة وحبيب قلبها هو السيد المسيح عليه السلام. وكذا مقال في الهائمين بحب الله والمفتونين بجمال نبيه المصطفى عليه السلام. ونظموا في ذلك القصائد والدواوين البديعة. ففيكتور هوكو شخص في رواية ايرناني جميع ذلك وعند ما يرتفع الستار عن هذا الفصل من الرواية يرى الحاضرون الغار الذي فيه قبر شارلمان وينزل اليه تحت الارض بدرج متصل الى بهو كبير عليه قبة وفيه مخدع جعل فيه قبر شارلمان ويظهر على المرسح شارلكين بلباسه الملوكي متمنطقاً بسيفه تلوح على وجهه علائم الاهتمام فيزور القبر ويتكلم وحده بما يدور في خلده ويخطر في باله وينظر الى التاريخ نظرة عامة والى الذي ناله شارلمان بلبسه تاج قياصرة الرومان فتتوق نفسه وترتفع حواسه ويرغي ويزبد كالبحر العجاج المتلاطم بالامواج. فالحاضرون تشخيص الرواية لا يرون فيها عيباً ولا نقصاناً واما اهل

النقد الادبي وهم ارباب الذوق في الكلام الذين اعتادوا التفريق فيه بين الغث والسمين — كما اعتاد ارباب الذوق في الخمور التفريق بين خمر واخرى لكثرة ذوقهم وطوافهم على معاصر الخمر وعلى الاقبية المخزون فيها أيضاً بوظيفتهم وصنعتهم التجارية — يقولون نعم أن شارلكين في هذه الرواية هو بيت القصيد وهو من ملوك الكلام ولا ننكر فصاحته و بلاغته وانما عيبه عندنا هو عدم وجود الروح فيه . فهذه النفس الناطقة التي ارانا اياها الشاعر على مرسح اللعب والتشخيص هي نفس المؤلف أي نفس فيكتور هوكو وليست نفس المشبه به وهو شارلكين فالحماسة التي اظهرها المؤلف في شعره ليست بطبيعية ولا هي حقيقية بل هي عندية أي من عند الشاعر ولم تبنَ على الحجج والبراهين الادبية التي اشترطها اصحاب الطريقة الحقيقية وسماها اميل زولا (دوكيمان) . فاصحاب هذه الطريقة الجديدة يلومون فيكتور هوكو على تعظيمه الامور و يشبهون قريحته بمرآة مكبرة تكبر الشيء المعكوس فيها وتجسمه تجسيماً خارجا عن الحقيقة وعن العرف والعادة . ومن عادة فيكتور هوكو ارخاؤه العنان للقوة الواهمة والخيالية واذا نجد في مؤلفاته مثل كازيمودو ومثل الرجل الضاحك من الاشخاص الموهومة التي لا توجد الا في كتاب الف ليلة وليلة وما كان على نسقه

ومما انتقد فيه على فيكتور هوكو من جهة الاخلاق تبدل رأيه السياسي وتقلبه فيه ذات اليمين الى ذات الشمال ومن حزب الملكية الى حزب الجمهورية . ورأينا فيما تقدم جوابه على هذا الاعتراض بقوله ان مدحنا الرجل بالثبات على رأي واحد في السياسة مدة طويلة ليس بمدح مستحسن وانما هو كمدحنا الماء الراكد وتفضيلنا اياه على الماء الجاري . والجواب الصحيح على هذا الاعتراض أن فيكتور هوكو مع ظهور معجزاته في المعاني ما هو الا بشر غير معصوم تميل نفسه الى شهواتها التي منها التقرب من الملوك واولي الامر . ولكننا نجده محافظاً على الاعتدال في امر الشهوات النفسية صبوراً متجلداً عند الحاجة وبينما نرى امثاله واقرانه من ادباء باريس لا يقنع أحدهم بعشر نسوة نجده اقتصر هو على اثنتين أم اولاده والممثلة البارعة جوليت . ومن غريب امر هذا الشاعر انه خالف القاعدة المطاردة في عظماء الرجال . فكان

في شبابه من حزب الملكيين المحافظين على بقاء الحال على ما كانت عليه فانقلب من ذلك رويداً رويداً حتى صار في شيخوخته من حزب المفرطين في محبة الحرية المائلين للانقلاب والارتقاء شديد المدلوة للاستبداد والمستبدين . وهذا خلاف المطرد في اخـلاق الرجال فانهم كلما تقدموا في السن عدلوا عن حب التجدد والانقلاب والحرية ومالوا للبقاء على حالتهم الراهنة . ومن الاخلاق التي نهى عنها في شعره واتى بمثلها في عمله تربية الاطفال فانه حرر كتباً ونظم اشعاراً كثيرة في حقهم ولكنه لم يحسن ذلك بعمله وفعله . ومع علمه بان عصا التأديب من الجنة لم يستعملها في تربية اولاده ولا احفاده واطلق العنان لشهواتهم فاحدى بنتيه عرّضت نفسها للخطر فماتت هي وزوجها غرقـاً . والثانية تزوجت على غير رضاه وسافرت للهند فنكبت واصيبت بعقلها . وحفيدته لم تطق معاشرة زوجها ولا قدرت ان تصبر على حكمه ففارقته وحكم بينهما بالطلاق . وابنه افرط في اللذات فمات فجأة عند صاحبة له في بوردو ولم يزل الناس يشيرون بالبنان الى البيت الذي مات فيه . ومما يشابه ذلك ما انتقد فيه على امام الادب عند العثمانيين وهو نامق كمال بك وكان كثيراً ما يلهج بالاصلاحات والحرية فلما عين متصرفاً لجزيرة رودس انتقد عليه رقباؤه بانه لم يجر فيها من الاصلاحات سوى رفع الكلاب من ازقتهـا وشوارعها . ومثل ذلك ما ينقل من ضيا باشا وهو من مشاهير الادبا العثمانيين وكان رئيس الكتاب في المابين الهمايوني على عهد ساكن الجنان السلطان عبد العزيز ثم نال رتبة الوزاره وعين والياً لاحدى الولايات وله نظم كثير ودواوين شعر من ذلك نظمه قصة المولد الشريف و (ترجيع بند) في التصوف ومحاسن الاخلاق وكان لاشعاره رواج في الزوايا والتكايا وفي المدارس والجوامع . واتفق ان احد طلبة العلم الصلحاء في مدينة بروسة كان كثير الانشاد لها والترنم بها فعاهد نفسه اذا ذهب الى الاستانة ليزورن هذا الشاعر الفاضل لا لطلب مأمورية أو احسان منه وانما لمجرد التبرك بلثم يده والاسترشاد بنصائحه والاقتباس من فضائله . فلمـا جاء الاستانة زار الشاعر الوزير في بيته حتى اذا قارب غروب الشمس ودخل وقت الكراهة فرأى ما لا يحب رؤيته العلماء المتعففون عن لذات الدنيا ونعيمها فندم على

سمعه وخرج وهو يقول « الشعراء يقولون ما لا يفعلون

اما الثروة التي تركها فيكتور هوكو فقدرت باكثر من ثلاثة ملايين فرنك ورث بعضها ولدا ابنه وهما حنه وجورج . والبعض الآخر ورثته بنته اديل (عادله) التي تزوجت على غير رضاه واصيبت بخلل في عقلها . وفوض أمر تنفيذ وصيته الى اوغوست فاكيري الشاعر وهو اخ لزوج ابنته الثانية التي غرقت مع زوجها والى الاديب بول موريس واوصاهما بنشر ما لم يطبع في حياته من مؤلفاته

« انتهى الكتاب »

حررت هذا الكتاب في بوردو سنة ١٩٠٢ م وقدمته لأمي ايضاً ببعض ما لها عليَّ من الحقوق ورجائي بأن لا تحسب اغترابي عنها من العقوق



فهرست

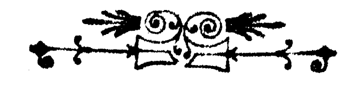
فيكتور هوكو وعلم الادب

الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في آداب الافرنج

مؤلفات فيكتور هوكو

الخاتمة

تم الفهرست



مؤلفات جرجي زيدان

صاحب الهلال

١ — مؤلفاته التاريخية

البريد		الثمن	
	٤	٤٠	تاريخ مصر الحديث مزين بالرسوم جزآن (طبعة ثانية
	٢	٢٠	« الماسونية العام
٢٠		٣	« اليونان والرومان (مختصر)
	١	٤	« انكلترا مزين بالرسوم
	٥	٧٥	« التمدن الاسلامي ٥ اجزاء مزين بالرسوم
	٢	٢٠	« العرب قبل الاسلام جزء اول
٢٠	١	٨	التاريخ العام الجزء الاول
	٥	٤٠	تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر مزين بالرسوم جزآن مجلدان (طبعة ثانية)

---

٢ — مؤلفاته العلمية واللغوية وغيرها

البريد		الثمن	
		٨٠	الهلال — مجلة علمية تاريخية ادبية تصدر مرة في الشهر مزينة بالرسوم قيمة اشتراكها بالسنة للقطر المصري والسودان
		١٠٠	وقيمة اشتراكه بالسنة للخارج
	٥	٦٠	سنو الهلال من السنة الاولى الى الخامسة عشرة ثمن السنة
	٥	٨٠	ومن السنة السادسة عشرة الى الاخيرة « «
	١	١٠	الفلسفة اللغوية (طبعة ثانية)
٢٠		٥	تاريخ اللغة العربية
		٢٠	« آداب اللغة العربية الجزء الاول والثاني . ثمن الجزء
٢٠		٤	انساب العرب القدماء

البريد	الثمن	
٢	١٢	علم الفراسة الحديث مزين بالرسوم

---

٣ — سلسلة روايات تاريخ الاسلام

البريد	الثمن		
٣	٢٠	« ١ » فتاة غسان جزآن	طبعة ثالثة
٢	١٠	« ٢ » ارمانوسة المصرية	« «
٢	١٠	« ٣ » عذراء قريش	« «
٢	١٠	« ٤ » ١٧ رمضان	« ثانية
١ ٢٠	١٠	« ٥ » غادة كربلاء	« «
١ ٢٠	١٠	« ٦ » الحجاج بن يوسف	« «
١ ٢٠	١٠	« ٧ » فتح الاندلس	« «
١ ٢٠	١٠	«٨» شارل وعبد الرحمن	« «
١ ٢٠	١٠	« ٩ » ابو مسلم الخراساني	« «
١ ٢٠	١٠	«١٠» العباسة اخت الرشيد	« «
١ ٢٠	١٠	«١١» الامين والمأمون	
١ ٢٠	١٠	«١٢» عروس فرغانة	
١ ١٠	١٠	«١٣» احمد بن طولون	
١ ٢٠	١٠	«١٤» عبد الرحمن الناصر	
١ ٢٠	١٠	«١٥» الانقلاب العثماني	

---

٤ — رواياته الاخرى التاريخية

البريد	الثمن		
٢	١٠	اسير المتمهدي	طبعة ثالثة
١ ٢٠	٨	استبداد المماليك	« ثالثة
١ ٢٠	٨	المملوك الشارد	« ثالثة
١ ٢٠	٦	جهاد المحبين ادبية غرامية	« ثانية